المسافة بين التنظير النحوي والتطبيق اللغوي

«بحوث في التفكير النحوي والتحليل اللغوي»

الأستاذ الدكتور

خليل أحمد عمايرة

أستاذ علم اللغة والنحو العربي سابقاً في:

جامعة اليرموك - الأردن

جامعة الملك عبدالعزيز - السعودية

جامعة الإمارات العربية المتحدة

مستشار في البنك الاسلامي للتنمية

وائل

المسافة بين التنظير النحوي والتطبيق اللغوي

(بحوث في التفكير النحوي والتحليل اللغوي)

تأليف
الأستاذ الدكتور خليل أحمد عمايره
أستاذ علم اللغة والنحو العربي سابقاً في:
جامعة اليرموك - الأردن
جامعة الملك عبد العزيز - السعودية
جامعة الامارات العربية المتحدة
مستشار في البنك الاسلامي للتنمية

الطبعة الأولى
٢٠٠٤

رقم الايداع لدى دائرة المكتبة الوطنية : (٢٠٠٣/٨/١٦٧٨)
٤١٥
عمايرة ، خليل أحمد
المســـافة بيـــن التنظـــير النحوي والتطبيق اللغوي: بحوث في التفكير النحوي والتحليل اللغوي/ خليل أحمد عمايرة . عمان: دار وائل، ٢٠٠٣.
(٥٥١) ص
ر.إ. : ٢٠٠٣/٨/١٦٧٨
الواصفات: اللغة العربية / قواعد اللغة / اللسانيات

* تم إعداد بيانات الفهرسة والتصنيف الأولية من قبل دائرة المكتبة الوطنية

ISBN 9957-11-339-9 (ردمك)

* المسافة بين التنظير النحوي والتطبيق اللغوي
* الأستاذ الدكتور خليل أحمد عمايرة
* الطبعـــة الأولى ٢٠٠٤
* جميع الحقوق محفوظة للناشر

تنفيذ وطباعة البرجي بيروت - لبنان
تلفاكس: ٢٧٢٢٢٥ ٠٠٩٦١١
خليوي: ٣٣٤٦٤٨ ٠٠٩٦١٣

دار وائــل للنشر والتوزيع

شارع الجمعية العلمية الملكية - هاتف : ٥٣٣٥٨٣٧-٦-٠٠٩٦٢
فاكس: ٥٣٣١٦٦١-٦-٠٠٩٦٢ - عمان - الأردن
ص.ب (١٧٤٦ - الجبيهة)
www.darwael.com
E-Mail: Wael@Darwael.Com

المحتوى

مقدمة

ليس من اليسير لباحث، أياً كان، يرغب في تقليب النظر باستمرار في أفكاره وأعماله، وفي ما يجده مخبأ بين سطور المصادر اللغوية الثرية، والمراجع الحديثة التي يحشد أصحابها انتباهه إليه، أو يتعلمه من ومضة فكرية يقولها أحد طلابه في قاعة الدرس، أو زميله ممن يشاركونه هموم تخصصه، وهما في حوار أو تبادل فكري، أو من قارئ يهديه فكرة نقدية بناءة من على بُعد آلاف الأميال في الكون القرية، أو في العالم الذي أصبح كالقرية، أن يعرف نقطة البداية، أو بداية الفكرة وروافدها، أو المساهمين معه فيها. ولست أبالغ إن قلت بأنني قد قضيت ربع قرن في العمل الجامعي الذي لم يمض فيه أسبوع واحد من غير تفاعل بناء، وتعلم وتعليم من كتاب أو تلميذ أو من زميل.

وقد وقفت في هذا الوقت من المشوار، وفي هذه المحطة من الطريق، ولدي الرغبة القوية في مراجعة ما كنت قد كتبت، لأخرج منه بخلاصة فكرية، أو بنظرية يقوم سقفها على أهم الأعمدة التي كنت قد أرسيت. وبينما أنا في هذا، إذ بأخي وصنو تفكيري، كما كان صنو طفولتي وشبابي، الأستاذ الدكتور إسماعيل عمايره، يطلب إليّ نسخة من معظم أعمالي لينشرها، لحسن ظنه في قيمتها مجتمعة، ولاسيما لطلبة الدراسات العليا. وقد صاحب هذا الطلب نظير له من طلبتي وزملائي في الجامعات الأردنية والسعودية، وفي الإمارات العربية المتحدة، ومن باحثين أحببت منهم صلة الرحم في العلم، فعرفتهم ولمّا نلتق بعد، في مصر التليدة، والمغرب العربي العريق، وفي بلاد الشام والعراق والسودان الحبيبة، وفي أمريكا وأوروبا والصين، ممن كان لهم الفضل في الاتصال بي، وتقديم كلمات الثناء، وأفكار البناء، مما يجعلني عن رد الثناء لهم جميعاً عاجزاً، وفي حقهم كلهم مقصّراً، ولجميلهم وحسن صنيعهم شاكراً، ولله في حسن جزائهم ضارعاً.

فوقعت الفكرة مني موقعاً حسناً، أجمع وأقرأ، وأتعلم وأصوب؛ ليبرز ذلك كله في المرحلة التالية إن أذن ربي.

وقد وجدت أن من الأفضل أن أضع قسماً من هذه البحوث في مجلد واحد، وأن أترك القسم الآخر لمجلد آخر؛ أن أضع القسم الذي فيه ما يهم الباحث الذي أريد الوصول إليه في وطننا العربي، وأن أدع إلى الثاني ما يهم الباحث المستشرق أو الباحث العربي في الغرب؛ لأنني على ما يصدر منشوراً ما أرغب في البناء عليه خلاصة تجربة، وفيه أود سماع قول القائلين. فجاءت بحوث هذا القسم في ثلاثة أضرب؛ لغوية نحوية تنظيرية، وتربوية تعليمية تطبيقية، وتحليلية تطبيقية في الشعر، وفي مختارات من كتاب الله العزيز. ولم أراع زمن نشر هذه البحوث في ترتيبها في هذا الإصدار، وإنما راعيت تسلسل لبنات البناء وفقاً لما يشدني، وقد يشد الباحث القارئ غير ذلك، فله طريقته التي انتظر منه نتائجها البناءة التي تجعل منه لي، ومني له العضد والساعد في ميدان يحتاج كل منا جهود الآخرين لخدمة هوية أمة تصارع بقوة تحديات لا أراها كانت يوماً أمام نظير لها هدفاً ووسيلة.

قلت في لحظة توقف على الطريق، في حوار ذاتي، أليس الأفضل من هذا أن أنصرف إلى الكتابة عن اللغة وتحديات العولمة، أو عن اللغة والتقنية الحديثة في عصر المعلوماتية وطغياتها، أو عن اللغة ومحاولات طمس الهوية؟!!!. ولكنني أجد أن البحث في الحديث يجب أن يعتمد بقوة على القديم، فلا بنيان بلا أساس أو تأسيس، ولا شجرة بلا جذور، ولا تنظير في الحديث بلا عمق صلة بالتراث القديم.

فاللغة وسيلتنا لأن نرى العالم من حولنا، وأن نسمع عمّا فيه، وأن نعبر له عمّا عندنا، فضلاً عن أن نجسد ما في أنفسنا من معان تتحول في حياتنا سلوكاً، وفي علاقة الآخرين بنا اقتراباً أو ابتعاداً؛ اجتماعياً أو سياسياً؛ فردياً أو جماعياً، تكشف لكل عن عقلية مقابلة أو قدرته أو ميلوه الفكرية، فتنسج بسلطانها السحري خيوط العلاقات بين الأفراد والشعوب، وبين الحضارات والأجيال المتعاقبة.

وإن مـــن يدرس اللغة العربية من غير تحامل أو انحياز ضدها، يجد أنها اللغة الأولـــى بيـــن لغـــات العالم التي وقفت أمام تحديات المحن في العصور المتتابعة، فازداد أهلوها ارتباطا بها، وتمسك بها الناطقون بها ممن تعلموها ليحملوا العقيدة التي تحملها، وربما بتقدير وتقديس أكثر من أهلها. فقد سجلت هذه اللغة بأمانة واقتدار حضارة أمة، وغـــيرت مـــن هويـــتها وانتمائها، ونقلت تاريخها في أيام مجدها وفي لحظات كبوتها، فارتفع خط بيان قوتها وانخفض بموازاة قوة أصحابها بين الأمم.

ولعلـــي لا أبـــالغ إن قلـــت بأن اللغة العربية في هذا العصر قد أخذت تعاني في مكـــان انحدارهـــا ثقـــل فشل أهلها في حمل رسالتها ورسالة فكرها أكثر مما كان عليه هـــؤلاء الأهـــل في أي عصر سلف، فقلّ مجيدوها، وكثر المتنكرون لها، وزادت مشاكل الأخـــذ بهـــا، وكـــثر نعيق البوم من المنادين بعدم قدرتها على متابعة التعبير عن العلوم الحديـــثة والمعلومـــات والتقنـــية باطراد مع زيادة عدد المؤتمرات والندوات والمجامع والتوصـــيات بضرورة دعمها والأخذ بأسباب النهوض بها، وكأنها قد أصبحت رمّة جمل عنـــترة أو لبـــيد بلا عنترة أو لبيد. فالابتكارات تزداد، والمصطلحات تتوالى، والإحساس بفقر العربية يشتد باطراد يتناسب مع ابتعاد أهلها عنها وجهلهم بها، والتفاصح بالرطانة بغـــيرها مـــن غـــير إجادة لهذه أو تلك. فابتعد أبناء العربية عنها، ومن ثمّ ابتعدوا من ثقافـــتها والالـــتفاف حولهـــا، مع أن كلاً منهم يدرك في داخله وفي كنه نفسه أنها لغة الإبانـــة، وعـــنوان الحضـــارة، وسجل التاريخ، ورمز الهوية، ورباط الفكر. ففرح دعاة العولمـــة بغلـــبة لغة العولمة، وبتجنيد أبناء اللغة العريقة لصناعة ثقافتهم بعيداً عن قيم حملـــتها ســـفينة لغـــتهم التي أثخنتها موجات العتاة من أبنائها الذين وقفوا في صفوف الآخريـــن، حـــتى أصـــبحت كـــتركة الـــرجل المريض، تتجاذبها التجمعات الإقليمية بين الفرنســـية والإنجليزية، وربما اليابانية بأجهزتها، أو الفلبينية بكثرة أبنائها في المجتمع العربي وشدة احتكاكهم بجيل الأمة، حامل الرسالة مستقبلاً. وانبثق عن هذا المأزق تيار آخـــر يدافع عن العربية من غير امتلاك آلية الدفاع، ولا صلة وثيقة بقاعدة التراث، بل الدفاع يصل أحيانا إلى حد التنكر والتدمير لآليات الإبداع والتطوير. ولكن الله قد أراد أن يكـــون لهـــذه اللغـــة فـــي كل عصر حُماة، قلوا أم كثروا، لا ريب أنهم في نهاية الأمر

واصلون إلى آفاق النجاح بالتكاتف والتعاضد، وبتضافر الجهود وتبادل المعارف والخبرات، وبإخراج المجامع على كثرتها من عزلتها، والجامعات على تزايدها من تنصلها من حمل رسالتها في الإبداع والابتكار وإعطاء الأشياء أسماءها الحقيقية بلغتها، لغة المبدع أو المبتكر.

لا ريب لدي في أن العربية أقدر لغات الأرض في التعبير الموجز المبين، والمثل لذلك من كتاب الله العزيز، ومن عربية من أوتي جوامع الكلم عليه وعلى آله أفضل الصلاة والسلام، بيّنٌ لا يجادل فيه حتى غير المنصفين. ولكني لا أشك أيضاً أننا بحاجة ماسة إلى صناعة أجيال تعي العربية، وتتقنها بتطوير مناهج تعلمها، وبحملها سليمة إلى كل بيت في المدن والقرى والهجر بوسائل إعلام تعرف مسؤوليتها وتؤمن بها وبضرورة تطوير آليات خدمتها.

لقد أخذ الإنسان في عصر المعلومات هذا يعيش في معطيات الترابط الغريب العجيب لحقول المعرفة الإنسانية والطبيعية، تتشابك الهندسة باللغة بالفيزياء بالطب بعلم الاجتماع، بمعطيات تاريخ الشعوب ولغاته وسجل مبتكراتها، مع إلغاء حقيقي، وليس مجازياً، لمعالم الحدود المكانية، وإلى حدٍّ كبير الزمانية أيضاً، تتحول فيه النبضة باليد أو الصوت إلى حرف منطوق أو منظور، يسمع أو يقرأ في لحظة الضرب على الآلة، على بعد آلاف الأميال من غير احتساب. فأخذ أبناء كل لغة يبنون مواقع للغاتهم، في سباق محموم، والعرب على أطراف الحلبة في أحسن الأحوال. يدرس القوم فلسفة اللغة، ويفكون أسرار إشاراتها للوصول إلى نظريات المعنى تيسيراً لأبناء اللغات، وإلى متعلميها، بناء على تشابك ما يصل إليه الفيلسوف والمنطق والرياضي والفيزيائي وعالم النفس وعالم التشريح والمهندس والخطاط والفنان، ونحن ما نزال نعيش في دائرة الصراع وتبادل التهم حتى بين المخلصين لفكر واحد، يختلفون في هل هناك علاقة بين اللغة وغيرها، فضلاً عن أن يأخذوا بما وصل إليه "الآخرون" مع أنهم يعلمون أن سلفهم الصالح قد بنى بعضهم أعمالاً موسوعية اشتملت على خلاصة هذه التوجهات جميعها في حدود مبتكرات عصرهم، من غير تحفظ أو تردد. ومنا من يرى أن العمل على تطوير أساليب تعليم اللغة، والاهتمام بجوهرها (المعنى) بجانب الاهتمام بمظهرها

(الحــركة الإعرابــية الإضمار والحذف والعامل ونتائجه)، هو خروج عن الخط السليم، وتــنكر لمنهج الأجداد بله الآباء، أو العكس. فكثر حفّاظ المتون والقواعد وقلّت قدرتهم علــى توظــيف مــا يحملون، بله تذوق ما بُني على هذه المتون من أساليب ونصوص، فضلاً عن إبداعها.

تسـمع بيــن حين وآخر من يرفع صوتاً ناشزاً بأن العربية قد أصبحت خــارج منظومة اللغات القادرة على مواكبة الأخذ بآلية التقنية الحديثة، وإن أمكن، فهي عسيرة إلــى حــد يدفــع إلــى الاســتغناء عن عنت استعمالها. والحقيقة أن العربية من حيث الاســتعمال التقني شأنها شأن غيرها من لغات الإنسان، ولكنّ بعض تلك قد ابتكر أهلها أدوات المعالجــة الآلية، فولدت الأداة بفكر صاحب اللغة الذي عبر عنها، وبرمج برامجه بــتلك اللغــة، وسارع كثيرون من أبناء الخريطة اللغوية العالمية بمواكبة الابتكار. وأما نحــن أبناءَ العربية، فقد استيقظنا متأخرين لاستعمال الآلة في العربية، ولكننا قد قطعنا مرحلة تكفي للرد على تلك الأصوات المرتفعة بسوء نية كان الارتفاع أم بغيره، فتحولت المكتــبة الورقــية تدريجــياً، وبسرعة أكبر مما كنت أتوقع، إلى مكتبة إلكترونية. وإنك واجــد ولا ريــب، عدداً كبيراً جداً من الكتب المصادر في دُمجت في أقراص مدمجة في مخــتلف الفنون والمعارف، ولكن المشكلة تكمن في قلة مستعمليها على الرغم من أنها أقــل بكثــير مــن نظيراتها في اللغات الأُخر. ويرجع ذلك إلى أسباب متعددة؛ اقتصادية، وتــربوية، وثقافــية، ... ... وغيرها، ولكن، لعل أهمها تكمن في الأسباب المنهجية في التعليم والإعلام.

إن الانصــراف لوضــع الــبرامج اللغوية الآلية بوضع قواعد اللغة مطبقة على نصــوص رفــيعة الأســلوب، تــتدرج في مراحل التعليم المدرسية، وتمكن المتعلم من التصــويب النحوي والصرفي والاتساع المعجمي، أو الدلالي المعجمي، سيسهم في بناء أجــيال قــادرة علــى الجلوس في قاعة الدرس الجامعي، يمسك كل منهم بجهازه الآلي ليكتــب ويلخــص ويحاور ويناقش بعربية سليمة، بقطع النظر عن مادة دراسته، سواء كانــت فــي التاريخ أم في الفيزياء أم في الهندسة أم في غيرها، فضلاً عن أن تكون في

أقسام اللغة العربية، ممن يتخرج قسم كبير منهم فيها، وهم بحاجة ماسة إلى العودة إلى نقطة البداية.

فنحن بحاجة ماسة إلى إعادة النظر في كيفية تناول لغتنا ورمز هويتنا في مراحل التعليم المتتابعة، كحاجتنا إلى تقويم، أو "تقييم" كما يقولون، طرق تعبيرنا عن رغبتنا في خدمة لغتنا بأن نخرجها من حيز التنظير والبراعة فيه إلى ميدان التطبيق والتباري فيه. لقد خدم علماؤنا من السلف الصالح لغة القرآن والهوية، خدمة تنظيرية تطبيقية تفوق آنذاك، أي جهد في أية لغة، وبوعي وإدراك لكل ما حولهم وما في مجتمعهم من علاقات سياسية واجتماعية واقتصادية؛ فابتكروا المفردة، والقاعدة، والنص، والمنهج التعليمي، ومهدوا الطريق لكل من أراد من أحفادهم مزيداً من الابتكار والإبداع. ولكن هؤلاء الأحفاد انقسموا كما تراهم بين حريص ومفْرِط ومفرّط، وبقي الإرث يئن، بحاجة إلى مزيد من الحراص عليه، الآخذين بتطويره، الساعين لخدمته بأمانة ووعي وإخلاص، وسيبقى الخير في هذه الأمة، في مختلف مجالات الحياة، لا ينقطع إلى يوم الدين.

قلت: إن أهم، بل إن واحداً من أهم عناصر تمكين العربية في ألسنة الناطقين بها ومتعلميها، من مواكبة العصر وحاجاته، والصمود أمام تحدياته الجادة، يكمن في العناية بمناهجه وعناصره الرئيسة: الكتاب والمعلم والطالب والإعلام. فلابد من تكوين مراكز للبحث العلمي اللغوي المركزي الجاد، الذي يلتقي فيه العلماء الجادون في حركة دائبة للتشخيص والتدقيق والبحث والعلاج والتطبيق والإشراف، وليس كما عليه الأمر حالياً؛ من مؤسسات لا يعلم من إحداها ما ينجزه الآخرون على مسافة محدودة منهم، فضلاً عمن هم في قطر آخر، أو في مؤسسات تكتفي بإصدار قراراتها وهي على يقين أنه لا يعلم بتلك القرارات إلا نفر قليل. إن البحث في العربية بحاجة إلى ثورة في النفوس والمناهج والإعلام، ورسم استراتيجيات واضحة صلبة تقود معطياتها إلى نتائج سليمة واضحة. ولا أشك أو يداخلني ريب، ومن واقع تجربة عميقة انصرفت إليها في السنوات الخمس الأخيرة، (1998 ـ 2002م) في مشروع كتابة لغات الشعوب الإسلامية بالخط العربي، الذي يتولاه البنك الإسلامي للتنمية مع جهات أخرى، بأن

الملايين من الشعوب في أفريقيا وآسيا ينتظرون بفارغ الصبر ما يمكن أن يقدمه لهم أبناء العربية؛ ليتعلموها، فيحرصوا عليها، ويسهمون في نشرها أكثر من أهلها، ولا يحدهم عن ذلك إلا العوز والحاجة إلى تمويل دراسات الابتكار والإبداع، فهل من مغيث أو مجيب؟!!!.

قلت: لقد أومض إليّ أخي أبو أحمد، د. إسماعيل عمايره، فكرر الطلب بلطفه المعهود، ثم ألح عليّ بضرورة نشر هذه المجموعة ليفيد منها الباحثون، فله مني الدعاء والتضرع إلى العلي العظيم أن يهبه الصحة والعافية، وأن يبارك في جهوده وعطائه وفي كل ما يقدمه إلى العربية وأهلها بجهود أراها ويراها غيري كثيرة نافعة، ويحتسبها عند الله رمز وفاء للغة عشقها منذ الطفولة.

وبودي أن أسطر هنا كلمة شكر نابع من القلب لجميع أبنائي الطلبة في مختلف الجامعات التي كان لي شرف العطاء فيها؛ في الأردن والسعودية والإمارات العربية المتحدة، ولجميع زملائي الذين أفدت من مناقشتهم الثرية، ولأولئك الزملاء الذين تقدوا وجرّحوا من غير حق سوى دوافع المعاصَرَة، أو نقدوا برغبة إصلاح البناء وسلامة النيّة، لهم جميعاً كلمة ودّ صافية صفاء القلب التي تصدر منه، فالمعركة أكبر مما يتصورون، والحاجة إلى تضافر الجهود وإن قلت، ماسة أكثر مما يعرفون، فلا مجال ولا وقت لمتاهات جانبية في دهاليز البيت، والخصم على الباب ماكر خبيث.

ولابد أن أفرد أخوتي طلبة الدراسات العليا في الجامعات التي كان لي شرف التدريس فيها، فأفدت منهم كما أفادوا مني، وبودي أن أذكر منهم هنا بعضهم، وأنا عن الآخرين وما أفدت منهم ليس بغافل ولا ناسٍ؛ إبراهيم صُنّبع، وعلي الشهري، وخلود الصالح، وآسيا فقيه. وأخص أخي الأكاديمي والروائي البارع، الذي وجدت معه في السنوات الخمس الأخيرة، دفء الحديث الأكاديمي في المشاكل اللغوية المعاصرة، د. مروان حامد الرشيد، رئيس قسم اللغة الإنجليزية في جامعة الخرطوم سابقاً، ولأخي الطابع الأديب عبد الرحمن يوسف الذي أعاد طباعة هذه البحوث باحتراف الأديب، وأدب المحترف، فكلما زادت عليه المشقة زاد أدباً وعطاءً، فله شكر قلبي عميق.

وقبل أن أختم، لابد من كلمة ود قلبي صادق لاخوة وجدت فيهم صادق الكلمة والكلمة الصادقة في النقد والتشجيع والحث والتكريم أثناء إعداد هذه البحوث أصلاً منذ بداية ربع القرن الذي فيه نشأت أفكارها، ومنهم وعلى رأسهم: د. عبد الله المعطاني، ود. عبد المحسن القحطاني، والمغفور له د. حسني محمود، و د. علي الحمد، ود. محيي الدين محسب، و د. شريف النجار، و د. عاطف خليل، و د. سالم الخماش، و د. محمد الحناش، ود. عبد الناصر منقارة، والنادي الأدبي في جدة بكل من فيه، وغيرهم كثير ممن يستحق فضلهم عليّ أن أذكرهم، ولكن المقام لا يتسع.

وأودّ أن أهمس بكلمة ودّ عميقة، ووفاء صادقة لشريكة درب الحياة التي طبعت قُبلة ودّ في قلب شريكها قبل أن تطبع أصابعها حروف معظم هذه البحوث في الأصل، ولأفراد أسرتي؛ بناتي قبل الأبناء، قُبلة ودّ ودفء وحنان؛ إلى لبنى وليلى ومعاذ وحمزة ولينة ورنا.

أملي كبير أن يجد الباحث ما يفيد منه، وإن وجد غير ذلك مما يرغب الحوار فيه، أو التوجيه إليه، أو الإطراء له، فإنني بهذا كله لسعيد. وهذا عنواني الإلكتروني amayrehk@hotmail.com .

والله أسأل أن يسدد الخطى، وأن يوفق إلى كل ما فيه خير الأمة ولغتها، وإلى تضافر الجهود لخدمة العربية وفكرها.

القبائل الست والتقعيد النحوي

أسهم في إعداد هذا البحث بشكل رئيس الباحثة الواعية: خلود الصالح – جامعة الملك عبد العزيز – جدة

القبائل الست والتقعيد النحوي

لعل مما لا يحتاج إلى إطالة البحث والتنقيب الحديث عن النشأة الأولى للنحو العربي، فقد أطال الحديث فيه بعد التنقيب نفر من الباحثين الجادين في القديم والحديث، وسمعوا كثيراً من القصص التي تناثرت في بطون كتب التراث بعد أن راج سماعها وكثر تناقلها بين العامة والخاصة في القرون المتوالية[1] من القرن الثاني للهجرة إلى يوم الناس هذا؛ فقد استقر الأمر عندهم، أو عند جُلّهم، على أنّ اللحن قد انتشر في ألسنة المتكلمين بالعربية بعد أن كثر اختلاط العرب بغير العرب أو بالعرب الذين كان لهم اختلاط بالأعاجم على أطراف شبه الجزيرة العربية، من فرس أو روم أو أحباش أو أقباط... الخ، وبعد أن أصبحت للعرب دولة يحرصون على لغتها، وبخاصة أن تلك اللغة هي لغة فكرهم ودستورهم في الحياة، فكانوا حراصا عليها حرصهم على فكرهم، وحرصهم على فكرهم هو حرصهم على وجودهم، فعليهم أن يدافعوا عنه، فإن قُتلوا دونه ودونها كانت لهم الجنة، وإن أهملوه وأهملوها كان لهم الهوان وعليهم اللعنة.

أدرك الحراص من العلماء أنّ عليهم أن يضعوا الدواء لعلاج اللحن الذي دخل البيوت العربية، وأخذ يهاجم ملكة اللسان، فخشوا أن ينغلق القرآن والحديث على المفهوم، فأخذوا يضعون ما أسماه ابن خلدون "صناعة العربية"، يقول ابن خلدون[2]: "إن اللغة هي ملكة في ألسنتهم يأخذها الآخر عن الأول، كما تأخذ صبياننا لهذا العهد لغتنا، فلما جاء الإسلام وفارقوا الحجاز لطلب الملك الذي كان في أيدي الأمم والدول، وخالطوا العجم، تغيرت تلك الملكة بما ألقى إليها السمع من المخالفات التي للمستعربين، والسمع أبو الملكات، وخشي أهل العلوم منهم أن تفسد تلك الملكة رأساً، ويطول العهد بها، فينغلق القرآن والحديث على المفهوم، فاستنبطوا من مجاري كلامهم قوانين لتلك الملكة". فكانت صناعة العربية على يد الخليل بن أحمد ــ رحمه الله ــ بوضع القواعد التي تمكّن من "انتحاء سمت كلام العرب"[3] فكانت المادة اللغوية موضع الدرس هي المادة

التـــي أُخــذت مـــن القبائل العربية عن طريق السماع، ومن ثمّ القياس عليها؛ لاستنباط قواعد العربية.

ولســت معنــياً هنا برصد القصص الكثيرة التي قيلت في النشأة الأولى للدرس الــنحوي؛ أهي ما وضعه علي بن أبي طالب رضي الله عنه وأرضاه، أم هي جهود أبي الأسود الدؤلي، أم ما كان من عيسى بن عمر، أم قبل ذلك أو بعده، ولكن الذي يهمنا هنا أن نقــول: إن الجهود التي قدّمها الخليل ورصدها سيبويه في الكتاب تُعد الحلقة الأولى فـــي سلسلة المعرفة للدرس النحوي المعروف، وقد قامت تلك الجهود على تفكير الخليل فـــي وضـــع علـــل النحو وعامله، يقول[4]: "إنّ العرب قد نطقت على سجيتها وطباعها، وعرفـــت مواقع كلامها وقامت في عقولها علله، واعتللت أنا بما عندي ... فإن سنحت لغـــيري علـــة لمـــا عللته من النحو هي أليق مما ذكرته بالمعلول فليأت بها". فقد وضع الخلـــيل مجموعة من القواعد والقوانين على ضوء نظرية العامل؛ وضعها للأجيال لتتعلّم العربية، ولكنه لم يغلق الباب لتكون علله وحدها السبيل، أو السبيل الوحيد، لتعلم العربية وقوانيـــن الـــنطق بها، فترك لغيره أن يعلل بما يراه وأن يستنبط قواعده وقوانينه التي يمكـــن أن يعلل بها الظواهر اللغوية في العربية معبّراً عن ذلك بتواضع العالم وثقته التي ليس من اليسير أن تجدها في غيره منذ يومه إلى يومنا هذا.

يســـود بين الباحثين منذ زمن بعيد أن الخليل بن أحمد قد اعتمد لتقعيد العربية لهجـــات عدد من القبائل العربية التي كان يرى أن لهجاتها كانت تخلو من اللحن؛ لبعدها عن الاحتكاك بغير العرب أو بالعرب، الذين كانوا يجاورون منْ لسانهم غير عربي، سواء أكان ذلك في الحياة اليومية، أم في العبادة كما كان يفعل سكان نجران الذين هم نصارى يتعبدون بالسريانية، فترد عدّة قوائم تعدد القبائل التي تجتمع فيها الصفات التي يجب أن تـــتوافر في منْ تؤخذ عنهم عربية التقعيد والقياس، أشهر هذه القوائم وأكثرها انتشاراً، بـــل أكـــثرها وأقواها اعتماداً نحصرها عدّاً في القبائل: أسد وتميم وقيس وهذيل وبعض كـــنانة وبعـــض الطائيين، مع الدفاع عن كلّ قبيلة وسبب اختيارها في هذه القائمة دفاعاً يعتمد على المكان الذي كانت تعيش فيه، وسنناقش هذا فيما بعد، ولكنّا لم نعثر على أي نص قديم يحقق هذا الزعم، فمن المعلوم أن الخليل بن أحمد تكلم العربية سليقة، ورحل

في بوادي العرب مستزيداً متعلماً من العرب الأقحاح، وناقلاً بوعي العالم ما سمع منهم، ولكــنه لم يقل مطلقاً إنه وضع تحديداً مكانياً لأخذ اللغة في مرحلة التقعيد، ولم يروَ عنه أنـــه قــد وضع معايير مكانية تحدد القبائل التي يؤخذ بلسانها، فقد قامت علل النحو في عقلـــه، وصـــنفها بطريقته الخاصة، بعد أن كان قد طاف في الجزيرة العربية ورحل إلى بوادي الحجاز ونجد، يستمع ويروي ويفكر ويصنِّف.

لعل أقدم نصٍ يتحدث فيه صاحبه عن التحديد المكاني، فينسب وضع القواعد إلى لهجــات قــبائل بعينها هو ذاك النصّ المنسوب إلى أبي نصر الفارابي، وهذا النصّ، في حقيقة الأمر نصان: أحدهما، وهو الشائع الذي يأخذ به الباحثون، وهو الذي جاء في ما أورده السـيوطي في المزهر والاقتراح، نقلاً عن الفارابي في كتابه المسمّى ـ بالألفاظ والحــروف ـ كما يقول السيوطي. والآخر هو النصّ الوارد في كتاب الحروف للفارابي، وســنبدأ بالأصــل الــذي يفترض أن السيوطي قد أخذ عنه، يقول الفارابي[5]: " ... وأنت تتبين ذلك متى تأملت أمر العرب في هذه الأشياء؛ فإن فيهم سكان البراري، وفيهم سكان الأمصار، وأكثر ما تشاغلوا بذلك من سنة تسعين إلى سنة مائتين، وكان الذي تولّى ذلك من بين أمصارهم أهل الكوفة والبصرة من أرض العراق، وتعلموا لغتهم والفصيح منها مــن ســكان الــبراري منهم دون أهل الحضر، ثمّ من سكان البراري من كان في أوسط بلادهــم، ومــن أشدّهم توحشاً وجفاءً، وأبعدهم إذعاناً وإنقياداً، وهم قيس وتميم وأسد وطيّ ثم هذيل، فإن هؤلاء هم معظم من نُقل عنه لسان العرب، والباقون، فلم يؤخذ عنهم شــيء، لأنهم كانوا في أطراف بلادهم مخالطين لغيرهم من الأمم، مطبوعين على سرعة انقــياد ألسنتهم لألفاظ سائر الأمم المطيفة بهم من الحبشة والهند والفرس والسريانيين وأهل الشام وأهل مصر".

ولســنا هــنا بصــدد تحقــيق القول بأن هذا النص هو ذاته النصّ الذي أورده الســيوطي، أم أن السيوطي قد اعتمد كتاباً آخر غير هذا الكتاب للفارابي، أم أن خلطاً قد وقع في تسمية الكتاب، فهذا كتاب الحروف، وهناك كتاب آخر وسمه الفارابي "بالألفاظ"، وهو كتاب صغير نافع في المنطق، وقد حققه الدكتور محسن مهدي، أيضاً، محقق كتاب الحروف[6].

وســنورد هنا نصّ السيوطي لنرى الفرق في هذا الموضوع، يقول السيوطي[7]:

"وقال أبو نصر الفارابي في أول كتابه المسمّى (بالألفاظ والحروف): "كانت قريش أجود العرب انتقاء للأفصح من الألفاظ، وأسهلها على اللسان عند النطق، وأحسنها مسموعاً، وأبينـها إبانة عمّا في النفس، والذين عنهم نقلت اللغة العربية وبهم اقتُدي، وعنهم أُخذ اللســان العربي من بين قبائل العرب هم: قيس وتميم وأسد، فإن هؤلاء هم الذين عنهم أكـثر مـا أُخـذ ومعظمه، وعليهم اتُكل في الغريب وفي الإعراب والتصريف، ثم هذيل وبعض كنانة، وبعض الطائيين، ولم يؤخذ عن غيرهم من سائر قبائلهم، وبالجملة فإنه لم يؤخـذ عن حضريّ قط، ولا عن سكان البراري ممن كان يسكن أطراف بلادهم المجاورة لسائر الأمم الذين حولهم، فإنه لم يؤخذ لا من لخم، ولا من جذام؛ لمجاورتهم أهل مصر والقـبط، ولا من قضاعة وغسان وإياد؛ لمجاورتهم أهل الشام وأكثرهم نصارى يقرأون بالعبرانـية، ولا من تغلب واليمن؛ فإنهم كانوا بالجزيرة مجاورين لليونان، ولا من بكر؛ لمجاورتهم للقبط والفرس ولا من عبد القيس وأزد عمان؛ لأنهم كانوا بالبحرين مخالطين للهند والفرس، ولا من أهل اليمن؛ لمخالطتهم للهند والحبشة، ولا من بني حنيفة وسكان الـيمامة، ولا مـن ثقيف وأهل الطائف؛ لمخالطتهم تجار اليمن المقيمين عندهم، ولا من حاضـرة الحجـاز؛ لأن الذيـن نقلوا اللغة صادفوهم حين ابتدأوا ينقلون لغة العرب قد خالطوا غيرهم من الأمم وفسدت ألسنتهم... والذي نقل اللغة واللسان العربي عن هؤلاء وأثبـتها في كتاب وصيّرها علماً وصناعة هم أهل الكوفة والبصرة فقط من بين أمصار العرب".

فإذا ما أنعمنا النظر في هذين النصّين خرجنا بعدد من النقاط:

1- إن الـنصّ الذي أورده السيوطي يشير في مجمله إلى ما أوجزه الفارابي في النص الوارد عنه، مما يرجح أن السيوطي كان يحيل إلى هذا النصّ بعينه، فإما أن تكون الذاكرة قد ندّت عن بنود في النصّ الأصل، أو أنه قد فصّل فزاد ما كانت قناعته قد وصلت إليه.

2- إن مـا أورده السـيوطي فـي مقدّمـة نصه عن قريش لم يرد ما يقابله في نصّ الفارابـي، هـذا فضلا عن أن الصفات الرفيعة التي ذكرها في قريش وفي لهجتها،

تحتّم أن تكون هذه اللهجة من النقاء والسمو البياني في مقدمة اللهجات التي يُعتمد عليها، فقد جاء وصفها بألفاظ (أفعل) للمفاضلة المطلقة[8]، (أجود العرب، وأسهلها، وأحسنها، وأبينها) أبعد هذه الصفات يمكن أن تكون مواصفات للاعتماد؟!، فكيف يكون الأمر إن قلنا:أبعد هذه الصفات تستثني هذه اللهجة من لهجات التقعيد؟!!!.

فهل يكون السيوطي قد اطلع على نصّ آخر لعالم آخر يمجّد فيه لهجة قريش فاختلط الأمر عليه، فأورد مضمون نصين في نصّ واحد منسوب إلى عالم واحد، أم أنّ قناعة السيوطي بلهجة قريش كانت رفيعة قوية، فأدرج لهجتها في صدر النصّ الذي شاع عن الفارابي متحدثاً فيه عن قبائل الاعتماد اللغوي في الغريب وفي الإعراب والتصريف.

3- إن القبائل المعتمدة عند الفارابي هي: قيس وتميم وأسد وطيء ثم هذيل. أما المعتمدة في نص السيوطي فهي: قيس وتميم وأسد ثم هذيل وبعض كنانة وبعض الطائيين، فزاد السيوطي بعض كنانة واعتمد بعض طيء التي اعتمدها الفارابي كلها.

4- اشترك النصّان في الإشارة إلى أن الذين شُغلوا باللغة واللسان العربي وجعلوها علماً وصناعة هم أهل الكوفة والبصرة من أرض العراق فقط، من أمصار العرب.

5- فصّل السيوطي في النصّ الذي أورده ذاكراً مجموعة هائلة من القبائل التي كانت على أطراف الجزيرة العربية أو في داخلها مختلطين بغيرهم مجاورين لهم، في حين عبّر الفارابي عن ذلك بإيجاز وتعميم، فقال: "... والباقون فلم يؤخذ عنهم شيء؛ لأنهم كانوا في أطراف بلادهم مخالطين لغيرهم من الأمم مطبوعين على سرعة انقياد ألسنتهم لألفاظ سائر الأمم المطيفة بهم من الحبشة والهند والفرس والسريانيين وأهل الشام وأهل مصر".

6- لعلّ من أهم ما يلفت انتباه الدارس في النصين أنّ الحديث فيهما لا يشير بوضوح – ولا حتى بالتلميح – إلى اعتماد القبائل في تقعيد النحو العربي، وإنّما الحديث فيهما بوضوح عن اللغة وغريبها وفصيحها، وأكثرها إبانة وسلاسة، أو توحشاً

وجفـاء، وعلــى ذلك يمكن أن تُحمل إشارة السيوطي بقوله: "... وعليهم اتكل في الغريب وفي الإعراب والتصريف".

7- ولعـل مــن أهـم مـا يلفت الانتباه أيضاً في النّصّين، أنهما يفترضان العزلة وقلة الاخـتلاط قاعدة للفصاحة والبيان، بل للاعتماد اللغوي، ولكن هذه القاعدة منقوضة تماماً بما جاء في مقدمة نصّ السيوطي، وبنصوص أُخر سنذكرها بعد قليل، فقريش كانـت موضـوع اخـتلاط دائم؛ اختلاط تجاري، واختلاط ديني، واختلاط اجتماعي مستمر في الجاهلية والإسلام، وهذا ما يؤكده كثير من العلماء القدماء، يقول الفراء فـيما يرويه السيوطي أيضاً[9]: "كانت العرب تحضر الموسم في كل عام وتحج البيت في الجاهلية، وقريش يسمعون لغات جميع العرب، فما استحسنوه من لغات تكلموا بـه، فصـاروا أفصح العرب، وخلت لغتهم من مستبشع اللغات ومستقبح الألفاظ". ويؤكد هذا ما جاء عن أبي العباس ثعلب[10]: "ارتفعت قريش في الفصاحة عن عنعنة تمـيم، وكشكشـة ربيعة، وكسكسة هوزان، وتضجع قيس، وعجرفية ضبّه ..." ثم جاء هذا المضمون مفصلاً مرتبطاً بإجماع علماء العربية في ما يروى عن أحمد بن فـارس، يقول[11]: "أجمع علماؤنا بكلام العرب والرواة لأشعارهم، والعلماء بلغاتهم وأيامهم ومحالهم أنّ قريشاً أفصح العرب ألسنة، وأصفاهم لغة؛ وذلك أن الله تعالى اخـتارهم مــن جميع العرب، واختار منهم محمداً ﷺ ، فجعل قريشاً قطّان حرمه، وولاة بيـته، فكانـت وفـود العـرب مـن حجاجها وغيرهم يفدون إلى مكة للحج يـتحاكمون إلى قريش في دارهم، وكانت قريش مع فصاحتها وحسن لغاتها، ورقة ألسـنتها؛ إذا أتتهم الوفود من العرب تخيّروا من كلامهم وأشعارهم أحسن لغاتهم، وأصفى كلامهم، فاجتمع ما تخيّروا من تلك اللغات إلى سلائقهم التي طبعوا عليها، فصـاروا بذلـك أفصـح العـرب، ألا ترى أنك لا تجد في كلامهم عنعنة تميم، ولا عجرفية قيس، ولا كشكشة أسد، ولا كسكسة ربيعة، ولا كسر أسد وقيس".

فانظـر تجـد أن قريشاً كانت أفصح العرب كافة، ومن ثَمّ هي أفصح من القبائل التـي كانت موضع الاعتماد اللغوي سابقة الذكر، فإن كانت تميم فصيحة فقريش أفصح منها لما في تلك من عنعنة وهي أفصح من قيس وكذلك أسد، وهذه هي القبائل الرئيسة

الـثلاث الواردة قِمَّةً للفصاحة في نصيّ الفارابي والسيوطي سالفي الذكر، وتجد أيضاً أن سبب فصاحة قريش في هذا النصّ هو الاختلاط بالوفود العربية التي كانت تفد إلى قريش في ديارها، وهذا ما أجمع عليه العلماء بكلام العرب والرواة لأشعارهم والعلماء بلغاتهم وأيـامهم ومحـالهم، ولعـل هذا السبب الذي من أجله أجمع هؤلاء على فصاحة قريش (وهو الاختلاط) هو السبب في ما أخذه ابن فارس على القبائل الثلاث: أسد وقيس وتميم، فـإن الإجماع في النصوص على أنها كانت تسكن في أماكن يصعب أن يتم فيها اختلاط، فضلاً عن أن الحاجة للذهاب إلى مضارب هذه القبائل لم تكن قائمة.

يقـول عمـر فـروح[12] فـي بيان علاقة سكان الحجاز (وهي مضارب قريش) بغيرهم: "منذ أواسط القرن السادس للميلاد بدأ مجرى التاريخ في بلاد العرب يتحول من نجد إلى الحجاز فاكتسب الحجاز بذلك مكانة اقتصادية تجارية، فمن العوامل التي أدت إلى ذلـك تحـوّل طـريق التجارة من البرّ إلى البحر الأحمر ... ثم إنّ مكة في الحجاز كانت مركـزاً دينـياً قـيماً ... وقد اقتضى الحج إلى مكة (قبل الإسلام) أن يقوم فيها وحولها وعلـى الطرق المختلفة المتجهة إليها، أسواق دائمة أو مؤقتة في فترات متفاوتة، وقد كانـت هـذه الأسواق للبيع والشراء وإنشاد الشعر وإلقاء الخطب، وللبحث عن الغرماء وللمفاخـرة وغـير ذلك. وكذلك كثرت الجوالي من الشعوب المختلفة في ذلك الحين في الحجاز فحدثت فيه نهضة عمرانية واقتصادية".

بقي أن نشير في هذا البند إلى قضيتين هامتين:

الأولـى: أن هناك عدداً من القوائم التي أشار فيها أصحابها إلى أفصح القبائل وأجودها لغـة، ومـن هذه القوائم ما جاء في نصّ ابن خلدون، يقول[13]: "كانت لغة قريش أفصح اللغـات العربية وأصرحها؛ لبعدها عن بلاد العجم من جميع جهاتهم، ثم من اكتنفهم من ثقيف وهذيل وخزاعة وبني كنانة وغطفان وبني سعد وبني تميم، وأما منْ بعد عنهم من ربيعة ولخم وجذام وغسان وإياد وقضاعة وعرب اليمن المجاورين لأمم الفرس والروم والحبشـة، فلـم تكن لغتهم تامة الملكة بمخالطة الأعاجم، وعلى نسبة بعدهم من قريش كان الاحتجاج بلغاتهم في الصحة والفساد عند أهل "صناعة العربية".

في نص ابن خلدون هذا ثلاث نقاط رئيسة:

1- أنــه جعــل قريشاً أساس الفصاحة ورأس قبائلها، وهي صاحبة اللغة النقية، وعلل ذلــك ببعدها عن بلاد العجم، أي أنها لم تكن لتحتك بلغات غير العرب مع أنها كانت موطــن صــراع اللهجات العربية المختلفة، ومن قريش انطلق ابن خلدون ليقيس فصــاحة القبائل منْ حولها؛ فمن كان قريباً منها كان يتمتع بالفصاحة؛ لقربه منها، ومــن بعدت مضاربه عنها قلّت فصاحته. فبذا أصبحت قريش مقياساً لسلامة اللغة ونقائها، والفصاحة فيها لبعدها عن الاختلاط.

2- اختار ابن خلدون مجموعة من القبائل يشهد لها بدرجة من الفصاحة بحسب قربها مــن قــريش، تالــية لهــا في ترتيب الفصاحة، وفيها مما جاء في نصّي الفارابي والســيوطي سالفي الذكر، وفيه نقص أو زيادة عليهما، فالقبائل هي: ثقيف وهذيل وخــزاعة وكــنانة وغطفان وبنو سعد وبنو تميم، فزاد: ثقيفاً وغطفان وبني سعد فضلاً عن قريش، وحذف قيساً وطيء.

3- إن مقــياس الفصاحة عنده هو القرب أو البعد من قريش، وليست العزلة المكانية، والعــيش في الوبر كما ذهب الفارابي والسيوطي، فقريش كانت تسكن مكة، وكانت مكــة المعلــم الحضاري البارز في شبه جزيرة العرب. وربما كان ما ذهب إليه ابن خلــدون هــنا أقــرب إلــى ما يمكن أن يؤخذ به، إذ ليست العزلة عنده هي العزلة المكانية، بل هي العزلة عن الاختلاط بالأعاجم وليس العرب، فإن هذا (أي الاختلاط بالعرب) يولد قوة لغوية ولا يسفر عن ضعف في الملكة اللسانية، وتكاد تكون هذه النقطة العنصر المشترك بين معظم النصوص، فهي تكاد تجمع على عدم الأخذ عن القبائل التي كانت تجاور الأعاجم من فرس وروم وأحباش وأقباط... الخ.

وهناك قائمة أخرى بأفصح العرب، جاء عن أبي عبيد عن طريق الكلبي عن أبي صــالح عن ابن عباس قوله[14]: "نزل القرآن على سبع لغات منها خمس بلغة العجز من هوزان وهم الذين لهم عليا هوزان وهن خمس قبائل أو أربع، منها سعد بن بكر وجشم بن بكر ونصر بن معاوية وثقيف، قال أبو عبيد: وأحسب أفصح هؤلاء بني سعد بن بكر

وذلك بقول رسول الله ﷺ "أنا أفصح العرب بيد أني من قريش وأني نشأت في بني سعد بـــن بكر"، وكان مسترضعاً، فيهم وهم الذين قال عنهم أبو عمر بن العلاء: أفصح العرب عليا هوزان وسفلى تميم".

ولعل نظرة فاحصة إلى خريطة توزيع هذه القبائل تؤكد أنهم لم يكونوا في عزلة مكانـــية، ويرشـــد إلـــى ذلك نسبهم، فبنو سعد بن بكر، هو سعد بن بكر بن هوزان بن منصور بن عكرمة بن خصفة من قيس عيلان[15] فهم من هوزان، وهوزان لا تعد في أية قائمـــة مـــن قبائل الاحتجاج والعزلة. وأما ثقيف، وهي إحدى قبائل عليا هوزان، فكانت تســـكن الطائف، وكان لهم فيها صنم يسمى اللات مبنياً على صخرةٍ، كانوا يحرمون من واديـــه، ويكسونه، هدمه خالد بن الوليد والمغيرة بن شعبة[16]، أما نسبهم فهم: بنو منبه بـــن بكـــر بن هوزان بن منصور بن عكرمة بن خصفة بن قيس بن عيلان بن مضر بن نـــزار بـــن معد بن عدنان وهم ثقيف[17]، وكانت سوق عكاظ في أرضهم، تفد إليها وفود العـــرب وشعراؤها، يتفاخرون ويتبارزون أمام لجان التحكيم من مختلف القبائل حيث لا مجال للعزلة المكانية.

وتلتقي تميم في النسب مع هاتين القبيلتين، فهم تميم بن عامر بن أُد بن طابخة بن الياس بن مضر بن نزار بن معد بن عدنان[18]؛ أبناء عمومة يلتقون مع بني سعد بن بكر ومع ثقيف، فلابد أن صلة ما كانت قائمة بينهم بحكم القربى وبحكم سوق عكاظ التي كانت تجمع قبائل العرب.

والقضـــية الثانـــية التـــي لابد من الإشارة إليها هي أن القرآن الكريم نزل بلغة قـــريش فـــي ما اطرد عند كثير من الباحثين: القدماء والمحدثين، وهو أمر لا يؤخذ من غـــير مناقشة، ولكنا لا نرى أن إطالة القول فيه مما يحتاجه هذا البحث، ويكفي أن ننظر في اللغات واللهجات الواردة في القرآن الكريم لنعرف أن نسبة نزوله بلهجة قريش كانت على الأغلب كما جاء في ما يروي السيوطي من رد ابن عبد البر[19] في التمهيد على قول مـــن قال نزل القرآن بلغة قريش، فيقول: "معناه عندي على الأغلب لأن غير لغة قريش موجودة في جميع القراءات".

فـبعد أن تبيـن أن العزلة المكانية لم تكن حقاً هي مقياس الفصاحة في القبائل العربية، وبعد أن أوضحنا أن الفصاحة قد وُضعت لقبائلها عدد من القوائم، يدافع صاحب كـل قائمـة عـن أسباب الفصاحة في قبائل قائمته، وبعد أن ناقشنا بالتفصيل الخلط أو الاضطراب القائم في نصيّ الفارابي والسيوطي، بقي أن نشير ثانية إلى أننا لم نعثر على أي نصّ عن الخليل بن أحمد يشير إلى أنه اعتمد لهجات بعينها لتقعيد القواعد النحوية، ولعـل ما أصبح يتوارثه الباحثون والطلاب من أن النحو قام على لهجات القبائل الست: أسـد وتميم وقيس وهذيل وبعض كنانة وبعض الطائيين، وهو ضرب من الوهم العلمي، مـرده إلى نصيّ الفارابي والسيوطي المتقدمين، فكيف إن علمنا أن الفارابي متوفى سنة 329 من الهجرة تقريباً، والسيوطي متوفى سنة 911 من الهجرة، وأما الخليل بن أحمد واضع علم النحو فقد توفي سنة 170 من الهجرة تقريباً.

ولـنقطع الشك باليقين في أن هذه القبائل قد افترى عليها الباحثون، وأن منهج الخلـيل أيضـاً كان موضع افتراء، فإن علينا أن نقف مع كتاب سيبويه نهتدي منه إلى منهج الخليل ونرد به التهم أو الافتراء الذي أُسند إلى الخليل، وستكون وقفتنا مع الكتاب لرد هذا الادعاء باستقراء منهج الخليل في شواهد الكتاب من الجوانب التالية:

أولاً: لشـواهد التي لم تُنسب إلى قائل، ولسنا هنا بالمعنيين بتحقيق القول في عدد هذه الشـواهد، أهـي خمسون أم تزيد أو تنقص، فقد كان هذا موضوع بحث قام به عدد من الباحثيـن مـن قبل. ولكنا نود القول إن من هذه الشواهد ما استُعمل لبناء قاعدة نحوية وهـو غـير منسـوب إلـى قائل، فمن ثَمَّ يمكن القول بأنها ليس لأحد من قبائل قائمتي الفارابي والسيوطي، إذ إن ما جاز أن يُحمل على وجه شائع فقد سقط الاحتجاج به، كما يقـول الأصوليون[20] وفي قولهم: الشيء إذا جاز أن يكون حجة في النظير جاز أن يكون حجـة فـي النقـيض[21]، ويقولون أيضاً: "يحملون الشيء على ضده كما يحملونه على نظيره[22]" والقواعد الأصولية في هذا كثيرة.

ورد في كتاب سيبويه[23]؛ قال الشاعر:

أستغفر الله ذنباً لستُ محصيـــه   ربَّ العباد إليه الوجـهُ والعمـــلُ

أي مـــن ذنب، وهذا من باب الفاعل الذي يتعدّاه فعله إلى مفعولين، وإن عنيت الدعاء إلى أمر لم يجاوز مفعولاً واحداً. فعلى هذا البيت قامت قاعدة باب المنصوب على نـــزع الخـــافض، وهـــو مجهول القائل، فمن باب أولى أن لا يكون لأحد شعراء القبائل الخمس أو الست.

ومثل ذلك ما جاء في كتاب سيبويه في إقامة قاعدة نحوية عن الحال مقدّماً على صاحبه النكرة بعد أن كان صفة متأخرة[24]، قال الشاعر:

وبالجسم منّي بيّنـــاً لو علمتِـــــه شحوبٌ وأن تستشهدي العينَ تَشْهَــدِ

أي: شحوبٌ بيّنٌ.

وقال الشاعر[25]:

علمَ القبائل من مَعَــدَّ وغيـــــــرها أنّ الجــواد محمّدُ بـــن عطـــــاردِ

فمنع صرف (معد) حملاً على القبيلة، والأكثر صرفه حملاً له على الحي المعروف.

وقال الشاعر[26]:

لا أب وابناً مثل مـروان وابنِـــــه إذا هو بالمجـد ارتـــدى وتـــأزّرا

فعطف (ابن) مع تنوينه على اسم لا، لأن المعطوف لا يجعل وما بعده بمنزلة اسم واحد، لأنهما مع حرف العطف ثلاثة أشياء، والثلاثة لا تجعل اسماً واحداً.

وقال الشاعر[27]:

يا لعنـــــة الله والأقــــوام كلّهـــمُ والصالحيــن على سمعـانَ من جـار

فحـــذف المدعو لدلالة حرف النداء عليه، والمعنى يا قوم أو يا هؤلاء، لعنة الله على سمعان ... لذا رفع (لعنة) بالابتداء ولو أوقع النداء عليها لنصبها.

ومن الشواهد الخمسين ما أورد سيبويه شطره الثاني فقط غير منسوب. وعليه وحدة أقام سيبويه قاعدة نحوية، أكمله النحاة بعده، فقد جاء عند ابن يعيش بأنه منسوب إلى الأشجعي، قال سيبويه: قال الشاعر:

وتمام البيت:

وعدت وكان الخلف منك سجية　　　مواعيد عرقوب أخاه بيثرب[28]

وجاء عن سيبويه أيضاً ما أقام به من قاعدة نحوية على قول لبعض العرب غفلاً من غير نسبة، يقول في باب ما يتقدم فيه المستثنى: "وحدثنا يونس أن بعض العرب الموثوق بهم يقولون: مالي إلا أبوك أحد، فيجعلون أحداً بدلاً. كما قالوا: ما مررت بمثله أحد، فجعلوه بدلاً"، وفي هذا بناء قاعدة على قول إحدى القبائل العربية لعلها من غير القبائل الست. ويستطيع الباحث بيسر أن يجمع القواعد كلها التي أقيمت على شواهد غير منسوبة إلى شاعر.

ثانياً: شواهد لشعراء معروفين يقيم عليها سيبويه قاعدة نحوية، سواء أكان الشاعر المعروف من القبائل الست أم من غيرها، ثم يعضد هذه القاعدة أو الشاهد بشاهد لشاعر مجهول، والعكس صحيح؛ ومن ذلك مثلاً، أنه أقام قاعدة نحوية جاءت في شعر شاعر مجهول أعمل فيها صيغة المبالغة (ضروب) في معمولها المتقدم عليها، مؤيداً ما جاء في قول العرب: أما العسل فأنا شرّابٌ، وقال الشاعر[29]:

بكيتُ أخا اللأواء يُحمَدُ يومُهُ　　　كريمٌ رؤوس الدارعين ضروبُ

فأقام قاعدة إعمال صيغة المبالغة في متقدم. ومنه قول ذي الرمة[30]:

هجوم عليها نَفْسَهُ غير أنّه　　　متى يُرْمَ في عينيه بالشَّبْح ينهض

ومن ذلك أيضاً قول أبي ذؤيب الهذلي[31]:

قلى دينه واهتاج للشوق إنّها　　　على الشوق إخوانَ العزاءِ هيوجُ

وكذلك قول القلاخ[32]:

أخا الحرب لبّاساً إليها جلالها　　　وليس بولاج الخوالف أعقلا

فــنجد أن القــاعدة قد بنيت على بيت ذي الرمّة ثم عضدّها ببيتين لكلّ من أبي ذؤيــب والقــلاخ، ومن ثم أردف ببيت غير منسوب وقول جرت عليه العرب، وهو قول أيضــاً غير منسوب، يقول "سمعنا من يقول" وهذه صيغة لا تشير من قريب أو بعيد إلى أيٍّ من القبائل التي أشار إليها الفارابي أو السيوطي.

ومــن ذلــك أيضاً أن سيبويه قد أقام قاعدة نحوية على قول شاعر مجهول، ثم أتــبعه بقــول شــعراء معروفيــن ولكــنهم ليسو من القبائل الست، فقد استشهد بقول الشاعر[32]:

"يا سارقَ الليلةِ أهلَ الدار".

فقــد جعل (الليلة) أي المفعول الأول مجرورة بالإضافة، ونصب المفعول الثاني، وأقام عليه قاعدة، وهي أنه يجوز في الاسم الذي يتعدى فعله إلى مفعولين ولم ينوّن أن يُجــرّ الأول وينصب الثاني وليس العكس، كما جاء في القرآن الكريــم ﴿ فَلاَ تَحْسَبَنَّ اللهَ مُخْلِفَ وَعْدِهِ رُسُلَهُ ﴾ [33]، ثم أورد سيبويه قول الشماخ[34]:

ربَّ ابن عــمَّ لسليمـــــى مُشْمعــلّ   طباخِ ساعــاتِ الكــرى زادَ الكســل

وقول الأخطل[35]:

وكرّارِ خلفَ المُحْجريـــن جــواده   إذا لــم يحــامِ دون أنثــى حليلهـــا

والشماخ هو الشماخ بن ضرار بن حرملة بن سنان المازني الذبياني الغطفاني، وأما الأخطل فهو غياث بن غوث بن الصلت بن طارقة بن عمرو من بني تغلب، فهما لا ينتميان إلى القبائل الست.

ومــنه أيضــاً مــا أقيمت فيه قاعدة على شعر أحد شعراء القبائل الست ثم أتى بشواهد من شعر شعراء آخرين ليسو من شعراء هذه القبائل.

قال قيس بن الخطيم، وهو ثابت بن عدي بن سواد بن ظفر وهو كعب من مازن بن الأزد وهو من غير القبائل الست، يقول:

نحـــن بمـــا عندنـــا وانـــت بمـــــا عندك راضٍ والـــــراي مختــلــف[36]

استشـــهد به سيبويه لما جاز من حذف المفعول الذي هو فضله؛ لأن حذف خبر المبـتدأ وهـو عمـدة، أشـد من حذف الفضلة. وللقاعدة ذاتها استشهد بشعر الفرزدق التميمي، وهو من شعراء القبائل، يقول:

إنّي ضمنــت لمــن أتانـــا ما جنـــى وأبي فكـــان وكنـــتُ غـــير غدور[37]

ومـــنه الاستشـــهاد بقول كلٍ من جرير التميمي وزهير بن أبي سلمى، وهو من غير القبائل الست. يقول جرير[38]:

ألا أضحـــت حبالكـــم رمـــامــــا وأضحــت منـــك شاسعـــةً أمـــامــا

بترخيم (أماما) في غير النداء، وترك الميم على لفظها مفتوحة وهي في موضع رفع.

ويقول زهير[39]:

خذوا حظكم يا آل عكـــرم واذكـــروا أواصرنـــا والرحْـــمُ بالغيب تذكـــرُ

ترخـــيم (عكرمة) وتركه على لفظه، ويتحمل أن تقدر إعراباً على أنه علم لمؤنث ممنوع من الصرف، باعتبار القبيلة.

ومـــنه قـــول عقيبة الأسدي وهو من قبائل الاحتجاج، وقول لبيد بن أبي ربيعة وهو ليس كذلك، يقول لبيد[40]:

فإن لم تجد من دون عدنـــان والــدأ ودون معـــدٌ فلتَزَعْـــكَ العـــواذل

ويقول عقيبة[41]:

مُعاوِيَ إنّنـــا بشـــرٌ فأسْجِـــــــح فلســــــنا بالجبـــال ولا الحديـــــــدا

فـــي باب ما يجري على الموضع لا على الاسم الذي قبله. ومثل ذلك في الكتاب كثير.

ثالثاً: شواهد الشعراء من غير القبائل الست أقام عليها سيبويه قاعدة نحوية، ثم أتبع هذه الشواهد بشعر شعراء مجهولين، ومن ذلك مثلاً:

يقول أمرؤ القيس[42]:

أحـــار أُريـك بَرْقـــاً هبَّ وهناً   كنــارِ مجــوسَ تَسْتَعِـرُ استعـــارا

فمـــنع (مجـــوس) من الصرف على معنى القبيلة، ثم عضد هذه القاعدة بشاهد لرجل من الأنصار[43]:

أولئــك أولـــى من يهــودَ بمدحـــه   إذا أنـــت يومـــاً قلتها لم تؤنّـــبِ

فمـــا كـــان اســـماً لقبيلة أو حي لا يصرف على الأصل، فالبيت الثاني لرجل من الأنصـــار، والأنصـــار ليست قبيلة، فربما كان الأنصاري من قريش أو من غير قريش، وقال الأصوليون[44]: "ما تسرب إليه الاحتمال خرج من دائرة الاستدلال".

ومـــن هذا ما أُقيم عليه قواعد نحوية وهو لشعراء من غير القبائل الست سواء أأتبعه سيبويه بشعر لشاعر آخر أم لا، ومنه:

قـــال عمرو بن قنعاس، ونسبه كما يقول المرزباني[45]: هو عمرو بن قنعاس بن عبد يغوث بن محرش بن مالك بن عوف المرادي شاعر جاهلي، يقول:

ألا يا بيـــتُ بالعليـــاء بيـــتُ   ولـــولا حُبُّ أهلـــك مـــا أتيـــتُ

برفع (بيت)؛ لأنه نكرة مقصودة لم توصف بما بعدها.

ومـــنه قـــول الحطيـــئة، وهـــو مـــن الشـــعراء الـــذي عاشوا في بني عبس، يقول[46]:

ألم أكُ جـــارَكمْ ويكـــونَ بينـــي   وبينكـــم المـــودّة والإخـــاءُ

بإضمار (أن) لنصب (يكونَ) والتقدير: ألم يقع أن أكونَ جاركم وتكونَ ...

ومنه قول كثير عزة، وينتهي نسبه إلى يعرب بن قحطان[47] يقول:

لميّة موحشـــاً طلل

بنصب (موحشاً) على الحال وقد كان صفة لطلل فتقدمت على الموصوف فصار حالاً. ومثل هذه الشواهد كثيرة في كتاب سيبويه[48].

رابعا: شواهد شعر تنسب إلى بعض القبائل الست وإلى قريش، ولكن حكم عليها بالشذوذ، أي أن القاعدة النحوية لا تستوعبها، قال الفضل بن عبد الرحمن القرشي[49]:

إيـــاك إيـــاك المـــــراء فإنّـــــــه | إلى الشّـــرّ دعـــــاء وللشّر جالــــب

كأنّـــه قال: إيّاك ، ثم أضمر بعد إياك فعلا آخر، فقال: اتقِ المراء، فنصب المراء بعـد إياك مع حذف العطف، وهو غير ما عليه العربية مع أنّ المازني قد قال فيها: "لما كرر إياك مرتين كان أحدهما عوضاً من الواو"[50].

ومنه (في الضرورة) قول عامر بن جُوين الطائي[51]:

فلم أرَ مثلـــها خُبَاســـــةَ واحـــــدٍ | ونهنهـــت نفسي بعدمـــــا كدتُ أفعله

فحملـــوه علـــى (أنْ) لأن الشـــعراء قد يستعملون (أنْ) كثيراً مضطرين؛ فنصب الشاعرُ (أفعله) بتقدير أن قبله.

ومنه قول أبي زبيد الطائي[52]:

أقام وأقـــوى ذات يـــومٍ وخيبـــــةٌ | لأوّل مَـــنْ يلقـــى وشـــرٌ ميسّـــــرُ

فـــرفع بعـــض الشعراء المنصوب على المصدرية فجعلوه مبتدأ وجعلوا ما بعده مبنياً عليه، وفي هذا البيت رفع (خيبة) بالابتداء لما فيها من معنى النصب على المصدر المستعمل في الدعاء.

خامســـاً: شـــواهد تنســـب إلى قبائل نصّ السيوطي على أنّها لم يؤخذ منها لأن ألسنتها قد فسدت لمجاورتها من ليسوا بعرب، ومن ذلك ما استشهد به سيبويه من شعر غـــياث بن غوث بن الصلت بن طارقة بن عمرو من تغلب[53]، وتغلب قال فيها السيوطي

"... ولا مــن تغلــب واليمــن فإنهم كانوا بالجزيرة مجاورين اليونان"[54]. ومنه أيضاً ما استشــهد بــه ســيبويه من شعر طرفة بن العبد بن سفيان بن سعد البكري الوائلي[55]، وبكــر مــن القبائل التي رفض السيوطي الأخذ عنها "... ولا من بكر لمجاورتهم للقبط والفرس".

وإنّ مــن يدرس كتاب سيبويه يجد أنّه قد بُني بمنهجية لم تكن في نية بانيه أن يعــتمد في التقعيد لهجة معينة، أو أنْ يفضل لهجة على لهجة، فضلاً أن يكون قد اعتمد عدداً محدداً ومعيناً من اللهجات كما جاء في ما نصّ الفارابي وتأثر به كلّ من جاء بعده، فــإن علمــنا أن الفــرق الزمني بين الخليل بن أحمد صاحب الفكرة الرئيسية في التقعيد الــنحوي، أو صــاحب الأفكــار والآراء التي اعتمد عليها سيبويه في كتابه الكتاب، هو الفــرق بيــن ســنة 170 من الهجرة تقريباً حيث توفي الخليل بن أحمد وسنة 329 من الهجــرة حيــث توفــي الفارابي صاحب النصّ الذي تأثر به الدارسون من القرن الرابع الهجــري إلــى يومنا هذا، مع أنّ مضمونه بلا وجود حقيقي في كتاب سيبويه أو منهج الخلــيل في التقعيد النحوي. فمما هو واضح أنّ الخليل قد أخذ النصّ الفصيح عن العرب الأقحــاح بصــرف الــنظر عن القبيلة التي كانوا ينتمون إليها. إذ إن الغاية عنده كانت الفصــاحة والاتساق مع ما كانت عليه العربية آنذاك، والخليل بذلك طبٌّ خبير، فضلاً عن أنه كان من أصحاب السليقة اللغوية، ويحفظ الشعر، ويقرضه، وخبير بكتاب الله ولغته، حريص عليه وعليها، وعلى استقامة ألسنة الناس عند النطق بها أو القراءة به.

أخــذ الخلــيل النصّ الفصيح وإن كان قائله ليس بالمعروف، وبنى قواعد النحو التــي تمكّن المتكلم أو المتعلّم من انتحاء سمت العرب في كلامهم، وتمكّن القارئ لكتاب الله من القراءة السليمة، وما ورد من كلام العرب مخالفاً لهذه القواعد فإنّه قد حكم عليه بالشــذوذ، والشاذ صحيح ولكنه لا يتفق مع القاعدة التي قُعّدت، لذا فإنه يُحفظ ولا يقاس عليه، فإن المقعّد مهما اتسعت قاعدة الاستقراء عنده فلن يتمكن من جمع اللغة كلّها وإن كانــت صــغيرة، فكــيف إن كانــت اللغة التي كان الخليل يقعّد القواعد لها هي العربية المعروفة باتساعها وتعدد لهجات المتحدثين بها.

ألا تـــرى بعد ذلك أن القبائل الخمس أو الست هي من القبائل المفترى عليها إن لم تكن هي المفترى عليها، وكذلك، ألا ترى أن تعدد قوائم الفصاحة عند العلماء ــ على الرغم من أنّه يؤدي إلى الشكّ في صحة أيٍّ منها ــ يحتاج إلى إعادة النظر فيها لمعرفة الأســباب القبليّة أو غير ذلك، التي تقف خلف اختيار بعضها ورفض الأخرى في التقعيد اللغوي.

الهوامــــــش

1 انظـر مـثلاً الخصائص لابن جني 10/2، الإيضاح للزجاجي ت مازن المبارك ص89، مقدمة ابن خلدون ص546، البيان والتبيين 205/2ـ222، 504.

2 المقدمة ص 546.

3 ابن جني، الخصائص 35/1.

4 الزجاجي، الإيضاح في علل النحو ص 66.

5 الفارابي ـ كتاب الحروف، تحقيق محسن مهدي، دار المشرق ط2 ص 147.

6 انظر مناقشة هذا في مقدمة محسن مهدي لتحقيق كتاب الحروف.

7 الاقتراح ص44، المزهر 211/1.

8 وسـنتحدث عن عدد آخر من قوائم اللهجات المعتمدة في التقعيد تتصل بهذه النقطة في نصّ السيوطي هذا.

9 الاقتراح: ص 127.

10 مجالس ثعلب، تحقيق عبد السلام هارون ـ دار المعارف ـ ص 80 ـ 81.

11 ابن فارس، الصاحبي ص33 ـ 34 والسيوطي، المزهر 210/1.

12 عمر فروخ: تاريخ الإسلام والدولة الأموية، دار العلم للملايين، بيروت 1970م ص4.

13 مقدمة ابن خلدون: المكتبة التجارية، مكة المكرمة، 258/2 ـ 259.

14 السيوطي، المزهر 210/1، 211.

15 أبـو محمد علي بن أحمد بن حزم الأندلسي، جمهرة أنساب العرب، دار الكتب العلمية، بيروت، 1982م ص265.

16 السابق 182.

17 السابق 491.

18 السابق ص 207.

19 السيوطي، الإتقان في علوم القرآن، المكتبة التجارية الكبرى، دار الفكـر، بيـروت 1 /136.

20 وانظر الإنصاف في مسائل الخلاف مسألة 8.

21 وانظر السابق مسألة 1.

22 السابق مسألة 23.

23 الكتاب 37/1.

24 الكتاب 123/2.

25 الكتاب 250/3.

26 الكتاب 285/3.

27 الكتاب 219/2.

28 الكتاب 272/1.

* الكتاب 337/2.

29 الكتاب 111/1.

30 الكتاب 110/1 وديوان ذي الرمة 324.

31 الكتاب 111/1.

32 الكتاب 175/1.

33 إبراهيم 47.

34 الكتاب 177/1.

35 الكتاب 177/1.

36 الكتاب 75/1.

37 الكتاب 270/2 ــ 271، 76/1.

38 الكتاب 270/2 ــ 271.

39 الكتاب 67/1 ــ 86.

40 الكتاب 254/3

41 الإنصاف مسألة 104 ، 726/2.

42 المرزباني، معجم الشعراء ص55

43 الكتاب 43/3.

44 المرزباني، معجم اشعراء ص 204، وانظر الكتاب 46/3.

45 انظر مثلاً الكتاب 389/1 فيه شاهد لعبد الرحمن بن حسان الخزرجي.
والكتاب 68/1 فيه شاهد لكعب بن جعيل التغلبي.

والكتاب 280/1 فيه شاهد لذي الرمة وهو مضري.

والكاب 118/3 وفيه شاهد ليزيد بن عمرو بن صعصعة.

والكتاب 78/3 فيه شاهد لطرفة بن العبد وهو من بكر بن وائل.

والكتاب 70/2 فيه شاهد لعروة بن الورد وهو من غطفان.

والكتاب 20/2 فيه شاهد لابن ميّادة المريّ وهو منسوب إلى غطفان.

والكتاب 424/1 فيه لأمرئ القيس وهو من كنده.

والكتاب 72/3 فيه شاهد للأعشى وهو من بكر بن وائل.

والكتاب 246/2 وفيه شاهد لعنترة بن شداد وهو من عبس.

والكتاب 256/1 وفيه شاهد لإبراهيم بن هرمة وهو من الشعراء المولدين.

46 الكتاب 279/1.

47 الكتاب 279/1.

48 الكتاب 307/1.

49 الكتاب 313/1.

50 الكتاب 279/1.

51 الكتاب 177/1.

52 الاقتراح ص44.

53 جمهرة أنساب العرب ص320.

54 .

55 .

قائمة المصادر والمراجع

(1) الأنباري، الإنصاف في مسائل الخلاف بين النحويين البصريين والكوفيين، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد، المكتبة التجارية الكبرى، القاهرة ط، 1961م.

(2) ثعلب، أبو العباس، مجالس ثعلب، تحقيق عبد السلام هارون، دار المعارف، مصر، ط3.

(3) الجاحظ، البيان والتبيين، تحقيق عبد السلام هارون، مؤسسة الخانجي، القاهرة.

(4) ابن جني، الخصائص، تحقيق محمد علي النجار، دار الكتاب العربي، بيروت.

(5) ابن حزم، أبو محمد علي بن أحمد الأندلسي، جمهرة أنساب العرب، دار الكتب العلمية، بيروت 1982م.

(6) ابن خلدون، المقدمة، المكتبة التجارية، مكة المكرمة 1994م.

(7) ذو الرمة، ديوان ذي الرمة، تحقيق د. عبد القدوس أبو صالح، مؤسسة الإيمان، بيروت 1982م.

(8) الزجاجي، الإيضاح في علل النحو، تحقيق مازن المبارك، دار النفائس، بيروت 1979 م.

(9) سيبويه، الكتاب، تحقيق عبد السلام هارون، الهيئة المصرية العامة، طبعة بولاق.

(10) السيوطي، جلال الدين الاقتراح، تحقيق أحمد محمد قاسم، جروس برس، 1988م.

(11) السيوطي، جلال الدين، المزهر في علوم اللغات وأنواعها، تحقيق محمد أبو الفضل وآخرين، عيسى البابي الحلبي، ودار الجيل ودار الفكر، المكتبة العصرية.

(12) السيوطي، جلال الدين، الإتقان في علوم القرآن، المكتبة التجارية الكبرى، دار الفكر، بيروت.

(13) الفارابي، كتاب الحروف، تحقيق محسن مهدي، دار المشرق، الطبعة الثانية 1990.

(14) الفارابي، كتاب الألفاظ، تحقيق محسن مهدي، دار المشرق.

(15) فروخ، د. عمر، تاريخ صدر الإسلام والدولة الأموية، دار العلم للملايين، بيروت 1970.

(16) ابن فارس، أحمد، الصاحبي في فقه اللغة، تحقيق مصطفى الشويمي، بيروت 1964م.

وقفه مع نبر بعض أوزان الماضي والمضارع

(دراسة وصفية)

وقفة مع نبر بعض أوزان الماضي والمضارع

(دراسة وصفية)

لا نظـــن أن وضع حد قاطع شامل لكلمة (نبر) أمر ميسور، وذلك لتعدد المعاني التـــي ذهـــب إليها العلماء عند البحث في هذا المصطلح، فمنهم من يستعمله رديفا لكلمة Stress[1] ومـــنهم مـــن يرى أنها تشمل معنى كلمة accent [2] ومنهم من يحصرها في الفونـــيم، وآخـــرون يوسعون دائرة إستعمالها لتشمل المقطع[3]، ولكنه في الحالات كلها، طاقـــة وجهد عضلي زائد يتم في مجرى الهواء من الرئتين إلى الفم بقصد إبراز صوت معين في إطار الكلمة المنطوقة[4]. فعند النطق بالصوت منبوراً، فإن أعضاء النطق تستعد وتـــتحفز، نشـــطة نشاطا واضحا يلمسه المتحدث، ويدرك أثره السامع، فضلا عن إدراك أثره بأجهزة قياس الأصوات. تندفع الرئتان الهواء، ويشتد الوتران الصوتيان، ويقتربان، فيســـمحان بمرور الهواء المندفع مضغوطاً ومنتظما، فتكبر بذلك سعة الذبذبات، فيُسمع الصوت واضحاً عالياً إذا ما قوبل بغيره من الأصوات السابقة أو اللاحقة. وهذا ما يسمى بالصـــوت المجهـــورVoiced soun، ولكـــن الوترين الصوتيين يتخذان وضعاً آخر في أصـــوات أخـــر، بـــأن يتباعدا قليلا فيسمحا بمرور كمية من الهواء أكبر من الكمية في وضـــعهما الســـابق، وقـــد يتـــباعدان كثيراً فتصدر كمية من الهواء أكبر من الوضعين السابقين، ويسمى الصوت في هاتين الحالتين الصوت المهموس. فالأصوات طبقاً لدرجة النطق بها ثلاث درجات، قوية ومتوسطة وضعيفة، تظهر في الكلام متشابكة متلاحمة[5] ، ففـــي العربـــية مـــثلا كلمة (مستحيل) مكونة من ثلاثة مقاطع، القوي هو مقطع (حيل)، والمتوسط هو (مس) والضعيف هو (ت)، وفي قوله تعالى:

"إذ قـــال يـوسف لأبيه يـا أبت إني رأيـت أحد عشـر كوكبا والشـمس والقـمر رأيـتهم لـي ساجديـن" "، فمن الواضح أن هناك أصواتا بارزة قوية في وقعها على الأذن هي في هذه الآية : (ق) (ي) (أ) (ش) (ق) (ل) (س)، كما هو مبين بعلامة النبر علـى الكلمات" والصوت المنبور مع ما قبله يمثل مقطعا صوتيا كثيرا ما يحافظ المتكلم علـى طولـه، وبخاصة في الشعر، وهو نوع مما يسمى نبر السياق[6] . ولكن المتكلم قد يوقـع النـبر علـى غير ما هو عليه، للتعبير عن انفعال عاطفي أو لتوكيد المعنى الذي تحتويه الكلمة المنبورة.

وهـناك نـوع آخـر من النبر (نبر الكلمة)، وهو موضوع هذه الدراسة، وهو يخضـع فـي بعض اللغات لقانون ثابت لا يخرج عليه كثيرا كما في العربية والفرنسية، وربمـا هو في لغات أخر كالإنجليزية لا يخضع لقاعدة ثابتة[7] ، وهو في العربية صرفي تشـكيلي. فـإن كانت مجموعة من الكلمات على ميزان صرفي واحد، فإن النبر في هذه الكلمـات يقـع علـى مكان واحد منها ومن ميزانها، فالكلمات: يصافح، يعادل، يساوي، يمارس، يحادث ... كلها على وزن (يفاعل)، والنبر فيها على الحرف المقابل (للفاء) في الميزان الصرفي.

واللغة العربية كغيرها من اللغات، فيها الحروف consonants وفيها الحركات Vowels . وللحروف دور في بناء الكلمة يختلف عن دور الحركات، وقد كان جُلّ اهتمام اللغويـين والنحاة العرب القدماء بالحركات، في نظرية العمل والعامل، فكانت عندهم أثراً لعامل معنوي أو لفظي، ورمزا لباب نحوي مرتبط بحالة إعرابية.

أما اهتمامهم بالحروف فقد كان واضحا جليا. وإن الناظر في كتاب (العين) الذي يعـد مؤلفه رائد الدراسات اللغوية في العربية، سيجد توزيعا للحروف بحسب مخارجها، أمـا الحـركات فهـي كمـا قـال فيها سيبويه (... ومنها اللينة وهي الواو والياء لأن مخـرجهما يتسع لهواء الصوت أشد من اتساع غيرهما كقولك: واي، والواو وإن شئت

أجريت الصوت ومددت. ومنها الهاوي، وهو حرف لين اتسع لهواء الصوت مخرجه أشد من اتساع مخرج الياء والواو، لانك قد تضم شفتيك في الواو وترفع في الياء لسانك قبل الحنك، وهي الألف، وهذه الثلاثة أخفى الحروف لاتساع مخرجها، وأخفاهن وأوسعهن مخرجا الألف، ثم الياء، ثم الواو)[8]. وقد أدرك السكاكي أهمية هذه الأصوات[9]، ولكنه لم يعطها العناية الكافية، وكانت عنايته بجهاز النطق أكبر[10]. أما ابن جني فالحركات عنده أبعاض الحروف[11]، "اعلم أن الحركات أبعاض حروف المد، وهي الألف والياء والواو، فكما أن هذه الحروف ثلاثة، فكذلك الحركات ثلاثة، وهي الفتحة والكسرة والضمة، فالفتحة بعض الألف والكسرة بعض الياء والضمة بعض الواو ... ويدلك على أن الحركات أبعاض لهذه الحروف أنك متى أشبعت واحدة منهن بعدها الحرف الذي هي بعضه، وذلك نحو فتحه عين عمر، فإنك إن أشبعتها نشأت بعدها ألف، فقلت عامر، وكذلك كسرة عين عنب، إن أشبعتها نشأت بعدها ياء ساكنة، وذلك قولك عينب، وكذلك ضمة عين عمر، لو أشبعته لأنشأت بعدها واوا ساكنة، وذلك قولك عومر، فلولا أن الحركات أبعاض لهذه الحروف وأوائل لها، لما تنشأت عنها، ولا كانت تابعة لها[12]" وهذا القول على الرغم مما فيه من فصل غير دقيق بين الحركات وحروف اللين من حيث طول الصوت، وكميته، وطبيعته[13] .. إلا أنه قد أدرك أن الحركات الطويلة تحتاج إلى كمية أكبر ودوام أطول duration ، وعبر عن هذا بقوله (أشبعت).

ولما كان النبر علوا في الصوت اللين الذي يصاحب الحرف، ولم تكن الدراسات اللغوية القديمة قد أولت هذا الصوت أهمية إلا في الحركة الإعرابية على آخر الكلمة أثرا لعامل – كما ذكرنا – فإننا لا نجد في الدراسات اللغوية القديمة تجسيدا للنبر[14]. لذا نجد لزاما أن نعمد إلى بعض اللهجات المعاصرة، أو إلى قراءة بعض القراء، أو إلى نطق المتعلمين لنتبين مواضع النبر، ونحاول وضع مخطط لها يساعد المتعلم غير العربي بخاصة على تلمس خطاه ورسم طريقه.

للنبر في اللغة الإنجليزية وظيفة صرفية، يتم به تحويل الكلمة من باب صرفي إلى باب صرفي

آخر، فمثلا record في الإنجليزية اسم أما record فهي فعل، وكلمة rebel اسم أما rebel ففعل، ولهذا جرت المعاجم بالإنجليزية على وضع العلامة (،) على الحرف موضع النبر لإبراز الباب الصرفي الذي تلتحق به. أما في العربية فإن نبر الكلمة يبقى غالبا في مكانه من الكلمة، فمثلا كلمة (ناقش) فإن النبر يقع على أول الكلمة، ولا دور له في تغيير هذه الكلمة من فعل إلى اسم، فلا نقول مثلا (ناقش) بوضع النبر على المقطع الثاني، لتحويل الكلمة من قسم الفعل إلى قسم الاسم. ولما كانت هذه إحدى خصائص النبر في العربية، فإن أهمية النبر غدت ملحة في تعليم العربية لغير الناطقين بها، الأمر الذي أخذت الحاجة إليه تزداد إلحاحا وأهمية يوما بعد يوم، بازدياد اختلاط العرب بغيرهم، وبإدراك غير العرب ما لهذه اللغة وللناطقين بها من حضارة وفكر. فقد أخذ العلماء يوجهون الاهتمام لدراسة النبر في اللغة العربية في أواسط هذا القرن، وبعد أن نشرت القواعد المسماة قواعد Harrel أو قواعد McCarus - Yacoub[15]، أو قواعد Mitchell، ولكن أمر تطوير هذه الدراسة اقتصر على نفر قليل من المتخصصين في علم اللغة، وربما كانت المحاولة التي وضعها الدكتور تمام حسان في كتابه (اللغة العربية، مبناها ومعناها) من أشمل المحاولات وأكثرها انسجاما مع معطيات علم اللغة المعاصر[16]، فالنبر أولي وثانوي، والأولى في العربية يكون:

1- على المقطع الأخير في الكلمة إذا كان هذا المقطع مكونا من (o – o) (صوت صحيح + حركة طويلة + صوت صحيح) مثل المقطع (عان) من الكلمة (استعان). أو (o – oo صحيح + حركة قصيرة + صحيح + صحيح) مثل المقطع (رد) من الكلمة (استرد).

2- على المقطع الذي قبل الأخير وذلك:

أ) إذا كان ما قبل الأخير متوسطا والمقطع الأخير (o –)

مثل: أخرجت، حذار. أو (o – o) مثل: قائل، معلّم

ب) إذا كـــان ما قبل الأخير قصيرا بدئت به الكلمة، مثل: كتب، أو سبقه المقطع الأقصـــر ذو الحرف الوحيد الساكن، أو يُتوصل إلى النطق به بهمزة الوصل، مثل: انحبس، انطلق.

ج) إذا كان ما قبل الآخر طويلا اغتفر فيه التقاء الساكنين ولم يكن الأخير طويلا مثل: أتحاجوني.

2) على المقطع الثالث الآخر، إذا كان:

أ) قصيرا متلواً بقصيرين: علمك، لن يصل

ب) قصيرا متلواً بقصير ومتوسط: لم يصل

ج) متوسطا متلواً بقصيرين: لم ينته

د) متوسطا متلواً بقصير ومتوسط: بينكم، ابتسامة.

وقــد أورد الدكــتور إبراهــيم أنيس[17] عددا من القواعد تماثل هذه القواعد في نتائجها إلى حد كبير وإن كانت تقل عنها استقصاء وشمولا، ولكن أياً من هذين الباحثين لــم يذكــر أنــه قد اعتمد في جمع مادته لهذه القواعد على قراءة غير القراء القاهريين للقرآن الكريم[18]، ولم يذكر أحدهما المراحل التي قام فيها بجمع مادة الاستقراء وأمثلته، ولا شــيئاً عن الأجهزة إن كانا قد استعملا أجهزة. ويبدو واضحا أن الدكتور تمام حسان قــد قامــت دراسته على نبر المقطع، ولم يفصل بين الفعل والأداة وما كانا على ميزان صــرفي، فلا سبيل عنده للوصول إلى النبر (... الذي لا يمكن شرحه إلا بمعونة البنية المقطعية في نظام الصرف من جهة، وفي الكلام العربي من جهة أخرى) [19] والسبب عنده أيضا (أن عدد المقاطع أقل بكثير جداً من عدد الصيغ الصرفية، فيؤدي استعمال المقاطع فــي تحديد قواعد النبر إلى أن يكون عدد القواعد قليلا، وأن يكون الكلام فيها مختصراً، وقلــة القواعد وسهولة ضبطها مرغوب فيهما على أي حال) [20]. وربما كانت الرغبة في حصر قواعد النبر في عدد قليل قد أدت إلى إغفال بعض الأمثلة، أو إدراجها في قاعدة لا

تنطــبق علــيها تمامــاً، ككلمة (أقنعنا)وما يأتي على وزنها، النبر فيها على العين) أثرا للاصقة (الضمير)، في حين يقع طبقاً للقاعدة (3/ب) على (السين)، وكذلك الكلمة (عليّ) النــبر فــيها علــى (الياء) كما يبدو من رسم جهاز رسم النبر، في حين إن النبر طبقا للقــاعدة (2/أ) يكون على اللام، وذلك لأن الإدغام في العربية يختلف عن تكرار الصوت فــي الإنجلــيزية illegal التــي هي ili:gal لذا فلابد عند دراسة النبر من الأخذ ببعض العناصــر الصــوتية كالادغــام والتجانس في الحروف المتلاحقة، والسكون والحركات الطويلــة والقصــيرة. وسنحاول هنا أن نضع عددا من قواعد النبر في الأفعال الماضية والمضارعة المجردة والمزيدة، وفي حال وجود لواصق الضمائر فيها وخلوها منها، كما ظهرت في عدد كبير من النماذج بقراءة خمسة من المتعلمين الأردنيين، وبمقابلة النتائج بقراءة ثلاثة من الماليزيين واثنين من الباكستانيين، ثم بمقابلة نتائج هذا كله بقراءة عدد من قراء القرآن المصريين ترتيلاً.

إن مــن يــدرس أبــواب النحو العربي دراسة متأنية، لابد أن يطرح عددا من الأســئلة التــي تتعلق بالقيمة الدلالية للحركة الإعرابية بعامة، وللفتحة في بعض أبواب الــنحو العربــي بخاصة (الإغراء والتحذير والاسم المنصوب في صيغة التعجب ما أفعل، وفــي الاســم المنصــوب بعــد واو المعية، والفعل المضارع المنصوب بعد الواو، وفي المفعول المطلق ... وغيرها)[21]. وإذا كان الدارس العربي يدرك ذلك ويجد له تسويغاً في نظــرية العامل والمعمول، فإن الدارس غير الناطق بالعربية لا يجد من اليسير أن يدرك أن الفتحة أثراً لعامل معنوي لا يجوز إظهاره في بعض الحالات. فيتساءل إن كان العربي القديم عرف العامل (بنوعية) أم أنه كان يعبر عما في ذهنه سليقة، فيصيب المعنى الذي يريد بتغيير في بعض أصوات كلمات الجمل.

أمــا السكون وهو صوت مثل بقية الأصوات، فقد استعمل كثيرا في كلمات فيها معــنى القــوة فــي الردع أو الزجر، أو تصوير الحدث، كما في أسماء الأفعال وأسماء الأصــوات عند النطق بها منفصلة[22]. : كخ، نخ، سأ، قب، عدس، طاق، صه، وله أثره فــي نــبر الكلمــة، كمــا أن للفتحة، والضمة والكسرة أثرها. وهنا نضع الأمثلة التالية

لبيان أثر كل من الحركات في تحديد النبر، مراعين في ذلك تماثل الحروف واختلاف الحركات:

	1	2	3	4	5	6	7
	×	×	×	×	×	×	×
للمعلوم:	شَرِبَ	يَشْرَبُ	وَجَدَ	أَكْرَمَ	يكرم	ينسحب	استنبط
	×	×	×	×	×	×	×
للمجهول:	شُرِبَ	يُشْرَبُ	وُجِدَ	أُكْرِمَ	يُكْرَمُ	يسحب	استنبط

فقد وقع النبر كما ترى، وكما ظهر من قراءة القراء، معظمهم في مكان واحد. ففي المثال السابع، مثلا، وقع النبر في الكلمتين على الحركة التي فوق حرف التاء، في حين أن الفتحة في الكلمة الأولى ليست قوية كالضمة المنبورة. وكذا الحال في الكلمات في الأمثلة الأخرى، مما يشير بوضوح إلى أن اختلاف الحركات لا يؤدي إلى تغيير مواقع النبر في الكلمات، وإلى ارتفاع الحركة أو طولها (حيث إن صوت الكسرة أطول من صوتي الفتحة والضمة، وإن الأصوات الصامتة **consonants** تختلف طولا وعلوا فيما بينها اختلافا ليس من اليسير تمييزه بالأذن) [23].

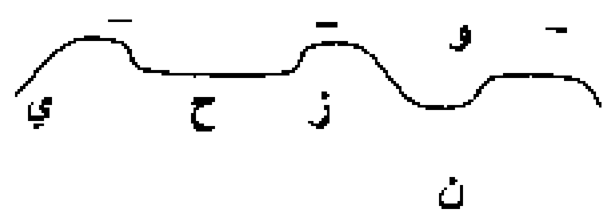
ونقدم في التجربة التالية مقابلة بين ما يسمى الحركات الطويلة ـ الألف والواو والياء ـ لإظهار موضع النبر معها على الكلمات:

	1	2	3	4	5
	×	×	×	×	×
للمعلوم:	ناقش	قال	يبيع	(يزكي)	استعان
	×	×	×	×	×
للمجهول:	نوقش	قيل	يباع	يزكو	استعين

فمـــن الواضح أن أصواتها أقوى وأطول من أصوات الحركات القصيرة، لذا فقد وقـــع النـــبر في الأمثلة: (1، 2، 3، 5) على الحركات الطويلة وليس على القصيرة، أما المـــثال رقـــم (4) فـــإن مما يشد الانتباه فيه، أن السكون التي هي صوت ساكن، يعطي الحركة السابقة عليه قوة وطولا، فلو وضعنا الرسم التالي توضيحاً للكلمة منطوقة لكانت القمم في موجاته هي مواقع الحركات، وأما النقاط المنخفضة فهي مواضع الحروف؛ لأن الحركات أعلى من الحروف. فمثلا كلمة (حَزَنَ) تظهر هكذا:



أما الكلمات التي فيها أصوات ساكنة مثل (يَحْزَنْ) فإنها ستظهر هكذا:



يـــدوم صوت الفتحة الواقعة على حرف الياء حتى النطق بالحاء، أما إذا نظرنا إليه طبقا لمـــنهج المقطـــع، فـــإن هذا المقطع يستمر من صوت الياء المنخفض إلى صوت الزاي المـــنخفض، في حين لم يستمر صوت (زَ) و (نْ) استمرار هذا المقطع، ولم يبلغا طوله ولا علوه. إذاً، فلابد أن تكون السكون الواقعة على حرف (الحاء) عاملا مهماً في تحديد موقـــع النـــبر، الذي يقع هنا على صوت الفتحة على حرف (الياء)، فسببت هذه السكون امتدادا في صوت الفتحة، والنبر عادة يقع على صوت عالٍ أو طويل.

وهنا نضع عددا من الأمثلة التي فيها سكون وخالية من الحركات الطويلة، لنرى أثر السكون في تحديد النبر دون أن تنازعه هذا الأثر الحركات الطويلة ذات القوة والأثر الواضح في تحديد النبر:

1	2	3	4	5	6
×	×	×	×	×	×
لم يــرم	خــفت	أكْرَمَ	وَجَــدْتُ	انْسَــحَبَ	يَنْسَــحِبُ
×	×	×	×	×	×
لم يــدَعْ	بــعْتُ	يُــكْرِمُ	رَمَــيْتُ	اجْتَــمَعَ	يَجْتَــمِعُ
×	×	×	×	×	×
لم يــخْشَنَ	قــلْتَ	يَــضْرِبُ	يَقُــلْنَ	اسْتَــمَعَ	يَسْتَــمِعُ

ففــي المجموعتيــن (1، 2) هــناك سـكون قبلها حرف متحرك وبعدها حرف مــتحرك، ويقع النبر فيها على الصوت الذي قبل السكون، مع أن المجموعة (2) تختلف عن مجموعة (1) في أنها أخذت الضمائر المتحركة لاصقة لاحقة، ولكنها، كما يبدو، لم تكــن ذات أثــر في تحديد موقع النبر، فلا يختلف دورها عن دور أية حركة أخرى. أما المجموعــة الثالثة ففي أمثلتها سكون قبلها حركة وبعدها حركتان، والمجموعة الرابعة فإنهــا عكــس الثالــثة، والنــبر في هذه المجموعات الأربع يقع على الحركة التي قبل الســكون، ممــا يشــير بوضـــوح إلــى دور الســكون فــي تحديــد النــبر. وإذا مــا التفتــنا إلــى المجموعتيــن الخامسة والسادسة، حيث توجد السكون وبعدها ثلاث حــركات، فإنــنا نجــد أن الحــركة التــي قــبل السكون قد أصبحت ذات صوت ضعيف لا يصــلح موضــعا للنــبر، وأن النــبر الأولى يقع على أولى الحركات الثلاث التي تلي السكون.

أما الإدغام فإنه عامل رئيس وذو دور واضح في تحديد موضع النبر في الكلمة، وهنا نثبت عدداً من الأمثلة، تبين ذلك:

1	2	3	4	5	6	7	8
×	×	×	×	×	×	×	×
عَلَّمَ	تَعَلَّمَ	يُعَلِّم	يَتَعَلَّمُ	اعْوَرَّ	يَعْوَرُّ	اقْشَعَرَّ	يَقْشَعِرُّ
×	×	×	×	×	×	×	×
فَتَّشَ	تَكَلَّمَ	يُفَتِّشُ	يَتَكَلَّمُ	احْمَرَّ	يَحْمَرُّ	اطْمَأَنَّ	يَطْمَئِنُّ
×	×						
اعْلَوَّطَ	يَعْلَوِّطُ						
×	×						
اجْلَوَّذَ	يَجْلَوِّذُ						

فالنبر يقع على الحركة التي قبل الحرف المضعف.

مـــن كل ما سبق نستطيع أن نحدد أهم العوامل التي تتحكم في النبر وموقعه في الكلمـــة العربيـــة، وهي: الحركات الطويلة (الألف والواو والياء)، والسكون، والحركات القصـــيرة الثلاث المتتابعة، والإدغام، وهي عوامل متباينة في دورها وأثرها. ونثبت هنا نـــتائج دراســـة عـــدد كبـــير من الأمثلة لتوضيح موقع النبر في أوزان الأفعال الماضية والمضـــارعة حيـــن اجـــتماع بعـــض هذه العوامل في كلمة، مستعينين بلواصق الأفعال ولواحقها Prefix ، Suffix لتحقيق الأمثلة المطلوبة:

(1) إذا اجتمعت السكون وثلاث حركات قصيرة متتابعة في كلمة واحدة، فالنبر على أول الحركات القصيرة:

×	×
انْسَحَبَ	يَنْسَحِبُ
×	×
اجْتَمَعَ	يَجْتَمِعُ

(2) إذا اجتمعت السكون والإدغام فالأمر كما يلي:

	×	×		×		×
	اعْوَرَّ	وَجَدْتُنَّ		عَلَّمَتْ		عَلَّمْتَ
	×	×		×		×
	يَعْوَرُّ	رَمَيْتُنَّ		عَلَّمْنَا		عَلَّمْتُمْ
	×	×		×		×
1-	اطْمَأَنَّ	خِفْتُنَّ	2-	تَعَلَّمَتْ	3-	اعْوَرَرْتَ
	×	×		×		×
	اعْلَوَّطَ	اسْتَحْبَبْتُنَّ		تَعَلَّمْنَ		تَعَلَّمْتَ
	×	×		×		×
	يَطْمَئِنُّ	(اعْلَوَّطْتُنَّ)		يَعْلَمْنَ		تَعَلَّمْتُمْ

فـإذا جاء الإدغام متأخراً، فتأثيره في تحديد موقع النبر أقوى من السكون، إذن فالنـبر على الحركة التي تسبق الحرف المضعف كما في المجموعة الأولى. أما إذا كانت السكون متأخرة، فالنبر على الحركة التي بعد السكون، كما في المجموعة الثانية، أي أن الـدور في تحديد موقع النبر للمتأخر منهما. يوضح ذلك كلمة: (اعْلَوَّطْتُنَّ) التي تحتوي علـى أربعـة عوامـل: ادغامين وسكونين، والنـبر فـيها علـى الحركة التي قبل الادغـام الأخير. أما إذا كان آخر الكلمة ساكناً ـ كما في أمثلة المجموعة الثالثة ـ فإن هـذه السـكون ليسـت بـذات أثـر فـي تحديـد النـبر. والأثر للعامل الذي يسبقها. وهـذه النتـيجة تقرر نتيجة أخرى مترتبة عليها، وهي تبدو في الأمثلة والتطبيقات في البنود اللاحقة؛ أي أنه إذا اجتمع عدد من عوامل النبر فتأثير العامل الأخير يكون أوضح وأقوى.

3- إذا اجتمع الإدغام والحركات الطويلة:

1	2	3	4
×	×	×	×
يُعَلِّمَـــانِ	عَـــلَّمَا	نَاقَشْتُـــنَّ	يَعْوَارَّانِ
×	×	×	×
تُعَلِّمُـــونَ	عَـــلَّمُوا	تَجَاهَلْتُـــنَّ	يَعْوَارُّونَ
×	×		
يَتَعَلَّمُـــونَ	تَعَـــلَّمَا		
×	×		
يَطْمَئِنَّـــانِ	تَعَـــلَّمُوا		

فالنبر في المجموعة الأولى يقع على الحركة الطويلة، لأنها في الأمثلة متأخرة عـــن الإدغام، أما في المجموعة الرابعة فقد تعددت العوامل في الكلمة الواحدة (السكون والإدغـــام والحركـــتان الطويلـــتان) فوقـــع النـــبر على الحركة الطويلة المتأخرة. وفي المجموعـــة الثالـــثة جاء الإدغام متأخرا، فوقع النبر على الحركة التي قبله. لكن كلمات المجموعة الثانية قد خالفت القاعدة المفترضة، إذ يبدو أن تأثير العامل المتقدم أقوى من المـــتأخر، وقد وقع النَّبر على الحركة التي قبل الإدغام، وليس على الحركة الطويل، مما يجعلـــنا نعـــيد النظر في هذه القاعدة لتكون: السكون والإدغام والحركات الطويلة وثلاث حركات قصيرة متتابعة هي عوامل أربعة تؤثر في تحديد موقع النبر في الكلمة العربية، وإذا تكرر عامل، واحد أو إذا تعددت العوامل في كلمة واحدة فأيٌّ منها جاء متأخراً كان تأثـــيره في النبر أقوى، إلا إذا كان آخر الكلمة ساكناً أو حركة طويلة، فنعامل الكلمة كما لو لم تكن السكون أو الحركة الطويل موجودتين.

4- إذا اجتمعت السكون والحركة الطويلة:

1	2	3	4
×	×	×	×
نَاقَـشْتَ	تَرْمِيَـان	نَــاقَشْتَ	نَاقَـشْنَا
×	×	×	×
تَجَاهَـلْنَ	يُكْرِمُــونَ	تَجَــاهَلْتَ	تَجَاهَـلْتُمَا
×	×		×
تُنَاقِـشْنَ	يَجْتَمِعُـونَ		انْسَحَبْـتُمَا
	×		×
	تَسْتَنْبِطَــانِ		اسْتَـنْـبَطُوا

فالنـــبر في هذه المجموعة الأولى يقع على حركة ما قبل السكون، لأن السكون جــاءت متأخرة عن الألف، أما في الثانية فيقع على الحركة الطويلة لأنها متأخرة، وفي الثالثة والرابعة حيث تنتهي الأمثلة كلها بالسكون أو الحركة الطويلة، فالنبر لا يقع على ما قبل هذه السكون أو على الحركة الطويلة، بل يقع على حركة

×

ما قبل العامل الذي سبقهما نحو (تَجَاهَــلْتُمَا) فالنبر لا يقع على الفتحة التي فوق حرف الميم بل على الفتحة التي فوق حرف الهاء.

نتائج وقواعد

بعـد أن بينـا عوامـل النـبر وتطبـيقها في عدد من أوزان الأفعال الماضية والمضارعة فإننا نستطيع أن نضع القواعد التالية:

1- إذا كــان وزن الفعل أقلّ من ثلاثة أحرف، أو ثلاثة أحرف آخرها حرف علة، فإن النبر يقع على أولها.

نعلــم أن أوزان الأفعال الماضية أو المضارعة في العربية لا تأتي أقل من ثلاثة أحــرف إلا إذا كان الفعل مضارعاً لفيفا مفروقا متأثرا بالجوازم، نحو: لم يَقِ، لم يَفِ، لم

يَــرَ. ففــي هذه الحالة يقع النبر على أولى الحركتين، كذلك في الماضي الثلاثي الناقص الخالي من اللواحق، نحو: رَمَى، دَعَا، لأن العرب حيث تنطق لا تجعل نهاية الكلمة صوتا منــبورا إلا إذا كانــت الكلمة واقعة في وسط الكلام، وهذا ميدان البحث في النبر الدلالي intonation [24] وليس هذا موضع هذه الدراسة.

ومــن المعلوم أيضاً أن أوزان الأفعال لا تكون أكثر من ستة أحرف (استعان) إلا إذا أضـيفت إليها سوابق أو لواحق Suffexs ، Prefexs ، وحينئذ فإنها لا تتجاوز عشرة أحرف (ليستنبطنان) حين تلحق بنون النسوة ونون التوكيد الثقيلة معا. وسنعرض هذا ومثله بعد قليل.

2- إذا كــان وزن الفعل ثلاثة أحرف متحركة، فإن النَّبر يقع على أولها كما في البنود التالية:

أ) في الفعل الماضي الثلاثي المجرد؛ الصحيح أو المثال، للخالي من اللواحق نحو:

× × × ×

وَجَدَ، شَرِبَ، كَرُمَ، ذَهَبَ

ب) في الفعل المضارع الثلاثي محذوف الفاء، الخالي من اللواحق، نحو:

× × × ×

يــجِدُ، تَــجِدُ، نَــجِدُ، أَجِــدُ

ج) في صيغة المجهول للأفعال المذكورة في البند رقم (1) نحو:

× × ×

شُرِبَ، ضُرِبَ، وُجِدَ

3- إذا كــان في الفعل عامل واحد وهو السكون، فالنَّبر يقع على حركة ما قبل هذا العامل، ومواضعه كما يلي:

أ) في الفعل الماضي الثلاثي التحقت به الضمائر المتصلة المتحركة

اللواصق

	التاء المتحركة			نون النسوة
	×	×	×	×
المثال	وَجَدْتَ	وَجَدْتِ	وَجَدْتُ	وَجَدْنَ
	×	×	×	×
الأجوف	قُلْتَ	قُلْتِ	قُلْتُ	قُلْنَ
	×	×	×	×
الناقص	رَمَيْتَ	رَمَيْتِ	رَمَيْتُ	رَمَيْنَ
	×	×	×	×
الصحيح	شَرِبْتَ	شَرِبْتِ	شَرِبْتُ	شَرِبْنَ

ب) في الفعل الماضي الثلاثي، الصحيح أو المثال، الخالي من اللواحق وزيدت فيه همزة القطع، نحو

× × ×

أَكْرَمَ، أَسْلَمَ، أَوْجَدَ.

ج) في الفعل المضارع المجرد الخالي من اللواحق:

	×	×	×	×
الصحيح:	يَشْرَبُ	تَشْرَبُ	أَشْرَبُ	نَشْرَبُ
	×	×	×	×
المثال عينه مفتوحة:	يَوْجَعُ	تَوجَعُ	أَوْجَعُ	نَوْجَعُ

د) في الفعل المضارع الثلاثي المزيد بهمزة قطع محذوفة أو مثبتة، وحروفه صحيحة وخال من اللواحق نحو:

× × × ×

يُكْرِمُ، تُكْرِمُ، أُكْرِمُ، نُكْرِمُ

هــ) في الفعل المضارع الثلاثي المجرد الذي التصقت به نون النسوة، كما يلي:

	×	×
الفعل المثال فاؤه محذوفة	يَجِدْنَ	تَجِدْنَ
	×	×
عينه واو محذوفة	يَقُلْنَ	تَقُلْنَ
	×	×
عينه ياء محذوفة	يَبِعْنَ	تَبِعْنَ
	×	×
عينه ألف محذوفة	يَخَفْنَ	تَخَفْنَ

و) في الفعل الرباعي الخالي من اللواحق، كما يلي:

المجرد		المزيد	
الماضي	المضارع	الماضي	المضارع
×	×	×	×
تَرْجَمَ	يُتَرْجِمُ	تَدَحْرَجَ	يَتَدَحْرَجُ
×	×	×	×
دَرْبَخَ	يُدَرْبِخُ	تَجَلْبَبَ	يَتَجَلْبَبُ
×	×	×	×
بَيْطَرَ	يُبَيْطِرُ	تَرَهْوَكَ	يَتَرَهْوَكُ

ز) صيغ المجهول لبعض من الأفعال المذكورة في البنود أعلاه، كما يلي:

× × × ×

يُكْرَمُ، يُبَعْنَ، تُضْرَبُ، يُتَرْجَمُ

4) إذا كـــان في الفعل عامل واحد وهو الحركة الطويلة، فالنبر يقع عليها، وهذا يبدو في المواضع التالية:

أ) ثلاثي مجرد أجوف خال من اللواحق:

× × × × ×

عينه في المضارع واو قَـــالَ يَقُـــولُ تقُـــولُ نقُـــولُ أقُـــولُ

× × × × ×

عينه في المضارع ياء بَـــاعَ يَبِيـــعُ تبِيـــعُ نبِيـــعُ أبِيـــعُ

× × × × ×

عينه في المضارع ألف خَـــاف يَخَـــافُ تخـــافُ نَخَـــافُ أخَـــافُ

ب) ثلاثي مزيد، زيد فيه ألف، خال من اللواحق، نحو:

× × × × ×

نَاقَشَ، يناقِشُ، تناقِشُ، أناقِشُ، نناقِشُ،

ج) ثلاثي مزيد، زيد فيه حرفان أحدهما الألف، خال من اللواحق، مثل:

× × × × ×

تَجَاهَلَ، يَتَجَاهَلُ، تَتَجَاهَلُ، أتَجَاهَلُ، نَتَجَاهَلُ

د) مضـــارع ثلاثـــي مجرد، فاؤه واو محذوفة، يلحق بياء المخاطبة أو ألف الاثنين أو واو الجماعة، نحو:

× × × × ×

تَجِديـــنَ، تَجِدانِ، يَجِدانِ، تَجِدونَ، يَجِدونَ

هـــ) مضارع ثلاثي مزيد (زيدت فيه همزة قطع محذوفة، وفاؤه واو، نحو:

× × × ×

يُـــوجِدُ، تُـــوجِدُ، أوجِدُ، نُـــوجِدُ

و) صيغ المجهول للأفعال المذكورة أعلاه، مثل:

× ×

يُـوجَدُ، تُـوجَدُ،

× ×

قِيـلَ، بِيـعَ،

× ×

يُقَـالُ، يُبَـاعُ،

× × ×

نُـوقِشَ، يُنَـاقَشُ، تُنَـاقَشُ

5) إذا كـان فـي الفعـل عامل واحد وهو الإدغام، فالحركة التي قبل الحرف المضعف تكون موضع النبر، وذلك في الصيغ التالية:

أ) في الفعل الثلاثي المزيد مضعف العين، الخالي من اللواحق، مثل:

× × × × ×

عَلَّـمَ يُعَـلِّمُ تُعَـلِّمُ أُعَـلِّمُ نُعَـلِّمُ

× × × × ×

تَعَـلَّمَ يَتَعَـلَّمُ تَتَعَـلَّمُ أَتَعَـلَّمُ نَتَعَـلَّمُ

ب) في الفعل الثلاثي المجرد، فاؤه واو محذوفة، تلحق به نون التوكيد الثقيلة نحو:

× × × ×

يَجِـدَنَّ، تَجِـدَنَّ، أَجِـدَنَّ، نَجِـدَنَّ

6) إذا كثرت حركات طويلة في فعل واحد فالنبر يقع على الأخيرة، وذلك في:

أ) مضارع ثلاثي أجوف تُحلق به ياء المخاطبة، أو ألف الاثنين، أو واو الجماعة:

الضمائر / عين الفعل	ياء المخاطبة	ألف الاثنين		واو الجماعة	
	×	×	×	×	×
الواو	تَقُولِينَ	يَقُولانِ،	تَقُولانِ،	يقولون،	تقولون
	×	×	×	×	×
الألف	تَخَافِينَ	يَخَافَانِ،	تَخَافَانِ	يخافون،	تخافون
	×	×	×	×	×
الياء	تَبِيعِينَ	يَبِيعَانِ،	تبيعان	يبيعون،	تبيعون

ب) مضارع ثلاثي مزيد ومن حروف الزيادة فيه الألف، وتلحق به ياء المخاطبة، أو ألف الاثنين، أو واو الجماعة، مثل:

اللواحق / صيغة الفعل	ياء المخاطبة	ألف الاثنين		واو الجماعة	
	×	×	×	×	×
زيد فيه حرف واحد	تناقشين	تناقشان،	يناقشان	تناقشون،	يناقشون
	×	×	×	×	×
زيد فيه حرفان	تتجاهلين	تتجاهلان،	يتجاهلان	تتجاهلون،	يتجاهلون

7- إذا وردت السكون في فعل واحد أكثر من مرة فالنبر يقع على الحركة التي قبل السكون الأخيرة، كما يلي:

أ) مضارع ثلاثي صحيح تلحق به نون النسوة، مثل:

× × × ×

يَشْرَبْنَ، تَشْرَبْنَ، يَكْتُبْنَ، تَكْتُبْنَ

ب) ثلاثـــي مـــزيد زيد فيه حرف أو حرفان أو ثلاثة أحرف، وتلحق به ضمائر متصلة متحركة، مثل:

زمن الفعل	المضارع		الماضي			
ما يلحق به	نون النسوة		التاء المتحركة			نون النسوة
صيغة الفعل						
زيد فيه حرف	يُكْــرِمْنَ،	تُكْــرِمْنَ	أكْــرَمْتُ،	أكْــرَمْتَ،	أكْــرَمْتِ	أكْــرَمْنَ
زيد فيه حرفان	يَجْتَمِــعْنَ،	تَجْتَمِــعْنَ	اجْتَمَــعْتُ	اجْتَمَــعْتَ،	اجتمــعْتِ	اجْتَمَــعْنَ
	يَنْسَحِــبْنَ،	تَنْسَحِــبْنَ	انْسَحَــبْتُ	انْسَحَــبْتَ،	انْسَحَــبْتِ	انْسَحَــبْنَ
زيـــد فيه ثلاثة أحرف	يَسْتَنْبِــطْنَ،	تَسْتَنْبِــطْنَ	اسْتَنْبَــطْتُ	اسْتَنْبَــطْتِ، اسْتَنْبَــطْتَ		اسْتَنْبَــطْنَ

ج) ثلاثي مزيد، زيد فيه ثلاثة أحرف، خال من اللواصق، مثل:

اسْتَــنْبَطَ، تَسْتَــنْبِطُ، يَسْتَــنْبِطُ، نَسْتَــنْبِطُ، اسْتَــنْبِطْ

د) رباعي مجرد ألحقت به ضمائر متحركة، كما يلي:

تَرْجَــمْتُ ترجــمْتَ ترجــمْتِ ترجــمْنَ يُترجــمْنَ، تترجــمْنَ

هـ) رباعي زيد فيه حرف واحد ولحق به ضمائر متحركة، نحو:

× × × × × ×

تجوربتَ، تجوربنَ، تجوربتُ، تجوربتِ، يتجوربن، تتجوربنَ

8- إذا تعددت العوامل في فعل واحد، فالمتأخر منها يكون أقوى العوامل، كما يلي:

أ) الإدغام هو العامل المتأخر كما في المواضع التالية:

(1) في مختلف الأوزان الماضية التي تلحق بضمير المخاطبات، نحو:

× × × × × ×

وَجدتــنَّ، قُلتــنَّ، رَمَيتــنَّ، شَرِبتــنَّ، عَلِمْــتُنَّ، نَاقَشْــتُنَّ،

× × × × × ×

أكرَمْــتُنَّ، تَعَلَّمْــتُنَّ، تَجَاهَلْــتُنَّ، انْسَحَبْــتُنَّ، اجْتَمَعْــتُنَّ، استَنْبَــطْتُنَّ،

× ×

تَرْجَمْــتُنَّ اطْمَأْنَنْــتُنَّ

(2) في الفعل المضعفة لامه، والخالي من اللواحق، مثل:

× × × × × × × ×

إعْــوَرَّ يَعْــوَرّ تعــورّ نعــورّ أعْــوَرُّ اطمــأنَّ يطمئــنّ تطمئــنّ

× ×

اطمئــنّ نطمئــنّ

(3) مضارع لحقت به نون التوكيد الثقيلة، نحو

× × × ×

يضربــنّ يَضْرِبــانّ تَضْرِبُــنّ تَضْرِبِــنّ

× × × ×

تضربْنَ تضربانِ تَضْرِبَانِ يَضْرِبَانِ

× ×

أضربْنَ نضربْنَ

ب) السكون هو العامل المتأخر، وذلك في مختلف الأوزان التي تلحق بضمائر متحركة:

اللواحق / صيغة الفعل	تاء متحركة			نون النسوة		
زيد فيه حرف	× عَلَّمْتُ	× عَلَّمْتَ	× عَلَّمْتِ	× عَلَّمْنَ	× يُعَلِّمْنَ	
	× نَاقَشْتُ	× نَاقَشْتَ	× نَاقَشْتِ	× نَاقَشْنَ	× يُنَاقِشْنَ	
زيد فيه حرفان	× تَعَلَّمْتُ	× تعلَّمْتَ	× تعلَّمْتِ	× تعلَّمْنَ	× يَتَعَلَّمْنَ	
	× تَجَاهَلْتُ	× تَجَاهَلْتَ	× تَجَاهَلْتِ	× تَجَاهَلْنَ	× يَتَجَاهَلْنَ	× يَتَجَاهَلْنَ
زيد فيه ثلاثة أحرف	× اعلوّطْتُ	× اعلوّطْتَ	× اعلوّطْتِ	× اعلوّطْنَ	× يَعْلَوّطْنَ	

ج) الحـــركة الطويلة هي العامل المتأخر، وذلك في مختلف الأوزان التي تلحق بياء المخاطبة أو ألف الاثنين أو واو الجماعة، كما يبدو ذلك واضحاً في الأمثلة التالية:

اللواحق / صيغة الفعل			واو الجماعة		ألف الاثنين		ياء المخاطبة
الثلاثي	المجرد	صحيح	× يشربون	× تشربُون	× يشرَبَان	× تَشربان	× تَشرَبِين
		معتل	× يرمُون	× ترمُون	× يرميان	× ترميان	× ترمين
	المزيد	زيد فيه حرف	× تعلّمون	× يعلّمون	× يعلّمان	× تعلّمان	× تعلّمين
			× يكرِمون	× تكرِمُون	× يكرمان	× تكرمان	× تكرمين
		زيد فيه حرفان	× يتعلّمون	× تتعلّمون	× يتعلّمان	× تتعلمان	× تتعلّمين
			× ينسحبون	× تنسحبون	× ينسحبان	× تنسحبان	× تنسحبين
			× يجتمعون	× تجتمعون	× يجتمعان	× تجتمعان	× تجتمعين
			× يعورّون	× تعورّون	× يعورّان	× تعورّان	× تعورّين
		زيد فيه ثلاثة أحرف	× يستنبطون	× تستنبطون	× يستنبطان	× تستنبطان	× تستنبطين
الرباعي	المجرد		× يترجمون	× تترجمون	× يترجمان	× تترجمان	× تترجمين
	المزيد	زيد فيه حرف	× يتجوربون	× تتجوربون	× يتجوربان	× تتجوربان	× تتجوربين
		زيد فيه حرفان	× يقعنسون	× تقعنسن	× يقعنسان	× تقعنسان	× تقعنسين

د) الحركات الثلاث القصيرة المتتابعة هي العامل الأخير، وذلك في ثلاثي مزيد، زيد فيه حرفان خال من اللواحق أو الإدغام، نحو:

انْسَحَبَ	يَنْسَحِبُ	تَنْسَحِبُ	أَنْسَحِبُ	نَنْسَحِبُ
اجْتَمَعَ	يَجْتَمِعُ	تَجْتَمِعُ	أَجْتَمِعُ	نَجْتَمِعُ

9) إذا كان آخر الفعل حركة طويلة أو سكوناً، فلا تكونان عاملي النبر، ويقع النبر على الحركة التي قبل العامل السابق منها، وهذا يوجد في:

أ) الفعل الناقص الخالي من اللواحق:

يَـرْمي	تَـرْمي	أَرْمي	نَـرْمي

ب) فـي مخـتلف أوزان الفعل الماضي الذي تلحق به ألف الاثنين أو واو الجماعـة أو تـاء التأنيـث أو تاء المتكلمين أو ميم العماد. وذلك كما يبدو واضحاً من الأمثلة التالية:

اللواحق / صيغة الفعل			ألف الاثنين			واو الجماعة	تاء التأنيث	نا المتكلمين	ميم الجموع
الثلاثي	مجرد	مثال	× وَجَدَا	× وجدتا	× وَجَدتما	× وجدوا	× وجدت	× وجدنا	× وَجدتم
		أجوف	× قـالا	× قـالتا	× قـلتما	× قـالوا	× قـالت	× قـلنا	× قـلتم
		ناقص	× رميـا	× رمتـا	× رميتمـا	× رمـوْا	× رمـت	× رمينـا	× رميتـم
	مزيد	زيد فيه حرف	× علمـا	× علمتـا	× علمـتما	× عـلموا	× عـلمتْ	× عـلمنا	× علـمتم
			× نـاقشا	× نـاقشتا	× ناقـشتما	× نـاقشوا	× نـاقشتْ	× ناقـشنا	× ناقـشتم
			× أكرما	× أكرمتا	× أكرمتمـا	× أكرموا	× أكرمتْ	× أكـرمنا	× أكـرمتم
		زيد فيه حرفان	× تعـلما	× تعـلمتا	× تعـلمتما	× تعـلموا	× تعـلمتْ	× تعلـمنا	× تعلـمتم
			× تجاهلا	× تجاهلتا	× تجاهلتما	× تجاهلوا	× تجاهلتْ	× تجاهـلنا	× تجاهـلتم
			× انسـحبا	× انسـحبتا	× انسحبتما	× انسحبوا	× انسحبتْ	× انسحـبنا	× انسحـبتم
			× اجتـمعا	× اجتـمعتا	× اجتـمعتما	× اجتمعوا	× اجتمعتْ	× اجتمعنا	× اجتمعتم
			× اعـورّا	× اعـورّتا	× اعوررتما	× اعـورّوا	× اعورّتْ	× اعوررنا	× اعوررتم
		زيد فيه ثلاثة أحرف	× استنبطا	× استنبطتا	× استنبطتما	× استـنبطوا	× استـنبطتْ	× استنبطنا	× استنبطتم
الرباعي	مجرد		× ترجما	× ترجمتا	× ترجمتما	× ترجموا	× ترجمتْ	× ترجمنا	× ترجمتم
	مزيد	زيد فيه حرف	× تجوربا	× تجوربتا	× تجوربتما	× تجوربوا	× تجوربتْ	× تجوربنا	× تجوربتم
		زيد فيه حرفان	× اقعـنسسا	× اقعـنسستا	× اقعنسستما	× اقعـنسسوا	× اقعـنسست	× اقعنسسنا	× اقعنسستم

ومما هو جدير بالملاحظة أن تاء التأنيث مع ألف الاثنين ذات خاصية معينة عند النطق، إذ إنها كتلة واحدة تحل محل ألف الاثنين في قياس النبر. فعلى سبيل المثال كلمة (ناقشنا)، إذا نظرنا إلى ألف الاثنين فيها على أنها إشارة زائدة كما تنظر إلى ألف الاثنين فـــي كلمة (انسحبا)، فإن النبر يقع على فتحة (ق) حسب القاعدة المذكورة، بأن ما قبل هـــذه الألـــف ثلاث حركات قصيرة متحركة، أولها هو موقع النبر، لكن الموقع الحقيقي للنبر هو فتحة (ن) ومثلها في: تجاهلتا، استنبطتا، تجوربتا ... وغيرها.

وثمـــة ملاحظة أخرى: أن ألف الاثنين وواو الجماعة في الفعل الماضي، اقصر صـــوتا مـــنهما فـــي الفعل المضارع، فمثلاً طول ألف (اجتمعا) و واو (استنبطوا) أقصر مـــنهما فـــي (يجـــتمعان) و (يستنبطون) اللتين يكون ما قبل ضميريهما صوتا منبورا. وعـــندما طلبـــت من عدد من طلبة الدراسات العليا في عدد من الجامعات (في بريطانيا وأمـــريكا والأردن) أن يمـــدوا أصواتهم حين النطق بالألف والواو، الضميرين في الفعل الماضـــي كما في الفعل المضارع، فقد وقع النبر على الحركة التي قبل هذين الضميرين كمـــا هـــو في الفعل المضارع، وفي هذا ما يدعم ما نذهب إليه في ضرورة الشك في أن العرب تعودت تخفيف نهاية الكلمة بتقصير صوتها كما تخفف نهاية الكلام بالتسكين. وقد أدت هـــذه العادة في الكلام إلى ضعف الحركة الطويلة في تحديد موقع النبر حينما تكون في نهاية الكلمة، فلم يكن من اليسير التفريق بالأذن بين (اجتمعن) التي ألحقت بها نون النســـوة، و (اجتمعنا) التي تلحق بها ناء المتكلمين. أما عدم وقوع النبر على حركة ما قـــبل الســـكون التـــي ينتهي بها الفعل الماضي مثل (استنبطتم)، فإنه ناتج عن استعداد الناطق وتهيئه للوقف.

وســـنقدم فـــي بحث آخر دراسة عوامل الوقف وأثره في تحديد موقع النبر في العربية الفصحى، مأخوذة أمثلتها من قراءة عدد من المتخصصين من أساتذة أقسام اللغة العربـــية، وفي اللهجة العامية في حديث المثقفين الأردنيين، مقابلة بعوامل الوقف وأثره في اللغة الإنجليزية، إن شاء الله.

الهوامش

(1) P. Ladefoged, Preliminaried of linguistic phonetics, London 1967 p. 83

(2)

(3) F.P. Dinneen, An introduction to general Ingujistics U.S.A. 1967 p. 41

(4) وانظر تمام حسان: مناهج البحث في اللغة ص 160

(5) إبراهيم أنيس، الأصوات اللغوية ص 169.

(*) تمثل الإشارة × موضع النبر.

(6) تمام حسان، مناهج البحث ص 163.

(7) إبراهيم أنيس، الأصوات اللغوية ص 170.

(8) سيبويه الكتاب 435/4 ـ 436.

(9) كمال بشر، دراسات في علم اللغة ص19.

(10) السكاكي مفتاح السعادة ص 5.

(11) انظـــر الإنصـــاف مســـألة. وهذا ما نشب حوله خلاف بين أصحاب مدرستي الكوفة والبصرة.

(12) سر الصناعة 19/1 ـ 20.

(13) S. El-Ani, Arabic Phonalagy, Mouton, the Hague, Paris, 1970 p.p. 7 – 10

(14) K. Amaireh, Various elements ascertaining meaning in Arabic grammar, Journal of semitic studies, Vo. 26, No. 1. 1981.

(15) انظر D. Abdo, On stress and Arabic phonology, generative approach pp. 38-43.

(16) تمـــام حسان: اللغة العربية معناها ومبناها ص 170-174. نورد هذا الاقتباس على الــرغم أنـــه طويل على غير المألوف، وذلك لأنه يمثل أوسع قواعد وضعت في هذا الميدان، وسنحاكم بعض الأمثلة على ضوئه.

(17) إبراهيم أنيس: الأصوات اللغوية ص 171.

(18) المرجع السابق.

(19) تمام حسان، اللغة العربية مبناها ومعناها ص170.

(20) المرجع السابق ص171.

(21) لنا دراسة طويلة بأمثلة مفصلة عن هذه الأبواب وغيرها، تعيد فيها هذه الظاهرة إلى النحو التحويلي في الوصول إلى المعنى الدلالي.

(22) انظر: **K. KMAIREH The Affective Meaning of some Arabic Grammatical styles, Alarabiyyah, No. 15. 1982**

(23) انظر: **S.El-Ani, Aabic Phonalagy, Mouton, the Hauge, Paris, 1970.**

(24) انظر: **K. AMAIREH, Various elements ascertaining meaning in Arabic Journal of Semitic Studies, Vol, 26, No. 1, 1981**

وانظر: تمام حسان، مناهج البحث، ص 160 وما بعدها.

قائمة المراجع

العربية

1- إبراهيم أنيس، الأصوات اللغوية، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، ط 5، 1979.

2- تمام حسان، مناهج البحث في اللغة، دار الثقافة، القاهرة ط2 1974.

3- تمام حسان، اللغة العربية معناها ومبناها، الهيئة المصرية للقاهرة 1797.

4- ابن جني، سر صناعة الإعراب، 1954 تحقيق على النجدي وآخرون.

5- خليل عمايره، رأي في بعض أنماط التركيب الجملي للغة العربية، المجلة العربية للعلوم الإنسانية، الكويت، العدد (8)، 1982.

6- كمال بشر، دراسات في علم اللغة، دار المعارف، القاهرة، 1973.

7- سيبويه، الكتاب، تحقيق عبد السلام هارون.

8- الشنفرى، لامية العرب، دار مكتبة الحياة، بيروت، 1974.

9- ولفنسون، تاريخ اللغات السامية، دار القلم، بيروت 1980.

الإنجليزية:

10- D. Abdo, On stress and Arabic phonology, Generative approach, Beirut, 1969.

11- S. El-Ani, Aabic phonology, Mouton, the Hague, Paris. 1970.

12- F.P. Dinneen, An introduction to general linguistics, U.S.A. 1967.

13- K. AMAIREH, Various elements ascertaning meaning in Arabic grammar. Journal of semitic studies, vol 26, no. 1, 1981.

14- K. AMAIREH, The affective meaning of some Arabic grammatical styles, Alarabiyyah, No.15, 1982.

15- P. Ladegoged, Preliminaries of linguistic phonetics, London, 1967.

دعوة إلى قراءة جديدة للنحو العربي

(وقفة مع فكرة الإسناد في بعض التراكيب الجملية)

"قد أخالفك الرأي ولكنني أدافع حتى الموت عن إبدائك رأيك"

فولتير

دعوة إلى قراءة جديدة للنحو العربي

(وقفه مع فكرة الإسناد في بعض التراكيب الجملية)

لعل من أكثر الآيات الدّالة على الإبداع العجيب في هذا الكون المعقّد، أنّ الإنسان فيه يُعدّ بؤرة الدوائر الكونية المعقدّة، التي ما أن يتمّ كشفُ جانب منها حتى تظهر غيرُها من الدوائر خلفَها اكثرَ تعقيداً منها، وتتشابك هذه مع غيرها لتفضي إلى ميدان عجيبة في دوائره في تداخلها، يقفُ المتأملُ حائراً أمام جزئيةٍ في الدائرة فضلاً عن أن ينظر إليها كلّها بأطرافها المترامية التي تغيب عنه أبعادُها، فيقفُ قانعاً فرحاً باكتشافه الجزئيةَ التي أمامه، يُنميها بل يُنمي علمه بها، فيزداد فرحُه حتى إنّه ليكادُ يرى أن اكتشافَه هو الأول والأخير بل هو الأخير بلا أول.

فما أن يكتشف عالمٌ جانباً من جوانب مرض في الجسم الإنساني أو يركّبَ كيميائيٌ عقاراً به يستطيع إزالة المرض أو التخفيفَ منه أو من آثاره حتى ترى لهذا وذاك أبعاداً تشغلُ الناسَ كلَّ الناس إلى أن يظهَر غيُره من الاكتشافات فيطوي ملف الاكتشاف السابق معتمداً عليه مجدداً له، آخذاً منه بتصيب، ولعله من الفطرة أن يكون لكلّ (سابق) أنصارُه يدافعون عنه فيدفعون اللاحق، بل قد يعادونه في سبيل إثبات صلاح ما ألفوه واستقر أمرهم عليه، ناسين أو متناسين أن اللاحق ما كان ليكونَ لولا انه كان له سابقٌ، يدركُ نقاطَ القوة فيه فيزيدُ فيها، ويتبصّرُ نقاطَ الضعفِ ليصلحَ الخللَ فيها فيزداد قوةً إلى قوته، وبذا يتحققُ الإخلاص –في ما أرى – لخدمة الغاية والهدف، وهي الحقيقةُ العلمية وصلاحُ البحثِ العلمي وإصلاحه لخدمة الإنسان الذي كرّمه اللهُ جلّ جلالهُ، فجعله فوق خلقه كلّهم، وحمّله أمانة العلم وأمانة السلوك، وأمانة طهارةِ القلب ونقاءِ السريرة . ولعلّ اللغةَ في المجتمع الإنساني وهي التي تُعدُ أبرزَ وعاءٍ لنقل الفكر الإنساني من جيل إلى جيل ومن عصر إلى آخر من أكثر الظواهر العجيبة التي يجري فيها البحثُ اللاحق معتمداً على السابق، فتكثر فيها الآراء وتزداد الحيرة ، وكلما اتسع

الأفق قلّ التعصبُ، وصح البحث وقلت العداوة فيه وزادت فوائدُ الغاية والهدف، خدمةِ الإنسان الذي كرمه الله.

من البدهي أن أذكر بإيجاز وأنا أمام قراءة لغوية في بعض أنماط التراكيب في النحو العربي – شيئاً عن الدائرة التاريخيةِ في القرن الثاني من الهجرة، في ما يتعلق بالنحو من حيث تقعيدُه وتقنينُه ومادةُ التعقيد والتقنين، ولكني لا أرى أنّ من البدهي أن أقف طويلاً مع هذه النقطة وبخاصة أمام القراء المتخصصين الذين تُعدّ هذه عندهم من أول ما يعلمون. فأقول: لقد أقام الخليل بن احمد ـ يرحمه الله ـ النحوَ العربيَ على نقطتين هامتين، أولاهما وجودُ حركة إعرابية في اللغة العربية، وهذه تمثل نقطة رئيسة فيها شأنها شأن حروف العربية ذاتها، فلا سبيل للتخلي عنها، ولا سبيل لتغيير كيفيةِ وضعها على المباني الصرفيةِ في سلسلةِ النظم الجملي، حتى إنّ قوة الإحساس بذلك قد دفعت بعض نحاة العربية إلى حدّ النحو بأنه" علمٌ وضع الحركات على أواخر الكلمات في الجمل".

وثانيتُهما تفسيرُ وجودِ الحركة الإعرابية في كلّ موضع بكيفية معينة (ضمةٍ أو فتحة أو كسرةٍ... الخ)

وليست هذه من اللغة ذاتها، بل هي نظرة فلسفية ابتكرها عالمٌ له قوةُ فكر وعمقُ بصيرةٍ ،امتلك ناصيةَ لغتِه وأخلص لها، بل كان يرجو أن يُقرِّب نفسه بها إلى ربِه، يقول الزجاجي[1] "...وذكر بعض شيوخنا أنّ الخليل بنَ احمد – رحمه الله – سُئل عن العلل التي يُعتلُ بها في النحو فقيل له: عن العرب أخذتَها أم اخترعتَها من نفسك ؟ فقال:" إنّ العرب نطقت على سجيتها وطباعها وعرفت مواقعَ كلامها وقام في عقولها علله، وإن لم يُنقل ذلك عنها واعتللتُ أنا بما عندي أنّه علةٌ لما عللته منه، فإن أكن أصبت العلة فهو الذي التمستُ، وإن تكن هناك علةٌ له، فمثلي في ذلك مثلُ رجلٍ حكيم دخل داراً محكمةَ البناء عجيبةَ النظم والأقسام وقد صحت عنده حكمةُ بانيها بالخبر الصادق أو بالبراهين الواضحة والحُجج اللائحة، فكلّما وقف هذا الرجلُ في الدار على شئ منها قال : إنما

[1] الإيضاح في علل النحو-الزجاجي،65-660.

فَعلَ هذا هكذا لعلة كذا وكذا وبسبب كذا وكذا ، سَنَحتْ له وخطرت بباله محتملةً لذلك، فجائزٌ أن يكون الحكيمُ الباني للدار فعل ذلك للعلة التي ذكرها هذا الذي دخل الدار، وجائزٌ أن يكون فعله لغير تلك العلة، الا أنّ ذلك مما ذكره هذا الرجل محتملٌ أن يكون علةً لذلك، فإن سنح لغيري علّةٌ لما عللتُه من النحو هو أليق مما ذكرتُه بالمعلول فليأتِ بها " يقول الزجاجي معلقاً على كلام الخليل " وهذا كلام مستقيم وإنصاف من الخليل رحمةُ الله عليه "[1] وأقول: وهذا كلامٌ مستقيم ودرس عجيبُ القوةِ من رجل واسع العلم والحكمة، درس في تواضع العلماء، التواضعِ الصادر عن قوة الشخصيةِ وقوةِ العلم.

اعتمد النحاة، وعلى رأسهم الخليل، تحديداً زمانياً حصروه بنهاية الربع الثالث (تقريباً) من القرن الثاني من الهجرة ، أي ببشار بن برد أو بإبراهيم بن هرمة، وتحديداً مكانياً حصروه في القبائل التي وسموها بقبائل الاحتجاج وهي: قيس وتميم وأسد وهذيل وبعض كنانة وبعض الطائيين، ولا أرى أنني معني هنا بتحقيق هذه النقطة التي جاء بها أبو نصر الفارابي بكيفية فيها بعض الاختلاف عما جاء بها ابن جني أو أوردها السيوطي، ولكن نقول: لمّا كانت هذه النقطة من أهم النقاط التي يتوارثها الباحثون الخلف من السلف فإننا نرى أن نلفت الانتباه إليها وقد أفردنا لها بحثاً خاصاً (انظر العدد – 23 من مجلة كلية الآداب – جامعة صنعاء) كما أنّني لا أرى أيضا إنني معني بالإطالة وتفصيل القول في أنّ هناك قائمةً أخرى لأبي زيد الانصاري، وهو الذي يصفه سيبويه بالثقة، ينصّ فيها على أنّه لا يقول إذا قال قالت العرب إلا إذا سمعه من هوازن، أو كما يقول: " إلا إذا سمعته من هؤلاء: بكر بن هوازن وبني كلاب وبني هلال أو من عالية السافلة أو من سافلة العالية وإلاّ لم أقل قالت العرب". ولا أنا معنيٌّ كذلك بالإطالة في مناقشة القائمة الثالثة عن أبي عمرو بن العلاء في ما يأخذه السيوطي عن الأصمعي: افصحُ الشعراءِ ألسناً وأعربُهم أهلُ السروات: هذيل، وثقيف، وازشنوءة وهم بنو الحارث بن كعب ابن الحارث". فالوقوف مع هذه القوائم وغيرها ومدا تأثير ذلك في بناء القاعدة النحوية يستحق وقفة أطول جعلت لها بحثاً مستقلاً كما ذكرت.

---

[1] السابق ص66.

وما تعرضت لهذا كلّه إلاّ منبهاً لعدد من النقاط التي قد يلتفت إليها غيري أكثر مما ألتفتُ أنا إليها، ولكنني أودّ أن استأثر لنفسي بالالتفات من ذلك كلّه إلى أنّ ما اعتُمِدَ مادةً لتقعيد القواعد النحوية لم يكن يكفي لتقعيد قواعد اللغة العربية، بل كان يكفي لتقعيد ما حُصر فيه وله زماناً ومكاناً، وان كان لي أن أقترض من أفكار دي سوسير ما يمكن أن أوجهه هنا لتوضيح ما أريد، فإنني أقول: إن الكلام، وهو النشاط الفردي، أو السلوك الكلامي لفرد أو مجموعة، يمثله السلوك الكلامي لقبائل أيّة قائمة من القوائم السابقة يقع عليها الاختيار، واللغة: وهي المخزون الجمعي الذهني للأفراد المتكلمين بلغة معينة تمثلها لغات القبائل العربية كلّها سواء أكانت موضع استشهاد أم لم تكن، فضاقت بذلك قواعد الكلام عن ظواهر اللغة، ولكنها حَمَلَتْ أو قل: حُمِّلَتْ اسم "قواعد اللغة العربية"، فكثر بذلك الخروج عليها وابتُكِرَ لذلك مصطلحاتٌ: الشاذُ والنادرُ والقليلُ، والمطّردُ في السماع الشاذُ في القياس، والمطّردُ في القياس الشاذُ في السماع، واضطرب بعضهم في ترتيب ذلك وفي كيفية الخروج منه، فتارةً "لغات القبائل كلّها حجة [1]"، وأخرى لغات قبائل القائمة الأولى أو الثانية أو الثالثة هي الحجة، وتارةً ثالثةً لا تجد التخريج لا في هذه ولا في تلك فيكون التخريج في (التأويل) الذي وسمه النحاة بقولهم: وهو أضعف الوجوه.

بعد التنبيه إلى ما في هذه النقاط كلّها، وخروجاً منها من غير إطالة، على الرغم مما فيها من عمق التأثير على بناء القاعدة النحوية، وإيجاد الثقل الذي تنوء به أبوابُ النحو كلّها، مما يجعل الباحث في حيص بيص، ويجعل الطالب في يأس التعلّم، ويترك المدرسُ في خيبة أمل في إمكان توصيل مادته الى من يجب عليه توصيلُها إليهم.

قلت: ... وخروجاً من هذه النقاط بعد التنبيه إلى عمق تأثيرها في بناء قواعد النحو، وما يترتب على ذلك من حاجة إلى إعمال الفكر وإعادة النظر على ضوء قانون: إنّ اللاحق يستصفي من السابق ويعتمدُ عليه، ففيه منه ما يستحق له عدم المعاداة أو الرفضُ.

---

[1] الاقتراح – السيوطي ص 52.

نخرج من هذا إلى الوقوف مع نقطة أخرى مما يمكن أن يُعدّ من النقاط المنهجية الرئيسة في بناء النحو وقواعده، وهي بناءُ الجملةِ العربيةِ التي هي الوحدةُ الرئيسةُ في التحليل اللغوي عند العلماء العرب وغير العرب، القدماء والمحدثين، مع ما بينهم من تباين في الاعتماد على نقطةٍ يبدأون منها، أهي الفونيمُ أم المورفيمُ أم هي الجملةُ كلُها، مما ترتب عليه نشأةُ مدارسَ تربويةٍ أو لغويةٍ تحليليةٍ كالمدرسة التحليلية والمدرسة التركيبية، أو مدرسةِ المكوناتِ الرئيسية، أو المدرسة الوظيفية، أو التوليدية التحويلية أو غيرها.

فقد بُنيَ تفسيرُ إقامة الجملةِ العربيةِ على عددٍ من العناصر يردها النحاةُ عادةً إلى الحركة الإعرابية وكيفية تخريجها، فيردون التأويلَ والتعليلَ واستصحابَ الحال وغيرَها إلى النظرية المتكاملة عندهم، ومع ما قلناه وما يمكن أن يقال في "النظرية المتكاملة" الوحيدة لتفسير الحركة الإعرابية وهي نظرية العامل نقول: بُنيت الجملةُ على فكرة الإسناد بين الفعل والاسم أو بين الاسم والاسم. والاسمُ في ذلك كلِّه هو الأساس، لأنه هو الأقوى، ذلك عند النحاة الذين قسموا التركيب إلى اسمي وفعلي. والاسم في الفعلي هو الأساس في الإسناد كما أنّه الأساس في التركيب الاسمي، وكذلك عند البلاغيين الذين قسموا التركيب إلى إنشائي وخبري.

يقول أبو علي[1]: " الكلام يأتلف من ثلاثة أشياء: اسم وفعلٍ وحرف، فما جاز الاخبار عنه من هذه الكلم فهو اسم ، ومثالُ الاخبارِ عنه قولنا: عبدُ الله مقبلٌ، قام بكر، فمقبل خبر عن عبد الله ، وقام خبرٌ عن بكر"، ويقول سيبويه[2]: واعلم ان بعضَ الكلام اثقلُ من بعض ، فالأفعال اثقلُ من الأسماء لأن الأسماء هي الأولى ، وهي اشدُّ تمكناً ...... وإنما هي (الأفعال) من الأسماء، ألا ترى أن الفعل لا بد له من الاسم، وإلاّ لم يكن كلاماً، والاسمُ قد يستغني عن الفعل" .

---

(1) الجرجاني المقتصد 68/1-69 .

(2) سيبويه ، الكتاب 12/1.

وعلى الرغم من اختلاف معيار الزجاجي – وهو فيلسوف النحو ومنطقية في ما أرى، – في الخفة والثقل السابقين عند سيبويه، إلا انه يلتقي معه في النتيجة ، يقول الزجاجي[1]: " إنّما خفَّ الاسم لأنه لا يدل إلا على المسمى الذي تحته، وثقل الفعلُ لدلالته على الفاعل والمفعول والمفعولَيْن والثلاثةِ والمصدر، والظرفين من الزمان والمكان وما أشبه ذلك".

سيطرت فكرة الإسناد على أذهان النحاة سيطرةً خفيّة خلفية، فأخذت توجه تفكير العلماءِ في تصنيف الجملة في أسميتها أو فعليتها أو خبريتها أو إنشائيتها، وكذلك في تصنيف الأبواب النحوية وتقسيمها إلى عمدة وفضلات، فالعمدة ما به يتمُ الإسناد لا ما يتم به المعنى، والفَضْلَةُ ما زاد على تحقيق طرفي الإسناد، فكان بذلك الفعلُ والفاعلُ في حقل ما به يتحقق الإسناد، وخرج بذلك أيضا المفعولُ أو المفاعيلُ، مع أن المعنى لا يتمُ إلا به أو بها، هذا فضلا عن تعارض هذا مع التنظير الذي يرتضيه النحاةُ في أنّ الإسناد يحقق قيام الجملة، والجملة عندهم تحمل معنى يحسن السكوت عليه، فوقع التعارض بين التنظير والتطبيق، مما ترتب عليه خطأ تصنيفِ بعضِ الأبواب في النحو، أو قل ترتَّب عليه خلطٌ عجيبٌ في كتب النحو بين مستويين من مستويات البحث اللغوي:" التركيب syntax والدلالة semantics وكان لذلك مضاعفاته.

كنت اعتزم التوقف عند هذا الحدّ من الاشاره إلى أهمية فكرة الإسناد في الجملة العربية والى مدا تأثير التعارض فيها تنظيراً وتطبيقاً في بناء القاعدة النحوية وإثقال النحو بما لا يفيد المعنى ولا يحتاجه المُنْشِئ المبدع، وإنّ نظرةً متأنيةً أو سريعةً إلى الأبواب النحوية التالية، على سبيل المثال وليس الاستقراء، والى الخلافات النحوية فيها بين البصريين والكوفيين تبين ما أردت أن أُلمح إليه، والأبواب هي: بابُ نعم وبئس، وبابُ التعجب، وبابُ الإغراء، وبابُ التحذير، وبابُ الاستغاثة، وبابُ الندبة، والأبواب التي فيها اسمٌ مرفوع بعد أداة من غير ذكر الاسم الآخر، كما في الاسم المرفوعِ بعد لو، وبعد لولا أو لوما، وبعد الظرف حيث، وبعد الأداة لمّا، مما أجبر النحاةَ

[1] الزجاجي ، الايضاح ص 100 – 101 .

على مخالفات كثيرة ينقض فيها رأيٌ رأياً والرأيان يحتاجان إلى ما ينقضهما، ويكفي أن ننظر في باب نعم وبئس وافتقار اللفظين الرئيسين فيه إلى انطباق حدّ الاسم عليهما، وهو ما دلّ على مسمى كما يقول سيبويه[1] وكذا رفضُهما الخضوعَ إلى حدّ الفعل وهو الدلالة على حدث وزمن، كما يقول سيبويه[2] أيضا، وما يقال في هذا الباب يقال بوضوح أكبر في صيغتي باب التعجب، أما ما يقال في الاغراء والتحذير فمختلفٌ، فقد اقتضى الأمر لتحقيق فكرةِ الإسناد و تفسير حالةِ اعرابية يحملُ الاسمُ المذكورُ حركتَها الإعرابية اقتضى تقديرَ فعلٍ، يذكر ابن يعيش أنّ ذكره في بعض الصيغ واجبة حذفِ العامل، أنّه لو ذُكر لخرجت الجملةُ من معناها إلى معنى آخر، أو من بابها إلى باب آخر. ولعل في النظرة إلى تقدير مسندٍ إليه أو مسندٍ وجوباً بعد لولا أولو أو لوما أو بعد الاسم بعدها، تبين مدا تأثير هذه الفكرة (فكرة الإسناد) في بناء القاعدة النحوية[3]، فعلى الرغم من أن العلماء يعدّون هذه الأدوات من أدوات الشرط، والشرطُ بابٌ خاصٌ بالجملة الفعلية، ينصون فيه على أن الشرط لا يكون أصلاً في الجملة الاسمية، إلاّ أنهم يُعربون الاسمَ بعد هذه الأدوات (وهي للشرط): مسندٌ إليه لمسند محذوفٍ وجوباً تقديره(موجود) أو ما يسدُّ مسدَّها، أو هي عند أهل الكوفة فاعلٌ لفعل محذوف تقديره(ثَبَتَ)، وفي كلٍّ من الضعف والتأويل ما لا يخفى على كثيرين.

ولو سلّمنا بدلالة هذه الأدوات على الشرط أو انتمائها إليه مع لولا، ولو، وهو موضعُ جدلٍ وتأويل لا نقرّهما، فلست أدري كيف يمكن أن تلحق التركيب مع الأداة (أمّا) بالشرط، وأرى ان من المفيد أن ألفت الانتباه إلى جانب من الحوار في توجيه النحاة هذا التركيب فيكون هنا موجزاً لما سيرد مفصّلاً بعد قليل. فهي[4] نائبة عن أداة شرط وفعل الشرط معاً بعد حذفهما، وقيل: بل عن فعل الشرط فقط! ويقول أبو حيان قولاً نأخذه رداً

---

[1] سيبويه الكتاب 12/1

[2] السابق

[3] وسنفصّل القول في هذا بعد قليل.

[4] السيوطي الهمع 355/4

فهو أبلغ مما يمكن أن تقول في هذا المقام، فتأمله. يقول[1]: ((ما ذكر في معناه هو من حيث صلاحيةُ التقدير، ولا جائز أن يكون مرادفاً له من حيث المعنى، لأن مفعولية الحرف مباينة لمفعولية الاسم والفعل، فتستحيل المرادفة، ولأن في يكن (وذلك في الصيغة التي يقترحها سيبويه مرادفة لأما، وهي (مهما يكن من شيء)، ضميراً يعود على "مهما" وفي الجواب ضمير يعود على الشرط، وذلك مُنْتَفٍ في أما)).

ثم يقول أبو حيان أيضاً[2] :((وقال بعض أصحابنا: لو كانت شرطاً لكان ما بعدها متوقفاً عليها، وأنت تقول: أمّا علماً فعالمٌ، فهو عالمٌ ذَكَرْتَهُ، بخلاف: إن قام زيد قام عمرو، فقيام (عمرو) متوقف على قيام زيد)).

وقال الهروي[3] : (... وهي إخبار ولا يليها إلا الاسم، وتدخل على الابتداء، وهي متضمنةٌ معنى الجزاء، ولابد لها من جواب بالفاء لأن فيها معنى الجزاء، ويرتفع ما بعدها بالابتداء إذا لم يقع عليه فعل كقولك: أما زيد فمنطلق، زيد ابتداءٌ ومنطلق خبره، فأُدخلت الفاءُ لجواب أمّا، لأن فيها معنى الجزاء كأنك قلت: زيد مهما يكن من أمره فمنطلق). ونقول: إنما الأمر على غير ذلك، فقد أُدخل عليها معنى الجزاء، أو أُقحمت عليه لتتضمنه لأن في جملتها، الفاء، ولا مسوّغ لوجودها، فوجب أن نضمنها معنى الجزاء، قبلت ذلك أم رفضته، يعبر عن ذلك ابن هشام[4] في حوار طريف جميل، يقول: ((... ولو كانت الفاء للعطف لم تدخل على الخبر، إذ لا يعطف الخبر على مبتدئه، ولو كانت زائدةً لصح الاستغناءُ عنها، ولمّا لم يصح ذلك وقد امتنع كونُها للعطف تعين أنّها فاءُ الجزاء)). وهنا نقول : فكيف يكون معنى النّصِ الأدبي إذا كان توجيه التراكيب فيه بإقحامها على الحكم:((تَضَمَّنَ معنى...)).

---

(1) السابق.

(2) السابق

(3) الهروي، الازهية ص153

(4) ابن هشام، مغني اللبيب 80

وسنقدّم هنا عرضاً مفصلاً للتركيب الجملي مع هذه الأدوات (لو، لولا، أما) وتعدد أراء العلماء فيها مع اختلافاتهم في وجهات نظرهم، فنرى أن هذه الآراء تمثّل قاعدة يمكن أن يبني عليها الباحث لبيان أن الجري وراء الحركة الإعرابية من غير اهتمام كبير بالمعنى، يؤدي إلى عناية بالجسد من غير الروح؛ ولأنها يمكن أن تضرب مثلاً لما نرمي إليه من احتكام النحو إلى المبنى أكثر من احتكامه إلى المعنى.

(أمّا)

حرف شرط وتفصيل وتوكيد، هذا ما ذهب إليه النحاة في مصنفاتهم النحوية. يقول ابن السراج[1]: "لأنها إنما تدخل في الكلام لتتبع شيئاً بشيء، وتعلق ما دخلت عليه من الكلام بما قبله)). وقد استدل النحاة على شرطية (أمّا) لزوم الفاء الرابطة. يقول ابن هشام[2]: "وهو حرف شرط وتفصيل وتوكيد. أما إنها شرط فيدل لها لزوم الفاء بعدها، نحو: "فأمّا الذين أمنوا فيعلمون أنه الحقُّ من ربهم، وأمّا الذين كفروا فيقولون[3] "أمّا صاحب الكتاب[4] فقد عدّها من حروف الابتداء، وأنها تصرف الكلام إلى الابتداء حيث قال: ((فإن قلت: لقيت زيداً، وأمّا عمروٌ فقد مررت به، ولقيت زيداً وإذا عبد الله يضربه عمرو، فالرفع إلا في قول من قال، زيداً رأيته، وزيداً مررت به لأنَّ أمّا وإذا يُقطع بهما الكلام، وهما من حروف الابتداء يصرفان الكلام إلى الابتداء إلى أن يدخل عليها ما ينصب، ولا يُحملُ بواحد منهما آخر على أول كما يُحمل بثمَّ والفاء، ألا ترى أنهم قرأوا ((وأمّا ثمودَ فهديناهم))[5] وقبله نصب، وذلك لأنها تصرف الكلام إلى الابتداء، إلا أن يوقع بعدها فعل نحو أمّا زيداً فضربت)).

---

(1) الأصول في النحو –لابن السراج: 67/1)–(تحقيق د. عبد الحسين الفتلي، 1972. النجف الأشرف).

(2) مغني اللبيب عن كتب الأعاريب/لابن هشام الأنصاري 56/1–(تحقيق محمد محي الدين عبدالحميد–المكتبة العصرية –صيدا).

(3) سورة البقره – الآيه 26 .

(4) الكتاب –سيبويه –95/1 (تحقيق وشرح عبد السلام محمد هارون) دار الكتاب العلمية –بيروت) .

(5) سورة فصلت–الآية 17.

وذكر الرّماني وابن الشجري والعكبري أنها قد تفيد معنى التفصيل لما أجمل قبل إضافته إلى معنى الشرط نحو قولك: جاءني اخوتك فامّا زيد فأكرمته وأمّا عمرو فأهنته، وأما جعفر فأعرضت عنه، ونحو قوله تعالى: (فأما اليتيم فلا تقهر وأما السائل فلا تنهر وأما بنعمة ربك فحدث) ويبين ابن هشام أن التفصيل هو الغالب فيها وذكر أن التفصيل قد يترك استغناءً بذكر أحد القسمين، نحو قوله تعالى: (يا أيها الناس قد جاءكم برهان من ربكم وأنزلنا إليك نوراً مبيناً فامّا الذين آمنوا بالله واعتصموا به فسيدخلهم اللّه في رحمة منه وفضل)؛ فأغنى هذا عن قوله: (وأما الذين كفروا بالله فلهم كذا وكذا). وذكر الزمخشري أنها تعطي الكلام فضل توكيد، تقول: زيد ذاهب، فإذا قصدت توكيد ذلك وانه لا محالة ذاهب، وانه بصدد الذهاب قلت: أما زيدٌ فذاهب.

وقد أوجب النحاة وجود هذه الفاء بعد أمّا؛ ولذلك حكموا على ما ورد في الشعر بدون هذه الفاء بأنه ضرورة من ضرورات الشعر، وعلى ما ورد في القرآن بأنه مؤول على تقدير قول محذوف[1] كما في قوله تعالى: ((فأمّا الذين اسودت وجوههم أكفرتم بعد إيمانكم فذوقوا العذاب))[2] .

حيث يرى جمهور النحاة أن التقدير هو: ((فيقال لهم أكفرتم بعد إيمانكم)) فحذف القول استغناء عنه بالقول فيتبعه الفاء. ويرى بعضهم أن الفاء في جواب (أمّا) لا تحذف مطلقاً في غير ضرورة الشعر، ولذلك يرون أن جواب (أمّا) في الآية هو قوله تعالى: ((فذوقوا العذاب)) وأن ما بينهما اعتراض.

وبعد، فإنّ نظرة فاحصة لإفادة(أمّا) معنى الشرط تدعونا إلى التأمل قليلاً في هذا المعنى الذي أفادته. فلو عدنا لمعنى الشرط كما عرّفه صاحب اللسان[3] لوجدنا أن الشرط عنده يعني العلاقة والامارة، ومنه أشراط الساعة أي علاماتها، والشرط ما يوضع ليلتزم. وعند النحاة: تعليق حصول أمر بآخر بوساطة إحدى أدوات الشرط. أمّا التركيب

---

[1] الكافية في النحو-لابن الحاجب ج398/2 (شرح الرضي-دار الكتب العلمية بيروت.

[2] سورة آل عمران-الآية 106.

[3] لسان العرب-لابن منظور، مادة شرط.

الشرطي كما اتفق عليه النحاة، فهو وحدة نحوية دالة، فيها طرفان، الأول منهما يسمى فعل الشرط، كونه علامة دالة على تحقق مضمون جوابه عند تحققه[1]. والطرف الثاني الجزاء، وسمي الجزاء بالجواب مجازاً، ووجهه إنه شابه الجزاء من حيث كونه فعلاً مترتباً على فعل اخر، فأشبه الفعل المترتب على فعل آخر ثواباً عليه أو عقاباً الذي هو حقيقة الجزاء، وشابه الجواب كونه لازماً عن القول الأول فصار كالجواب لازماً عن القول الأول فصار كالجواب الآتي بعد كلام السائل. أمّا وظيفة أداة الشرط فهي الربط بين الطرف الأول والثاني في التركيب الشرطي حيث تعلق الثاني تعليق السبب بالمسبب أو المعلول بالعلة.ولو حاولنا تطبيق هذه المقاييس التي تشتمل على (أمّا) فإننا لا نجد ذلك ممكناً. أمّا وجود الفاء فليست دليلاً كافياً لإثبات أنّ (أمّا) أداة شرط رابطة بين سبب ومسبب.

(لو)

لو:حرف باتفاق النحاة، يدل على تعليق فعل بفعل فيما مضى ،فيلزم من تقدير حصول شرطها حصول جوابها ،، وهي بذلك تعبر عن تعطل النتيجة لتعطل العلّة. أي أنها تعبّر عن توقف الجواب على الشرط، تعبّر عن امتناع وجود الشرط والمشروط، لذلك سميت حرف امتناع لامتناع، ويلزم كون شرطها محكوماً بامتناعها، إذ لو حصل شرطها لكان جوابا حاصلاً كذلك، ولم تكن (لو) في هذه الحالة للتعليق بل للإيجاب فتخرج عن معناها، لأن الثابت الحاصل لا يعلق، وأمّا جوابها فلا يلزم كونه ممتنعاً على كل تقدير، لأنه قد يكون ثابتاً مع امتناع الشرط غير أن الأكثر أن يكون ممتنعاً، وحاصله كما يقول الأشموني[2] " أنها تقتضي امتناع شرطها دائماً، ثم إن لم يكن لجوابها سبب غيره لزم

---

[1] شرح المفصل –لابن يعيش/47/7–عالم الكتب/ بيروت.

[2] مغني اللبيب /لابن هشام/ج1 /255 وما بعدها

امتناعه نحو قوله تعالى: (ولو شئنا رفعنا بها)[1] وكقولك: لو كانت الشمس طالعة لكان النهار موجوداً، وإلا لم يلزم نحو: لو كانت الشمس طالعة لكان الضوء موجوداً[2].

وأياً ما كان الأمر فالتعليق حاصل بين الشرط والجواب ، وكلاهما ماض. وهذه هي الصورة الأولى لهذه الأداة : (لو+فعل ماض وفاعله + فعل ماض وفاعله). والثانية أن يليها مضارع، ولأن الصورة الأولى اغلب وأكثر وروداً لم يجزم بـــ (لو) يقول الأشموني: "ولغلبة دخول لو على الماضي لم تجزم، ولو أريد بها معنى إن الشرطية" وزعم بعضهم أن الجزم بها مطرد على لغة، وأجازه جماعة في الشعر، منهم ابن الشجري كقوله:

نامت فؤادك لو يحزنك ما صنعت   إحدى نساء بني ذهل بن شيبان[3].

ومن خصائص الجملة بـــ (لو) دخول اللام على جوابها، وعندئذ يعدّها بعض النحاة مجرد رابط بين الشرط والجواب يأتي مؤكداً تعاقدهما، ويعدها آخرون لام قسم محذوف، فإذا قلت: (لو جئتني لأكرمتك). فتقديره (والله لو جئتني لكرمتك)[4] .

ولا تدخل هذه اللام في الجواب إلا على الماضي دون المستقبل[5]. أمّا استعمال (لو) في العربية فيرد على وجوه بينها فوارق دقيقة، ذكر ابن هشام في مغنيه خمسة معان هي:

1- ورودها شرطية تعقد السببيّة بالمسببيّة فتفيد الشرط بالزمن الماضي وتفيد الامتناع، ويرى ابن هشام أنها لا تفيد الشرط إلا إذا كانت في صدر الجملة المتلازمة واقتضت جوابا (لو جاءني لأكرمته)[6] .

---

(1) سورة الاعراف -الاية 176

(2) الاشموني / شرح الاشموني على على الفية ابن مالك -ج36/4/ دار احياء الكتب العربية /القاهره

(3) الاشحوني ج42/4-43) .

(4) شرح المفصل ، ابن يعيش 22/9-23 .

(5) السابق .

(6) مغنى اللبيب/255/1

ويقول ابن مالك هي حرف شرط يقتضي امتناع ما يليه واستلزامه لتاليه[1] وتسمى امتناعية شرطية، وتدل على أمرين في قوله تعالى: (ولو شئنا لرفعناه بها)[2].

(1) أن مشيئة الله لرفعه منتفية، ورفعه منتفٍ؛ إذ لا سبب لرفعه إلّا المشيئة.

(2) استلزام مشيئة الرفع للرفع؛ إذ المشيئة سبب، والرفع مسبب وهذا بخلاف: لو لم يخف الله يعصه، إذ لا يلزم من انتفاء (لم يخف) انتفاء (لم يعص) حتى يكون خاف وعصى، لأن انتفاء العصيان له سببان العقاب والإجلال وهو أعلى، والمراد أن صهيبا لو قدّر خلوه من الخوف لم يعص للإجلال؛ كيف والخوف حاصل. ومن فسروها بالامتناع اختلفوا، فقال أكثرهم إن الجزاء امتنع امتنع الشرط، فامتنع الثاني وهو الرفع لامتناع الأول وهو المشيئة.[3]

وقال ابن الحاجب امتنع الأول لامتناع الثاني، قالوا: لأن امتناع الشرط لا يستلزم امتناع الجزاء، لجواز إقامة شرط آخر مقامه، وأمّا امتناع الجزاء فيستلزم امتناع الشرط مطلقاً[4] .

ثانيا- ترد لو شرطية فتفيد الشرط في الزمن المستقبل إلاّ أنها لا تجزم نحو قوله تعالى: ((وليخش الذي لو تركوا من خلفهم ذرية ضعافاً خافوا عليهم)).[5]

ثالثاً: أن تكون حرفاً مصدريا بمنزلة (أن) إلاّ أنها لا تنصب ، وأكثر وقوعها كذلك بعد ودّ يودّ: (ودّوا لوتُدهن فيدهنون).[6] على أن هذا المعنى لم يثبته جلّ النحاة .

---

[1] البرهان في علوم القرآن ج389/4 تحقيق مصطفى عبد القادر عطار- دار الفكر .

[2] سورة الاعراف - الآية 76 .

[3] البرهان في علوم القرآن-للزركشي ج390/4.

[4] السابق.

[5] سورة النساء - الآية 9 .

[6] سورة القلم - الآية 9 .

رابعاً: أن تكون للتمني ((لو تأتيني فتحدثني) واختلف النحاة فيها ، فذهب بعضهم إلى أنها قسم برأسه لا تحتاج إلى جواب، وقال بعضهم هي لو الشرطية أشربت معنى التمني[1] .

خامساً: أن تكون للعرض نحو: (لو تنزل عندنا فتصيب خيراً).

ويذهب النحاة إلى اشتراط اقترانها بالفعل مباشرة، فإذا عاكس الاستعمال تقنينهم أرضخوه إلى القاعدة بالتأويل والإضمار كما في الآية: ((قل لو أنتم تملكون خزائن رحمة ربي إذاً لأمسكتم خشية الإنفاق))[2] شأنهم في ذلك شأن تعاملهم مع إنْ كلّما ألحقت باسم: (إن امرؤ هلك ليس له ولد وله أخت فلها نصف ما ترك)).[3]

أمّا جواب (لو) فيذكر النحاة أنه إمّا أن يكون مضارعاً منفياً بلم أو ماضياً مثبتاً أو منفياً بما، ((والغالب على المثبت دخول اللام عليه، والغالب على المنفي تجرّده منها، وقد ورد جواب (لو) الماضي مقرونا بقد، وهو غريب)) ونظيره في الشذوذ اقتران جواب لولا بها)) وحيث ورد جواب لو جملة اسمية أقرّه بعضهم وتأوله الآخرون جواباً لقسم مقدّر كما في ((ولو أنهم آمنوا واتقوا لمثوبة من عند الله خيرٌ))[4] .

وقد قدّر بعض النحاة الجواب فيه جملة فعلية، ومنهم من يرى في مثل هذه الآية أن لا جواب لها في اللفظ، ولكنه في المعنى، ويقدر بـ(لا ثيبوا) ويجعل قوله (لمثوبة) دالاً عليه، وعلى هذا الأخفش[5] .

وينسب ابن هشام إلى الزمخشري القول بجواز وقوع جواب (لو) جملة إسمية، مقرونة باللام أو بالفاء، كالذي في قوله تعالى سالف الذكر، وكقول الشاعر:

---

(1) مغني اللبيب–ابن هشام 259/1.
(2) شرح المفصل / لابن يعيش 9/9.
(3) النساء–الآية 176.
(4) سورة البقرة 103
(5) معاني القرآن – الاخفش ج142/1 .

قالت سلامة: لم يكن لك عادةً أن تترك الأعداء حتى تُعذَرا

لو كان قتلٌ ياسلامَ فراحة لكن فررتُ مخافةَ أن أوسرا

ويرى ابن هشام أن الأولى في مثل ذلك أن تقدّر الجواب محذوفاً، أو أن، يقدر (لو) بمنزلة (ليت) في إفادة التمني.[1]

ولأن البنية الأساسية لـــ (لو) أن يليها فعل، فقد فسر النحاة الاسم المرفوع الواقع بعدها على أنه فاعل لفعل محذوف يفسره المذكور بعده، وإن كان الكوفيون يرون أنه فاعل مقدم على فعله.

وأمّا إذا وقع بعدها المركب الاسمي (المصدر المؤول من أنّ واسمها وخبرها) فإنهم يختلفون، فيرى بعضهم أنّ الاسم المرفوع بعدها يكون فاعلاً لفعل محذوف، ويرى آخرون أنّ المصدر المؤول من أن واسمها وخبرها الواقع بعدها – وهو كثير– مبتدأ غير محتاج إلى خبر لاشتمال صلتها على المسند والمسند إليه، وقيل الخبر محذوف ويقدر مقدمًا بـــ (ثابت)، وقيل يقدر مؤخرا، وأما سيبويه والبصريون فإنهم يقولون بتقدير المصدر المؤول مبتدأ، ويرون أن هناك صورة أساسية أخرى يمكن أن ينتمي إليها هذا التركيب الظاهري، ولكن كان مقتضى هذا أن يكون الاسم المرفوع بعد لو يفسر كذلك على أنه مبتدأ. ففي مثل ((لو غيرك قالها يا أبا عبيدة)) وفي قوله تعالى: ((قل لو أنتم تملكون خزائن رحمة ربي))[2] .

كان مقتضى قول البصريين أن يكون((غيرك)) و ((أنتم)) مبتدأ وما بعده خبره، ولذلك قالوا في قول عدي بن زيد:

لو بغير الماء حلقي شرق كنت كالغصان بالماء اعتصاري

---

[1] مغني اللبيب لابن هشام ج2/1

[2] سورة الاسراء-الآية100.

قالوا أقوالا مختلفة مؤداها أن الجملة الاسمية لا تلي (لو) وعلى فرض وقوعها بعدها يكون ذلك شذوذاً ، لأن ((لو مثل (إنْ) الشرطية في أنها لا يليها إلا فعل أو معمول فعل مضمر يفسره فعل ظاهر بعد الاسم))[1] وأمّا إيلاء لو المصدر المؤول فقد اختلفوا فيه على النحو السابق مع أن ذلك كثير جداً على حد قولهم ، وكثرته على هذا النحو تجعله أصلاً أو بنية أساسية، ومن ذلك قوله تعالى: ((ولوأنَّهم آمنوا واتقوا لمثوبةٌ من عند الله خير))[2]

وعلى ذلك فلا حاجة للتفريق بين استعمالين ينتميان الى نموذج واحد. ويمكننا بناء على ذلك القول بأن الاسم المرفوع سواء أكان مصدراً مؤولاً أم غيره يجوز في تفسير كل منهما ما يجوز في الآخر.

ويبدو واضحاً أن إقفاء (لو) الجملة الاسمية – وهو ما ذهب إليه سيبويه والبصريون في اعتبارهم المصدر المؤول من أن واسمها وخبرها كذلك أمرٌ يحتاج الى تدبر. ولأن هناك أداتين أخريين يرى النحاة أن أصلهما ((لو)) زيدت عليهما (لا) أو (ما) فصارتا (لولا) و(لوما)، لا يليهما إلا الجملة الاسمية، على خلاف كل أدوات الشرط، وإن كان يلزم حذف الخبر من جملة شرطها إذا كان كونا عاما، وجوابهما مثل جواب (لو) تماماً، مثل قوله تعالى: (لولا أنتم لكنا مؤمنين)[3] وذلك إذا كانت هاتان الأداتان دالتين على امتناع شيء لوجود غيره، أي إذا ربطتا امتناع شئ بوجود غيره ربطاً لازماً بينهما. أمّا إذا كانتا للتحضيض فلهما استعال آخر.

---

(1) شرح الاشموني –39/4

(2) سورة البقرة–103.

(3) سورة سبأ–31 .

(لولا)

تُعد (لولا) عند النحاة من أدوات الشرط، وتخرج بحسب السياق إلى دلالات منها:

أولا: الامتناع؛ ذلك أنها في بنيتها متولّدة عن نفي (لو) التي هي- كما سبق- حرف امتناع لامتناع، فتكون لولا إذن حرف امتناع لوجود أي امتناع الطرف الثاني من القضية، وهو الجواب، لوجود الطرف الأول منها وهو الشرط. ويتميز استعمال (لولا) في هذا السياق بدخولها على الاسم، فيكون التركيب الشرطي من نوع ((اسمية – فعلية)).

يقول المالقي ((الصحيح أن تفسيرها بحسب الجمل التي تدخل عليها فإن كانت الجملتان بعدها موجبتين، فهي حرف امتناع لوجوب؛ نحو: لولا زيد لأحسنت إليك، فالاحسان امتنع لوجود زيد، وإن كانتا منفيتين، فحرف وجوبٍ لامتناع، نحو: لولا عَدَمُ زيد لأحسنتَ إليك))[1].

ثانياً: – العرض والتحضيض وتختص عندئذ بالمضارع أو ما في تأويله نحو قوله تعالى: ((لولا تستغفرون الله))[2].

ثالثاً:– التوبيخ والتنديم، نحو: ((لولا جاؤوا عليه بأربعة شُهداء)).[3]

رابعا: – ان تكون (للنفي)[4]، نحو: ((فلولا كانت قرية آمنت))[5] . أي فما آمنت قرية، أي أهلها عند مجيء العذاب ، فنفعها إيمانُها، والجمهور لم يُثبتوا ذلك، وقالوا المراد في

---

[1] رصف المباني في شرح حروف المعاني – للمالقي 293 ، تحقيق احمد الخراط

[2] النمل – 46

[3] النور – 13

[4] الازهية ، للهروي ص 116 ، ومعجم الادوات النحوية و اعرابها – السيوطي ص 173

[5] يونس –98

الآية التوبيخ على ترك الإيمان قبل مجيء العذاب، ويؤيده قراءة أُبي: (فهلا) والاستثناء حينئذ منقطع.[1]

خامسا: ذكر الهروي ان (لولا) قد تفيد الاستفهام[2] نحو قوله تعالى : ((لولا أخَّرتني)).[3] وقوله : (لولا أنزل عليه مَلَكٌ) [4] .

خبر المبتدأ بعد (لولا)

قالوا: (لولا) ، حرف امتناع لوجود، ولذا تسمى (لولا) الامتناعية، تقول: لولا عبدالله لأكرمتك، امتنع وقوع الإكرام لوجود عبدالله، وهي بهذا المعنى من أدوات الشرط غير الجازمة ، ولا تكون جملتها إلاّ اسمية، ولا يكون جوابها إلا فعلياً .

فلما كانت جملتها اسميّة ، فهي من مبتدأ وخبر ، المبتدأ الاسم المذكور بعدها، والخبر وقع فيه خلاف ، فقد ذهب البصريون إلى أنه محذوف وجوباً تقديره (موجود)، وما ورد منه مذكوراً فهو لحن كالذي في بيت المعري ((فلولا الغمد يمسكه لسالا)).

وقيّده بعضهم كالرّماني وابن الشجري والشلوبين ، وتبعهم في ذلك ابن مالك ، بما اذا كان الخبر كونا مطلقاً ، فلو أريد كونٌ بعينه فلا دليل عليه ، ولو حذف لم يجز حذفه نحو : لولا زيد سالمنا ما سلم[5] ، ومنه قوله صلى الله عليه وسلم : ((لولا قومك حديثوا عهد بكفر لأسستُ البيتَ على قواعد ابراهيم)) . وإن كان عليه دليل جاز الحذف والاثبات، تقول : لولا أصحاب علي ساعدوه ما نجا ، وجعلوا من هذا النوع بيت المعري السابق، واختار هذا الرأي صاحب الهمع[6] .

---

(1) معجم الادوات النحوية واعرابها – السيوطي ، 173

(2) المرجع السابق

(3) المنافقون 10

(4) الانعام 9

(5) مغني اللبيب ، ابن هشام ج273/1

(6) همع الهوامع ، السيوطي 41/1

وذهب قوم إلى أن الخبر بعد (لولا) غير محذوف ، وأنه الجواب ، ومن هؤلاء : ابن الطراوه[1] وردّه ابن هشام لعدم وجود الرابط . وذهب الكوفيون عدا الكسائي والفراء إلى أن الاسم بعد (لولا) مرفوع بها لنيابتها مناب الفعل ، والتقدير : لولا يمنع زيدٌ أو لم يوجد أو لم يحضر[2] .

وذهب الفرّاء: إلى أن (لولا) عاملة ، وهي الرافعة للاسم بعدها ، لاختصاصها بالأسماء ، كسائر العوامل المختصة[3] .

وذهب الكسائي : إلى أن الاسم بعد (لولا) ليس مبتدأ، ولامرفوعاً بها، بل هو فاعل لفعل محذوف تقديره (ثبت) أو نحوه واستدلّ بظهوره في قوله : ((فقلت بلى لولا ينازعني شغلي)). ولم يستبعده الرضي[4]

أمّا أن الخبر بعد لولا، غير مضمر وأنه الجواب فباطلٌ ، لأنّ الخبر يجب أن يطابق المبتدأ إن كان مفرداً، وأن يعود منه عائدٌ عليه إن كان جملة، وهنا لاعائد يربط الجواب بالمبتدأ بعد لولا ، وبهذا يبطل قول من قال به.

وأما أنّ الاسم مرفوع بها فباطل أيضاً من حيث إنّ (لولا) غير مختصةٍ بالأسماء، كما زعم الفراء ، فهي تدخل على الأفعال في نحو: ((لولا أخّرتني إلى أجل قريب)) [5]. هذا من جهة ومن جهةٍ أخرى ، فإنها لو كانت عاملة لكان الجرّ أولى بها من الرفع ، إذا كانت مختصة.

وأمّا أنّ ما بعدها فاعل مرفوع بها لنيابتها مناب الفعل ، أو أنه مرفوع بفعل مقدّر بعدها فباطل كذلك ، لأن ما ادعوه من أنها (لو) الشرطية +(لا) النافية فغير وارد؛ لأنها لو كانت (لو) الشرطية الداخلة على الفعل كما في (لو ذات سوار لطمتني...)

---

[1] مغني اللبيب ، ابن هشام 274/1

[2] شرح المفصل ، ابن يعيش 97/1 ، ومغني اللبيب 274/1

[3].الكافية في النحو ، ابن الحاجب 104/1

[4]المرجع السابق

[5] المرجع السابق

لاحتاجت الى مفسّر ، وفي مثل : لولا زيد لهلكت ، لا مفسر ولا يجوز أن يقال: إن الفعل المذكور في الجواب هو المفسّر، لأن شرط المفسّر أن يكون من لفظ ما يُفسِّره، وهذا لا يمكن تحقيقه في (لولا زيد لهلكت) لأنّه ينقض المعنى، فلو قلت لولا هلك زيد، دلّ على أنه قد هلك ، في حين إنّ المعنى في (لولا زيد لهلكت) ، امتناع هلاك المتكلم بسبب وجود زيد ، لا هلاك زيد، وعليه فإن (لولا) كلمة واحدة وليست كلمتين[1] .

ولا حجة للكسائي في قول الشاعر:

فقلت بلى لولا ينازعني شغلي

لاحتمال أن تكون (لولا) من قبيل التحضيضية التي تدخل على الأفعال وتختص بها .

بقي أن يكون ما بعد (لولا) مبتدأ مرفوعاً، وخبره محذوف، والجملة الفعلية المذكورة هي جواب لولا فالتركيب جملتان:

اسميّة: زيد موجود، وفعلية : هلك عمرو

دخلت عليها (لولا) وربطت الثانية بالأولى، فصارتا كالجملة الواحدة واستغنى عن خبر زيد لكثرة الاستعمال[2] حتى رُفض ظهورة ولا يجوز استعماله عند ابن يعيش.[3]

وليس حذف الخبر على إطلاقه كما ذهب إليه البصريون، بل إنه كما قيّده الرّماني وابن الشجري والشلوبين[4] يجب إذا كان الخبر كونا عاماً ، أو لا يتعلق بذكر غرض كقولك: لولا زيد لهلك عمرو، وإذا كان كونا خاصاً لا دليل عليه لو حُذِف لوجب ذكره، لأن الغرض يتعلق بذكره كما لو قلت: لولا زيد يعتب لما زرته، ومنه قولهم: لولا زيد سالمنا ما سلم.

---

(1) المقتضب – المبرد 76/3

(2) الكتاب سيبويه ج129/1.

(3) شرح المفصل/ابن يعيش 95/1.

(4) المغني ج274/1/الهمع 42/1.

وقوله عليه السلام: ((لولا قومك حديثو عهد...))، ولا عبره بأن الحديث ربما يكون مروياً بالمعنى لأنه قد روي ((لولا حدثان...))[1] ثم إن سيبويه والمبرد لم ينصّا صراحة على وجوب الحذف في خبر لولا كعادتهما في التعبير عن مثل ذلك (بالالزام اضماره) بل إنّه عندما يحذف خبره يسد الجواب مسدّه..[2]

ذكرت قبل قليل بأنّني كنت أعتزم التوقف عند هذا الحد من الاشارة الى فكرة الإسناد ومدا تأثيرها في بناء القاعدة النحوية، ولكنّ الرغبة في توضيح هذا التأثير دفعتي الى ذكر بعض الأبواب التي لااسناد فيها في حقيقة الأمر ، بل إن الحاقها بما يقتضي الإسناد – بالفعلية بخاصة وبالاسمية من حيث البحث عن مسند – يحتاج الى اعادة نظر، لما يترتب عليه من خلل في تحليل النصوص، ونحن نعلم أنّ وحدة التحليل اللغوي هي الجملة ، فان وقع الخلل فيها، انتقل هذا الى نتائج التحليل النصّي.

وتلحُّ عليَّ الرغبة لطرح نقطة أخيرة في فكرة الإسناد فلأشير الى أن فكرةَ الإسناد ذاتَها من الأفكار التي جرى فيها تغيّرٌ صامت بين اللغويين والنحاة والبلاغيين ، فعسى آن أدفعَ بهذا تهمة يمكن آن توجه إلى ما قلتُ، فأقول: إنّ الدعوة لاعادة النظر في مناهج البحث اللغوي عند العرب قد كانت موضعَ تنفيذ علماء العرب القدماء من غير إثارة صراع مفتعل غايته ∅ في كثير من الأحيان.

فانظر معي لترى الانتقال في الفكرة بين ما كانت عليه في قول سيبويه، وما نحن عليه الآن ، يقول سيبويه[3] :((... فامّا المبنيُ على الأسماء المبهمةِ فقولك : هذا عبد الله منطلقاً، وهؤلاء قومُك منطلقين... فهذا اسم مبتدأ يُبنى عليه ما بعده وهو عبد الله، ولم يكن ليكون هذا كلاماً حتى يُبنى عليه أو يُبنى على ما قبله، فالمبتدأ مسند والمبني عليه مسند إليه)). ويقول في موضع آخر [4] ((... فالمبتدأ كلّ اسم ابتدئ ليبنى عليه كلامٌ، والمبنيُ عليه رفعٌ، فالابتداء لا يكون إلا بمبني عليه، فالمبتدأ الأول والمبني

---

[1] الهمع 42/1.

[2] الكتاب 129/1–المقتضب 76/3.

[3] سيبويه، الكتاب 78/2.

[4] السابق 126/2

ما بعده عليه، فهو مسندٌ ومسندٌ إليه)) وقد كرر هذا في غير موضع من كتابه[1] ، وهذا مختلف عمّا هو مستقر في الأذهان ، يعبر عنه السكاكي[2] في حديثه عن الجملة: ((زيد منطلق من أنّه يلزمُ مجرّدَ القصدِ الى الاخبار، او من نحو: منطلق، بترك المسند إليه، من انه يلزم ان يكون المطلوبُ به وجه الاختصار مع افادةٍ لطيفةٍ مما يلوح بها مقامُها، وكذا اذا لُفِظَ بالمسند إليه ، وهكذا اذا عُرِّفَ او نُكِّر، أو قُيِّد أو أُطلق، او قُدِّم أو أُخِّر)).

ولو كنت أسمح لنفسي بمزيد الاستئذان لطلبت من القارئ مزيداً من المساحة للحديث عن عدد من العناصر التي أسهمتْ في تعقيد البحث اللغوي بتعقيد دراسة بناء الجملة، ولناقشتُ عندئذ العاملَ والتعليلَ والتأويلَ واستصحابَ الحال، والعمادَ والفضلةَ، والاختلاطَ غيرَ العادي في البحث النحوي بين النظرة التركيبية للجملة والنظرة الدلالية لها، أو الوقوفَ عند المستوى التركيبي وحجبَ البحث في المستوى الدلالي، أو انعكاسَ المفهوم النظري او التنظيري لقانون ((الاعرابُ فرع المعنى)) انقلاباً تاماً بتأثير من تضييق عنقِ الثقافةِ العربيةِ ردّةَ فعلٍ لمفاهيمَ فكريةٍ فانبعجت كرش النحو تورماً لاسُمنة، شأنه في في ذلك شأن كثير من فروع المعرفة في الثقافة العربية . فلن استأذن لتوضيح أيٍّ مما سلف. وسأنتقل للحديث عن تصور سريع للغة مع قواعدها في غير إطار علاقة الاسناد سالفة الذكر والمناقشة .

تمثّل ابوابُ النحو الهيكلَ المعنويَ الذهني المجرد في عقل الإنسان، وهذا يجعلنا نقترب كثيراً مما يذهب إليه تشومسكي، العالمُ الأمريكي في فكرته عن الكفاية [3] competence ، وسنفترق عن طريقه في منهج التناول ، ويجعلنا أيضاً نرفض ما يذهب إليه روجر فاولر[4] في رفض هذا المفهوم عند تشومسكي آخذاً بالمفهوم الحسي للقواعد النحوية، فتبقى القواعد النحوية (في ما نرى) أو الأبواب النحوية هنا صامتةً في مرحلة

---

(1) السابق 23/1، 80/1-81 ، 127/2

(2) السكاكي، مفتاح العلوم ص 161-162.

(3) أنظر N. Chomsky, Aspect of the theory of syntax,P..

(4) Roger Fowler , An Introduction to transformational syntax , London 1981 , chapter I , p.

من مراحل التفكير الفردي لدى المبدع او المتكلّم، وذلك قبل أن يخْرِجَها مجسَّدَة في ممثلات صرفية (مورفيماتٍ وفونيمات)، فيتمُّ اتحادٌ بين فونيم الحركة (دعنا نسمية هنا كما هو في العربية ، الحركةَ الإعرابية)، وهذه طاقة معرفية تقدمها اللغة لكل مبدع بها يكون على درجة من العلم باسس نحو اللغة وقواعدها، وقد تكون كامنة في الذهن من غير أن يدرك هذا المبدعُ علْمَه بها، فيكون التفاضل بين المبدعين: أولاً: بما يضعونه من ممثلاتٍ صرفيةٍ في هذه الأبواب ، وربطِها بالمستوى المعجمي، وهذا يحدّد اطارها الدلاليَّ الأول في الذهن، ثم بمقدار الانزياح الدلالي الأفقي لتلك الممثلات الصرفية، وهذا يحدد مقدار الوضوح أو الغموض في الفهم الكلّي للمعنى الدلالي في وحدة التحليل اللغوي وهي الجملة، ثم بالقدرة على الربط بين كلّ كلمة في الجملة ببؤرتها، – وبؤرة الجملة الاسمية المبتدأ، وبؤرة الجملة الفعلية الفعل–، مع ملاحظة فكرة التلازم اللغوي بين بعض المتلازمات اللغوية التي تقف فيها الكلمات المتعددة تركيباً في موقع الكلمة الواحدة دلالة، ثم الربط بين الجمل المتعددة في النّص بالجملة البؤرة فيه، فيتحدد بذلك التسيج النّصي في دوائرَ دلاليةٍ حول بؤرة ، فاذا رفضت بعضُ الجمل الارتباطَ بالجملة البؤرة فان على المتلقي أو محللّ النصّ ان يبحث إمّا عن انحراف دلالي، أو عن خروج الى جملةٍ بؤرةٍ جديدة، وعليه ان يجتهد في الربط بينها هي وما يدور حولها من نسيج من جهة وبين غيرها من أنسجة النّصّ حول بؤراته.

وثانياً: بقدرة المبدعين– غير المقصودة أو غير الواعية غالباً –على تحريك الأبواب النحوية مجسّدةً في الذهن ثم خارجةً منه في الممثلات الصرفية، وهنا أعود ثانيةً لأستأذن فأستعير المصطلحاتِ الأربعة التي أوردها عبد القاهر الجرجاني فأُحمّلَها من الوظائف في عملية البناء الذهني – ربما – ما لم يكن الجرجانيُّ يرمي إليه أو يقصدُه، ولكنه هو صاحبُ هذه الألفاظ التي كانت عنده كالمترادفات ان لم تكن حقاً مترادفات: ، البناءَ والتعليقَ والترتيبَ والنظمَ، فنشير بالأول إلى بناء الفكرة ذهناً ثم يتم تعلقها (وهنا يكون التعليق) في اتجاهين بالممثل الصرفي بأبعاده المعجمية والاجتماعية والسياقية وحركته الإعرابية... الخ وتعلقٍ هذه كلّها بموقعها في البناء الذهني السابق، فتتهيأ الجملة بذلك وقد حقّقت ذهنياً ما يمكن أن نسمية ((خط سلامة المبنى))، جُسّد فيه

الباب النحوي الذهني، مثلاً: الفعل، الفاعل ، المفعول به ، أو له، أو فيه... أو المبتدأ أو الخبر أو الحال أو ... الخ، بممثل صرفي، ثم اقترن هذا الممثلُ الصرفي بالحركة الإعرابية المعطاة للباب النحوي استقراءً مما نطقت به العرب سليقةً -كما ذكرنا في غير موضع- يحكمُ ذلك كلّه قياسٌ لغويٌ على ما له نظيرٌ في كلامهم مما يُحتجُ به.

ثُمَّ يتمُ الترتيب بين المباني الصرفية (وهي الآن أي في وضعها هذا أبواب نحوية وقيمُ دلالية أو على الأقل هي قيمٌ معجميةٌ)، أو يتمُ الترتيب بين الممثلات الصرفية في الذهن بحسب أهمية ما تعلقت به من أفكار، يتم بناءً عليها تحريكُ البابِ النحوي الذي جاءت تمثّله في الذهن، يقول عبد القاهر الجرجاني[1] :((اعلم أن ما ترى أنّه لابُدَّ منه من ترتيب الألفاظ وتواليها على النظم الخاص ليس هو الذي طلبته بالفكر ولكنْ شئٌ يقع بسبب الأول ضرورة، حيث إنّ الألفاظ إذا كانت أوعيةً للمعاني فإنها لا محالة تتبع المعاني في مواقعها، فاذا وجب لمعنى ان يكون أولاً في النفس وجب للفظ الدال عليه ان يكون مثلَه أولاً في النطق...))

ويقول في موضع آخر[2] :((...وذلك قولهم: إنّه يرتِّب المعاني في نفسه وينزلُها ويبني بعضَها على بعض كما يقولون يرتبُ الفروع على الأصول، ويُتبعُ المعنى المعنى، يُلحق النظير بالنظير)) ولعلَّ أوضحَ هذه النصوص وأكثرها دلالة على ما تذهبُ إليه ما جاء في قوله[3] :((إنّه لا يُتصوّرُ أن نعرف للفظ موضعاً من غير ان نعرف معناه، ولا أن نتوخى في الألفاظ من حيث هي ألفاظ ترتيباً ونظماً ، وإنّك تتوخى الترتيب في المعاني وتعملُ الفكر هناك ، فاذا ما تمّ لك ذلك اتبعتها الألفاظ وقفوت بها آثارها ، وانك إذا فرغت من ترتيب المعاني في نفسك لم تحتج إلى أن تستأنف فكراً في ترتيب الألفاظ، بل تجدها تترتبُ لك بحكم أنها خدمٌ للمعاني وتابعةٌ لها، ولاحقةٌ بها، وإنّ العلم بمواقع المعاني في النفس علم بمواقع الألفاظ الدّالة عليها في النظم)).

(1) الجرجاني، دلائل الاعجاز ص43.

(2) السابق ص 43

(3) السابق ص 44.

ثم يتمّ اخراجُ هذه المباني في نسق منظم يُسمى النظم، به تستطيعُ رؤيةَ الفرق بين: ذكرى منزل حبيب قفا من نبكي

و: قفا نبك من ذكرى حبيب ومنزل.....

وبحسب القدرة الفردية عند المبدع في استخدام العلاقاتِ بين هذه المراحل الاربع بغير توتر – كما يرى دي سوسير – فانه يستطيع ان يكوّن لنفسه اسلوباً يُعرفُ به من ناحية، ويتمكن ايضاً من مخاطبة روح اللغة في أدبها والالتقاء بهذا الأدب مع الروح الجماعية لأدب جماعة أدبية ، بقطع النظر عن سعة دائرة هذه الجماعة ، و يستطيع كذلك اثارة عمق المعنى وتشعبه في مخزون السامع أو المتلقي ، و ذلك باعادته الى عمق احساسه بتاريخ الفكرة وتشعبِ معاني الألفاظِ المعجميةِ منها و الدوائر الدلالية الاخرى التي خرجت إليها هذه المباني في مسيرتها الدلالية ، وبمجموع هذه الدوائر يتكوّنُ سطوعُ الإحساس بقيمةِ الدّال اللغوي على المدلول الذهني وارتباطهِ بدوائره الحضارية ، فيتحققُ بذلك النجاحُ وخروجُ المبدعِ الى أبعادٍ معيّنة في أدب مجتمعه ، أو يبقى حبيساً في دائرة ذاته . فيقدّمُ النحو بذلك لمستعملِ اللغة – الأديبِ بخاصة –صلابة الأُطرِ اللغوية ، في حين يقدّمُ مستعملُ اللغةِ بالنحو خصائص اللغة والإحساس بجمالِ هذه الخصائص ، يضاف الى ذلك في الشعرِ عناصر جمالية تزيد الفنَّ القولي جمالاً؛ كجمال تناسق الألوان في الرسم، ولمسة أخيرةٍ من فنانٍ نحّات لما تمّ نحته ، ومن تلك : الانسجامُ الصوتيُ في المباني الصرفيةِ وفي الجمل، والايقاعيةُ ، والاختياراتُ الصرفيةُ، والحركةُ الداخلية في النّصّ، و التناسقُ بين الكم المقطعي لمقاطع النصّ، والنبرُ والتنغيمُ، وكيفيةُ الرّبط بين جمل النصّ ؛ تارة برابط واجبِ الوجود ولُخرى جائزه ، واجادةُ استعمال الوظيفةِ الرمزيةِ للفظة، فبذا يتحقق الكشفُ عن جمال خصائص اللغة في استعمالها ، أو كما يقول فاليري[1] : "ليس الأدبُ الا توسيعاً لبعض خصائص اللغة واستعمالاً لها، ولا يمكن أن يكون غيرَ ذلك " . وبذا يعيش النحوي مع القواعد الذهنية المجرّدة ، يستوعبها ويحاول تجسيدها بأمثلة يضربها من زيد وعمرو ، ويعيش الأديبُ

---

[1] اللغة و الخطاب الادبي ، ترجمة سعيد الغانمي ص41- 52

المبدعُ في انطلاقِ استعمال هذه القوالبِ الذهنية ، ثم يأتي دورُ المحلّلِ البارعِ في تحليل النّص ليكشف عن جمال الخصائص ، أو عن خصائص الجمال في استعمال جملة دون جملة ، أو في استعمال جملة في موقع مفرد ، أو في استعمال شبه جملة في موقعها ، أو في تقديم موقع على موقع ، أو في زيادة كلمة أو في حذف اخرى ، أو في تغيّر فونيم الحركة ، أو في تنغيم الجملة او جزء منها ...الخ ، وكلُّ بند من هذه تحكمُه قوانينُ الاستعمالِ اللغوي ، أو قوانينُ التنظيم النحوي . فيتحقق عنده – أي عند محلّل النّص – الالتقاءُ بين قيود النحوي ، أو النحوي المقيَّد في منهجه ، والأديبِ المنطلق في استعماله ، فينصرف المحلّلُ من بيان خصائص الجمال الصوتي و الصرفي – وأقصد بالصوتي ما يتم بحثه في اللسانيات الحديثة تحت مصطلحي **phonetics** و **phonology** – وخصائص الجمال التركيبي، ثمّ الارتباط الأفقي والعمودي لدلالة الألفاظ في حدود المبنى الجملي للجملة البؤرة في النصّ، كما ذكرت سابقاً ، ثمّ يخرج من حدودها ليربط بها غيرَها من وحدات بناءِ النّص ربطاً دلالياً كأن تُؤدي جملةٌ دورَ التفسير أو توضيح الغموض ، أو تُؤدي دورَ التفصيل لمجمل ، أوتقييد المطلق أو الخروج من معنى المقيد الى رحابه الاتساع ، أو باسناد الفعل للمجهول بعد المعلوم ، أو عكس ذلك ، أو بمحاولة اعطاء قناعة بفكرةٍ ما بتكرارها بجملٍ ترتبط بالجملة البؤرة وتلتقي معها ، أو باستعمال جملٍ غايتُها تغذية الحوار في النص ، أو بجملٍ تهدفُ صرفَ الذهن عن الغرض للتمويه او للتعظيم او للتقليل من الشأن ، أو غيرِ ذلك وهو كثير يعرفه المحلل المبدع وهو في حوار مع النصّ يجمع في ذهنه عدداً هائلاً من الدوائر، أو العوامل ، كما يسميها العالمُ اللغوي المبدع رومان ياكبسون في حديثه عن العوامل الستة في تحليل النّص[1] و هي المرسلُ والمتلقي و السياقُ وقناةُ الاتصال و الشفرةُ و الرسالة .

يخرج بذلك الباحث من دوائر النحو التعليمية الضيقة ، وارجو أن لا يفهم أنني أطالب بالغائه ، فهو جهد جبار بارع ، ولكنه قد حصر أوحصره أهلوه في تلك الدائرة التعليمية الضيقة التي تنحصر في الحركة الاعرابيه وكيفية استعمالها وتسويغ وجودها

---

[1] السابق ص 56- 61

بكيفية او اخرى، حتى أصبحيح التفنن في ذلك غايةً يذهب إليها كثير من المتخصصين، في حين كانت تلك-وهذا ما يجب أن تكون عليه-عند سلفنا الصالح من المفسرين بخاصة وسيلة تساعدهم في النظر في ما يمكن ان نسميه ((خطُ سلامة المبنى))، وهذا غاية النهاية في هذه المرحلة من النحو بمفهومه التعليمي. وان كان هذا حقاً ما نصبو إليه من هذه المرحلة، فالقراءة الجديدة للنحو ستسير في خطين في ما نرى، يتمُ في الخط الأول اسقاطُ عدد كبير من جزيئات القواعد في الأبواب النحوية، والاكتفاءُ بقواعد اقامة الحركة في الجملة ليحذو من أرادَ التحدثَ بالعربية حذو العرب في كلامهم، ويتمُ فيه أيضا التخلصُ من الخلافات التي لا مسوّغ لها، كأن يُقال الأصل في كذا هوة كذا ولكنه يرد بكثرة خلافاً لذلك، كما في: الأصل في الحال الاشتقاق ولكنه يرد جامداً بكثرة، والأصل في الحال ان يكون نكرة ولكنه يرد معرفة بكثرة، والاصل في الحال ان يكون نكرة ولكنه يرد معرفة بكثرة، والأصل في صاحب الحال ان يكون معرفة ولكنه يرد نكرة كثيراً.... وإن نظرةً في باب الاستثناء تكتشفُ لك عن عدد من الجزئيات التي أُثقِل النحو بها حتى عَسُرَ أمره على الباحث فضلاً عن الطالب.

أمّا في الخط الثاني فيفترض أن يتمَ فيه تصنيف النحو في ابوابٍ تحقق المعنى، فيتمُ بذلك الربطُ بين التركيب ودلالته، فينصرفُ الطالبُ والباحث الى معنى التركيب بعد أن اطمأن لسلامة مبناه، بدلاً من انصرافه الى الحركة الدائرية في دائرة تفسير سبب وجود حركةٍ دون غيرها، ثُمَ يتمُ فيه النظر الى استخدام الجملة مرتطبةً بغيرها، وبذا نحققُ ما دعا إليه الجرجاني في توسيع دائرة النحو عندما نظر الى النحو بأنه النظمَ في قوله:((ما النظمُ الا ان تضع كلماتك الموضع الذي يرتضيه علم النحو))، وكذلك عندما بين أننا بالنحو نميز الفرق بين التراكيب:

إن تخرج أخرج

ان خرجتَ خرجتُ

إن تخرج خرجتُ

إن خرجتَ أخرج

إن خرجت فأنا خارج

فأيُ نحو تعليمي يعطيكَ الفرقَ بين هذه التراكيب، ومثلُها في أبواب النحو كثيرٌ كثيرٌ.

لعلّ في ما أقول دعوةً لاعادة النظر في كثير من قواعد النحو واعادة ترتيب ابوابه لتكون بحسب المعنى، وليس فقط بحسب التماثل في الحركة الإعرابية، فيكون هناك باب للتوكيد وبابٌ للنفي وغيْره للاستفهام، وبابٌ للنداء، وباب للدعاء وباب...الخ بحث يشمل البابُ كلّ ما يؤدي معناه أو يمكن ان يندرج تحته، فتكونُ الحركةُ الإعرابية– وهي ركن رئيس في إقامة الجملة، بل هي المسؤولة عن خط سلامة مبنى الجملة–تكونُ وسيلة وليس بغاية فهي وسيلة تحقيق المعنى في كثير من تراكيب اللغة، وليست كما ذهب بعض العلماء من المحدثين ومن القدماء الى أنها بلا قيمة في الدلالة. وإن قيمتها الدلالية التي نادينا بأهمية اظهارها في كثير من بحوثنا ، ليس من الميسور الوصول إليها إلا باعادة قراءة النحو العربي على ضوء المعنى . فيتمُ بذلك ضمُ الجهودِ البلاغية الى معطيات النحو التعليمي الى جهود اللغويين في اظهار المعنى. ونضرب لذلك مثلاً من باب التوكيد، فالمعلوم في النحو ان التوكيد ضربان: لفظي ومعنوي ، وكلاهما يقومان على التماثل في الحركة الإعرابية، ومن هنا ادرج بابُهما في التوابع، فاللفظة المكررة تؤكد سابقتها وتأخذ حركتها الإعرابية، وكذلك القولُ في الفاظ التوكيد المعنوي، فيخرجُ من التوكيد بناءً على ذلك التوكيدُ بالمصدر–ويكفي ان نقرأ شيئاً مما قاله سيبويه في كتابه عن معنى التوكيد بالمصدر لنرى شدّةَ التصاقه به وانتمائه له–يخرج كذلك التوكيدُ بالقسم ، والتوكيدُ بالضمير العائد، والتوكيدُ بالاشتغال، والتوكيدُ بما يسمى بالمدح والذم، والتوكيد بضمير الفصل... وغيرها كثير [1].

اذا استطعنا فعل ذلك فأنا أميلُ الى الثقة–بإذن الله–أنّ الطالبَ سيرى الحركة الإعرابية وسيلةً يقيمُها ثم ينطلق للبحث عن معنى ارتباط الكلمة باختها في التركيب الجملي، ثم عن معنى ارتباط الجملة باختها في حياكة النصّ ونسيجه في ما نسميه الانتقال من نحو الجملة الى نحو النص [2].

---

[1] انظر بحثنا((الاشتغال النحوي من ابواب التوكيد)) مجلة كلية الآداب جامعة صنعاء عدد20.

[2] انظر : خليل عمايرة : من نحو الجملة الى الترابط النصي ، كلية الآداب ، جامعة صنعاء.

قائمة المراجع والمصادر

1) الأخفش، معاني القرآن، ت عبد الأمير محمد أمين-بيروت، عالم الكتب

2) الاشموني، شرح الاشموني على ألفية ابن مالك، دار احياء الكتب العربية-القاهرة

3) الجرجاني، عبد القاهر: دلائل الاعجاز، ضبطه محمد رشيد رضا.

4) الجرجاني، عبد القاهر: المقتصد في شرح الايضاح، تحقيق د. كاظم بحر المرجان، وزارة الثقافة والاعلام، بغداد، 1982م.

5) ابن جني: الخصائص، تحقيق محمد علي النجار، دار الهدى للطباعة، بيروت.

6) الزجاجي، ابو القاسم عبد الرحمن بن اسحق: الايضاح في علل النحو، ت مازن المبارك،

7) ابن الحاجب، الكافية في النحو، شرح رضي الدين الاستربادي، دار الكتب العلمية-بيروت.

8) الزركشي، البرهان في علوم القرآن، ت محمد ابو الفضل ابراهيم-القاهرة، مطبعة عيسى البابي الحلبي .

9) ابن السراج، الاصول في النحو، ت عبدالحسين الفتلي-النجف الاشرف.

10) السكاكي، ابو يعقوب يوسف: مفتاح العلوم، ضبطه نعيم زرزور، دار الكتب العلمية، بيروت ط2 1987م.

11) سيبويه ، ابو بشر بن قنبر : الكتاب. تحقيق عبدالسلام هارون، مكتبة الخانجي، القاهرة.

12) السيوطي:الاقتراح في علم اصول النحو ، تقديم وضبط د.احمد الحمصي و د.محمد قاسم ، جروس برس

13) السيوطي، همع الهوامع، تحقيق د.عبد العال سالم مكرم، دار البحوث العلمية-الكويت.

14) السيوطي، الاتقان في علوم القرآن، دار الكتب العلمية-بيروت.

15) عمايره، خليل احمد: اسلوب التوكيد اللغوي، دار الفكر للنشر والتوزيع-عمان-الاردن.

: الاشتغال النحوي من أبواب التوكيد، مجلة كلية الآداب، جامعة صنعاء

: من نحو الجملة الى الترابط النصي، مجلة كلية الآداب ، جامعة صنعاء

: القبائل الست والتقعيد النحو ، حوليات يمنية ، صنعاء .

16) الغانمي، سعيد (ترجمة) اللغة والخطاب الأدبي، مجموعة مقالات مترجمة، المركز الثقافي العربي، بيروت والدار البيضاء 1993.

17) الهروي، علي بن محمد ، الازهية في علم الحروف، ت: عبدالمعين الملوحي، دمشق، مجمع اللغة العربية 1971م.

18) ابن هشام الانصاري: مغني اللبيب، ت مازن المبارك ومحمد حمد الله، دار الفكر، ت محمد محي الدين عبدالحميد، المكتبة العربية .

19) المالقي، رصف المباني في شرح حروف المعاني، ت احمد الخراط.

20) المبّرد، ابو العباس، المقتضب، ت محمد عبدالخالق عضيمة-القاهرة.

21) ابن منظور، لسان العرب، دار صادر-بيروت.

22) N.Chomsky, Aspects of the theroy of syntax, Cambridge, Mass, MIT Press ,1965 .

23) R. Fowler, An introducction to transformatioanl syntex,london, 1981.

24) Roman Jacbson, Six lectures on sound and meaning, MIT Press .

رأي في بعض أنماط التركيب الجملي في اللغة العربية على ضوء علم اللغة المعاصر

رأي في بعض أنماط التركيب الجملي في اللغة العربية على ضوء علم اللغة المعاصر*

ملخص:

يعالج هذا البحث بنية الجملة الفعلية العربية ويؤكد أن الجملة الفعلية تتكون من (فعل وفاعل ومفعول به: V S O) أيا كان ترتيب الكلمات فيها، سواء كان على شكل (فاعل وفعل ومفعول به S V O) أو على شكل (مفعول به وفعل وفاعل O V S).

ويؤكد البحث أهمية المعنى في صياغة وتحليل بنية الجملة، ويُعدّ الجملة الفعلية العامل الرئيس وهو المفهوم الرئيس في قواعد اللغة العربية، ويحاول وضع تعريف جديد للجملة الفعلية، ووضع طريقة جديدة لمعالجة بعض التصنيفات النحوية، مثل التوكيد في (كان) التي تدخل على الجملة الاسمية، والبنية المؤلفة من جملة تبدأ بأداء شرط، كل هذا على ضوء قواعد النحو التحويلي والنحو الوظيفي الذي ابتكره المؤلف (الموضع الوظيفي للكلمات في الجملة).

إنَ من ينظر نظرة سريعة إلى الدراسات اللغوية المعاصرة، والنهضة العلمية العظيمة التي وصلت إليها، والمؤلفات الكثيرة التي كتبت حولها، أو تكتب معالجة قضايا فيها تطول تارة، وتقصير تارة أخرى، يظن أن ليس في العربية دراسات لغوية بالمفهوم المعاصر، ويرى أن هذا الفن هو علم غربي ونظريات تنطبق على اللغات الغربية، وأن من الحيف للعربية أن تمسها أو تطبق عليها. أما من يتتبع هذه الدراسات فإنه يجد أنه ما من فرع من فروع هذا العلم إلا وله في العربية جذور، أو أن جذوره في العربية،

* نُشر هذا البحث في المجلة العربية للعلوم الإنسانية، الكويت، العدد الثامن — المجلد الثاني — 1982م، ص ص (57 — 77)

ويجد أن للعلماء العرب جهوداً واضحة في هذا الميدان المسمى في أيامنا هذه (علم اللغة Linguistics) ولكن هذه الجهود قد انضوت في مباحث متعددة: النحو، وفقه اللغة، والصرف، والبلاغة .. الخ مما جعل إمكان جمع الأقوال الخاصة بكل فرع من فروع الدراسة الحديثة على حدة، أمراً ليس باليسير، فتجرأ عدد من الباحثين المحدثين وتناولوا الجهود اللغوية عند العرب بأوصاف غير منصفة، مما ترتب عليه رفض كثير من الباحثين في علوم العربية لكل قادم من الغرب، وإن كان هذا نتاج جهود علمية قائمة على الدراسة الوصفية العميقة، أو في آلات المختبرات الدقيقة. بل قد أدى ببعضهم إلى رفض أي بحث، لمجرد أنه يحتوي على مصطلح أو كلمة بلغة أجنبية. ونحاول هنا أن نعرض شيئاً من جهود علماء العربية القدماء. وأن نفيد من أحدث ما توصلت إليه نظريات علم اللغة المعاصر، وليعذرني القارئ العربي إن وجد شيئاً في ما أقول قد يفسره هجوماً على قدسية العربية، ألا فليصنفه في باب محاولة للوقف مع بعض المصطلحات النحوية ودراستها على ضوء معناها.

يرتضي الباحثون اللغويون تصنيف الجملة في أية لغة وفقاً لترتيب وانتظام كلماتها للوصول إلى المعنى الذي يريد المتحدث أن ينقله إلى السامع. وقد نهج النحاة واللغويون العرب القدماء لتصنيف الجملة في اللغة العربية ودراستها منهجين: تركيبي تقسم الجملة على ضوئه إلى قسمين: اسمية وفعلية، ثم وصفوها بالكبرى أو الصغرى (السيوطي: 12/1 ــ 13) وبلاغي يتعلق بالمعنى، وتقسم الجملة في إطاره إلى إنشائية وإخبارية، وقد زاد بعض المعاصرين قسما مستقلا آخر في هذا الإطار أسموه الإفصاحية[1]. فالجملة (ابن يعيش: 20/1) الفعلية عندهم هي التي تبدأ بفعل، قام زيد، وأما الاسمية فهي المبدوءة باسم، مثل: زيد أخوك، وزيد قام؛ ونضيف: أن منها ــ في رأيهم ــ الجملة المبدوءة باسم مرفوع متقدم على فعله، لنُخْرِجَ منها، خالداً أكرم عليٌ، التي هي جملة فعلية على الرغم من أنها مبدوءة باسم منصوب هو المفعول به للفعل أكرم، ذلك لأن موقعه بعد الفاعل، ولا لبس في تقدمه، لعدم التماثل بين حركته وحركة المبتدأ، على غير ما هو في: عليٌ أكرم خالداً، التي هي جملة اسمية. ويُعدُ التوكيد من أهم المعاني التي يتم تغيير مواقع الكلم في الجملة لتحقيقها. وقد أخذ التركيز على

أهمية المعنى، الذي يتحقق بتغيير ترتيب الكلم في الجملة، يزداد التنبه إليه في أبحاث الباحثين المحدثين بعد أن ظهرت نظرية النحو التوليدي والتحويلي Generative and transformational grammar في كتابات العالم الأمريكي المعاصر تشومسكي[2]. ذلك لأن هذه النظرية تعتمد بشكل رئيس على المنهج الوصفي للغة في محاولة الوصول إلى المعنى المراد من الجملة، وبخاصة في الجمل المترادفة أولا مثل:

Mary picked the flower

The flower was picked by Mary

وفي الجمل الملتبسة ثانيا مثل:

Visiting relative can be drag

الأمر الذي دفع تشومسكي إلى إبراز نظرية مركزها: إن لكل جملة مستويين في البحث: الأول ويسميه surface structure البنية السطحية، وتضبطه القوانين والقواعد التي تتحكم في نظم الكلمات الرئيسة الظاهرة في الجملة. والثاني، يسميه Deep structure البنية التحتية أو العميقة، وهي بناء الجملة بكيفية معينة في انتظام معين بتقديم وتأخير، وحذف وإضمار أو استتار، على ضوء قواعد وقوانين التحويل Transformational Rules التي تهدف تحقيق المعنى المراد والتركيز على جانب من جوانبه ممثلا في مبنى صرفي من مباني الجملة[3]. وما لم تكن هناك ضرورة للتغيير في مواقع الكلم أو المباني الصرفية لأمر يتعلق بالمعنى فإن المستويين يتطابقان. وإن مثلت تلك الضرورة، فإن في الجملة عدداً من الكلمات تعد الأركان الرئيسة فيها، وعليها تقوم قواعد بناء الجملة في الأصل، تلحق بها بقية كلمات الجملة فتأخذ مواقعها في ضوء قواعد النحو التحويلي. ويرى بعض العلماء أن معظم لغات البشر في العالم يمكن أن تُحصر تراكيبها الأصل في ثلاثة نظم رئيسة هي (VSO, SVO, SOV) وعلى ذلك فلابد أن يكون لكل جملة في أية لغة تركيبان يعبران عن المعنى العميق، يخضعان لقوانين النحو التحويلي، وتركيب واحد يمثل البنية السطحية، ويخضع لقوانين النحو التوليدي. وقد رفض علماء اللغة هذا التعميم الذي يصبغ بعض القواعد والقوانين بالصبغة

————————

العالمية، ويرون أن لكل جملة في أية لغة تركيبا أصلا Kernel (جوهر)، له قواعده وقوانينه التي قد تختلف من لغة إلى أخرى، ثم يضاف إلى هذا التركيب الأصل عدد من المباني لتحقيق المعنى العميق deep structure الذي يرمي إليه مستعمل اللغة، فتظهر الجملة في وضعها الأخير متمشية مع القوانين والقواعد العامة للغة والنحو[4] . ويرى قسم آخر من علماء اللغة وهم أصحاب نظرية حديثة ترجع إلى سنة 1975م وتسمى Relational Grammar يرون أن قواعد النحو التحويلي هي الأساس الذي تبنى عليه قواعد التركيب الجملي[5]، القائمة على إدراك العلاقات بين الكلمات في الجملة، وبه يتم التوصل إلى المعنى العميق أو البنية التحتية[6]. خلافاً لما يراه تشومسكي الذي يعد العلاقات بين الكلمات في الجملة grammatical relations في الدرجة الثانية من الأهمية، ويرى أن الكلمات تنتظم في الجملة على أساس تركيبي تلقائي لتحقيق البنية التحتية أو التركيب العميق[7]. ومنهم من يرى أن التركيب الجملي الأساس الذي يحقق المعنى الأصل من الجملة في معظم لغات العالم هو VSO ، وباستعمال مجموعة من القواعد التحويلية المتعلقة بالاسم والمشتركة بين لغات العالم، يتم تحويل هذا التركيب إلى SVO، وباستعمال مجموعة أخرى تتعلق بالفعل يتحول التركيب إلى SOV [8]، ويعد أصحاب هذه النظرية اللغة العربية بين اللغات التي ينطبق عليها هذا النظام VSO يدفعهم إلى ذلك قواعد التراكيب السطحية، التي على الرغم من شيوعها وكثرة استعمالها فإنها لا تصلح للتوصل إلى البنية التحتية. يؤيد هذا الرأي عندهم النتائج التي توصل إليها جرينبرج Greenberg في أبحاثه ودراسته، إن كل اللغات التي تستعمل حروف جر Prepositional Languages هي لغات تسير وفقا للمنهج VSO [9]. وترى فئة أخرى أن اللغة العربية تتبع نظام[10] SVO في ترتيب الكلمات في الجملة للوصول إلى البنية التحتية، فهذا عندهم هو الأصل في تركيب هذه الجملة العربية، على الرغم أن الشائع والغالب في التراكيب هو غير ذلك[11]. وربما كانت هذه النظرية نتيجة قياس اللغة العربية على غيرها من اللغات السامية كالأكادية التي هي VO في الأصل ثم تحولت إلى SVO بمرور الزمن، وبتأثير السومرية عليهـــا[12]، وقياسا على الأمهرية التي كانت أيضاً VO ثم تحولت إلى[13] SOV. ويرد جرينبرج على هذا الادعاء، مؤيداً

ما جاء عن النحاة واللغويين العرب القدماء، وما توصل إليه معظم اللغويين الغربيين الذين درسوا العربية ونحوها، في أن هذه اللغة تتبع في ترتيب كلمات الجملة النظام[14] VSO معتمداً على أن النظام السائد في العربية هو VSO ، أولا، وثانيا لأن اللغة العربية تستعمل حروف جر، وكل اللغات التي تستعمل حروف جر تتبع النظام VSO في ترتيب كلمات الجملة (Greenberg, J. P. 78) . وثالثا: لأن اللغة العربية في نظامها تتبع النظام اللغوي NG ، أي أن العامل يسبق معموله (Greenberg, J. P. 78) ورابعا: لأن اللغة العربية تتبع النظام اللغوي NA أي أن المنعوت يسبق النعت دائما (Greenberg, J. P. 85) وكذلك الاسم المخصص يسبق الكلمة أو الجملة التي تخصصه وتحدده، كما هو الحال في الاسم الموصول وصلته التي تعد بمثابة نعته. ويرى أيضاً أن كل لغة تماثل اللغة العربية في هذه النقاط، هي من اللغات التي تتبع النظام اللغوي VSO وأن هذه اللغات كلها تتخذ من النظام SVO بديلا تستعمله لترتيب الكلمات في الجمل (Greenberg, J. P. 79) لذا فإن هذا النظام SOV يرد في اللغة العربية على حد سواء مع النظام VSO وربما أكثر. أما النظامان VOS, OVS فإنهما يردان في العربية في حالات قليلة، في حين أن النظامين SOV, OSV يردان في حالات نادرة.

وضع النحاة واللغويون العرب القدماء الجملة في اللغة العربية في قسمين: جملة اسمية، وهي التي تبدأ باسم أو ضمير. وفعلية وهي التي تبدأ بفعل، ويكون ترتيب كلمات الجملة في هذين القسمين في الأغلب الأعم وفقاً للنظامين SOV, VSO على حد سواء – كما ذكرنا – فأي النظامين إذاً يحقق البنية التحتية وأيهما يمثل البنية السطحية؟ للإجابة، لابد من اتباع طريقة الإحصاء لجمع عدد كبير من الجمل، وهذه هي الخطوة الأولى في الدراسات اللغوية، ثم تليها الخطوة الثانية وهي الدراسة الدقيقة للمناسبة التي تستعمل فيها هذه التراكيب: لبيان الغرض المقصود من كل تركيب، ثم وصف الكيفية التي انتظمت عليها المباني الصرفية في التركيب للوصول إلى الغرض، وهنا تأتي المرحلة الثالثة من الدراسة، وهي المقابلة بين نظامي التركيب الواحد SVO, VSO الذين يشيران إلى المعنى ذاته مع الإشارة إلى الاختلاف في درجة التوكيد أو

الإفصاح ... الخ. وأخيراً تأتي مرحلة استنباط القواعد النحوية والقوانين اللغوية التي يتم في ضوئها ترتيب الكلمات في كل تركيب لتحقيق المعنى المراد، فالجمل التي تشير إلى تغير في ترتيب الكلمات لتغير في المعنى هي التراكيب التي تمثل البنية التحتية، فتفقد منها مجموعة من القواعد النحوية والقوانين اللغوية التي تسمى قواعد وقوانين النحو التوليدي[15] Generative rules ثم تتم ملاحظة ما يطرأ على هذه الجمل من تغيير في مواقع كلماتها وما يلحق بها من حذف وإضافة وإضمار، فتوصف كل حالة وصفاً دقيقاً، ثم تتم دراسة هذا الوصف لرصد مجموعة قواعد وقوانين النحو التحويلي[16] Transformational rules . يرى تشومسكي أن الركن الرئيس الذي يجب أن تحققه النظرية اللغوية عند البحث في البنية التحتية هو تحديد الغرض المقصود من التركيب اللغوي وإظهاره من خلال العلاقات النحوية القائمة بين الأبواب النحوية التي تنتمي إليها كلمات ذلك التركيب (Chomsky, N. Deep Structure P. 54-55) وعلى ذلك فإن الادعاء بأن اللغة العربية تنهج لبناء تراكيبها الأصل المنهج SVO يبتعد بدراستها عن المنهج الوصفي القائم على تتبع المعنى ووصف الكيفية التي تنتظم عليها المباني الصرفية للتعبير عن ذلك المعنى، وينحو بها نحو التحليل السطحي القائم على

? ⟶ = (S) NP + Pred (Lowkowicz: P. 815)

ولا مبرر لهذا التحليل إلا الوصف الظاهر لكثير من الجمل الشائعة في كل من العربية الفصحى والعربية المعاصرة: عليٌ حضر من السوق، محمدٌ سافر، خالدٌ درس درسه ... الخ فيكون تحليلها كما يلي: SVO = S (NP) + pred (VP) .

وهذا يقتضي البحث عن مجموعة من القواعد التحويلية التي يتم في ضوئها نقل الفعل الرئيس في الجملة، أو نقل الاسم المتقدم فيها، إلى موقع آخر للوصول إلى المعنى المراد. وبإعادة هذين الركنين الرئيسين إلى موقعيهما الأصل في الجملة فإن المعنى سيبدو أقل توكيداً على ذلك الركن منه في الجمل في تركيبها الحالي. وسيظهر أيضاً أن مجموعة القواعد التحويلية التي تلزم في هذا التحليل تشملها قواعد التحليل الأول VSO وتبقى بحاجة دائمة إليها، فتقول مثلاً:

محمد درس درسه $SOV = S(NP) + V(VP) \supset V + S(Pron) + O$

في حين يكون تحليل الجملة ذاتها وفقا للمنهج الأول، كما يلي:

$$VSO = VP \supset NV + O$$

ولو افترضنا منهجا ثالثاً لتحليل مثل هذه الجملة كما يلي[17]:

$$? \longrightarrow = VP + NP$$

لكان تحليل الجملة في ضوئه: $? \longrightarrow = VP(VS) + NP(O)$

وهذا يعني أنها تسير وفقاً للمنهج الثالث المذكور سابقاً، نحاول توضيحه بالرسم التالي:

$$? \longrightarrow = \ - \ + \ V - O$$

S

وهذا يقتضي أيضاً مجموعة من القواعد والقوانين التحويلية التي يتم وفقاً لها نقل S من موقعه ليفصل بين الركنين الرئيسين المتبقيين في الجملة V, O ولكن هذا المنهج وإن بدا فيه الاعتماد على المنهج الوصفي إلا أنه يبقى قاصراً عن الوصول إلى البنية التحتية للتركيب إلا باستخدام مجموعة معقدة من قواعد التحويل لا تزيد البحث إلا تعقيداً.

ذكرنا أن اللغويين والنحاة العرب القدماء قد قسموا الجملة في اللغة العربية إلى قسمين: فعلية واسمية، وهنا نعود لتطبيق مناهج التحليل السابقة عليهما، فالفعلية مثل:

1- أ – حضر زيد VS

ب– مات زيد VS

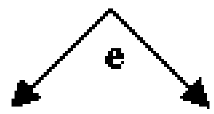
ج– أكرم زيدٌ خالداً VSO

وأما الاسمية فمثل:

2- أ – محمدٌ مجتهدٌ S + pred

ب - محمد في البيت S + Pred (Prep CL)

ونرجئ الحديث في القسم الثاني، ثم نقدم صنفاً ثالثاً من الجمل لنقابله بأمثلة القسم الأول:



أ - زيد حضر SV [S (Pron)]

3- ب- زيد مات SV [e S (Pron)]

ج- عليّ أكرم خالداً SV [e S + (Pron)]+O

فإن هذه الجمل وفقاً لمنهج أهل البصرة تدرج في قسم الجملة الاسمية، وذلك لأنها تبدأ باسم. فالاسم في أولها مبتدأ أو الجملة بعده خبره، ومرتبطة به وجوباً برابط يعود عليه، وهو الضمير المستتر ويعرب فاعلاً للفعل، الفعل الذي هو في حقيقة الأمر موضع الحدث الذي أحدثه الاسم المتقدم[18]، كما في الجمل: 1/أ، ج، 3/أ، ج، وإنما كان التقديم لأمر يتعلق بتوكيد جزء من أجزاء الجملة، يقول ابن يعيش: (... وذلك نحو قام زيد وسيقوم زيد، وهل يقوم زيد، فزيد في جميع هذه الصور فاعل من حيث أن الفعل مسند إليه ومقدم عليه سواء فعل أو لم يفعل، ويؤيد إعراضهم عن المعنى عندك وضوحا أنك لو قدّمت الفاعل فقلت: زيد قام، لم يبق عندك فاعلا وإنما يكون مبتدأ أو خبراً معرضا للعوامل اللفظية (ابن يعيش: 7/1) ومتابعة لهذا فإن النظام اللغوي الذي جاءت عليه الجمل 3/أ، ب، ج، هو SVO ، وبذا فإن الجملة مكونة من جملتين: اسمية مكونة من مبتدأ وخبر، وفعلية مكونة من فعل وفاعل مقدر ومفعول به. وهذا التحليل SVO ، هو وصف التركيب السطحي للجملة surface structure، ليس غير، في حين أن قسما من النحاة القدماء قد أدركوا البنية التحتية deep structure، وعبّروا عن ذلك بوضوح، يقول الجرجاني: "لا يتصور أن تعرف للفظ موضعاً من غير أن تعرف معناه ولا أن تتوخى في الألفاظ من حيث هي ألفاظ ترتيبا ونظما، وإنك تتوخى الترتيب في المعاني وتعمل الفكر هناك" (الجرجاني: ص 93). فترتيب الكلمات في نظام جملي معين يكون

لتحقيق معنى يريده المتكلم، فيقدّم أو يؤخر مباني التركيب ليصل إلى ذلك المعنى. يقول رايت[19] Wright: (إن الفرق بين الجملة الفعلية والجملة الاسمية في اللغة العربية، هو أن الأولى تصف حدثا، أما الثانية فتصف شخصاً أو شيئاً، ويكون ترتيب الكلمات فيهما بطريقة تحقق ذلك، إلا إذا كانت هناك رغبة في تأكيد قسم من أقسام الجملة، فإن هذا يكفي لأن يكون سببا للتغيير في مواقع الكلم) وبذا تبقى الجملة جملة واحدة، وليست جملتين صغرى وكبرى وربما اشتملت الكبرى على أكثر من قسمين كما يرى ابن هشام، كما في [زيد] أبوه [غلامه منطلق] (ابن هشام).

إن مـــن يـــدرس الجمـــل 1/أ، ج يتبين أنها جاءت على المنهج الأصل، محققة المعنى الذي يرمي إليه المتكلم من التضام بين الكلمات /حضر، زيد/، أكرم، زيد، خالداً/، فانطبقـــت بذلك قواعد التوليد .G.R. على قواعد التحويل .T.R أو أن قواعد التوليد هي التي استعملت لبناء كل من الجملتين، بينما بقيت قواعد التحويل بلا استعمال فيهما وذلك للـــتطابق بين البنيتين السطحية .S.S والعميقة .D.S فجاء كل من التركيبين على النظام الأصـــل VSO أما الجمل 3/أ ، ب، ج، فالتباين بين العميقة والسطحية ظاهر جلي، فقد قصد المتكلم بكل منها الإخبار عن زيد وعلي بخبر يقتضي أن يُمهِّد لإلقائه بالعبارة: أما بالنســـبة للافـــتراق بين البنيتين العميقة والسطحية، فقد برزت قواعد التحويل التي هي بمقتضـــاها نقـــل الاسم إلى مقدمة الجملة لتحقيق غرض لا يتحقق في التركيب الأصل، وهـــو توكـــيد نسبة الخبر إلى المخبر عنه[20]، فتحولت الجملة من VSO إلى SVO وإن قصـــد المـــتكلم التغيـــير فـــي المعنى له أن يستعمل أحد النظامين SOV أو OVS مع الاحتفاظ بذكر الاسم المتقدم في موقعه الأصل خلف الفعل ظاهرا كما في OVS أو ممثلا بعـــائد علـــيه كما في SOV وهذا ما يعبر عنه أهل البصرة، لابد لكل فعل من فاعل يلي الفعل مذكوراً أو مقدّراً، فإن تقدّم على فعله لم يعد فاعلا وإنما يكون مبتدأ، وفاعل الفعل ضـــمير مســـتتر تقديـــره (ضمير) يعود على الاسم المتقدم (ابن يعيش: 74/1). فيكون تحليل الجملة كما يلي:

e

$$SVO = S\,(NP) + V\,(VP \supset\ v + NP\,(Pron) + O\,(NP)$$

$= [\ S + [Pred \supset (V + Pron + o))]$

أمــا أهــل الكوفة فإن رأيهم يتفق مع المنهج اللغوي المعاصر الذي يقوم على وصف ظاهر التركيب للوصول إلى معنى بعينه. فيكون تحليل الجملة وفقاً لهذا كما يلي:

$$VSO \Rightarrow SVO = \left\{ \begin{array}{l} S + V + O \\ Agent + V + O \end{array} \right\}$$

فالاســم المــتقدم هو فاعل الفعل الذي يليه ولكنه تقدم لغرض في المعنى[21] وهو توكيد الاســم الــذي قام بالفعل، والعرب إن أرادت العناية بشيء قدمته (أبو حيــان: 42/1 ــ 43).

وهنا نعرض حالة أخرى تبرز فيها أهمية تقديم الفاعل أو ما يقوم مقامه لغرض يتعلق بالمعنى، فترتب بناء على ذلك اختلاف في وجهات النظر بين النحاة المتقدمين في تحلــيل التركيب الجملي الحاصل. وذلك في حالة الرغبة في إبراز الفاعل مقابل اسم آخر فــي الجملة، فتحتاج الجملة رابطين هما الأداتان أما... ف (ابن هشام: 55/1) والغرض فــي حقــيقة الأمر هو الغرض ذاته الذي اقتضى تقديم الفاعل في الجملة السابقة، نقول مــثلا: 1) انتصــر خالد بن الوليد في معركة اليرموك أما المثنى فانتصر في القادسية. ونقول أيضا: 2) يدرس الطلاب المعلومات في قاعة الدرس أما المناهج فتكتب في قاعة الــتدريس، فالجملــة الكــبرى في كلا المثالين مكونة من جملتين، كما يرى النحاة، كما يلي:

ف

1) → { = (VSO + Prep CL) Conj (أما) (S + (conj) + VS + Prep CL) }

ف

[S(NP) + (conj) + pron V + S (pron) + Prep]

ف

2)→ ={[VSO + Prep CL) Conj (أما) [S + (conj) + VS + Prep CL] }

ف

[S(NP) +(conj)+ Pron ⊃ V + S (pron) + Prep]

فــي حيــن أن المتحدث إنما أراد أن يبرز قسماً من أقسام الجملة الكبرى في مقابل قسم آخــر فــيها لإبراز أهميته في المعنى، ولا يعني ذلك أنه قد خرج عن موقعه الأصل من حيــث الوظــيفة التي يؤديها (Fiengo, R. P: 4755) فيكون تحليل الجملتين بناءا على ذلك كما يلي:

1)→ ={VSO + Prep CL + Conj + [VS + Prop CL ⇒ S (Conj) V + Prep CL] }.

⇒ S (Conj) VS + (Pron) + Prep CL) }

e

⇒ Agent + V + Prep CL) }

e

2)→ ={ VSO + Prep CL + (Conj) + [VSO + Prop CL ⇒ O (Conj) VS (Pron) + Prep CL] }

فــالذي أراده المــتكلم من التقديم والتأخير في كل من المثالين السابقين هو ما أراده من الجمــل الســابقة 3/أ، ج وهــو إبــراز عنصر معين في معنى الجملة بإبراز جزء من أجــزائها. فتم ذلك بتحويل هذا الجزء وفقاً لقواعد النحو التحويلي من موقعه الأصل إلى موقــع متقدم في الجملة. وهذا أمر متبع في كثير من لغات العالم ولنضر مثلا آخر يبين أهمــية تقديــم المبنــى لغرض في المعنى، نأخذه هذه المرة من باب الاستفهام محذوف الأداة وقــد خــرج عن معنى الاستفهام إلى معنى ثالث، فالمبني للاستفهام، لأن فيه أداة

مقدّرة، الهمزة، يسميها النحاة همزة الاستفهام ولكنها تحمل في جوهرها معنى آخر هو الدهشة أو الاستغراب، فنقول مثلا:

طائر يتكلم؟! $SV \Rightarrow Vs$

عدوك يحترمك ؟! $SVO \Rightarrow VSO$

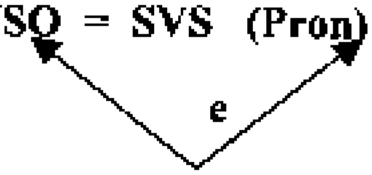
التركيبان في أصلهما : (أ) يتكلم (ال) طائر؟!، (أ) يحترمك عدوك ؟! ولكن موضع الدهشة والعجب لا يبرز واضحا في الوضع الأخير، فيتحول انتظام الكلمات في التركيب إلى الوضع SV ، SVO في إطار النحو التحويلي للغة العربية بتقديم الفاعل على الفعل، وحذف الهمزة التي نرى أنها ضعيفة الصلة بالاستفهام، وربما كانت هي الرمز المكتوب للأصل الصوتي الذي تنطق به الجملة كاملة (التنغيم)، والذي به يتم التمييز بين معنى للجملة، كما يلي:

طائر يتكلم ← جملة خبرية بنغمية صوتية مستوية.

طائر يتكلم ← جملة دهشة واستغراب وتعجب، بنغمة صوتية صاعدة.

وهناك طريقة أخرى يكون عليها التركيب اللغوي ليعطي مزيدا من التوكيد للفاعل المقدم، وذلك بإظهاره في موقعه الأصل بشيء يعود عيه، نقول:

عليٌ أكرم/ هو/ خالداً $VSO = SVS \ (Pron) \ O$



يدرك المتحدث أن الأصل الذي يكون عليه التركيب هو:أكرم عليٌ خالداً، فاحتاج إلى مزيد من توكيد الفاعل، فقال: أكرم عليٌ عليٌ[23] خالداً، ولكن اللغة لا تقبل اللبس وتسعى لنقل المعنى بين المتكلم والسامع بجلاء، وفي هذا التركيب قد يتبادر إلى الذهن أن المتكلم إنما أراد (علي بن علي)، فلا يصل المعنى إلى السامع كما أراده المتكلم، فيتم تحويل الفاعل إلى موقع متقدم جريا على منهج العربية في توكيد ما يُعتنى به (أبو

حـــيان: 42/1 ــ 44). فيصبح التركيب SVO لغرض التوكيد، فإن أراد مزيداً من توكيد الفاعل ذكره بما يعود عليه فيكون

SVS (Pron) O

e

علـــى أكـــرم خالداً. وعندما نعرب الضمير (هو) في مثل هذا التركيب نقول: فاعل للفعل أكـــرم يعود على الاسم المتقدم (المبتدأ). والجملة الفعلية، أكرم هو خالداً: في محل رفع خـــبر المبـــتدأ. وهـــذا هو منهج أهل البصرة، ولا نكاد نظفر بشيء يشير إلى رأي أهل الكوفـــة فـــي إعـــراب الضمير العائد، لأنهم يعربون الاسم المتقدم إعراباً وصفيا: فاعل مقـــدم[24]. فالتركيـــب عندهم كما يلي: SVO ⇐ VSO وهنا نقترح أن يُعدُ الضمير (هو) في مثل هذا التركيب لمزيد من التوكيد، فيكون إعراب الجملة كما يلي:

علي: فاعل مقدم لغرض التوكيد مرفوع.

أكرم: فعل ماضي مبني على الفتح.

هو: توكيد للغرض من تقديم الفاعل المقدم.

خالداً: مفعول به..

وما يقال في هذه الجملة يقال في: ضرب هو الولد، فيكون (هو) توكيداً لغرض تقديـــم الفـــاعل المـــتقدم ذكره في السياق، إذ لو لم يكن (هو) عائداً على اسم معروف للمـــتكلم والسامع، الذي هو الفاعل حقاً، لكانت الجملة غامضة، فيكون التركيب الأصل VSO ثـــم حـــوّل إلى SVO لغرض التوكيد، ثم حول إلى الصيغة الأخيرة التي هي في الأصل

$SV\ (_e Pron)\ O$

$VSSO \Rightarrow SV\ (_e Pron)\ O$

ومن الملاحظ أنه إذا تقدم الفاعل لغرض التوكيد فلابد أن يؤكد مرة أخرى بضمير يجوز إظهاره بعد الفعل المسند إلى فاعل مفرد (مذكراً أو مؤنثاً)، هند قرأت الكتاب، هند قرأت هـــي الكتاب، ويجب إظهاره بعد الفعل المسند إلى المثنى أو الجمع، المذكر والمؤنث، أو المســـند إلـــى ضـــمير المخاطـــبة: الولدان حضرا، الهندات يحضرن، الأولاد يحضرون، الطالبـــتان حضـــرتا، أنـــت تكتبين، فيكون الاسم المتقدم عندئذ هو الفاعل والضمير بعد الفعل: ألف الاثنين أو واو الجماعة، أو نون النسوة أو ياء المخاطبة، يكون التوكيد عند ذكـــر أي ضمير بعده. فتقول: (اسكت) وهي جملة فعلية نظامها VS = V (Pron) فإذا أراد المـــتحدث توكـــيد المسند إليه قال: اسكت أنت VSS = V Pron + (PRON) ولا يجـــوز فـــي مثل هذه الجملة تقديم الفاعل للتوكيد لاحتمال اللبس مع التعبير عن رغبة المـــتكلم فـــي شد انتباه السامع إلى غرض يريده وذلك في النداء. فلو قال: أنت اسكت، لاخـــتلط الأمر بين: يا أنت اسكت، التي هي للنداء، وبين: أنت اسكت، التي للتوكيد، في حيـــن يريد المتكلم التوكيد ليس غير، لذا وجب أن تكون (أنت) في الجملة: اسكت أنت: توكيداً للضمير المستتر الذي لا يجوز تقديمه، ويجب استتاره.

بخـــلاف مـــا يـــراه ابـــن مضاء القرطبي (القرطبي: ص 79) فإذا جاز أن يعد الضـــمير الظاهـــر فـــي: (اسكت أنت) توكيداً للضمير المضمر في اسكت ولا يكون ذلك مخالفـــاً للقاعدة النحوية (لا يجتمع فاعلان لفعل واحد)، فإن طبيعة اللغة تقتضي أن يعد المســـند إليه في الجملة التي يتقدم فيها الفاعل ويُذكر بعد الفعل ضمير يعود عليه، فاعلا مقدمـــا، والضـــمير مؤكـــداً للغرض من تقديمه. هذا في جانب وفي جانب آخر، أن يعد المســـند إليه في الجملة التي يتوالى فيها لفظان بعد فعل يصلح كل منهما أن يكون فاعلا للفعـــل: حضرا الولدان، أكلوني البراغيث[25]، وأسروا النجوى الذين ظلموا.. (الأنبياء:3) وفـــي حديـــث الدجال: (إنه تلده أمه فيحملن النساء بالخطائين)، فاعلا مؤكدا، بخلاف ما يقولـــه ســـيبويه (سيبويه: 236/1): واعلم أن من العرب من يقول : ضربوني قومُك وضـــرباني أخواك، فشبهوا هذا بالتاء التي يُظْهرونها في "قالت فلانة"، وكأنهم أرادوا أن يجعلوا للجمع علامة كما جعلوا للمؤنث، وأورد قول الفرزدق..

ولكــــنْ ديافـــيٌّ أبـــوه وأمــــه   بحوران يعصرنَ السليـط أقاربـــه

ولكـــن تاء التأنيث عند سيبويه كما هي عند غيره من النحاة هي علامة تأنيث لا محل لهـا من الإعراب، أما الألف والواو والياء ونون النسوة في الأمثلة السابقة فهي ضمائر ولهـا محل من الإعراب، وإعرابها دائما إما فاعل أو نائب عنه. فتكون التراكيب السابقة مماثلة لما يلي: حضر الولدان هما أو أنفسهما، الولدان حضرا، والأصل فيهما:

1- حضر الولدان — VS

2- حضرا الولدان — VSS = V Pron s
e
= V + Pron + Agent
e

3- حضر الولدان هما — VSS = VS Pron
e
= V + Agent + Pron
e

4- الولدان حضرا — SVS = SV Pron
e
= Agent + V + Pron
e

ولا اعتراض على هذا إلا الخروج على القاعدة النحوية التي تنص على أنه لا يجوز أن يؤكـد الظاهـر بمضـمر (ابن يعيش: 41/3 ـ 42). ويؤيد ذلك بالإضافة إلى المعنى، الأصـل اللفظي الذي جاء الضمير ليسد مسده، كما يلي: حضر الولدان الولدان، الولدان حضـر الولـدان، حيث تعرب كلمة (الولدان) في الأول توكيداً لفظيا للفاعل، وفي الثاني هي بمثابة التوكيد وإن كانت في حقيقة أمرها توكيداً للفاعل المقدم. ولا نرى أن اختلاف

المبنـــي عـــند اســـتبدال الضمير بالاسم، وهو جائز في العربية بل ومن عناصر قوتها، ينقص كونها توكيداً وإن لم يتفق مع القواعد النحوية.

ونـــرى أن نشـــير هـــنا إلى رأي رابين[26] Rabinفي أن الجمل المماثلة لجملة: أكلونـــي البراغيـــث، هي لهجة قبيلة عربية قديمة[27] كانت تسير على القاعدة الأصل في ترتيـــب كلمـــات الجملة VSO فلا تسمح بتقديم الفاعل على الفعل، فيجب أن تبدأ الجملة الفعلـــية عندهم بفعل، ولو ناقشنا وجهة نظر رابين هذه، لقلنا أن هذه القبيلة كانت تذكر الفاعل بعد الفعل، فإذا أرادت أن تؤكده فلابد من تكراره لفظا أو بضمير، فتكون الجملة، أكـــل البراغيـــث إيـــاي VSSO ، أو أكل البراغيث هم إياي فالتحق الضمير (هم) بالفعل (أكـــل) ولكـــن برسم آخر وهو الواو التي هي لاصقة تعبِّر عن إسناد الفعل إلى الجماعة وتؤكد المسند إليه، فتصبح الجملة: أكلوا البراغيث إياي. ثم جرى فيها تحويل آخر وفقاً لقواعـــد النحو التحويلي، فأصبحت: أكلوني البراغيث، بإضافة نون الوقاية (وهي وظيفة صـــوتية) ونقل ضمير المتكلم إلى موقع متقدم. فما كانت الواو إلا لتوكيد الفاعل في هذه اللهجة التي تمنع تقديم الفاعل على الفعل، كما يرى رابين.

نأخذ نموذجاً آخر من نماذج تركيب الجملة الفعلية، وليكن هذه المرة مما يتقدم فـــيه المفعـــول به، مرة بلا عائد، وأخرى بالضمير العائد في باب الاشتغال: خالداً أكرم عليّ OVS ⇐ VSO فهي في الأصل VSO ثم حولت إلى OVS لتوكيد المفعول به عـــن طـــريق التقديم، والعرب إن شاعت الاعتناء بشيء قدمته، فكلمة (خالداً) مفعول به مقـــدم فـــي رأي النحاة أجمعين، وذلك لعدم وجود لبس بين حركة الاسم المتقدم (خالدا) وحـــركة الاسم الذي يقع في أول الجملة[28] (المبتدأ) كما هو الحال عند تقديم الفاعل. أما فـــي الجملـــة: خالداً أكرمته، فعلى الرغم من أنه لا لبس بين حركة كلمة (خالداً) وحركة المبـــتدأ إلا أن نحاة البصرة يقدرون فعلا يعمل فيها النصب يفسره الفعل المذكور بعده، لـــتكون (خـــالدا) مفعولا به للفعل المقدر[29]، لأن الفعل المذكور في الجملة قد حصل على مفعوله وهو الضمير، وليس هو من الأفعال التي تأخذ مفعولين، فلا سبيل إلى القول بأن (خالدا) مفعول ثان للفعل المذكور، فتكون الجملة عند أهل البصرة مكونة من جملتين:

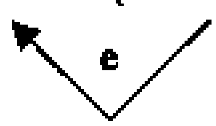
VSO/// + VSO///

ويكون التوكيد توكيداً لفظياً بتكرار الجملة. فالنصب في ذلك كله... بعامل محذوف فعلا كان أو وصفا، وجوبا، فلا يجوز إظهاره، ويشترط كون المحذوف المقدر مماثلا للمذكور (الأهدل: 6/2) ولكنه يكون واجب الرفع في حالات بعينها: خرجت فإذا زيد يضربه عمرو. ولو نصب بتقدير الفعل لفسد المعنى[30] في حين يرى أهل الكوفة أن الفعل إنما يتصرف إذا كان متصرفاً في نفسه، فالاسم المتقدم على الفعل منصوب بالفعل الواقع على الهاء[31] فيكون تحليل الجملة عندهم:

VSO ⇒ OVS (Pron) + (Pron)

ونحن نرى أن المتكلم إنما أراد توكيد جزء من المعنى ممثلا بجزء من الجملة وليس بالجملة كلها، بالمفعول به فقدمه (.. .. والتقديم عندنا إنما هو للاعتناء والاهتمام بالمفعول، وسب أعرابي آخر فأعرض عنه، فقال: إياك عني، فرد عليه: وعنك أعرض، فقدما الأهم) (أبو حيان: 1: 24)، ثم أراد أن يزيد توكيده فذكره ثانية في موضعه الأصل، فأصبحت الجملة: خالداً أكرمت خالداً OVS + O فحذف الاسم (خالداً) من موضعه الثاني ووضع بدلا منه الضمير، والعرب تجتنب اجتماع المشتبهين (السيوطي: الأشباه والنظائر: 23/10)، وليس من موضعه المتقدم، لأنه حينئذ يحتاج إلى ما يعود عليه متقدما عليه[32] فأخذت الجملة وضعها الأخير: خالداً أكرمته. فالجملة في قواعد التوليد VSO ثم حولت وفقا لقواعد التحويل إلى OVS لتحقيق غرض يتعلق بالمعنى

VSO ⇒ OVSO ⇒ OVSO (Pron)



وبذا يكون إعراب الجملة كما يلي:

خالداً: مفعول به مقدم لغرض التوكيد

أكرمت: فعل وفاعل.

الهاء: ضمير متصل ذكر توكيداً للغرض من تقديم المفعول به

ولا يختلف القول كثيراً في الجملة السابقة، عنه في الجمل ذات الفاعل المقدم المسبوق بأداة تختص بالدخول على الفعل، إذا، إن .. . (الأزهري: 30/1، 380) (إذا السماء انفطرت)، (إذا السماء انشقت)، (إن أحدٌ من المشركين استجارك فأجره)، إن زيد أتاني آته، (وإن امرأة خافت من بعلها نشوزا أو إعراض) (ابن الأنباري: مسألة: 85، 86).

إذا الشعب يوماً أراد الحيـــــاة فلا بد أن يستجيـــب القـــــدر

ولنأخذ الآية الأولى للتحليل وفقاً لكل من منهجي البصرة والكوفة (إذا السماء انشقت) يرى أهل البصرة أنها مكونة من جملتين، حيث إن (السماء) فاعل لفعل محذوف يفسره المذكور بعده: إذا انشقت السماء انشقت السماء

$$\longrightarrow = Art\{VSO/// + VSO///\}$$

وبذا يكون التوكيد لفظيا، جملة بجملة، يقول سيبويه: إن حروف الجزاء يقبح أن تتقدم الأسماء فيها قبل الأفعال، وذلك لأنهم شبهوها بما يجزم (سيبويه: 100/3) كما أنهم لا يجيزون أن يكون الاسم الواقع بعد هذه الأدوات مبتدأ لأن الابتداء هو التعري من العوامل اللفظية المظهرة أو المقدرة (ابن الأنباري: مسألة: 85) ويشاركهم الكوفيون القول بأن هذه أدوات تختص بالدخول على الفعل وأنه إذا تقدم الاسم المرفوع بعد إن الشرطية، يرتفع بما عاد عليه من الفعل من غير تقدير فعل، (ابن الأنباري: مسألة: 85) ولكن الجملة هنا جملة محوّلة لغرض التوكيد،

$$\longrightarrow = Art\{VS\} \Rightarrow Art\{SV\}$$

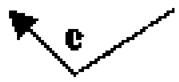
فالسماء: فاعل مقدم للفعل انشقت. ونحن نرى أن الجزء الذي خص بالتوكيد هو الفاعل فقدم للعناية به، ثم كانت التاء في آخر الفعل إشارة إلى جنس المسند إليه لتحديده وتوكيده بإعادة التذكير به. وبذا يكون التركيب جملة واحدة،

$$\longrightarrow = Art\{VS\} \Rightarrow Art\{SV + NM\}^{(33)}$$

فعلية، ولم تخرج الأداة عن تخصصها بالدخول على الفعل، خلافا للأخفش الذي يرى أن الاسم بعدها مبتدأ[(34)] الجملة بعده خبره.

وبناء على ما سبق، نرى أن الجملة التي تشتمل على فعل في اللغة العربية هي جملـــة فعلية VS أو VSO وفقا لقواعد النحو التوليدي، سواء تقدم فيه الفعل أم تقدم علـــيه الفعـــل أو المفعول به، يتم تحويلها للتوكيد على جزء من أجزائها أو للمقابلة بين الفاعلين في جملة ذات شقين في إطار القواعد التحويلية إلى

SVO أو OVS أو SOV أو SV (Pron)



أو بإدخال أدوات تقتضيها قوانين التحويل، أما، الفاء.. . الخ.

أما النظام اللغوي للجملة الاسمية، فلتوضيحه ننظر في الجمل التالية:

1- محمد مجتهد	S + Pred
2- كان محمد مجتهدا	S + Pred ⇒ VSO
3- محمد كان مجتهدا	S + Pred ⇒ SVO
4- محمد كان هو مجتهدا	S + Pred ⇒ SVS (Pron) + O



فقـــد جاء التركيب الجملي الأول وفقا لقواعد النحو التوليدي مكونا من مبتدأ وخبر، كل فـــي موقعـــه الأصـــل، وبذا يكون التركيبان السطحي والعميق قد تطابقا في الإشارة إلى المعنى[35].

S.S = S + Pred → (المعنى)
D. S = S + Pron → (المعنى)

أما في الجملة الثانية فقد دخل الجملة عنصر آخر من عناصر النحـــو التحويلي T.G. وهي (كان)، ليفيد الإشارة إلى الزمن الماضي، وبقيت المباني الأخرى في الجملة

على ترتيبها الأصل، فاشتركت قواعد النحو التحويلي مع قواعد النحو التوليدي للوصول إلى المعنى العميق، وهو الإشارة إلى إلحاق المسند إليه مقترنا بزمن ماض

G. G. + T.G. = S + Pred.

∅ + T.G. = V (S + Pred)

وفـــي الجملة الثالث دخل الجملة عنصران من عناصر التحويل هما: تقديم كلمة (محمـــد) وإدخـــال كلمـــة (كان) لتحقيق المعنى العميق الذي هو في هذه المرة ذاته في الجملة الثانية مضافا إليه عنصر التوكيد المستمد من تقديم كلمة (محمد) فيكون إعرابها كما يلي:

محمد: اسم كان مقدم لغرض التوكيد ....

كان: عنصر الإشارة إلى الزمن الماضي (فعل ماض ناقص)

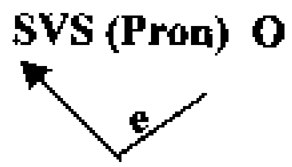
مجتهدا: خبر كان ....

وأمـــا فـــي الجملة الرابعة فقد دخل التركيب ثلاثة عناصر من قواعد التحويل هي: تقديم كلمة (محمد) لتحقيق التوكيد الناتج عن العناية بالمقدم، وإدخال (كان) لتفيد الإشارة إلى زمـــن الإســـناد، ثم ذكر الضمير (هو) بعد كان الذي يعود على الاسم المتقدم لمزيد من التوكيد[36].

كان محمد محمد مجتهدا

كان محمد هو مجتهدا

محمد كان هو مجتهدا



فيكون إعرابها كما يلي:

محمد: اسم كان مقدم لغرض التوكيد

كان: عنصر الإشارة إلى الزمن الماضي (فعل ماضي ناقص)

هو: توكيد للغرض الذي من أجله قدم اسم كان

مجتهدا: خبر كان

وقد أدرك نحاة البصرة ذلك، ولكن قسرية القاعدة النحوية هي السبب في رفض تقديم اسم كان عليها (ابن الأنباري: أسرار العربية: ص 139) ".. .. إنما لم يجز تقديم أسمائها عليها لأن أسماءها (كان وأخواتها) مشبهة بالفاعل والفاعل لا يجوز تقديمه على الفعل[37] في حين أنهم يجيزون تقديم خبرها عليها أو توسطه بينها وبين اسمها (السيوطي: همع الهوامع: 117/1 ـ 118).

وهناك تركيب آخر للجملة الاسمية، وهو كثير الاستعمال في اللغة العربية يكون فيه المبتدأ .. أ) معرفة   ب) نكرة.   والخبر شبه جملة:

1/	أ – محمد في المدرسة	= S + Prep.	NP + Prep. CL	(أ)
	ب– الرجل أمام البيت		NP + CL	(ب)
2/	أ– في البيت رجل	= Pred. + S	Prep CL + NP	(أ)
	ب– عندي كتاب		CL + NP	(ب)

في الجملتين 1/أ ،ب، يتطابق التركيبان السطحي والعميق في الإشارة إلى المعنى المراد، فكان ترتيب الكلم في الجملتين محققا لهذا المعنى، الإخبار عن (محمد، الرجل) لأنهما موضع العناية، فقدما (فإن جوهر الكلام هو ذلك الكلام النفسي، وأما الكلام اللفظي فهو ظل لهذا الكلام النفسي)[38] مضبوطا بقواعد وقوانين اللغة، وهي غاية ما يصبو إليه علم اللغة الوصفي ليقدم جملة تعبر عن هذا المعنى (Firth,P: 190). في حين أن الجملتين 2/ أ، ب قد قصد منهما التعبير عن العناية بالمكان فقدم تبعا لذلك وأخذ وضعا ثابتا Pred + S يعبر عنه النحاة بوجوب تقديم الخبر، فهي في الأصل S + Pred حولت لغرض توكيد المتقدم، كما يلي[39]:

S + Pred $\Rightarrow$ Pred. + S

فيكون إعرابها كما يلي:

في المدرسة	شبه جملة (ظرفية أو جار ومجرور) خبر مقدم لغرض التوكيد
أمام البيت	
عندي	

نكتفي بهذا القدر من نماذج الجمل الفعلية والاسمية، التي نرى أنه يمثل معظم التراكيب الرئيسة في هذين القسمين، وندع ما بقي من فروع إلى حين آخر، في بحث آخر.

الهوامش

(1) نرجئ القول في هذا القسم إلى موضع آخر.

(2) انظر: N. Chomsky, Syntactic Structure, Mouton and Co., The Hague, 1963.

J. Greenber, Some Universals of Grammar with Particular reference to the order Meaningful Element, Cambridge, Mass, M.I.T. Press 1963.

(3) انظر: N. Chomsky, Aspects of the Theory of Syntax. He M.I.T. Press 1978 PP. 10m 61-18, 139.

(4) انظر: J.F. Staal, Word order in Sanskrit and Universal Grammar, Dordrect, Holand: D. Reidel Publishing Co., 1967. P. 80ff.

(5) انظر: R. Newmeyer, Relational Grammar and Autonomous Syntax, Papers from the 12th Regional Meeting, Chicago Linguistic Society, 1978, 506-150.

(6) انظر: E.Keenan, Some Universals of Passive in relational Grammar, Papers from the 11th Regional Meeting, Chicago Linguistic Society, 340-52.

(7) انظر: N. Chomsky, Aspects of the Theory of syntax, Cambridge: M.I.T Press. 19865, p.

(8) انظر: E. Bach, Syntactic Theory, New York: Holt, Reinehart and Winston, 1974, P. 274 ff.

ولمزيد من التفصيل انظر:

E. Bach, "Is Amharic an Sov Language?" Journal of Ethiopian Studies, 1970, 8. 9-20.

(9) J. Greenberg, Some Universals of Grammar with Particular reference dthe order of Meaningful Elements, Universals of Language, ed. By J.H. Greenberg, 73-113. Cqmbridge: M.I.T 1965 p. 78ff.

(10) انظر: C. Killean, The Deep Structure of the noun phrase in modern written Arabic, Ann Arbor, University of Michigan Dissertation, 1966.

(11) ثم قابل بما جاء في:

C. Ferguson, The Emphaticwin Arabic, Language, 1965 32:3 44-52.

(12) انظر: W. Von Soden, Grundriss der Akkadischen Grammatik, Roma: Pontificium Institutum Biblicm, 1969, P. 2: 182 ff.

(13) انظر: E. Bach, "Is Amharic an SOV Language?" Journal of Ethioplan Stdies, 1970, 9-20

(14) انظر: J. Greenberg, Some Universals of Grammar with Particular reference to the Order of Meaningful elements, P. 108 ff.

(15) انظر: N. Chomskym Spects of the Theory of Syntax, P. 30 ff.

(16) انظر: N. Chomsky, Current Issues in Linguistic Theory, The Hague: mouton 1964, P. 63

(17) قابل مع ما جاء في:

F. Anshen, and P. Scheriber, A focus transformation of Modern Standtard Arabic, Language 1968, 44. 292-97 p.793

(18) انظر: N. Smith and D. Wilson, Holdern Lihnguistics, the result of Chomsky's revolution, Indiana University Press, 1979, p. 101 ff.

(19) انظر: W. Wright, A Grammar of the Arabic Language, 3rd ed., Cambridge University Presse, Vol. 11. p. 25

(20) انظر: E. Bach, Order in Base Structures, Word order and Word Order Change, ed. By Charles N. Li, 307-43. Austin: University of Texas Presse, 1975.

(21) الفــراء: معاني القرآن 1/200–2/244 وانظر الأخفش: معاني القرآن 2/534 وابن الأنباري: الأنصاف مسألة 85.

(22) ولمزيد من التفصيل انظر:

S. Kuno, Subject, Theme and the speaker4s empathy examination of relativiwation phenomens subject and topic, ed by Charles N. Li, 417-44 New York: Academic Press, 1976.

(23) مثل هذا التركيب شائع في العربية المعاصرة.

(24) وانظر ابن الأنباري، الأنصاف، مسألة 85.

(25) ورد مثل هذا في العربية وعد شاذا لا يؤخذ به.

(26) انظر: **C. Rabin, Ancient West-Arabian. London, Taylor's Foreign Press 1951, P. 168**

(27) وقد ذكر ذلك عدد كبير من العلماء العرب القدماء.

(28) السيوطي: الهمع: 111/2 أ 112، وانظر: محمد بن أحمد الأهدل. الكواكب الدرية. دار الكتب العلمية، بيروت، نشر دار الباز ـ مكة: 5/2.

(29) انظر رأي ابن مضاء في هذا الرد على النحاة: ص 98.

(30) المرجع السابق: 6/2، وانظر: الأنصاف، مسألة 12؛ وشرح المفصل 30/2.

(31) ابن الأنباري: الأنصاف، مسألة 12 وسيبويه، الكتاب: 67/1.

(32) أما إن كانت الجملة: زيدا أنا ضاربه، فهي عند أهل البصرة مما قام فيه مقام الفعل اسم يعمل عمله،.وهو عند أهل الكوفة فعل دائم فيكون تحليلها عندهم كما يلي:

OVS + Pron

= OSVI e (Pron)

= C + Agent + V + Pron

(33) **NM = Noun Modifier**

(34) ابن هشام، مغني اللبيب 93/1. ثم قابل هذا الرأي بقوله أن السماء قد رفعت على التقديم والتأخير، موافقاً بذلك رأي أهل الكوفة، انظر الأخفش، معاني القرآن ـ المطبعة العصرية، الكويت، 1979، 534/2.

(35) E. Koenan, Towards a Universal Definition of "Subject" and Topic, ed by Charles N. Li, 303-33, New York Academic Press, 1976.

(36) قابله بما جاء في:

S. Kuno, Functionbal Sentence Prespective: A Case Study from Japanese and English. Linguistic Inquiry, 1972, 3. 269-320, p. 308 ff.

(37) وقد ناقشنا هذا في تقديم الفاعل في الجملة الفعلية.

(38) الجرجانـــي، دلائـــل الإعجاز ص 93، وانظر: درويش الجندي، نظرية النظم عند عبد القاهر، مكتبة نهضة مصر، القاهرة 1960 ص47.

(39) وانظر: W.Wright, A Gramar of Arabic Language, 3rd, ed Cambridge University Presse 1898, p. 253 ff.

تعني: عائد للتوكيد

مفعول به = O ، فاعل = في الجملة الفعلية S فعل = V

ضمير = Pron ، خبر = Pred ، مبتدأ = في الجملة الاسمية : S

ضمير مستتر = Pron تتحول إلى ⇒ ، نهاية جملة

شبه جملة جار ومجرور ، Prep CL

رابط Conj

وانظر R.R.K. Hartman and F. C. stork, Dictionary of Language and Linguistics, Applied Science Publishers Lts., London, 1973, pp. Xiii-Xiii

المراجع

المراجع العربية:

ابن الأنباري: الأنصاف في مسائل الخلاف.

ابن الأنباري: أسرار اللغة العربية، دمشق: مطبعة دار الترقي 1975.

ابن هشام: مغني اللبيب، بيروت: دار الكتاب العربي.

ابن يعيش: شرح المفصل، بيروت: عالم الكتب.

أبو حيان: البحر المحيط، بيروت، دار الفكر.

الأخفش: معاني القرآن، الكويت، المطبعة العصرية، 1979.

الأزهري، خالد: شرح التصريح.

الأهـدل، محمـد بن أحمد: الكواكب الدرية، بيروت: دار الكتب العلمية ـ ومكة: دار الباز 1938.

الجرجاني، عبد القاهر: دلائل الإعجاز، بيروت: دار المعرفة 1978 والقاهرة: 1969.

سيبويه: الكتاب القاهرة: المطبعة الأميرية بولاق، 1316هـ.

السيوطي: الأشباه والنظائر، القاهرة: مكتبة الكليات الأزهرية، 1975.

السيوطي: همع الهوامع، بيروت: دار المعرفة

الفراء: معاني القرآن، القاهرة الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1972.

القرطبي، ابن مضاء: الرد على النحاة، القاهرة: دار الاعتصام، 1979.

المراجع الأجنبية:

Anshen, F. and Schreiber, P.A. focus transformation of Modern Standard Aabic Language 1968.

Bach, E. "Is Amharic an SOV Language"? Journal of Ethiopian Studies, 1970.

Bach, E. Syntactic Theory New York: Holt, Reinehart and Winston, 1974.

Bach, E. Order in base structures, Word Order and Word Order Change, ed. By Charles N. Li. Austin: University of Taxas Press, 1975.

Chomsky, N. Aspects of the Theory of Syntax. The M.I.T. Press 1978.

Chomsky, N. Current Issues in Linguitic Theory. The Hague: Mounton, 1964.

Chomsky, N. Deep Structure, Surface Structure and Semantic Interpretation, studies in general and oriental linguistics, Tokyo, TEC.

Ferguson, C. The emphatic/z/ in Arabic, Language 1956, 32:3.

Fiengo, R. Surface Structure, The interface of autonomous components, Harvard University Presse M.I.T. 1980.

Firth, J.R. Papers in linguistics, Oxford University Presse, 1969.

Greenberg, J. Some Universals of Grammar with Particular reference to the order of Meaningful elements, M.I.T. Press 1963.

Hartman R.R.K. and Stork, F.C. Dictionary of Language and Linguistics, L.T.D., 1973.

Keenan, F. Some Universals of passive in relational grammar, Papers from the 11th Regional meeting, Chicago Linguistic Society.

Killean, C. The Deep Structure of the noun phrase in modern written Arabic, Ann Arbor, University of Michigan dissertation, 1965.

Koenan, E. Towards a Universal definition of "Subject", and topic, New York: Academic Press, 1975.

Kuno, S. Functional Sentence Prespective, Linguistic Inquiry, 1972.

Kuno, S. Subject, Theme and the speaker's empathy. New York: Academic Press, 1976.

Lewkowicz, Topic – Comment and relative clause in Arabic Language, 1971.

Newneyer, F. Relational Grammar and Autonomous Syntax, 12[th] Regional Meeting, Chicago Liguistic Society, 1976.

Rabin, C. Ancient West-Arabian, London: Tqylor's Foreign Press 1961.

Smith, N. and Wilson, D. Modern Lianguistics, The result of Chomsky's revolution, Indiana University Press, 1979.

Stall, J.F. Word Order in Sanskrit, and Universal Grammar, Dordrect, Holand: D. Redel Publising Co., 1967.

Von Soden, W. Grundriss der Akkadischen Grammatik, Roma: Pontificium Institutum Biblicm, 1969.

Wright, W. A Grammar of Arabic Lnaugage, 3[rd] ed. Cambridge University Press, 1898.

رأي في بناء الجملة الاسمية وقضاياها
دراسة وصفية

رأي في بناء الجملة الاسمية وقضاياها

دراسة وصفية*

لقـد اعتمد نحاة العربية القدماء الشعر في تقعيد قواعد اللغة وقوانينها ووسموا مـا خـرج علـى هذه القواعد بالشذوذ وبأنه يحفظ ولا يقاس عليه، وكأنما يفترض أن العربـي القديـم الـذي كـان يـتكلم العربية سليقة كان على علم ودراية بأقيسة النحاة وقواعدهـم وعللهـم، وقـد ورد عـن الـنحاة علـى مر العصور ما يؤيد دعوى هذا الافـتراض[1]. وما من ريب في أن للشعر منهجه في تناول اللغة وبناء تراكيبها حتى إنك لـتجد تركيبا جاء في الشعر فأرسى النحاة عليه قاعدة قد لا يحتاج إليها المتعلم بالعربية ناثرا ما كان حيا.

منذ زمن ليس بالقريب[2] وأنا أتوق إلى تقديم دراسة في تراكيب العربية وجملها مـن خبرية وإنشائية أو اسمية وفعلية تتخذ مادتها من النثر ليس غير، ويبدو أن تأخر هـذه الدراسة كان سببا في الالتفاف إلى كتاب نثر موثق المادة موثوق القائلين يمكن أن يعد نموذجا للغة منثورة في عصورها الأدبية المتلاحقة وهو كتاب جمهرة خطب العرب، فالخطب مادة تعلق بالذهن وتستقر في الذاكرة، مما ييسر نقل مادتها سليمة من جيل إلى جـيل. فـنأمل أن يكـون فـي دراستها تقديم مثل جيد لدراسة اللغة. فسنعتمد في هذه الدراسـة علـى المنهج الوصفي في التحليل اللغوي، متجاوزين بذلك المنهج المعياري وقسرية القاعدة النحوية متى كانت.

تعـددت تقسـيمات الجمل عند الباحثين، واختلفت باختلاف وجهاتهم في البحث وغايـاتهم مـنه، فقسـمها الـنحاة إلى اسمية وفعلية، ووضعها البلاغيون في إطارين. إنشـائية وخـبرية، وزاد علـيهم علمـاء اللغة المعاصرون قسما ثالثا يسمونه الجملة الإفصـاحية. وسنختار من بين هذه التقسيمات الجملة الاسمية موضوعا لهذه الدراسة،

---

* مجلة التواصل اللساني ـ المجلد الثاني ـ العدد الأول ـ 1990م.

مقرريــن منهجا نرتضيه في التحليل اللغوي، نعتمد فيه على وضع حد للجملة قائم على أصل ومصطلحين، أما الأصل فقول السيوطي (والعبرة بصدر الأصل)، وأما المصطلحان فـنأخذهما مـن الـنحو التوليدي والتحويلي المعاصر، مع تغيير كلي في دلالتيهما، كما أوضحناه بالتفصيل في كتابنا (في نحو اللغة وتراكيبها).

نـرى أن الجملــة هي الحد الأدنى من الكلمات (منطوقة أو مكتوبة) التي تحمل معـنى يحسـن السـكوت عليه، وهي إما أن تكون قد وضعت للبعد الدلالي الأول، وهو الإخـبار المحـايد ونسـميه البنـية السطحية، فلا يقصد المتكلم بالجملة غير هذا البعد الدلالــي، وتسـمى مـن حيث المعنى الجملة التوليدية ذات بنية سطحية، أما من حيث المبـنى فـتأخذ اسـمها في الفعلية أو الاسمية طبقا ل (العبرة بصدر الأصل)، فهي إما توليدية اسمية في أحد الأطر أو الأنماط الكبرى التالية[3]:

الطالب مجتهد

في البيت رجل

محمد أخوك

أن تصوموا خير لكم

أو توليدية فعلية في أحد الأطر أو الأنماط الكبرى التالية:

جاء المعلم

أكرم المعلم تلميذه

أعطى المعلم الطالب مكافأة

أكرمني المعلم

فـإذا جـرى علــى أي من هذه الأطر الرئيسية تغيير، فإن معنى الجملة يتغير، فتنــتقل مــن بعدهــا الدلالــي الأول (الإخبار المحايد) إلى بعد دلالي آخر، نسميه البنية العمــيقة، فتسـمى من حيث المعنى حينئذ جملة تحويلية ذات بنية عميقة، أما تسميتها

مـــن حيـــث المبـــنى فهـــي باقية بحسب القاعدة السابقة (العبرة بصدر الأصل)، فتكون تحويلـــية اسمية أو تحويلية فعلية. ويجري التحويل بواحد أو أكثر من عناصر التحويل، وهي: الترتيب، والزيادة، والحذف، والتغيير في الحركة الإعرابية، والتنغيم. وقد يرد في الجملـــة واحـــد مـــن هذه العناصر أو أكثر، ولكن كل عنصر منها له قيمته الدلالية في استخدام المتكلم.

ســـنبحث هـــنا قضـــايا الجملـــة الاســـمية في إطار الجملة التوليدية والتحويلية محاولين – ما أمكن – أخذ أمثلة التحليل من كتاب جمهرة خطب العرب.

أقسام الجملة التوليدية:

1- أن يكون المبتدأ معرفة والخبر نكرة:

وذلـــك علـــى نحو: عمرو منطلق، وهذا الذي ينبغي أن يكون عليه الكلام، يقول ســـيبويه[4]: (واعلـــم إنـــه إذا وقـــع في هذا الباب نكرة ومعرفة، فالذي تشتغل به (كان) المعـــرفة، لأنـــه حـــد الكلام، لأنهما شيء واحد وليس بمنزلة قولك: ضرب رجل زيدا، لأنهمـــا شيئان مختلفان. وهما في (كان) بمنزلتهما في الابتداء إذا قلت: عبد الله منطلق، تبـــتديء بالأعرف ثم تذكر الخبر، وذلك قولك: كان زيدٌ حليماً، وكان حليماً زيدٌ، لا عليك أقدمـــت أم أخـــرت، إلا أنه على ما وصفت لك في قولك: ضرب زيداً عبدُ الله. فإذا قلت: كـــان زيـــد، فقـــد ابتدأت بما هو معروف عنده مثله عندك، فإنما ينتظر الخبر، فإذا قلت حلـــيما، فقـــد أعلمته مثل ما علمت، فإذا قلت: كان حليما، فإنما ينتظر أن تعرّفه صاحب الصفة فهو مبدوء به في الفعل وإن كان مؤخرا في اللفظ. فإن قلت: كان حليم، أو رجل فقـــد بـــدأت بنكرة ولا يستقيم أن تخبر المخاطب عن المنكور، وليس هذا بالذي ينزل به المخاطب منزلتك في المعرفة، فكرهوا أن يقربوا باب (ليس)[5].)

فقـــد جمع سيبويه في هذا النص بين التركيب والدلالة، إلا أن البحث عن تبرير الحـــركة الإعرابية يذهب به بعيدا في التركيب على حساب الدلالة. فالمبتدأ معلوم للمتكلم والســـامع، فيأتـــي الخبر ليتم ما يحتاجه المبتدأ ولينقل ما يريد المتكلم نقله مخبرا عما ابتدأ به، فهو المسند الذي أسند إلى المبتدأ، و(زيد) المسند إليه، تقدم أو تأخر. و(حليم)

المسند تقدم أو تأخر أيضا. فإن وقع المبتدأ في أول الجملة، "فلأن حق المنسوب أن يكون تابعا للمنسوب إليه وفرعا عليه. وأما تقدم الخبر فلأنه محط الفائدة، وهو المقصود من الجملة، لأنك إنما ابتدأت بالاسم لغرض الإخبار عنه، والغرض – وإن كان متأخرا في الوجود– فهو متقدم في القصد، وهذا المذهب اختاره ابن جني وأبو حيان "[6].

أقول: وهو المختار عندي كذلك، وعليه نقرر أصلا من أصول التحليل اللغوي عندنا وعند جمهور النحاة نرمز إليه. م + خ (مبتدأ + خبر)، ونقرر فرعا في التحليل اللغوي أيضا، وهو تقديم الخبر لفائدة: ليست هي عين الفائدة التي تحققها الجملة الأصل، ونرمز لها:

خ + م (حيث تشير√ تحت الكلمة إلى أنها تقدمت للعناية والتوكيد).

√*

ولما كان المبتدأ عند سيبويه والنحاة غيره متقدما في القصد وإن تأخر في التركيب، فإنما نسميه (بؤرة الجملة الاسمية) فتكون بقية الكلمات في التركيب الجملي مرتبطة بهذه البؤرة ومبنية عليها. يقول سيبويه[7]:

"هذا باب المسند والمسند إليه، وهما ما لا يغني واحد منهما عن الآخر، ولا يجد المتكلم منه بدا، فمن ذلك الاسم المبتدأ والمبني عليه، وهو قولك: عبد الله أخوك، وهذا أخوك، ومثل ذلك يذهب عبد الله، فلابد للفعل من الاسم، كما لم يكن للاسم الأول بدّ من الآخر في الابتداء" ويقول في موضع آخر[8]: "فالمبتدأ مسند إليه والمبني عليه مسند، فقد عمل فيما بعده كما يعمل الجار والفعل فيما بعده". فمعنى الإخبار كامن في المسند، تقدم أو تأخر. ولكن إذا تقدم الخبر فإن ذلك يكون لغرض دلالي فضلا عن معنى الإخبار الذي هو في الجملة أصلا. (فإنهم إنما يقدمون الذي بيانه أهم لهم، وهم ببيانه أعنى، وإن كانا جميعا يهمانهم ويعنيانهم) ولكل نمط تركيبي استخدامه اللغوي وبعده الدلالي.

---

* √ يعني عنصر توكيد.

جـــاء في خطبة أكثم بن صيفي[9] حين وفد على كسرى في مجموعة من حكماء العـــرب وفصحائهم، كان النعمان بن المنذر قد انتقاهم، إثر محاورة جرت بينه وبين ملك الفـــرس، فافتخر بمناقب العرب: (الصدق منجاة، والكذب مهواة، والشر لجاجة، والحزم مركب صعب، والعجز مركب وطيء).

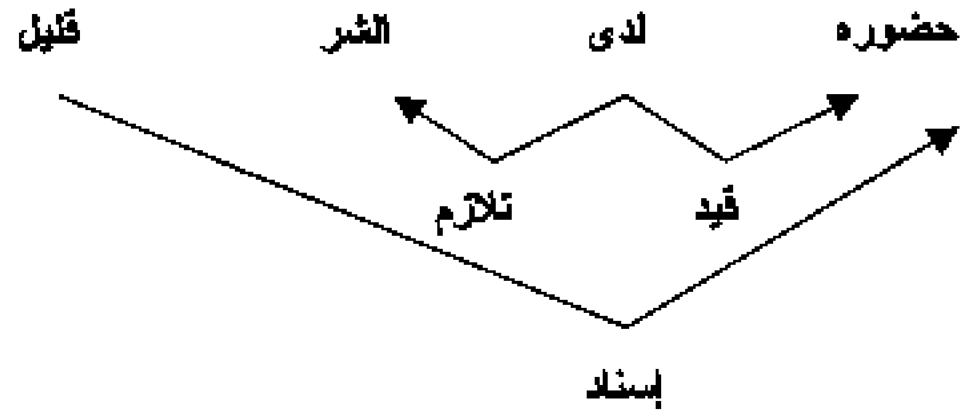
فالغرض وعظ وتذكير بحكم يعرفها العرب، بل هي شيمهم، فهي أخبار محايدة لا تحـــتمل شـــكا ولا يحـــتاج المتكلم بأية جملة من الجمل السابقة غير نقل الخبر محايدا، فجـــاءت جملها توليدية من حيث المعنى، اسمية من حيث المبنى (توليدية اسمية) ضمن إطار من أطر الجملة التوليدية، وقد كان هذا شأن جل خطب العرب التي كانت في الوعظ والإرشـــاد والتذكـــير بالحكم، يقول هاشم ابن عبد مناف مصلحا بين خزاعة وقريش[10]: "...الحلـــم شرف، والصبر ظفر، والمعروف كنز، والوجود سؤدد، والجهل سفه، والأيام دول، والدهـــر غـــير، والمـــرء منسوب إلى فعله ومأخوذ بعمله) فأذعن الفريقان له بعد خطبته إلى ذكرهم فيها بقيم العرب التي يحتاج إليها الموقف.

وقال الجاحظ[11]: "قيل لرجل – أراه خالد بن صفوان– مات صديق لك، فقال: كان قلـــيلا لـــدي الشر حضوره، سليما لصديق ضميره" فلما أراد المؤبن التركيز على شيء قدّمه، والعرب إن أرادت العناية بشيء قدمته، فتحولت الجملة من أصل توكيدي كما يلي[12]:

حضوره قليل =====> قليل حضوره

ثـــم دخـــل الجملـــة عنصـــر مـــن عناصـــر الـــتحويل بالـــزيادة، وهـــو القيد المحـــدد أو المخصـــص (الظرف في الجملة الأولى والجار والمجرور في الجملة الثانية) كما يلي:

خ + قـــيد محدد + م = جملة تحويلية اسمية الخبر فيها مؤكد مخصص. محولة عن جملة العلاقات بين الكلمات فيها كما يلي:



ثـم أدخـل المـتكلم على الجملة عنصر الزمن الماضي (كان)، لأنه يتحدث عن صـديق مـتوفى مشيدا ببعض صفاته عندما كان على قيد الحياة فأصبحت الجملة: كان سليما للصديق ضميره.

= عنصر الزمن الماضي (خبر مقدم للعناية والتوكيد + قيد مخصص + مبتدأ)

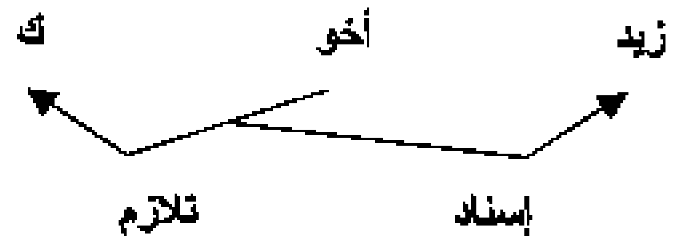
= جملـة تحويلـية اسمية خبرها مؤكد مخصص منقول إلى الزمن الماضي وقد كانت فيها الفتحة حركة اقتضاء للقياس اللغوي.

وقـد يـزاد في المبتدأ أو الخبر بعض العناصر التي تفيد قيمة دلالية إما للجملة بكاملهـا، وذلك إذا كان المؤثر الذي زيد في الجملة مؤثرا على بؤرتها (المبتدأ)، أما إذا كانـت الزيادة مرتبطة بالخبر فتأثيرها محصور فيه، كما في قول الأقرع بن حابس[13] "إن هـذا الـرجل لمؤتـى لـه، لخطيـبه أخطب من خطيبنا، ولشاعره أشعر من شاعرنا، وأصـواتهم أعلى من أصواتنا"، وسنفصل القول في القيمة الدلالية لمثل هذه الزيادة عند حديثنا عن الجملة الاسمية المحولة بالزيادة.

2- أن يكون المبتدأ معرفة والخبر معرفة وهو ذاته المبتدأ:

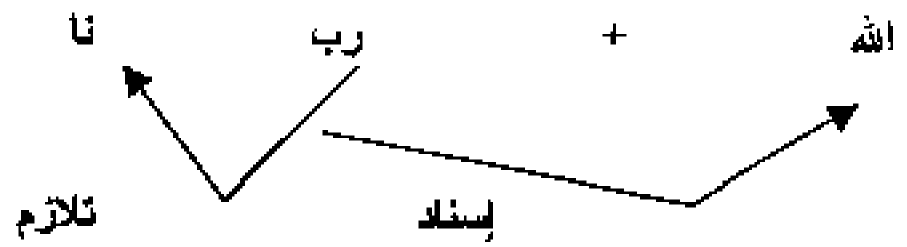
وذلك نحو: "زيد أخوك، وأنت تريد أنه أخوه من النسب، وهذا ونحوه إنما يجوز إذا كـان المخاطـب يعـرف زيدا على انفراد، ولا يعلم أنه أخوه لفرقة كانت بينهما، أو لسبب آخر، ويعلم أن له أخا ولا يدري أنه زيد هذا، فتقول له أنت: زيد أخوك، أي: زيد هـذا الـذي عرفـته هـو أخـوك الذي علمته فتكون المعرفة معرفة، فإنما الفائدة في

مجموعها. فأما أن يكون يعرفهما مجتمعين، وأن هذا هذا، فذا كلام لا فائدة فيه"[14] ولكن الجملة تبقى على نمطها وترتيب تركيبها مسند إليه + مسند، ويتعلق المسند ببؤرة الجملة بعلاقة الإسناد أو الإخبار، فتبقى الجملة توليدية اسمية تحمل معنى الإخبار المحايد، هكذا:



"فإن قال قائل: فأنت تقول: الله ربنا ومحمد نبينا، وهذا معلوم معروف، قيل له: إنما هو معروف عندنا وعند المؤمنين، وإنما نقوله ردا على الكفار وعلى من لا يقول به، ولو لم يكن لنا مخالف على هذا القول لما قيل إلا في التعظيم والتحميد لطلب الثواب به"[15].

فنرى أن ابن السراج في هذا النص يدافع عن أن الجملة: (الله ربنا) مكونة من مبتدأ وخبر، بأنها لغير من يؤمن بها، وفي هذا -في مانرى- خلط بين مستويين من مستويات التحليل اللغوي: المستوى التركيبي، والمستوى الدلالي المعتمد على السياق. فالجملة في حقيقتها واحدة، يرتبط فيها المسند إليه بالمسند (وهو بؤرة الجملة) برباط الأخبار المحايد، لأن الثاني هو الأول بكماله وتمامه:



وقد اختلف النحاة في إعراب المبتدأ إذا اجتمعت معرفتان. فرأى فريق أن المتقدم هو المبتدأ، وذهب آخرون إلى أن الأعرف هو المبتدأ؛ وانصرفوا يبذلون الجهد

في تحديد رتبة المعارف، ولعل في الاطلاع على ما جاء به ابن السراج[16] والسيوطي[17] ما يشير إلى هذا الجهد.

والذي نراه أن المبتدأ هو لفظ: الله ومحمد وزيد في الجمل: الله ربنا، ومحمد نبينا، وزيد أخوك، تقدم أم تأخر، وهو بذلك بؤرة الجملة التي ترتبط بقيتها بها. فإن جاء متقدما فهو على الأصل، وإن تأخر ففي ذلك رغبة في توكيد المقدم وإظهار العناية به، وعليه فإن في قول الشاعر:

بنونا بنو أبنائنا، وبناتنا بنوهن أبناء الرجال الأباعد

بنونا خبر مقدم، وبنو أبنائنا مبتدأ مؤخر[18]. وفي قول الشاعر:

قبيلة الأمُ الأحياء أكرمُها وأعذر الناس بالجيران وآفيها

التخريج: أكرمُها الأمُ الأحياءَ

ومن النحاة من أجاز التقديم مطلقا ولم يلتفت إلى التحول في المعنى استنادا إلى أن الفائدة تحصل بالتقديم أو التأخير، فقد أجاز ابن السيد في قول القائل: شر النساء البحاتر، أن يكون (شر) مبتدأ، و(البحاتر) خبر وأجاز عكسه كذلك. ولكن من النحاة من منع ذلك مطلقا، ولكنهم لم يتعرضوا إلى القيمة الدلالية في ما يجري في التركيب من اختلاف في الترتيب[19]، وقد أخذ سيبويه وأبو علي بالجواز مطلقا[20]، وخالفهما كثير من النحاة على ما يلي[21]:

1- أن الأعم هو الخبر.

2- أنه بحسب المخاطب، فإن علم منه أنه في علمه أحد الأمرين أو يسأل عن أحدهما، فالمجهول الخبر.

3- أن المعلوم عند المخاطب هو المبتدأ والمجهول خبر.

4- أن المبتدأ هو الذي رتبته في المعارف أكثر تقدما.

5- أن الاسم متعين للابتداء والوصف متعين للخبر، نحو: القائم زيد، زيد صديقي.

ولعمــري فقــد أصــاب أصحاب المذهب الأخير الغرض الدلالي الذي يرمي إليه المــتكلم ويصــبو إليه السامع، وبذا فإن الكلمات: البحاتر، زيد، زيد، في الجمل السابقة هــي المبــتدأ وسواها الخبر، تقدم أو تأخر، أما إذا لم يكن في التركيب اسم، فتكمل هذه القــاعدة قــاعدة أصــحاب المذهب الرابع السابق، ويبين هذا ما جاء في تخريج البيتين السابقين:

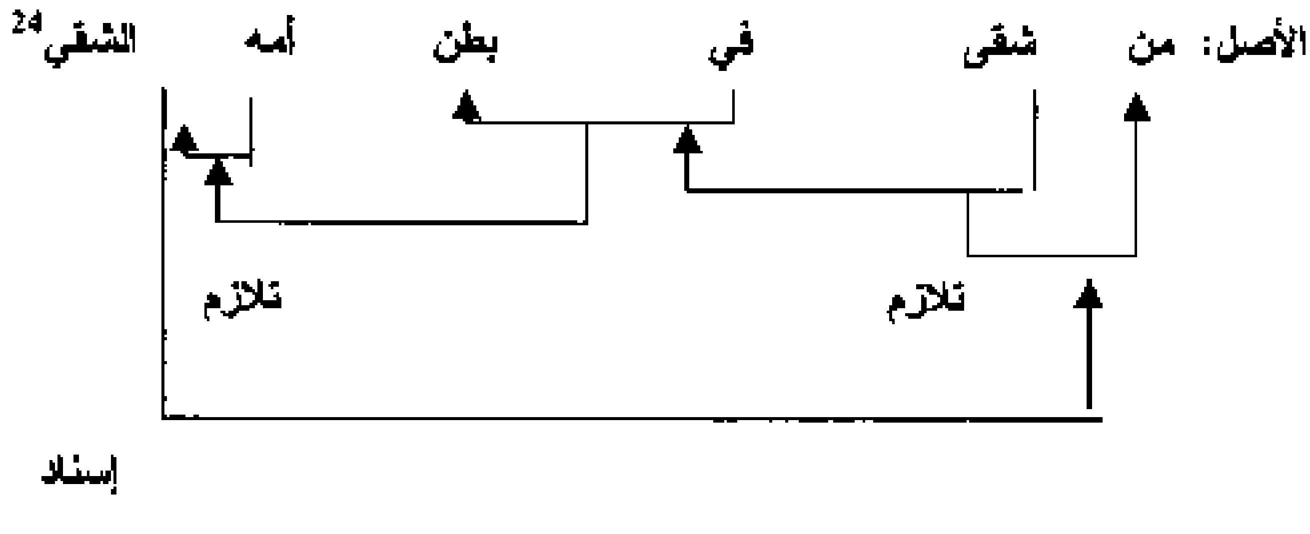
بنونا بنو أبنائنا.

قبيلة الأم الأحياء أكرمها.

جاء في خطبة لعبد الله بن مسعود"[22]

"الشقي من شقي في بطن أمه، والسعيد من وعظ بغيره"

فلمــا لم يكن في الجملة اسم نذهب بالإسناد إليه، فإننا نرى أن الاسم الموصول هــو بــؤرة الجملة وموضع إسنادها، لأنه أعرف مما جاء تعريفه بأل التعريف. وإعمالا لفكــرة الــتلازم التــي يحكم بمقتضاها على كلمتين أو أكثر تركيبا بحكم واحد، أما دلالة فتعامل كأنها كلمة واحدة[23]، فيصبح تحليل الجملة كما يلي:



وقــد أدت فــيه (مَنْ) دورين؛ أحدهما تركيبي، وهو المبتدأ، والثاني دلالي وهو الفاعلية غير الجائز النطق بها للفعل شقي[25].

ثـم أراد المـتكلم إبراز العناية بالخبر وتوكيده، فقدمه، فأصبحت الجملة: الشقي من شقي في بطن أمه. فهي جملة تحويلية إسمية خبرها مقدم للعناية والتوكيد.

وعلى هذا المنهج نحلل قول أكثم بن صيفي[26]:

"خير الغنى غنى النفس"

فهمـا ليسا متساويين في التعريف لما في اسم التفضيل من التعميم الذي يصلح أن يخبر به لا أن يخبر عنه.

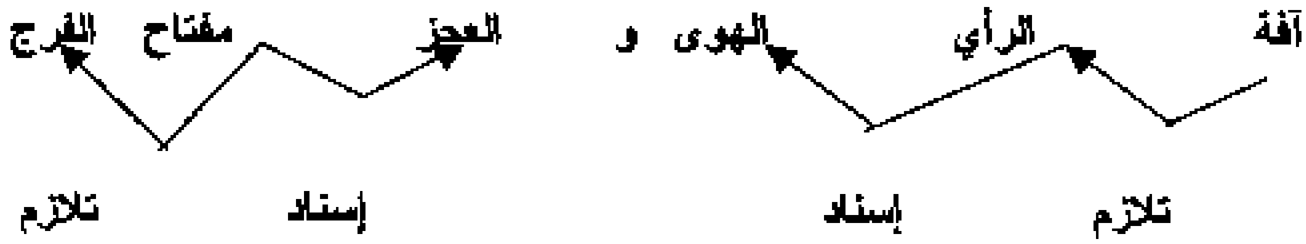
ومثله قول أمامة بنت الحارث لابنتها أم إياس:

"أحسن الحسن الكحل،وأطيب الطيب الماء"

ومثله قول عبد الله مسعود من خطبة له[27]:

"أصـدق الحديث كتاب الله، وأوثق العرا كلمة التقوى، وأكرم الملل ملة إبراهيم، وخـير السـنن سـنة محمـد صلى الله عليه وسلم، خير الأمور أوسطها وشر الأمور محدثاتها...... وخير ما ألقي في القلب اليقين".

وقـد وازن أكـثم بـن صيفي في خطبته حين وفد على كسرى بين النمطين من الجمل: التوليدية والتحويلية، يقول: [28]



= خ + م = م + خ

= جملـة تحويلـية اسـمية خبرها مؤكد بالتقديم = جملـة تولـيدية اسـمية هدفها الإخبار المحايد

ولعل من أوضح الشواهد التي تشير إلى موقف المتكلم ورغبته في تقديم الخبر مؤكدا، كلمة النعمان بن المنذر يفخر بأمته أمام كسرى[29]:

"حصونهم ظهور خيولهم، ومهادهم الأرض، وسقوفهم السماء، وجنتهم السيوف، وعدتهم الصبر".

فالموقف يقتضي أن يفخر النعمان أمام كسرى بأشياء تخالف مواضع قوة كسرى -كما يراها-: أنتم تتقون بحصونكم، أما هم فحصونهم الخيول...الخ.

ونستطيع أن نتبين القيمة الدلالية للتقديم عندما نقابل بين هذه الجمل التحويلية وأصولها التوليدية[30].

حصونهم ظهور خيولهم ⟵ = / = ظهور خيولهم حصونهم

مهادهم الأرض ⟵ = / = الأرض مهادهم

سقوفهم السماء ⟵ = / = السماء سقوفهم

3- أن يكون المبتدأ نكرة والخبر نكرة أو شبه جملة:

وقد أجاز النحاة منه ما كان فيه فائدة: "وقد ابتدأوا بالنكرة في مواضع مخصوصة لحصول الفائدة، وتلك المواضع: النكرة الموصوفة، والنكرة إذا كانت اعتمدت على استفهام أو نفي، وإذا كان الخبر عن النكرة ظرفا أو جارا أو مجرور أو تقدم عليها، نحو: أمامي كتاب، ولي مال: وإذا كانت في تأويل النفي نحو قولهم: شر أهر ذا ناب. أما النكرة الموصوفة فنحو: رجل من بني تميم جاءني. وقوله تعالى: (ولعبد مؤمن خير من مشرك)، فقرب النكرة من المعرفة بالتخصيص بالوصف"[31]. وقد اشترط النحاة وجوب تقدم الخبر إذا كان شبه جملة ظرفية أو جارا ومجرورا لوجهين: أن الظرف والجار والمجرور قد يكونان وصفين للنكرة إذا وقعا بعدها، لأنه في الحقيقة جملة من حيث كان متعلقا باستقر، وهذا -عندنا- رأي ابن السراج أفضل منه إذ يُعدّ شبه الجملة خبرا قائما برأسه.

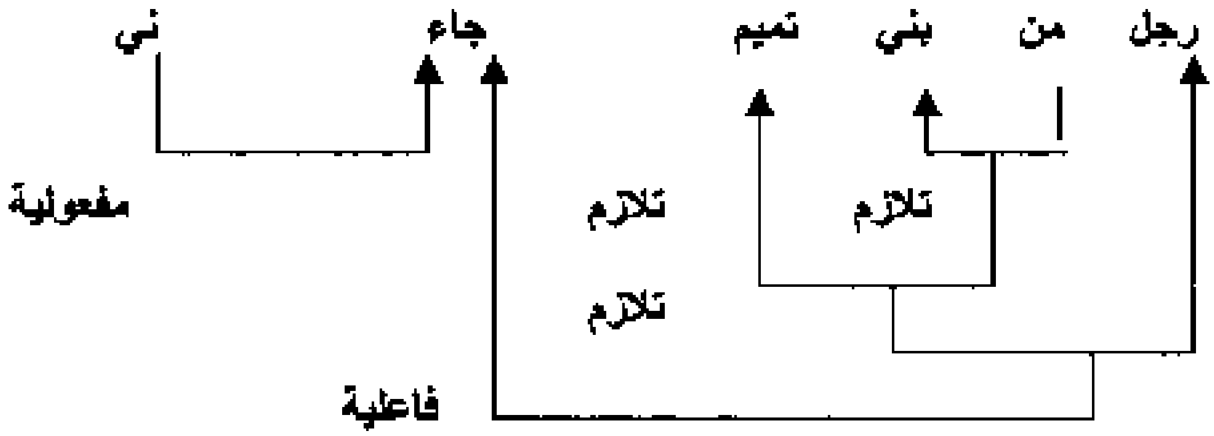
والثانـــي: أنهم استقبحوا الابتداء بالنكرة في الواجب، فلما كان ذلك عندهم قبيح فـــي اللفـــظ أخـــروا المبتدأ وقدموا الخبر، وإنما كان تأخيره أحسن من تقديمه لأنه وقع موقع الخبر أن يكون نكرة، فصلُح اللفظ، وإن كانا قد أحطنا علما أنه المبتدأ، ومن ذلك: سلام عليك، ويل للمطففين[31].

وقـــد جمع السيوطي مسوغات الابتداء بنكرة في قوله[32]: "وينكّر بشرط الفائدة، وتحصل غالبا بكونه وصفا، أو موصوفا بظاهر أو مقدرا، أو عاملا، أو دعاء، أو جوابا، أو واجـــب الصـــدر، أو مصـــغرا، أو مثلا، أو عطف على سائغ للابتداء، أو عطف عليه بـــالواو، وقصـــد بـــه عمـــوم أو تعجب أو إبهام أو خرق للعادة، أو تنويع أو حصر، أو الحقـــيقة مـــن حيث هي، أو تلا نفياً أو استفهاما ولو بغير همزة خلافا لابن الحاجب، أو لـــولا، أو واو الحال أو فاء الجزاء، أو إذا فجاءة، أو بينا أو بينما، أو ظرفا أو مجرورا. قال ابن مالك وابن النحاس: "أو جملة خبرا".

ونتخذ هذا النص اقتباسا لمناقشة أهم قضايا هذه المسألة:

أ- أن تكـــون النكرة موصوفة. وقد خلط النحاة في هذا البند بين جملتين من مستويين دلاليـــين مختلفين. يقولون: نحو: لعبد مؤمن خير من مشرك، ونحو: رجل من بني تميم جاءني، أو رجل تميمي جاءني. فالجملة الأولى منه فيما نرى.

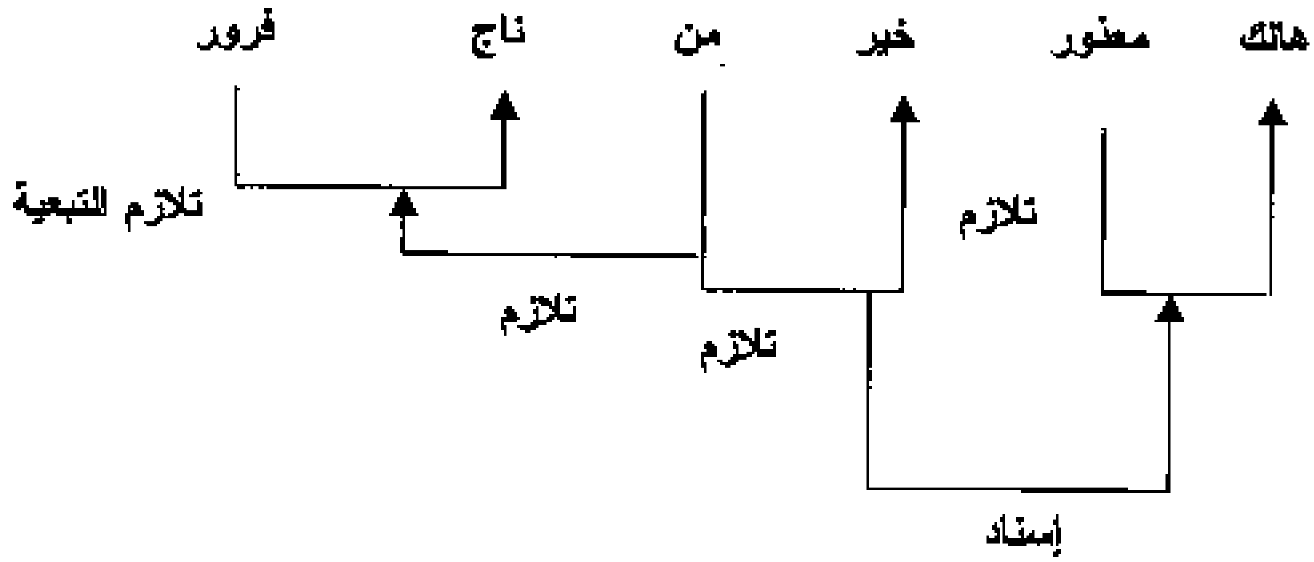
أمـــا الثانية فجملة فعلية تحويلية فاعلها مقدم للعناية والتوكيد، فأصلها: جاءني رجل من تميم ===> تحولت إلى:



وهــذا الــنمط مــن الجمل أقل أنواع التراكيب العربية ورودا في جمهرة خطب العرب.

أمــا النمط الأول فوروده في نثر اللغة العربية كثير، وبخاصة في خطب العرب، فــيرد بــاللام فــي المبتدأ: لعبد مؤمن...... فتفيده توكيدا يمتد أثره الدلالي إلى الجملة بكاملهــا تحقيقا لما ذكرناه بأن ما يؤثر على بؤرة الجملة فتأثيره ممتد إلى جميع أجزاء الجملة، وما يؤثر على جزئية فيها فإن تأثيره محصور في تلك الجزئية[33].

ويــرد بغــير الــلام فــي المبتدأ فتكون الجملة التوليدية اسمية، هدفها الإخبار المحايد، يقول هانيء بن قبيصة يحرض قومه يوم ذي قار[34]



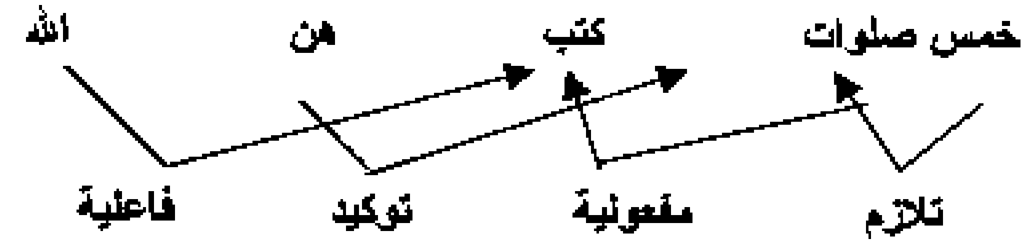
ب- أن يكــون وصــفا، وقد ضرب له السيوطي مثلا بقولهم: "ضعيف عاذ بقرملة، أي حــيوان ضعيف لجأ إلى ضعيف، والقرملة شجرة ضعيفة"[35]، وهذا أيضا نخرجه من بــاب الجملــة الاســمية إلى باب الجملة الفعلية التحويلية ذات الفاعل المقدم للعناية والتوكــيد كما أخرجنا جملة: رجل من بني تميم جاءني. وبذا نرجح رأي أهل الكوفة على رأي أهل البصرة الذين يأخذون بالمبنى على حساب المعنى والدلالة حيث يرون أن (ضــعيف) مبــتدأ خــبره الجملــة الفعلية التي فاعل الفعل فيها ضمير يعود على (ضعيف)، وهذا لا يتفق مع تحقيق القيمة الدلالية اتساقا مع قول سيبويه وغيره من نحاة العرب: "والعرب إن أرادت العناية بشيء قدمته"[36]، وهو موضع لا خلاف بينهم

فيه في حال تقدم المفعول به، وذلك لعدم التماثل بين حركة المفعول به والمبتدأ، في حين أن التطابق بينهما قائم بين المبتدأ والفاعل، فانصرف أهل البصرة لتحقيق الصنعة النحوية في تبرير الحركة الإعرابية على ضوء فلسفة العامل.

ج- أن تكون عاملة، إما رفعا نحو: قائم الزيدان (عند من أجازه) أو نصبا نحو: أمر بمعروف صدقة. أو جرا نحو: غلام امرأة جاءني. وخمس صلوات كتبهن الله، ومثلك لا يبخل، وغيرك لا يوجد[37].

إن المدقق في الأمثلة السابقة لا يجد منها واحدا يقع ضمن أطر الجملة التوليدية الاسمية، فالجملة الأولى، قائم الزيدان، موضع خلاف بين النحاة، فضلا عن أنها مثال تعليمي مصنوع، فإن جاز (عند من أجازه) فخبر مقدم ومبتدأ مؤخر، وقد عده بعض النحويين في باب الفاعل سد مسد الخبر، لأن الوصف عندهم يعمل عمل فعله، فيحتاج إلى معمول، وهو اسم في أول الجملة فلابد له من خبر. ولابن الحاجب في هذا رأي طريف[38]: (النحاة تكلفوا إدخال هذا أيضا في حد المبتدأ.... فقالوا إن خبره محذوف لسد فاعله مسد الخبر، وليس بشيء، بل لم يكن لهذا المبتدأ أصلا خبر حتى يحذف ويسد غيره مسده، ولو تكلفت له تقدير خبر لم يتأت، إذ هو في المعنى كالفعل، الفعل لا خبر له'. وقد أعرب بعض النحاة الوصف المقدم (خبر مقدم) كما ذكرنا، أما الكوفيون وهم على صواب، فيرون ضرورة المطابقة في الإفراد والتثنية والجمع. ونزيد: إلا ما جاء قياسا على ما جاء عن العرب كما في قولهم: خبير بنو لهب، ونرى بأن هذه جملة تحويلية اسمية خبرها مقدم للعناية والتوكيد، إذ لا فائدة في البناء على النكرة مع وجود المعرفة. فتقديم الخبر هنا له قيمة دلالية واضحة، يقول السيوطي[40]: "أما تقدم المبتدأ فلأن حق المنسوب أن يكون تابعا للمنسوب إليه وفرعا له. وأما تقدم الخبر فلأنه محط الفائدة، وهو المقصود من الجملة، لأنك إنما ابتدأت بالاسم لغرض الإخبار عنه، والغرض وإن كان متأخرا في الوجود، فهو متقدم بالقصد، وهذا المذهب اختاره ابن جني وأبو حيان وهو المختار عندي". وقال الزمخشري في تعليقه على الآية: (أراغب أنت عن آلهتي يا إبراهيم): "قدم الخبر على المبتدأ لأنه كان أهم عنده، وهو عنده أعنى وفيه ضرب من التعجب لرغبته عن آلهته ما ينبغي أن يرغب عنها أحد[41]".

أمـــا الجملـــة الثانـــية، فمكونة من مبتدأ مقيد بقيد محدد ومخصص، هو الجار والمجرور، ومن خبر. وفي الجملة الثالثة فاعل تقدم للعناية والتوكيد وفي الرابع مفعول به مقدم للعناية والتوكيد فهو مؤكد بالتقديم ثم مؤكد ثانية بالضمير العائد عليه[42]، هكذا:



وأمـــا حركة الرفع على كلمة (خمس) فعادة لغوية عند بعض القبائل، وهي عند غـــيرهم بالنصـــب، ولعل في هذه العادة اللغوية ما يراه محمد بن علي الجرجاني[43] من الإبهام بالمسند إليه، فإذا أبهم المتكلم حصل للنفس ألم لجهلها، واللذة الحاصلة بعد الألم أقـــوى مـــن اللذة الحاصلة ابتداء، فذكر الله خمس صلوات ليتنبه السامع إلى موضوع الكـــلام، ثم أعاد عليه الضمير مؤكدا ومبينا أن الكلمة المتقدمة مفعول به. ولا يمنع من هذا التحليل إلا قسرية القاعدة البصرية التي تنص على أن الظاهر لا يؤكد بالمضمر.

أمـــا الجملـــة الأخيرة، فجملة تحويلية يحتاج المقام فيها توكيد الفاعل المنفي ب (لا) الواقع تأثيرها على بؤرة الجملة الفعل (يبخل) هكذا:

يبخل مثلك ←——— لا يبخل مثلك ←——— مثلك لا يبخل[44]

ف + فا، ←——— ~ (ف + فا) ←——— فا ←——— ~ ف

√

د- ما اعتمد من النكرات على نفي واستفهام. ومثله عند السيوطي:

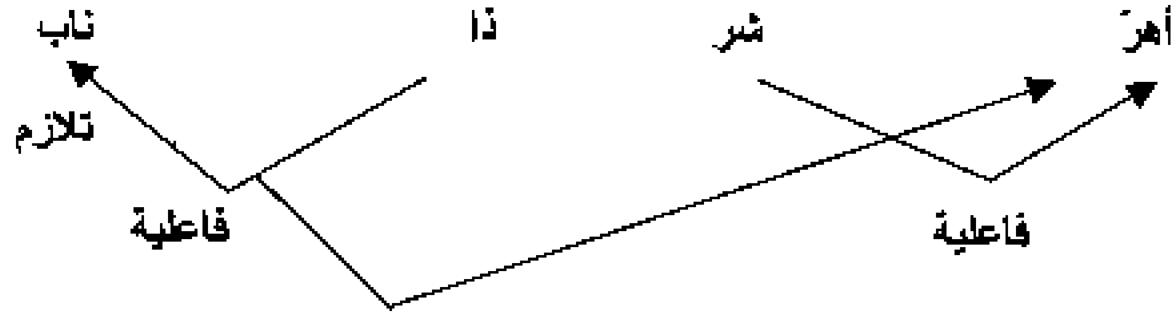
أ إلـــه مـــع الله، ومـــا رجل في الدار، والذي نراه في هذا النمط من الجمل أنها تحويلية اسمية محولة عن أصل توليدي قائم على: خبر شبه جملة + مبتدأ نكرة. ولكن دخـــول عنصر التحويل بالزيادة (همزة الاستفهام) أخرج الجملة عن جمودها في ترتيب

التركيب، إلى جملة مرنة يمكن أن يتقدم فيها موضع العناية في الاستفهام (المستفهم عنه):

أ إله مع الله، أ مع الله إله

أ رجل في الدار، أ في الدار رجل

هـ -ما كان في تأويل النفي (الحصر)، ويضرب لها النحاة من قول العرب: شر أهـو ذا نـاب، ولسـت أدري ما الذي حمل النحاة على هذا التخريج، فالجملة واضحة التركيب واضحة الدلالة، فهي جملة محولة عن أصل فعلي هو:



ولكـن المـتكلم أراد العـناية بالفـاعل فقدمه (والعرب إن أرادت العناية بشيء قدمته). وقد أدرك ابن يعيش ذلك، ولكن قسرية القاعدة النحوية البصرية تمنع أن يتقدم الفـاعل وتبقى الجملة فعلية. يقول[45]: "فالابتداء ههنا محمول على معنى الفاعل... ولم يكـن غرضهم الإخبار عن شر، وإنما يريدون للكلب أمره شر، وإنما كان محمولا على معنى النفي لأن الأخبار أقوى" فابن يعيش وغيره من النحاة يرون أن كلمة (شر) فاعل مقـدم للعناية والتوكيد، فحملوه على الحصر الذي يمثل أسلوب توكيد رفيع، ذلك لأنه لم يقصد بها الإخبار العادي، أو ما نسميه (الإخبار المحايد).

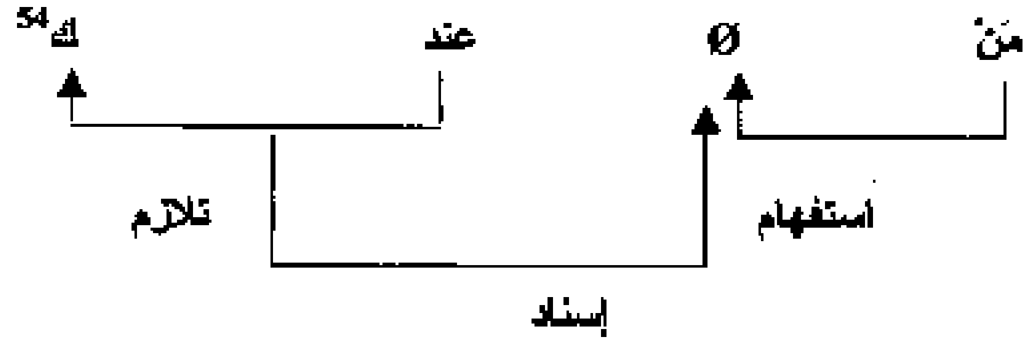
و- أن تكون دعاء، نحو (سلامٌ عليك)، و(ويلٌ للمطففين).

وهـذا النمط أيضا من أنماط الجملة التحويلية لغرض في المعنى، فأصل الجملة التركيبـي: علـيك سـلام، للمطففين ويل. ولما كان المبتدأ هو موضع العناية فقد قدم، فخرجـت الجملـة مـن نمطها الأصل الذي كان نحاة العربية قد قالوا فيه بوجوب تقدم الخبر، لتفيد هذا المعنى، فكيف يكون الأمر لو كانت الجملة من متكلم إلى مخاطب يتوقع

القـتال، فقال المتكلم مبادرا مطمئنا: سلام على أولك، أتكون هذه أيضا للدعاء كما يقول النحاة.

أمـا من يذهب إليه النحاة في أن الرفع في كلمة (سلام) هو في معنى المنصوب بفعل محذوف[46] فقول مردود أيضا، ذلك لأن حركة الرفع أصلا جاءت لمعنى، يتغير هذا المعنى بتغير الحركة الإعرابية، لأن التغير في الحركة الإعرابية ــ كما ذكرنا ــ من عناصر التحويل. يقول الزمخشري في تعليقه على (الحمد لله) برفع الحمد ونصبها[47]: "والعدل بها عن النصب إلى الرفع على الابتداء للدلالة على ثبات المعنى واستقراره، ومنه قوله تعالى: (قالوا سلاما، قال سلام)، رفع السلام الثاني لأن الرفع دل على معنى ثبات السلام لهم دون تجدده أو حدوثه". وهذا هو الذي نقول في محاولة إبراز القيمة الدلالية للتركيب، غير أن الأصل عندنا الرفع، لذا فإن إبراهيم عليه السلام قد قال به ليرد قولهم بأثبت منه، مع مراعاة ما في الجملة من حذف[48]. يقول ابن الحاجب[49] "وإنما تأخر الخبر عنه مع كونه جارا ومجرورا لتقديم الأهم، ولتبادر إلى ما هو المراد، إذ لو قدمت الخبر وقلت: عليك، فقيل، أن تقول سلام ربما يذهب الوهم إلى اللعنة".

ز- أن تكون النكرة واجبة التقديم كالاستفهام، نحو: من عندك؟[50]. وهذا النمط من الجمل نراه من الجمل التحويلية بالحذف والزيادة، وليست فيه (من) في موضع الابتداء، إذ هي عنصر يفيد معنى الاستفهام عن موضوع تضمنته الجملة بعدها، هكذا: عنصر استفهام (Ø + خ)، ولعل في لغة أهل الحجاز ما يعضد ما نذهب إليه، فإنهم يقولون إذا قال الرجل: رأيت زيدا، من زيدا؟ على الحكاية، وإذا قال: مررت بزيد. قالوا: من زيدٍ؟ وإذا قال: هذا عبدُ الله، قالوا: من عبدُ الله[51] نقول: ولو كانت (مَن) مبتدأ لكان ما بعدها مرفوعا ولا يقبل غير ذلك. وهذا يبين أن استعمال بني تميم- وهم يرفعون الاسم بعد (مَن) في كل حال- هو عادة لغوية ليس غير، شأنهم في ذلك شأن الحجاز في عادتهم اللغوية التي يتم فيها تغيير الحركة كما لو لم تكن (مَن) في الجمل. وربما كان اختلاف أساطين النحو في ذلك ما يشير إلى أنها عادات لغوية أخذ كل منهم بنصرة واحدة على غيرها فسيبويه[52] يرى لغة تميم أقيس، ويرى المبرد[53] أن لغة الحجاز أقيس. ونرى أن ترابط الكلمات في الجملة يكون كما يلي:



ح- أن تكون جوابا عن سؤال: ما عندك؟ فيجيب السامع: درهم، أي عندي درهم.[55]

وهـذا النمط نرى أنه من الجمل الاسمية التحويلية القائمة على عنصر التحويل بالحذف من أصل توليدي هو: خبر شبه جملة + مبتدأ نكرة. فحذف المجيب والخبر لأنه علم من السياق أولا، ولأن السامع بحاجة إلى كلمة الجواب من غير إبطاء أو تأخير.

ط- أن يكـون التركيـب مثلا، كقولهم: ليس عبد بأخ لك[56]. ولست أدري ما الذي يربط هـذه الجملـة عند النحاة بالمبتدأ وهم يعدون (ليس) أصلا فعلا ناقصا والجملة التي تتصـدرها جملـة فعلـية. ونرى أن (لي)س عنصر نفي وليس بفعل لأنها تفتقر إلى الركنين اللذين يقوم عليهما الفعل (الحدث والزمن)، وأن الجملة بعدها جملة تحويلية اسـمية خـبرها مؤكـد بالـباء التـي أثرت على الخبر ولم تؤثر على بؤرة الجملة (المبتدأ)، ثم قيد الخبر بالجار والمجرور لك، هكذا[57]:

~ (م + √ خ + قيد مخصص).

ي- أن تكون النكرة مصغرة، نحو: رجيلٌ جاءني[58]، وتقديره: رجلٌ صغيرٌ جاءني. وهذه الجملـة واضـحة الخروج من أنماط الجملة الاسمية، فهي جملة فعلية فاعلها مقدم للعناية والتوكيد، ولم أعثر لهذه على شاهد من خطب العرب.

ك- أن يعطـف على سائغ للابتداء[59]، نحو: زيدٌ ورجلٌ قائمان، وقولٌ معروفٌ ومغفرةٌ خـيرٌ من صدقة، وهذا أيضا لا حجة للنحاة فيه، فهو من قبيل تحقيق ظاهرة التلازم فـي اللغـة بين التابع والمتبوع، فهما تركيباً كلمتان أو أكبر أما دلالةً فكلمة واحدة، ودليل ذلك أن الخبر (قائمان) جاء مطابقا لهما دلالة وتركيبا.

ل- أن يقصد به العموم، نحو: كلٌ يموت[60]، وهذا أيضا ليس من أنماط الجملة الاسمية، وهـو تركيـب تحويلي فعلي فاعله مقدم للعناية والتوكيد ولم يدفع النحاة إلى القول بأنه من الجمل الاسمية والبحث في مبررات البدء بنكرة إلا قسرية القاعدة التي تمنع أن يتقدم الفاعل فعله.

م - أن يقصد بـه التعجـب، نحو: عجبٌ لزيد، وهذا النمط -في ما نرى- محول عن أصـل: خـبر شبه جملة + مبتدأ نكرة، ولعناية المتكلم بالخبر قدمه فهو موضع لفت الانتباه في التركيب الجملي.

ن- الإبهـام[61]، نحو: ما أحسن زيدا، وليس هذا من أنماط الجملة الاسمية، ولا (ما) فيه اسـم، فلا هي دال بمدلول، ولا هي تحمل علامة من علامات الاسمية، ولا أقر لهما بمـا يلحقهـا دلالـة بالأسماء، ولا أدلُ على ذلك من اختلاف النحاة فيها: أهي اسم موصول أم نكرة تامة أم نكرة ناقصة، ولكل أثره في توجيه الجملة التي بعدها: صلة الموصـول، أو خبر أو نعت، هذا مع الاختلاف الطويل بينهم في اسمية أو فعلية ما بعدهـا، هذا موجود في كتب النحو القديمة كلها فليرجع إلى تفصيله من شاء. ونرى أن الجملة تركيب أسلوبي جرى مجرى المثل[62]، ويمكن معالجته في مكان غير هذا.

س- ما كان خرقا للعادة، نحو: شجرةٌ سجدت، وبقرةٌ تكلمت[63]، وهذا النمط أيضا يخرج مـن بـند الجملـة الاسمية ليكون في باب الجملة الفعلية ذات الفاعل المقدم للعناية والتوكـيد، كمـا جـاء في البند (ل) السابق وأن قول النحاة بأنه خارق للعادة دليل واضح على تقديم موضع الدهشة والتعجب.

ع- التنويع، نحو قول الشاعر:

فيـــومٌ علينـــا ويـــومٌ لنـــا ويـــومٌ نســـاءُ ويـــومٌ نُسَـــرُّ

والقول في هذا لا يختلف كثيرا عن القول في البند (م) السابق ويشير إلى اهتمام الشاعر بكلمة (يوم) أنها تكررت في البيت أربع مرات، فهو مشدوه أمام الزمن، مشدود إليه، قلق منه، يحسب حسابه ويخافه، فيحتمل منه موقعا متقدما فقدمه لفظا لتقدمه في نفسه عناية[64].

ف- بعد واو الحال، نحو: سرينا ونجمٌ قد أضاء[65]. وهذا يخرج كذلك من بند الجملة الاسمية إلى بند الجملة الفعلية التحويلية، فأصلها:

أضاء نجم ⟵ تحولت للتوكيد إلى: قد أضاء نجم

فأصلها:

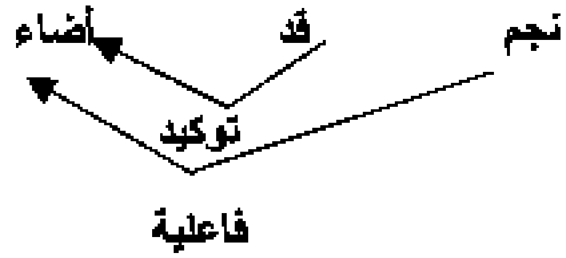
أضاء نجم ⟵ تحولت للتوكيد إلى:

= قد أضاء نجم

= √ (ف + فا)

= جملة تحويلية فعلية مؤكدة بمؤكد واحد

ثم أراد المتكلم أن يخص الفاعل بمزيد من التوكيد، فقدمه (والعرب إن أرادت العناية بشيء قدمته)، فأصبحت الجملة:



= √ (ف + فا)

= جملة تحويلية فعلية مؤكدة بمؤكد واحد وفاعلها مؤكد بمؤكدين

ثم وضعت الواو رابطا لربط الجملة اللاحقة بالسابقة.

ص- أن يكون بعد لولا، نحو: لولا اصطبارٌ لأودى كل ذي مقة[66]...... ونرى أن هذا شاهد شعر، وللشعر لغته الخاصة التي تختلف في مراعاة تراكيبها عن لغة النثر بكثرة ضروراتها، فضلا عن أن هذا الشاهد مجهول القائل مما يضعف حجة الاستشهاد به، ولم نعثر له على نظير في لغة النثر في جمهرة خطب العرب. وقد

ورد الاســـم بعد (لولا) معرفة في خطب العرب، وبذا فإنه يحلل على أنه من جملة تحويلية اسمية قائمة على الحذف، وسيرد ذكر الحذف وتحليل جمله لاحقا.

ق- أن تسـسبق الــنكرة بفاء الجزاء. نحو: إن ذهب عيرٌ فعيرٌ في الرباط[67]، وهذا النمط مـــن التراكيــب يدخـــل ضـــمن جملة الشرط، ولهذه نظامها في التحليل نذكر منه بإيجاز- فليس هنا موضع تفصيل القول فيه أن أسلوب الشرط جملة واحدة لأن حد الجملـــة الكلمـــات التي تحمل معنى يحسن السكوت عليه، بوّرتها ما يسميه النحاة جواب الشرط، وهي هنا منقلبة عن أصل هو: في الرباطِ عير"[68]. وقد ورد مثل هذا الأصل في خطب العرب وكلامه كثيرا. قال ابن عباس في عمرو بن العاص يقرعه علـــى موقفه في يوم صفين: "لك بيان، وفيك خطل، ولك رأي وفيك نكد، ولك قدر وفـــيك حسد[69]..." وقال عبيد الله بن عبد الله العرى في أهل مصر، يحذرهم الله من الـتخاذل عـــن آل بيـــت الرسول صلى الله عليه وسلم بعد استشهاد الحسين عليه الســـلام[70] مقدمـــا موضـــع العـــناية والتوكيد على الخبر خلافا لما هو مألوف في العربية: "فويل للقاتل، وملامة للخاذل".

4- أن يكون المبتدأ معرفة والخبر شبه جملة:

وقـــد خلط النحاة تحت هذا البند بين الجملة التي خبرها شبه جملة والمبتدأ فيها نكـــرة، وتلـــك التي خبرها شبه جملة والمبتدأ فيها معرفة. فقد تحدث عنه السيوطي[71] وضـــرب أمثلته بقوله: تحت رأسي سرج، وعلى أبيه درع، ولك مال... فالرأس مضاف إلـــى ضـــمير المتكلم وهو الياء في رأسي، وهذا الضمير هو المتحدث عنه في المعنى، كأنك قلت: أنا متوسد سرجا...... أبوه متدرع... أنت ذو مال. ثم يضرب السيوطي مثلا آخـــر: فـــي الدار صاحبها، فهي جملة وجب فيها تقديم الخبر قياسا على النمط السابق، وذلك خشية الوقوع في ما لا تقره قاعدة أخرى وهي عود الضمير على لاحق[72]. يقول: "إذ لـــو أخـــر عاد الضمير على متأخر لفظا ورتبة" ويقول ابن عقيل[73]: "والأصل تأخير الخـــبر ولهـــذا امتنع: صاحبها في الدار، ويجوز تقديمه أن لم يوهم ابتدائية الخبر"، مع أنـــه يـــدرك أن المعنى في حال تقديم المعرفة وتأخير شبه الجملة يختلف عنه.في حال

تأخير المعرفة وتقديم شبه الجملة، يقول: "ما كان دالا بالتقديم على ما لا يفهم بالتأخير، نحو: لله درك، فلو أخر الخبر لم يفهم منه التعجب الذي يفهم من تقديمه[74].

الجملة الاسمية المحولة بالزيادة:

ذكـرنا أن عناصـر التحويل (تحويل المعنى) في الجملة هي: الترتيب والزيادة والحـذف والتنغيـير في الحركة الإعرابية والتنغيم. أما الزيادة فتكون بإدخال كلمة إلى مبـنى الجملـة، فتعطـي الجملة قيمة دلالية جديدة نعرفها من العلاقة بين هذه الكلمة وبؤرة الجملة (المبتدأ)، وتأخذ هذه الكلمة حركة إعرابية هي حركة الباب النحوي الذي جاءت هذه الكلمة ممثلا صرفيا له[75] فينقل المبنى الصرفي الجديد الجملة إلى بعد دلالي آخـر غير البعد الدلالي الأول (الإخبار المحايد)، وكل زيادة في المبنى تقابلها زيادة في المعنى". وهذه الزيادة تكون في أول الجملة أو في وسطها أو في آخرها، كما يلي:

1- مـا يزاد في أول الجملة، وسنتخذ من قول السيوطي اقتباسا ننافش منه هذا البند، يقول[76]: "هذا مبحث الأدوات التي تدخل على المبتدأ أو الخبر فتنسخ حكم الابتداء. وهي أربعة أنواع: كان وأخواتها، وإن وأخواتها، وظننت وأخواتها وما ألحق بذلك".

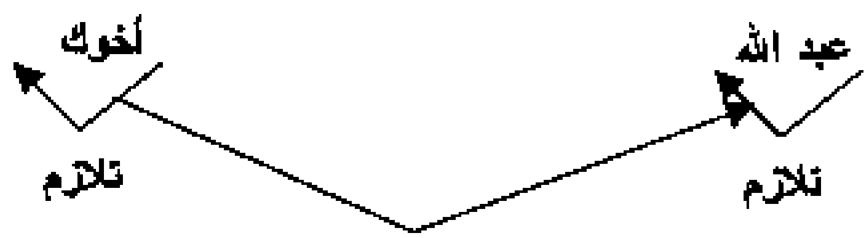
1- كان وأخواتها

من المعلوم أن كان وأخواتها عند أهل البصرة أفعال ناقصة، دخولها على الجملة يـنقلها من الاسمية إلى الفعلية. وأما مذهب الكوفيين فإنها: "...إنما دخلت على الجملة لـتدل علـى الزمان، فإذا كان الخبر يعطي الزمان لم يحتج إليها"[77]. وبصرف النظر عن إعـراب الجملـة التي فيها كان أو إحدى أخواتها عندهم "وأن خبرها حال غير مستغنى عـنه"[78]، فإنـنا نقـرر أنها عناصر غير أصيلة في الجملة، تدخل عليها لتعطيها عنصر إشارة زمنية، وأن بقية العناصر في الجملة أصول. يقول سيبويه[79]: "ومما يكون بمنزلة الابـتداء قولـك: كـان عبد الله منطلقا، وليس زيد منطلقا، لأن هذا يحتاج إلى ما بعده احتـياج المبتدأ إلى ما بعده" ويقول في مكان آخر[80]: "فهذا اسم مبتدأ يبنى عليه ما بعده وهـو عـبد الله، ولم يكن ليكون (هذا) كلاما حتى يبنى على ما قبله. فالمبتدأ مسند إليه والمبني عليه مسند، فقد عمل هذا فيما بعده كما يعمل الجار والفعل فيما بعده". فالجملة

-فيما ترى- اسمية قبل دخول هذه العناصر عليها، اسمية من حيث مبناها، توليدية من حيث معناها (أي أنها تفيد معنى الإخبار المحايد) وهي اسمية كذلك بعد دخولها عليها، اسمية من حيث مبناها (والعبرة بصدر الأصل)، تحويلية من حيث معناها، ولكن الذي صرف النحاة عن هذا - مع أنهم يذهبون إليه ضمنا- هو حركة الخبر بعدها. يقول خالد الأزهري[81]: "فتنصب الخبر تشبيها بالمفعول، ويسمى خبرها حقيقة ومفعولها مجازا، لأنها أشبهت الفعل التام المتعدي لواحد، كضرب زيد عمرا، هذا مذهب البصريين، وذهب جمهور الكوفيين إلى أنها لا تعمل في المرفوع شيئا، وإنما هو مرفوع بما كان قبل دخولها، وخالفهم الفراء فذهب إلى أنها عملت الرفع تشبيها بالفاعل واتفقوا على نصبها الجزء الثاني، ثم اختلفوا، فقال الفراء: تشبيها بالحال لأنها شبيهة بقام. وقال بقية الكوفيين: "منصوب على الحال".

فانظر إليهم يتفقون ويختلفون، ويختلفون ويتفقون، موضوع الاتفاق والاختلاف عندهم الحركة الإعرابية والعامل لإيجادها. فتارة تقاس على جملة فعلية ذات فعل متعد، وأخرى على غيرها. وليت النحاة قد تعاملوا مع هذه العناصر على أنها أدوات كما أسماها السيوطي[82]: "هذا مبحث الأدوات التي تدخل على المبتدأ أو الخبر فتنسخ حكم المبتدأ". وانظر إلى هذا الذي نود أن نقوله مجسدة روحه في قول ابن السراج ولكنه لم يأخذ به تطبيقا، يقول[83]: "فهي أفعال في اللفظ وليست حقيقة، وإنما تدل على الزمان فقط، وذلك قولك: كان عبد الله أخاك، وأصبح عبد الله عاقلا، ليست تخبر بفعل فعله، إنما تخبر أن عبد الله أخوك فيما مضى".

والذي نراه أن الجملة: كان عبد الله أخاك، متحولة عن أصل:



والحـــركة المـــتحولة إلى حركة حالة النصب (أخاك) هي حركة اقتضاء القياس علـــى مـــا جـــاء عـــن العرب، ولا قيمة لها في الدلالة. ويبين صحة ما نذهب إليه قول السيوطي[84]: "جوز الجمهور رفع الاسمين بعد كان"، كقول الشاعر:

إذا مت كـــــان النـــــاسُ صنفـــان: شامت وآخر مثن بالذي كنت أصنـــع"

واخـــتلفوا في توجيهه، فالجمهور على أن في (كان) ضمير الشأن اسمها، والجملة في المبـــتدأ والخبر في موضع نصب الخبر. ونقل عن الكسائي أن (كان) ملغاة ولا عمل لها ووافقه ابن الطراوة"[85]

وهـــنا نتســـاءل، مـــا الذي جعل الجمهور يقدرون ضمير شأن؟ وهل يجوز أن نقدره دائما، أم أن الحركة الإعرابية في هذا البيت اقتضت التقدير؟ ولماذا كانت في هذا البيـــت عند الكسائي وابن الطراوة ملغاة؟ أليس من حق من ألغاها هنا أن يلغيها في كل مكان كعادة لغوية وإدراكا منه أن لا قيمة دلالية للحركة الإعرابية في الخبر في مثل هذا التركيب، وإنما القيمة الحقيقية في (كان) التي نقلت الجملة الاسمية إلى الزمن الماضي فحولـــتها إلـــى جملـــة اسمية تحويلية. ولما كان اتصال (كان أو إحدى أخواتها) ببؤرة الجملة فإن تأثيرها –من حيث الدلالة– يشمل الجملة بكاملها، هكذا: جاء في وصية أبي طالـــب لوجـــوه قريش عند موته موصيا بمحمد صلى الله عليه وسلم[86]: كونوا له ولاة، ولحزبه حماة، والله لا يسلك أحد سبيله إلا رشد...".

كونوا له حماة أصلها أنتم حماة = مبتدأ + خبر

تحولت ←——— أنتم له حماة = مبتدأ + قيد مخصص + خبر

تحولت ←——— كونوا له حماة = عنصر الزمن (م+قيد مخصص+خبر)

وتفيد كل أداة من هذه الأدوات (المسماة كان وأخواتها) معنى لا يخفى على القارئ المتعلم.

ب- إن وأخواتها. وهذه أدوات إذا دخلت على الجملة الاسمية نقلتها من اسمية توليدية هدفها الإخبار المحايد إلى اسمية تحويلية ذات بعد دلالي آخر تفيده الأداة، فيتأثر المبتدأ بحركة لا قيمة لها في الدلالة وإنما قيمتها في تحقيق خط سلامة المبنى قياسا على ما جاء عن العرب، والقيمة الحقيقية دلاليا تكون للأداة: "ألا ترى أن (إن) لتأكيد الجملة"[87] كما يلي:

إن محمداً رسولُ اللهِ

√ (م + خ (متلازمين)).

واستنادا إلى ما ذكرته سابقا فإن أي عنصر يترك أثرا على بؤرة الجملة فأثرة الدلالي يمتد إلى الجملة بكاملها، الجملة السابقة اسمية تحويلية مؤكدة بمؤكد واحد.

وقد تدخل هذه الأداة على جملة فعلية فاعلها مقدم للتوكيد، فتزيد الفاعل توكيدا، وتكون الأداة قد دخلت على اسم، فهي مختصة بالدخول على الأسماء خلافا للنحويين الذين يرون أنها مختصة بالدخول على الجملة الاسمية. وخلافا ل(إنما) التي تدخل على الجملة الاسمية والفعلية. يقول هانيء الشيباني يحرض قومه يوم ذي قار[88]: "إن الحذر لا ينجي من القدر، وإن الصبر من أسباب الظفر". فالجملة الأولى فعلية فاعلها مؤكد بالتقديم ومؤكد بأن هكذا √ + فا √ + ف+ قيد

محدد، إن الحذر لا ينجي من القدر.

أما الجملة الثانية، فاسمية مؤكدة بمؤكد واحد وهذا أمر يتسق مع ما جاءت الخطبة من أجله، شدة التحذير مع الحذر من الدخول في المعركة، وتوكيد الصبر بأنه من أسباب النصر.

وشأن(أن) في الجملةشأن أخواتها من حيث تحويل الاسمية إلى التوليدية أي اسمية تحويلية، أو من حيث دخولها على فاعل متقدم على فعله ليكون موضع تأثير

الأداة الداخلة عليه، ولكن لكل من هذه الأدوات معنى تنقل الجملة إليه، (فكأن) تنقلها إلى التشبيه و(لكن) تنقلها إلى معنى الاستدراك، و(ليت) تنقلها إلى معنى التمني (ولعل) إلى معنى الترجي. وما زيادة (ما) في آخر كلٍّ إلا عادة لغوية عند بعض قبائل العرب.

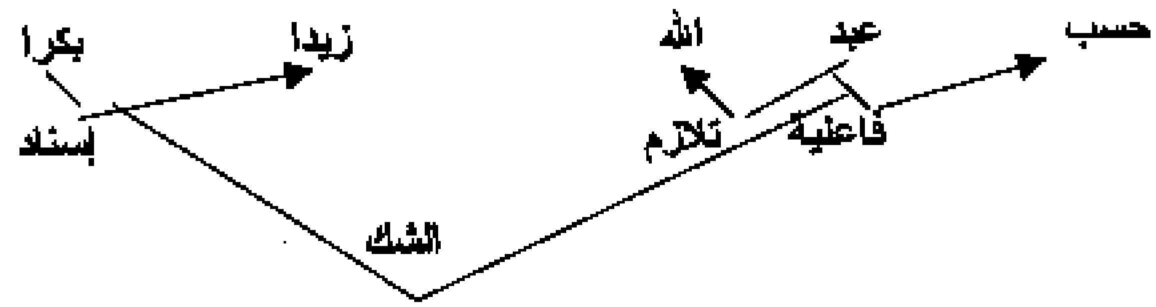
ج- أفعال الشك والقلوب والتحول...الخ

لقد فرق سيبويه من حيث المعنى بين الفعل الذي يتعدى إلى مفعولين يجوز اقتصار المتكلم على أحدهما، والمفعولين اللذين لا يمكن أن يستغنى المتكلم بأحدهما عن الآخر، يقول[89]: "هذا باب الفاعل الذي يتعداه فعله إلى مفعولين، فإن شئت اقتصرت على المفعول الأول، وإن شئت تعدى إلى الثاني كما تعدى إلى الأول، وذلك قولك: أعطى عبدُ الله زيداً درهماً، وكسوت بشراً الثيابَ الجياد. ومن ذلك اخترت الرجالَ عبدَ الله، وسميته زيداً، وكنيت زيداً أبا عبد الله، ودعوته زيداً، إذا أردت (دعوت) التي تجرى مجرى سميته وإن عنيت الدعاء إلى أمر لم يتجاوز مفعولاً واحداً".

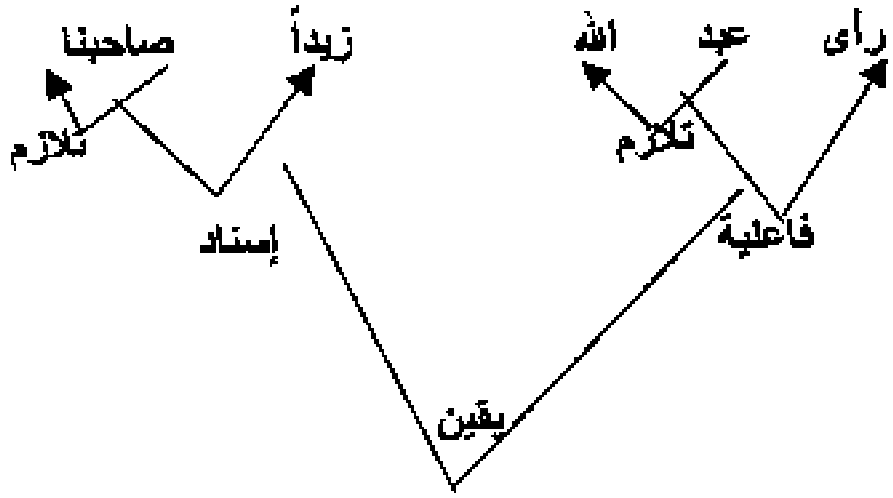
في هذا النص خلط واضح بين جمل من أصل فعلي وآخر من أصل اسمي. وفي قول سيبويه: "فإن شئت اقتصرت على المفعول الأول" إشارة إلى أن الأصل أن لا يقتصر على الأول، ولكن لغرض يريده المتكلم وقد يعلمه السامع حذف الثاني، والحذف يكون عادة لغرض بلاغي. فالجملتان: أعطى... وكسوت... جملتان فعليتان توليديتان تهدفان الإخبار المحايد. أما الجملة: اخترت الرجال عبد الله، فلست أدري كيف تكون هذه جملة إذا لم تحمل على بدل الغلط والنسيان.

أما الجمل: كنيته... دعوت... سميت... فجمل اسمية تحويلية أصلها: هو زيد، زيد أبو عبد الله، هو زيد، فدخلت عليها الأفعال مع فاعليها: كنيت، دعوت سميت، لتفيد معنى جديداً يؤثر على المبتدأ مع خبره وهذا ما نحمل عليه قول سيبويه[90]: "هذا باب الفاعل الذي يتعداه فعله إلى مفعولين وليس لك أن تقتصر على أحد المفعولين دون الآخر. وذلك قولك حسب عبد الله زيداً بكراً، وظن عمرو خالداً أباك، وخال عبد الله زيداً أخاك". فلا يجوز الاستغناء عن مفعوليها، وعن أحدهما، لأن الأصل فيهما مبتدأ وخبر[91]

بيــنهما علاقة إسناد ليس من اليسير الفصل بينهما وقطع هذه العلاقة التي قامت الجملة أصلا عليها هكذا:



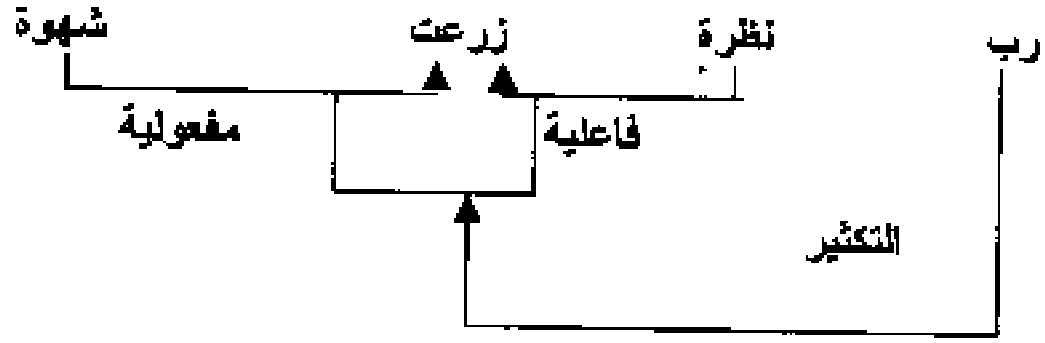
وكذلك جملة:



فزيد صاحبنا: جملة مستقلة عن: رأى عبد الله،وهي بكاملها وحدة تفكير عبد الله فــي ما رأى. وهذه مختلفة – كما يرى سيبويه والنحاة غيره– عن: رأى عبد الله زيدا، المكونة من فعل وفاعل ومفعوله، يقول ابن السراج في الفعل المتعدي إلى مفعولين مما نحــن بصدده[92]: "وهو الذي يتعدى إلى مفعولين وليس لك أن تقتصر على أحدهما دون الآخر، هذا الصنف من الأفعال التي تنفذ منك إلى غيرك، ولا يكون من الأفعال المؤثرة، وإنمـــا هي أفعال تدخل على المبتدأ والخبر فتجعل الخبر يقينا أو شكا". ولعمري إن هذا هو الذي نذهب إليه في قولنا جملة تحويلية اسمية أخذا بقول السيوطي لتسمية الجملة: والعــبرة بصــدر الأصل. ويزيد ابن السراج تفصيل الموضوع تفصيلا دلاليا جميلا يبين القــيمة الدلالية للعنصر الداخل على الجملة وارتباطه بالجملة الأصل، يقول[93]: "ألا ترى أنك إذا قلت: ظننت عمرا منطلقا، فإنما تشك في انطلاق عمرو لا في عمرو، وكذلك إذا قلــت: علمــت زيــدا قائما، فالمخاطب إنما استفاد قيام زيد لا زيدا لأنه يعرف زيدا كما تعــرفه أنــت، والمخاطَب والمخاطِب في المفعول الأول سواء وإنما الفائدة في المفعول

الثاني، كما كان في المبتدأ والخبر الفائدة في الخبر لا في المبتدأ. فلما كانت هذه الأفعال إنما تدخل على المبتدأ والخبر والفائدة في الخبر، والمفعول الأول هو الذي كان مبتدأ والمفعول الثاني هو الذي كان الخبر، بقي موضع الفائدة على حاله". فهذه الكلمات التي يسميها النحاة أفعال الظن ليست في حقيقتها أفعالا حقيقية والذي جعل النحاة يسلكونها في الأفعال هو حركة حالة النصب على المبتدأ والخبر، فكل حركة لابد لها من تبرير على ضوء فلسفة العامل، والنصب يلحق بأم الباب (المفعول به)، فهما مفعولان، ولو قالوا بأن العلاقة بين الفعل (ظن) والمبتدأ والخبر هي علاقة الظن أو الشك أو... كما جاء في نص ابن السراج السابق، وأن الحركة حركة اقتضاء للقياس اللغوي على ما جاء عن العرب، لما احتاجوا إلى هذا الذي ذهبوا إليه.

د- رُبَّ: وهي أداة تدخل على الجملة الاسمية كما تدخل على الفاعل المقدم على فعله للعناية والتوكيد، فيأخذ الاسم بعدها حركة حالة الجر وتفيد التكثير غالباً وتفيد التقليل أحيانا. قال عمر بن الخطاب[94]:



ومثاله قول أكثم بن صيفي: "رُبَّ بعيدٍ أقربُ من قريبٍ، ورُبَّ غريبٍ ناصحٍ لحبيبٍ" فدخلت (رُبَّ) على جملة اسمية لتفيد معنى التكثير.

2- ما يزاد في وسط الجملة:

1- لام التوكيد

لا نتحدث هنا عن لام التوكيد التي ترد في صدر الجملة مثل: لعبد مؤمن خير...، فهذه ورد ذكرها سابقا في الزيادة في صدر الجملة، وإنما نتحدث عن اللام التي

تأتـــي فـــي خبر إن وهي التي يسميها النحاة "اللام المزحلقة". يقول أبو بكر في خطبة له[95]: "إن أشقى الناس في الدنيا والآخرة الملوك، فرفع الناس رؤوسهم، فقال: مالكم يا معشـــر الناس، إنكم لطعانون عجلون، إن من الملوك مَنْ إذا ملك زهّده الله بما في يده ورغّبه في ما في يد غيره".

نأخذ جملة: إنكم لطعانون، فأصلها: أنتم طعانون. ولكن المقام والسياق يقتضي توكيد مضمون الجملة ويقتضي توكيدا آخر لخبرها، فأصبحت: إنكم لطعانون.

√ (م + √خ) ═══ جملـــة تحويلـــية اســـمية مؤكـــدة بمؤكد واحد وخبرها مؤكد بمؤكدين.

وانظـــر إلى السياق الذي دفع أبا بكر لهذه التوكيد، يقدم للناس خبرا مؤكدا: إن أشـــقى الناس في الدنيا الملوك فيرفعون رؤوسهم وكأنهم ينكرون ذلك منه، فيحتاج إلى تفصيل الخبر وتوكيده لإزالة ما هم فيه من دهشة وما هم عليه من شك أو إنكار.

ومثلها قول معاوية[96]: "والله إن خيري لممنوح، وإن بابي لمفتوح" وقد زاد في هـــذه الجملة ورود القسم في أولها، والذي يراه النحاة أن كلمة القسم هذه (والله) جملة قائمة على مبتدأ خبره محذوف "وهي خبر لمبتدأ محذوف". ونرى أن هذه اللفظة عنصر توكـــيد ليس غير ولا علاقة له بالابتداء ولا بالخبر، فالمبتدأ والخبر يكونان جملة يحسن الســـكوت عليها، وقد جيء بالقسم في جملة مؤكدة ليزيد في توكيد الجملة كاملة، شأنه شأن (إن) في صدر الجملة، فيكون تحليل الجملة السابقة كما يلي:

لممنوح	خيري	إنّ	والله
(م + √خ)		√	√

جملة اسمية تحويلية مؤكدة بمؤكدين وخبرها مؤكد بثلاثة.

ب- الحروف الزائدة في خبر ليس وما والمشبهة بها

وهـــي الجمـــل التي يسميها النحاة "حرف جر زائد"، وسميت عندهم زائدة لأن دخولهـــا فـــي الجملـــة كخروجها كما يقولون، مع إنهم يدركون أن ذكرها وعدمه ليس

ســواء من حيث القيمة الدلالية في الجملة. ونحن نرى أن النحاة قد اضطروا إلى القول (زائدة) لأنهم بحاجة إلى إعراب الاسم بعدها في موقعين: أحدهما الجر، والثاني النصب خــبرا للــيس أو ما. لذا فقد أعربوا هذا الاسم إعرابا لفظيا يقتضيه حرف الجر، وآخر تقديريا يقتضيه المبتدأ التي دخلت عليه ليس أو ما.

ونــرى أن هــذه الحــروف حــروف توكيد، تؤكد الخبر المنفي، فتتأثر الجملة بكاملها نفيا بليس أو ما (عنصر النفي) ويتأثر الخبر توكيدا بالباء أو مِن، فيكون الخبر مؤكَــدا في حال النفي. وهذا ما أفاده جل المفسرين في معالجة آيات القرآن الكريم التي فيها هذه الحروف، نحو:

ما أنت بمجنون

(م + √خ) = جملة تحويلية اسمية منفية خبرها مؤكد منفي.

ولعــل هذه خلاصة ما يذهب إليه سيبويه في ما نص عليه بقوله[97]: "وقد تدخل في موضع لو لم تدخل فيه كان الكلام مستقيما، ولكنه توكيد... إلا أنها تجر لأنها حرف إضافة، وذلك قولك: ما أتاني من رجل، ما رأيت من أحد، ولو أخرجت (من) كان الكلام حســنا ولكــنه أكــد بمــن... وقد تكون الباء بمنزلتها في التوكيد، وذلك قولك: ما زيد بمــنطلق ولــيس بذاهــب، أراد أن يكــون مؤكدا حيث نفى الانطلاق والذهاب"[98] ونحن نســتثني الجملتيــن الأوليــن في نص سيبويه من حديثنا هنا، لأنهما من أنماط تركيب الجملة الفعلية، فنطبق قولنا على الأخريين: ما زيد بمنطلق

ليس زيد بذاهب = (م + √ خ)

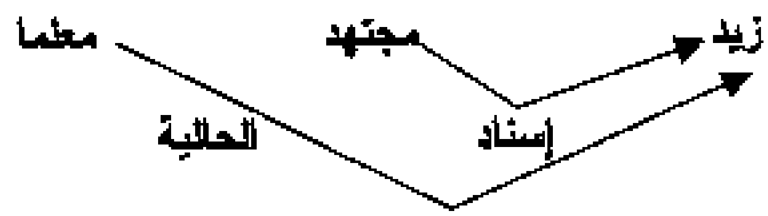


= جملة تحويلية اسمية منفية خبرها مؤكد في حال النفي.

3- الزيادة في آخر الجملة:

لا نطــيل القــول في هذا البند لقلة وروده في الجملة الاسمية من ناحية، ولأن الحديــث عــنه يحــتاج إلى التعرض لأبواب النحو بعامة وربطها ببؤرة الجملة الاسمية

(المبتدأ)، وهذا يمكن أن يكون موضوع بحث مستقل. ولكنا نقول بأن كل كلمة في الجملة تكون ممثلا صرفيا لباب نحوي، فتأخذ حركته الإعرابية المخصصة له في ما نص عليه النحاة ثم يرتبط الممثل الصرفي هذا -بعد أن يأخذ حركته- ببؤرة الجملة (المبتدأ، أو الفعل في التركيب الفعلي) بعلاقة دلالية تبين الغرض الذي من أجله زيدت هذه الكلمة في التركيب[99] هكذا



4- الجملة الاسمية المحولة بالحذف:

الحذف "باب دقيق المسلك لطيف المأخذ، عجيب الأمر شبيه بالسحر فإنك ترى به ترك الذكر أفصح من الذكر، والصمت عن الإفادة أزيد للإفادة، وتجدك أنطق ما تكون إذا لم تنطق، وأتم بيانا إذا لم تبن"[100]. ويكون الحذف من المتكلم بحذف كلمة أصل في التركيب الجملي الأصل (الجملة التوليدية)، أي يحذف أحد الأركان الرئيسية في الجملة (الفعل، أو الفاعل، أو المبتدأ، أو الخبر)، ولا يحذف المتكلم ما يحذف إلا لغرض بلاغي دلالي، فلا يكون الحذف ترفا لغويا، وإنما هو لتحويل الجملة من معناها الدلالي الأول إلى معنى دلالي آخر، فتصبح الجملة تحويلية اسمية أو تحويلية فعلية، وكل تحول لابد أن يكون له غرض في المعنى وعليه دليل، "وقد حذفت العرب الجملة والمفرد والحرف والحركة، وليس شيء من ذلك إلا عن دليل عليه"[101]، ولما كان المتكلم قد حذف لغرض بلاغي فليس من حق السامع أن يبرز هذا المحذوف، وأنه إن فعل، فقد أفسد هذا الغرض البلاغي، "سورة أنزلناها". فقد حذف الله ركنا رئيسا من أركان هذه الجملة لغرض بلاغي ليس من اليسير تحقيقه بقولنا: هو مبتدأ تقديره (هذه)، وآية (هذه) يقصد بها، أهي السورة بكاملها، أم تراها الآيات الخاصة بتنظيم حياة المرأة في هذه السورة، أم أنها القرآن بكامله، أم... فالأفضل إذا أن يفهم أن هناك حذفا وأن يترك للسامع تقدير هذه الاحتمالات كلها، بل زيادة عليها. وقد صور الجرجاني هذا جيدا

بقولـه[102]: "وإن أردت ما هو أصدق في ذلك شهادة وأدل دلالة فانظر إلى قول عبد الله بن الزبير يذكر غريما له قد ألح عليه:

تثاءب حتى قلت: داسع نفسه ... وأخرج أنيابا له كالمعاول

الأصل: حتى قلت: هو داسع نفسه، أي: حسبته من شدة التثاؤب ومما به من الجهد يقذف نفسه من جوفه ويخرجها من صدره كما يدسع البعير جرته، ثم إنك ترى نصبة الكلام وهيئته تروم منك أن تنسى هذا المبتدأ وتباعده عن وهمك، وتجتهد أن لا يدور في خلدك، ولا يعرض لخاطرك، وتراك كأنك تتوقاه توقي الشيء يكرة مكانه، والثقيل يخشى هجومه: ويقول في موضع آخر[103]: "وإذا عرفت هذه الجملة من حال حذف المبتدأ فاعلم أن ذلك سبيله في كل شيء، فما من اسم أو فعل تجده حذفه هناك أحسن من ذكره، وترى إضماره في النفس أولى وآنس من النطق به".

ولعمري إن هذا هو الذي نقصده بقولنا: إن على المحلل اللغوي أن يضع إشارة المجموعة الخالية Zero Morpheme مكان المحذوف خشية إفساد الغرض البلاغي الذي من أجله حذف المتكلم ما حذف، فتنقلب الجملة من توليدية ذات معنى إخباري محايد إلى تحويلية ذات بعد دلالي آخر، قد يكون التعظيم أو التحقير أو للعلم به أو للجهل به، أو لتأخذ الجملة مجرى المثل، أو للاقتصاد في الكلام، أو للتعمية والتمويه... الخ.

5- الجملة الاسمية المحولة بالحركة الإعرابية

"إن العرب قد نطقت على سجيتها وطباعها، وعرفت مواقع كلامها وقامت في عقولها علله"[104]. وقد نطقت العرب كلامها مقرونا بحركات إعرابية، وهذا ماثل في أقدم النصوص المعروفة في العربية، وقد كان لهذه الحركات في نفس العربي الذي كان يتحدث سليقة من غير معرفة بعامل أو معمول كان لها في نفسه معان، وليس كما يدعي بعض الباحثين أنها كانت من وضع النحاة، فللحركة الإعرابية دور في الإفصاح والإبانة عما في النفس من معنى يقصده المتكلم ويفهمه السامع[105]، ولكن جهود النحاة انصرفت عن البحث في القيمة الدلالية للحركة الإعرابية إلى البحث في تبرير وجود

الحــركة الإعرابــية لغرض تعليمي على ضوء نظرية العامل، فلابد لكل حركة من عامل لفظي أو معنوي، ولابد لكل عامل من أثر ظاهر أو مقدر، حتى أصبح النحو علم حركات أواخر الكلم. والذي نراه أن الحركة الإعرابية ذات قيمة دلالية تخرج بالجملة عن معناها الدلالــي الأول إلى معنى دلالي آخر كما في: نصب الاسم بعد واو المعية، ونصب الفعل المضــارع بعــده كذلــك، ونصــب الاســم في الإغراء والتحذير والاختصاص وبعد كم الاستفهامية وبعد أسماء الأفعال.

فالجملــة: جــاء زيد والنهر، كان ينطقها العربي الذي لم يكن يعرف عاملا أو معمــولا، ولا يعرف ضمة ولا فتحة... كان ينطقها تارة بالضمة وأخرى بالفتحة، وهو يــدرك الفــرق في الدلالة بينهما، ثم جاء النحاة فشغلهم كثيرا المسبب (العامل) للحركة الإعرابية (الفتحة) على (النهر) يقول ابن مضاء[106]: "إن حركات الإعراب لم توجد لتدل على عوامل معينة، وإنما جاءت لتدل على معان في نفس المتكلم".

وانظــر لــترى الوظــيفة الدلالــية للحركة الإعرابية في الاقتباسات التالية من جمهــرة خطب العرب. يقول سعد بن أبي وقاص في يوم الشورى[107]: "إياكم أيها النفر وقولَ الزور، وأمنيةَ أهل الغرور".

وتقــول عكرشــة بنــت الأطــرش في وقعة صفين[108]: "إن معاوية دلف إليكم فأجــابوه، واستدعاهم إلى الباطل فلبوه، فاللهَ اللهَ عباد الله في دين الله، إياكم والتواكلَ، فإن ذلك ينقض عرى الإسلام ويطفيء نور الحق".

ومــن خطــبة لأبــي بكر بعد أن بايعه المسلمون[109]: "..... الجدَ الجدَ، والوحا الوحا، والنجاةَ النجاةَ..".

ومن خطبة للحسن رضي الله عنه[110]: "...فو الذي بعث محمدا بالحق لا ينقص من حقنا آلَ البيت أحد إلا نقصه الله من عمله مثله".

6- الجملة الاسمية المحولة بالتنغيم:

خلــط الدارســـون ردحا من الزمن بين النبر والتنغيم إلى أن سلك كل من هذين المصـــطلحين عند المتخصصين سبيله الدلالي، فحصر استعمال النبر في المبنى الصرفي فـــي مقطـــع منه يرتفع فيه الصوت ليعلو على بقية المقاطع، وانصرف استعمال التنغيم للدلالـــة على النغمة الصوتية المصاحبة للجملة بكاملها، تنقلها من باب إلى باب، ومن معـــنى إلـــى معنى. وقد أدرك القدماء هذه الظاهرة اللغوية، إلا أننا لا نكاد نجد لها أثرا يذكـــر في كتب النحو، فهذه الكتب تبحث في تبرير الحركات الإعرابية على أواخر الكلم علـــى ضوء نظرية العامل، ولما لم يكن للتنغيم دور في تغيير الحركة الإعرابية، أي أنه لـــيس مـــن العوامـــل، فقد جاءت كتب النحو خالية من الحديث عنها. وقد تحدث عنها اللغويـــون بإيجاز في بعض مصنفاتهم، يقول ابن جني[111]: "...وقد حذفت الصفة ودلت الحـــال عليها، وذلك فيما حكاه صاحب الكتاب من قولهم: سير عليه ليل، وهم يريدون: لـــيل طويل، وكان هذا إنما حذف فيه الصفة لما دل من الحال على موضعها، وذلك إنك تحـــس في كلام القائل لذلك التطويح والتطريح والتفخيم ما يقوم مقام قوله: "طويل، أو نحـــو ذلك. وأنت تحس هذا من نفسك إذا تأملته، وذلك أن تكون في مدح إنسان والثناء علـــيه، فتقول: كان والله رجلا، فتزيد في قوة اللفظ ب(الله)... وتتمكن من تمطيط اللام وإطالـــة الصـــوت بهـــا وعليها، أي رجلا فاضلا أو شجاعا أو كريما ونحو ذلك، وكذلك تقـــول: ســـألناه فوجدناه إنسانا، وتمكن الصوت ب(إنسان) وتفخمه، فتستغني بذلك عن وصـــفه بقولك: إنسانا سمحا أو جوادا أو نحو ذلك، وكذلك إن ذممته ووصفته بالضيق قلـــت: سألناه وكان إنسانا وتزوي وجهك وتقطبه، فيغني ذلك عن قولك: إنسانا لئيما أو لحزا أو بخيلا أو نحو ذلك".

ولعمـــري إن هـــذا نص عبّر فيه ابن جني بوضوح وجلاء عن القيمة الدلالية للتنغـــيم، قارنـــا ذلك بحركات الوجه أو الشفتين أو حركات اليدين أو هز الرأس والجذع أحـــيانا، والذي يعنينا هنا هو النغمة الصوتية التي تنقل الجملة من بعدها الدلالي الأول فـــي الجملة التوليدية الاسمية (فالاسمية موضوع بحثنا) وهو الإخبار المحايد، إلى بعد دلالـــي آخـــر قـــد يكون الاستفهام أو السخرية أو التعجب... الخ. وقد أدرك منه النحاة

القدمـــاء مـــا يفـــيد الاســـتفهام، ولكنهم اسموه "الاستفهام محذوف الأداة". فهو عندهم اســـتفهام قـــائم علـــى أداة محذوفة تقديرها عندهم هل أو الهمزة. ونحن نرى أن هذا اســـتفهام قائم على التنغيم لأن التنغيم عنصر من عناصر الاستفهام شأنه في ذلك شأن بقـــية عناصـــر الاســـتفهام: هـــل والهمـــزة وأين ومتى وإيان... قال الحجاج للغضبان القبعـــثري[112]: "أنت القائل لأهلا الكوفة؟ يتغدون بي قبل أن أتعشى بهم؟ قال: أصلح الله الأمـــير، ما نفعت من قالها، ولا ضرت من قيلت فيه". فالحوار يشير إلى سؤال وجواب ولا أداة للسؤال، ولكن السامع يفهم ما يريد المتكلم فيجيبه، وكل ذلك استنادا إلى التنغيم الـــذي نقل به الجملة الاسمية (الأولى) والفعلية (التي تليها) من خبرية إلى استفهامية. ومـــثله ما جاء في خطبة ابن مطيع وهو محصور[113]: "...فقالوا أيا ابن الأشتر: آمنون نحن؟ قال: أنتم آمنون. فخرجوا فبايعوا المختار". الجملة آمنون نحن محولـــة عن نحن آمـــنون. والعـــرب تقـــدم موضع العناية، وعناية المحصور طلب الأمان: آمنون نحن، فيجيبهم ابن الأشتر: أنتم آمنون، جملة خبرية محايدة.

وأمـــر اســـتخدام النغمة الصوتية ظاهرة لغوية ذات بعد دلالي لا يخفى على كل من يستخدم العربية الفصحى منها والمحلية المعاصرة، نقول:

علـــي مجـــتهد، فتحتمل معنى الإخبار والاستفهام والسخرية، ولا يحدد ذلك إلا التنغيم الذي تنطق به الجملة.

وقـــد فصـــلنا القـــول في التنغيم من عناصر التحويل في كتابنا "في نحو اللغة وتراكيبها". فلا حاجة لإطالة القول فيه هنا.

الهـــــوامش

1- تمام حسان: اللغة العربية مبناها ومعناها ص 13.

2- مـــنذ قدمت مقالة في المجلة العربية للعلوم الإنسانية ــ الكويتــ عدد 8 بعنوان رأي في: بناء الجملة الفعلية في ضوء الدراسات اللغوية المعاصرة.

3- ابن السراج، الأصول في النحو 66/1.

4- الكتاب 48/1، وانظر أصول ابن السراج 59/1، وشرح المفصل 85/1ــ86.

5- الكتاب 48/1، وانظر أصول ابن السراج 59/1، وشرح المفصل 85/1ــ86.

6- السيوطي، الهمع: 9/2.

7- الكتاب 23/1.

8- الكتاب 78/2.

9- جمهرة خطب العرب 56/1.

10- الجمهرة 5/1.

11- الجمهرة 25/3.

12- ←—— إشارة تحولت الجملة إلى . . . ↗ رأس السهم يشير إلى الكلمة ترتبط بها غيرها.

13- الجمهرة 164/1.

14- ابن السراج، الأصول 66/1.

15- المرجع السابق.

16- ابن السراج، الأصول 149/1.

17- السيوطي، الهمع، 190/2، وانظر المساعد على تسهيل الفوائد 78/1ــ79.

18- وانظر: الهمع 32/2، والمساعد 220/1 ــ 221،

19- وانظر: الهمع 32/2ــ33.

20- وانظر: الهمع: 28/2.

21- وانظر : الهمع 28/2.

22- الجمهرة 280/1؛

23- وقــد فصــلنا القول في هذا في كتابنا "في نحو اللغة وتراكيبها" تحت عنوان: ظاهرة التلازم.

24- يشير رأس السهم إلى ما يعود عليه غيره.

25- وقــد فصــلنا القول في هذا ف "الاسم الموصول بين التركيب والدلالة"، دار البشير ــ عمان ــ 1989م.

26- الجمهرة 136/1.

27- الجمهرة 236/1.

28- الجمهرة 56/1.

e

م = مبــتدأ، خ = خــبر، الإشــارة V علامـــة توكيد، فإن كانت تحت الكلمة مؤكدة بالتقديم.

29- الجمهرة 51/1.

30- الإشارة ←—— تعني متحول عن، والإشارة = / = تعني لا تساوي من حيث الدلالة.

31- وانظر شرح المفصل 85/1 ــ 87، وأصول ابن السراج 66/1.

32- الهمع 28/2 ــ 29.

33- وانظر، خليل عمايره: أسلوب التوكيد اللغوي ص 13 وما بعدها.

34- الجمهرة 37/1.

35- الهمع 29/1.

36- لمزيد من التفصيل في رأي البصريين والكوفيين في تقديم الفاعل، انظر الإنصاف في مسائل الخلاف مسألة 85.

37- الهمع 29/2.

38- الكافية 86/1.

39- الهمع 7/2 ـ 8 وانظر الأصول 59/1 ـ 60.

40- الهمع 9/2.

41- الكشاف 510/2.

42- وانظر، خليل عمايره: الضمير العائد ولغة أكلوني البراغيث.

43- وانظر، محمد بن علي الجرجاني: الإشارات والتنبيهات في علم البلاغة ص 33.

44- ← = تحولت، ↔ = تأثير من جانبين، ف = فعل، فا = فاعل، =علامة عنصر النفي.

45- شرح المفصل 85/1.

46- شرح المفصل 86/1.

47- الكشاف 47/1 ـ 48.

48- وانظر ما يدعم هذا في الكافية لابن الحاجب 90/1 ـ 91.

49- الكافية 90/1.

50- وانظر الهمع 29/2.

51- وانظر الكتاب 412/2.

52- الكتاب 413/2.

53- المقتضب 308/2.

54- ∅ تعني Zero Morpheme ، وانظر تفصيل هذه الظاهرة في خليل عمايره: أسلوبا النفي والاستفهام في العربية ص 58 وما بعدها.

55- الهمع 2/ 29.

56- السابق.

57- وانظر، خليل عمايره: أسلوبا النفي والاستفهام في العربية ص 58 وما بعدها.

58- الهمع 29/2.

59- الهمع 30/2.

60- الهمع 30/2.

61- السابق.

62- شرح المفصل 150/7.

63- الهمع 30/2.

64- وانظر عبد القاهر الجرجاني، دلائل الإعجاز ص 137 ـ 140.

65- الهمع 31/2.

66- الهمع 30/2.

67- الهمع 31/2.

68- انظر تفصيل القول في جملة الشرط، خليل عمايره، في نحو اللغة وتراكيبها ص120 ـ 125.

69- الجمهرة 112/2.

70- الجمهرة 63/2.

71- وانظر الهمع 35/2 ـ 37.

72- فصلنا القول فيه في كتابنا "الضمير العائد ولغة أكلوني البراغيث".

73- الهمع 36/2.

74- المساعد 220/1.

75- وانظر خليل عمايره: العامل النحوي بين مؤيديه ومعارضيه ص 90 وما بعدها.

76- الهمع 63/2.

77- وانظر خالد الأزهري، شرح التصريح 183/1، والكتب 45/1.

78- الفراء، معاني القرآن 142/1، وانظر رأيا مخالفا في الحال في شرح المفصل 55/2.

79- الكتاب 23/1.

80- الكتاب 78/1.

81- شرح التصريح 184/1، وانظر الهمع 63/2 ــ 64.

82- الهمع 63/2.

83- الأصول 74/1.

84- الهمع 64/3 ــ 65.

85- الهمع 64/3 ــ 65.

86- الجمهرة 162/1.

87- شرح المفصل 102/1.

88- الجمهرة 37/1.

89- الكتاب 37/1.

90- الكتاب 40/1.

91- انظر الكتاب 2م127.

92- الأصول 180/1 ــ 181.

93- السابق.

94- الجمهرة 219/1.

95- الجمهرة 183/1.

96- الجمهرة 97/2.

97- وانظر القرطبي 5/7، البحر المحيط 475/1 ـ 466.

98- وانظر: الكتاب 225/4، 41/1، 66 ـ 68، وشرح المفصل 13/8.

99- وقد فصلنا القول فيه في: العامل النحوي بين مؤيديه ومعارضيه.

100- عبد القاهر الجرجاني، دلائل الإعجاز في 162.

101- الخصائص 360/2.

102- عبد القاهر الجرجاني، دلائل الإعجاز ص 166.

103- دلائل الأعجاز ص 152 ـ 153.

104- الزجاجي، الإيضاح في علل النحو ص 66.

105- نستثني من ذلك بعض الحركات التي لها دور في إقامة سلامة المبنى ولا دور لها في المعنى، انظر خليل عمايره: في نحو اللغة وتراكيبها، الفصل الثالث، وأسلوب التوكيد اللغوي ص 13 وما بعدها، والعامل النحوي بين مؤيديه ومعارضيه ص 85 وما بعدها.

106- الرد على النحاة ص 87.

107- الجمهرة 1/ 268.

108- الجمهرة 368/1.

109- الجمهرة 181/1.

110- الجمهرة 430/1.

111- الخصائص 370/2 ـ 371.

112- الجمهرة 413/2.

113- الجمهرة 84/2.

قائمة المراجع

1- القرآن الكريم.

2- ابن جني، أبو الفتح، الخصائص، ت: محمد علي النجار، بيروت دار الهدى للطباعة.

3- ابن الحاجب، الكافية في النحو، بيروت، دار الكتب ط1982، 3.

4- ابن السراج، الأصول في النحو، ت: الفتلي، بيروت، مؤسسة الرسالة 1985.

5- ابن عقيل، المساعد على تسهيل الفوائد، ت. محمد بركات، دمشق، دار الفكر 1980م.

6- ابن عقيل: شرح ابن عقيل، ت: محيي الدين عبد الحميد، در القلم طم.

7- ابن هشام: مغني اللبيب ت: محمد عبد الحميد، القاهرة، مطبعة المدني.

8- ابن يعيش، شرح المفصل، بيروت، عالم الكتب.

9- الأزهري، شرح التصريح على التوضيح، دار إحياء الكتب العربية.

10- الأنباري، عبد الرحمن بن محمد – الإنصاف في مسائل الخلاف، ت: محمد محيي الدين عبد الحميد، بيروت، دار الفكر ط1983، 2م.

11- الأندلسي، أبو حيان، تفسير البحر المحيط، بيروت، دار الفكر 1963م.

12- أنيس، إبراهيم، من أسرار اللغة، القاهرة، مكتبة الأنجلو المصرية 1966.

13- بكـــر، محمـــد صلاح الدين مصطفى، النحو الوصفي من خلال القرآن الكريم، الكويت، مؤسسة علي جراح الصباح.

14- جبر، محمد عبد الله، الضمائر في اللغة العربية، مصر، دار المعارف 1981م،

15- الجرجاني، عبد القاهر، دلائل الإعجاز، مكتبة سعد الدين- دمشق 1987.

16- الجرجانـــي، محمـــد علي، الإشارات والتنبيهات في علم البلاغة ت: عبد القادر حسين 1980م.

17- ال

18- حجازي، محمود فهمي، علم اللغة العربية- القاهرة، دار الثقافة.

19- حسان، تمام. اللغة العربية في معناها ومبناها، القاهرة، الهيئة المصرية العامة للكتاب 1973.

20- الزجاجي: أبو القاسم، الإيضاح في علل النحو، ت مازن المبارك، بيروت، دار النفائس 1982م.

21- الزمخشـــري، الكشاف عن حقائق التنـــزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل، بيروت دار المعرفة.

22- سيبويه، الكتاب، ت عبد السلام هارون، القاهرة، دار القلم 1966م.

23- الســـيوطي، همع الهوامع في شرح جمع الجوامع، ت: عبد العال مكرم... الكويت، دار البحوث العلمية 1985م.

24- صـــفوت، أحمـــد زكـــي، جمهرة خطب العرب في عصورها الزاهرة، بيروت، المكتبة العلمية.

25- عمايـــره، إسماعيل أحمد، المستشرقون ومناهجهم، اربد، دار الملاحي للنشر والتوزيع 1988م.

26- عمايره، خليل أحمد، في نحو اللغة وتركيبها، جدة، عالم المعرفة 840.

27- عمايره، خليل أحمد، في التحليل اللغوي، الزرقاء، مكتبة المنار 1987.

28- عمايـــره، خلـــيل أحمـــد، في العامل النحوي بين مؤيديه ومعارضيه ودوره في التحليل اللغوي، دار الفكر الإسلامي- عمان 1988.

29- عمايـــره، خليل أحمد، أسلوب التوكيد اللغوي في منهج وصفي في التحليل اللغوي، دار الفكر الإسلامي- عمان 1988م.

30- عمايـــره خليل أحمد، أسلوبا النفي والاستفهام في العربية، دار الفكر الإسلامي- عمان 1988م.

31- عمايره، خليل أحمد، الضمير العائد ولغة أكلوني البراغيث، دار البشير عمان 1989م.

32- الفارسي، أبو علي، المسائل العسكريات، ت: إسماعيل عمايره، عمان الجامعة الأردنية 1980م.

33- الفراء، معاني القرآن، بيروت، عالم الكتب 1980م.

34- القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، دار الكتاب العربي 1977م.

المعنى في ظاهرة تعدد وجوه الإعراب في نماذج من سورة البقرة

المعنى في ظاهرة تعدد وجوه الإعراب

في نماذج من سورة البقرة *

إن رسـول الله صـلى الله عليه وسلم منذ اللحظة الأولى التي حمل فيها مهمة الرسـالة، عمل على توضيح هذه الرسالة إلى أمته التي ستبقى تحملها إلى يوم يرث الله الأرض ومـن عليها، فكان يجلس إلى أصحابه رضوان الله عليهم، يعلمهم كل ما يتصل بحـياتهم الجديـدة، ويفسـر لهم دستورهم الجديد، ويبين كل ما يبنى على آيات الكتاب العزيـز مما يجب أن يعرفوه وأن يتصرفوا على ضوئه، فنشأ من بين الصحابة رضوان الله علـيهم مـن حملـوا هـذه المهمة، فأخذوا يبينون للأمة ما يتعلق بالآيات وأسباب نـزولها، وتفسـيرها بغيرها من الآيات، أو بأحاديث رسول الله صلى الله عليه وسلم، وكـان من أبرز هؤلاء ابن عباس وعبد الله بن عمر وأبي رضي الله عنهم أجمعين، ثم توالـت الجماعـات التي أخذت هذه المهمة، مهمة بيان معاني الآيات القرآنية وتوضيح مقاصـدها ومدلولها، توالت مع توالي السنين، وانتهجت في ذلك مناهج مختلفة متعددة طـبقا لحاجـة عقول الناس في التوضيح، واستنادا إلى احتكاك العرب بغيرهم من الأمم التي دخل الإسلام إليها، أو دخلت هي في الإسلام.

فقـد كانت طريقة السلف الصالح في توضيح الآيات وبيان قصدها في أول الأمر يسيرة جدا، يعتمد فيها المفسر على توضيح آية بأخرى أو بحديث، كما ذكرنا، ولكن هذا المـنهج لـم يعد هو المستعمل في مجتمع اختلط فيه العرب بغيرهم، ونشأت فيه الفرق، وتعـددت مناحـي البحـث الفلسفي والكلامي، وعاشت فيه الفطرة السليمة محنتها أمام الشـعب الهـائل المـريع فـي المبادىء وفي تفسير المفاهيم الدينية: القضاء والقدر،

---

* مجلة الدراسات الإسلامية ــ العدد الأول ــ المجلد السابع والعشرون ــ الجامعة الإسلامية العالمية ــ إسلام اباد (باكستان) ــ 1413هـ - مارس 1992م.

والتسيير والتخيير، والتفويض والجبر، والثواب والعقاب... وغيرها كثير كثير، فبعد أن كانـــت موضع تسليم، يأخذها العلماء والعامة بغير تعقيد فلسفي، أو تأثير كلامي، أو ميل صـــوفي (والراســـخون فـــي العلم يقولون آمنا به كل من عند ربنا) (آل عمران:7) أخذ القـــوم يســـرفون في توجيه هذه المفاهيم الوجهة التي يرتضون أو يحبون تارة متأثرين بمفاهـــيمهم وأخـــرى منحرفيـــن بـــأهوائهم، وكل يحاول أن يجعل النص القرآني يوافق مذهـــبه، فإن لم يوافقه مال به إليه بالتأويل الفلسفي أو العلمي أو الكلامي أو الصوفي، أو باســـتخدام بعـــض المفاهـــيم العلمـــية التـــي أخذ أثرها يظهر في تفاسير المتأخرين والمحدثيـــن، بخاصة عندما تداخلت العلوم وأخذ كل فرع يعتمد على الآخر في جانب من جوانبه: الرياضيات والطبيعيات والفلسفة والمنطق والنحو وعلم اللغة.

ومـــن المســـلم به أن القرآن الكريم نزل ليكون دستورا للأمة إلى أن يرث الله الأرض ومـــن عليها، يدعو إلى توحيد الله والسير على طريق رسوله، طريقا واضحا لا لبس فيها، تقتضي سيرا واضحا لا انحراف فيه.

وقـــد أدرك العلمـــاء آنذاك أن الأمر ليس باليسير، أقصد أمر توضيح كتاب الله لطالبـــيه في تلك الأجواء، وأمام هذه التيارات المتعددة، فانصرف للتفكير والعمل نفر من الغيوريـــن علـــى دين الله ألا تشوبه شائبة، وألا تقود الناس عنه تيارات الإلحاد البراقة، معتمدة على فلسفة ضالة، أو على أفكار منحرفة وكان على هؤلاء الغيورين أن يتعلموا عـــددا مـــن المعارف ليتسنى لهم أمر القيام بما كان عليهم أن يفعلوه لتيسير فهم آيات الكتاب المبين، وكان النحو والصرف واللغة والبلاغة، من أبرز المعارف والوسائل التي علـــى المفسر أن يتقنها، إذ إن الأصل أن هذه العلوم قد قامت لخدمة النص القرآني، أو لضبط اللغة في ألسنة أصحابها وفي ألسنة المتعلمين الوافدين أو الداخلين في الإسلام.

وما أن جاء القرن الثالث الهجري تقريبا، حتى أخذت هذه العلوم يسير كل منها في خطه الخاص يبني صرحه باستقلال عن الآخر. فكان لكل علم أعلامه وعلماؤه الذين حرصوا على تطويره على ضوء أمثلة وشواهد تؤخذ تارة من القرآن الكريم، وغالبا من غـــير القـــرآن الكريم. وكان النحو أبرز هذه العلوم في هذا المنهج. فما أن وضع الخليل

بن أحمد –رحمه الله– معالم نظريته الرئيسه (العامل) حتى أخذ العلماء من بعده يتفننون فـــي تطبيق بنود هذه النظرية على كل شيء: على الشعر والنثر، على الأمثال والأقوال، علـــى الآيات والأحاديث،...الخ، ولكن ذلك كان بعد أن أرسيت معالم هذه النظرية أو هذا المـــنهج علـــى أسس لغة القبائل الست: أسد وهذيل وتميم وقيس وبعض كنانة وبعض الطائييـــن، مما جعل فرصة كبيرة بين العلماء للاختلاف فانقسموا إلى بصريين وكوفيين وبغداديـــين ثـــم إلى مصريين ومغاربة، وفي كل قسم اختلافات كثيرة بين علمائه، وجعل فرصـــة أخرى لما حكم عليه بالشاذ أو النادر أو القليل، فالشاذ ما خالف القاعدة النحوية ((حتى وإن كان كثير في كلام العرب)) كما يقول أبو علي الفارسي.

وأخـــذ علماء النحو بخاصة يسرفون في تفريع أبواب النحو، ومناقشة فرضيات نحويـــة لا وجـــود لها أحيانا في اللغة والاستعمال اللغوي، فكثرت عندهم أوجه الإعراب وتعـــددت للكلمة الواحدة في الجملة الواحدة، فهذا يعرب الكلمة مفعولا من أجله، وآخر يعربها مصدرا نائبا عن فعله وثالث يعدها حالا ورابع... الخ.

ولا ريـــب أن معـــنى الجملـــة ينصرف على ضوء كل إعراب وجهة تبتعد عن الأخرى ابتعادا قليلا أو كثيرا.

فلـــو كـــان أحدنا هو المتكلم، وسمع عددا من النحاة يختلفون في توجيه جملته بحســـب اخـــتلافهم فـــي إعـــراب كلمة فيها، على عكس ما أثر عن العرب في قولهم: (الإعراب فرع المعنى) أي: أنهم يوجهون المعنى على ضوء الإعراب، لوجد لزاما عليه أن يقـــول في كل مرة: كلا ليس هذا ما عنيت وقد لا يقع المختلفون على ما عني المتكلم أو قصد بجملته، فإن كانت جملته ملتبسة تحتمل هذا التعدد في الوجوه، عيب ذلك عليه، وعـــد مـــن غير الفصحاء ولا من البلغاء، وإلا كان المختلفون من الحذاق الذين يبحثون في ما هو ترف لغوي، وليس بحثا عن النص اللغوي الذي هو وسيلة تحتمل رسالة بين الســـامع والمـــتكلم، وتـــؤدي دورا دلاليا تترتب عليه أشياء بينهما، فينقلب النحو بعمل المختلفين إلى صنعة تجعل من نفسها غاية وليس وسيلة كما وضعت أصلا لتكون.

يخــتلف الــنص القرآني عند المسلمين عن كل النصوص، فهو النص الذي لا يعتريه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، وهو الشافع المشفع، من جعله أمامه قاده إلى الجــنة، ومــن جعله خلفه ساقه إلى النار، وهو الدليل يدل على خير سبيل، وهو كتاب تفصــيل وبــيان وتحصيل، وهو الفصل ليس بالهزل، وهو دستور الأمة إلى يوم الدين، يتضــمن توضــيحا لكل ما يحتاجه المرء في أمور عبادته وحلاله، وما حرم عليه، وهو مــنزه عــن كل أسباب المهاترات والاختلافات النحوية أو الصرفية أو البلاغية، فعبارته بيــنة جلــية، ولكــن النحاة عندما تعرضوا لإعراب القرآن، كموضوع أو درس تطبيقي لمــواد نظريــتهم (العــامل)، أخذوا يختلفون في إعراب كلمات آياته وهم يعلمون قوله تعالى: (وأنزلنا إليكم نورا مبينا) وقوله تعالى (هدى للناس وبينات من الهدى والفرقان) فهــو الــنور الهادي إلى الصراط المستقيم، وإنك واجد أحيانا في كتب إعراب القرآن ما يــزيد علــى اثني عشر وجها من وجوه الإعراب في كلمة واحدة في آية واحدة، وهذا يتــبعه – كما ذكرنا– اثنا عشر وجها من وجوه المعنى إذا عكسنا قول العرب (الإعراب فــرع المعــنى) ولكــنا نــرى أن المعنى واحد، اهتدى إليه هذا النحوي أو ذاك، أو هذا المفســر أو غــيره، وهو المعنى الذي يجب أن تخضع القاعدة النحوية له، أو أن تبنى أصــلا علــيه، فضلا عن أن تسير معه في خطين متوازيين قد لا يلتقيان، أو أن يعد هو مــن (الشاذ) قياسا عليه، أو على عدم استيعابها إياه، وسنعمل، في ما يلي من المسائل على أن نبين ذلك:

مسألة: (صبغة الله ومن أحسن من الله صبغة، ونحن له عابدون) البقرة: 138

الــرأي الــراجح مما جاء في كتب التفسير ومعاني القرآن[1] أن هذه الآية ترجع إلــى الآية الخامسة والثلاثين: (.... قل بل ملة إبراهيم) ويكاد يجمع المفسرون على أن المقصــود هنا بصبغة الله التنويه بعادة كانت –وما تزال– عند اليهود والنصارى[2] "أنهم إذا أرادوا تنصــر أطفــالهم جعلوهــم في ماء (المعمودية) لهم يزعمون أن ذلك تقديس بمنزلة غسل الجنابة لأهل الإسلام، وأنه صبغة لهم في النصرانية، فقال الله تعالى ذكره: إذ قالوا لنبيه محمد صلى الله عليه وسلم وأصحابه المؤمنين به (كونوا هودا أو نصارى

تهـتدوا) قل لهم يا محمد: أيها اليهود والنصارى بل اتبعوا ملة إبراهيم صبغة الله التي هـي أحسن الصبغ، فإنها هي الحنفية المسلمة، ودعوا الشرك بالله والضلال عن محجة هـداه، وقيل: إن عملهم هذا؛ أي وضع المولود في ماء، بمثابة الختان، فأوضح الله لهم إن ملـة إبراهيم وصبغته الختان، اختتن إبراهيم وسار عليها محمد صلى الله عليه وسلم وأمته إلى يوم الدين.

جـاء فـي (صـبغة) قـراءة بالـرفع، وليس هنا موضع مناقشة الاختلاف في توجـيهها، ونرتضي أنها على الأصل، هي صبغة الله، أي ملة إبراهيم أو دينه، أو دين الإسلام.

صبغة الله (∅ + خبر)

أما قراءة النصب (صبغة الله) ففيها وجوه:

قيل: هي بدل من ملة، وهذا رأي الأخفش[4] ، وقد رفضه أبو حيان[5] بقوله "... وأما البدل فهو بعيد، فقد طال بين المبدل منه والبدل، ومثل ذلك لا يجوز".

وقيل: هي منصوبة على تقدير اتبعوا، وهذا رأي الكسائي[6].

وقـيل: هي منصوبة انتصاب المصدر المؤكد عن قوله قولوا آمنا بالله، هذا هو الـرأي الذي أخذ به أبو حيان[7] بقوله: "...والأحسن أن يكون منتصبا انتصاب المصدر المؤكـد عـن قوله: قولوا آمنا، فإن كان الأمر للمؤمنين كان المعنى صبغنا الله بالإيمان صبغة ولم يصبغ صبغتكم، وإن كان الأمر لليهود والنصارى فالمعنى صبغنا الله بالإيمان صبغة لا مثل صبغتنا".

وقيل: هو نصب على الإغراء؛ أي: الزموا صبغة الله[8] ونقول: إن وجود قراءة بالـرفع (صـبغة) يقطع الشك باليقين، ويجعلنا نيمم شطر وجه إعرابي واحد ليس غير، فالجملة في وضعها مع حركة النصب جملة محولة عن جملة أصل هي:

م محـذوف + خبر ∅ + صبغة (بالرفع)، وإذا ما كانت هناك غاية أخرى تقصد بالجملة فإن عنصر التحويل (الفتحة) يؤدي الدور، والفتحة كما بينا[9] عنصر من عناصر

تحويل الجملة من معنى إلى معنى آخر في عدد من أبواب النحو أهمها: الإغراء والتحذير والاسم المنصوب بعد واو المعية، وكذلك الفعل المضارع المنصوب بعد واو المعية، والاسم المنصوب بعد كم الاستفهامية، وكذلك الاسم المنصوب مع ما يسمى أسماء الأفعال، والمنصوب في جملة الاختصاص، فهي منصوبة لتؤدي معنى آخر غير الذي كانت تؤديه في الجملة مرفوعة أو مجزومة، ولهذا الغرض كان العربي، الذي لم يكن يعرف شيئا من أبواب النحو التي تعرف، ولم يكن يعرف عاملا ولا معمولا، يغير صوت حركة الكلمة لتعبر عن التغير الذي جرى في المعنى في ذهنه، ولما لم يكن أمر الوصول إلى ما في الذهن من الأمور الممكنة إلا بالكلمات فإننا نستدل للتغير الذي في ذهن القائل: الفضيلة (بالضمة) وبالفتحة عندما يقول: الفضيلةَ، وليست الفتحة بأثر من عامل مقدر بالزم، بل هو بمعنى التحذير[10].

فالجملة هنا (بصيغة) منقلبة (محولة) عن جملة توليدية أصل، فهي جملة تحويلية قائمة على عنصر التحول، وهو التغير في الحركة الإعرابية، الفتحة لتفيد معنى الإغراء.

وأما رفض أبي حيان هذا الرأي (إنها منصوبة على الإغراء) بحجة أن هذا منقوض بما جاء في آخر الآية (ونحن له عابدون)، فيحتاج إلى إعادة نظر، وقبل توجيه آخر الآية هذا، نرى أن نشير إلى أن مردّ الرأي الذي استحسنه أبو حيان سابقا (أنه منصوب على المصدرية) يعود إلى ما نقول به وإن اختلفت تسمية التخريج، فمرده — في ما نرى — إلى أن أبا حيان قد اعتمد الحركة الإعرابية هنا (الفتحة) قيمة دلالية تختلف بها الجملة في معناها عن المعنى الذي تؤديه بالضمة، ولكنه انصرف إلى تخريجها بالنصب على المصدرية، والمصدرية هنا للتوكيد، وقد يلتقي التوكيد هنا، أي توكيد الإشارة إلى صبغة الله، بالإغراء بها فكلاهما يشير إلى الحث على الأخذ بها واتباعها واجتناب نواهيها والاستمساك بأوامرها، ولكن أبا حيان يمتنع عن القول بالإغراء لأنه يرى نقضه بآخر الآية، وكأني به يستحسن الإغراء لولا ما يراه في آخر الآية، وهنا نقول إن آخر الآية لا يتناقض مع أولها على الإغراء مطلقا، ففي الآية ثلاث جمل:

صبغة الله = على الإغراء.

من أحسن من الله صبغة = على التعجب.

نحن له عابدون = قرار أو تقرير في جملة خبرية.

فكان الكلام موجه إلى أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم أو إلى من هم يتلون الكتاب حق تلاوته من غير تحريف علماء بني إسرائيل، وهؤلاء سيؤمنون بمحمد، فكان الخطاب إلى فئة واحدة، ولكنه خطاب لهم جميعا بالإغراء للاستمساك بصبغة الله أمام تيار الانحراف والكفر والإدعاء بأن الجنة للكافرين لا يدخلها إلا من كان يهوديا أو نصرانيا، فيحث الله سبحانه للاستمساك بصبغته التي هي ملة إبراهيم عليه السلام بعد أن بين في الآية السابقة أن الذين يعرضون عن دين الله زاعمين أنهم على حق، أو أنهم على دين نبي آخر، هم في شقاق وسيكفيكهم الله يا محمد وهو السميع العليم، وما شقاقهم وادعاؤهم إن كل فئة تتبع نبيها إلا كذب واتباع للهوى هوى النفس، فكل الأنبياء على حق، وما جاءوا به جميعا هو الحق الذي لا يفترق ولا يتفرق، فالأولى أن لا يتفرق أتباعه، تزعم كل فرقة أنها على الحق الذي يدخل أتباعه الجنة ولغيرهم النار، فصبغة الله هي صبغة الله لا تتبدل أنزلت على إبراهيم أم على غيره من الأنبياء منه إلى خاتمهم محمد صلى الله عليه وسلم، صورها الله في بيان رفيع و تناسق عجيب، وتتابع لا يملكه، ولا يستطيع وضع حبّاته في عقده إلا رب البشر: يقول تعالى (وقالوا كونوا هودا أو نصارى تهتدوا، قل بل ملة إبراهيم حنيفا وما كان من المشركين) 135 (قولوا آمنا بالله وما أنزل إلينا وما أنزل إلى إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط وما أوتي موسى وعيسى وما أوتي النبيون من ربهم لا نفرق بين أحد منهم ونحن له مسلمون) 136 (فإن آمنوا بمثل ما آمنتم به فقد اهتدوا وإن تولوا فإن هم في شقاق فسيكفيكهم الله وهو السميع العليم) 137 (صبغة الله ومن أحسن من الله صبغة ونحن له عابدون) 138 سورة البقرة.

وقد قال صاحب الميزان في هذا قولا جميلا مفيدا رأيت أن أورده هنا: "...لما حكى ما يأمره به اليهود والنصارى من أتباع مذهبهم ذكر ما هو عنده من الحق

(والحق يقول) وهو الشهادة على الإيمان بالله، والإيمان بما عند الأنبياء من غير فرق بينهم، وهو الإسلام، وخص الإيمان بذكر الله وقدمه وأخرجه بين ما أنزل على الأنبياء لأن الإيمان بالله فطري لا يحتاج إلى بينة النبوة ودليل الرسالة.

ثم ذكر سبحانه ما أنزل إلينا وهو القرآن أو المعارف القرآنية، وما أنزل إلى إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب، ثم ذكر ما أوتي موسى وعيسى وخصهما بالذكر لأن المخاطبة مع اليهود والنصارى، وهم يدعون إليها فقط، ثم ذكر ما أوتي النبيون من ربهم، ليشمل الشهادة جميع الأنبياء فيستقيم قوله بعد ذلك: لا نفرق بين أحد منهم.

مسألة: (ليس البر أن تولوا وجوهكم قبل المشرق والمغرب ولكن البر من آمن بالله واليوم الآخر والملائكة والكتاب والنبيين، وآتى المال على حبه ذوي القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل، والسائلين وفي الرقاب وأقام الصلاة وآتى الزكاة والموفون بعهدهم إذا عاهدوا والصابرين في البأساء والضراء وحين البأس، أولئك الذين صدقوا وأولئك هم المتقون) (البقرة: 177)

في هذه المسألة ثلاث قضايا خلافية[11] الأولى في قوله: (البر) فإن شئت رفعت البر، وإن شئت نصبته[12] فإن رفعت فهي اسم (ليس) وخبرها: (أن تولوا)، وإن نصبت كانت الخبر تقدم على اسمه المصدر المؤول، فيكون المعنى مع النصب[13] ليس توليتكم وجوهكم البر كله، ومع الرفع ليس البر كله توليتكم، والنصب قراءة حفص وحمزة وقراءة الجمهور (باقي القراء) بالرفع[14].

تشير مناسبة[15] هذه الآية إلى أنه كثر الخوض في نسخ فريضة القبلة من بيت المقدس إلى الكعبة المشرفة، وطال الكلام، حتى كأنه صار لا يراعي بطاعة الله إلا التوجه للصلاة، فأنزل الله هذه الآية تبين أنه ليس البر كله في التوجه للصلاة، وإنما هناك وسائل أخر لتحقيق البر، عددها سبحانه وتعالى، ورأسها الصلاة، فإنها عماد الدين، وإن قُبلت نظر في عمل ابن آدم، وإن رُدّت رد.

وقيل في مناسبتها غير ذلك من أن النصارى كانوا يتجهون في صلاتهم نحو المشرق، وكان اليهود يتوجهون نحو المغرب، فيبين الله لهم أن ليس البر في التوجه نحو المشرق أو المغرب، وقيل غير ذلك[16].

ومهما تكن المناسبة – ونحن نأخذ بالرأي الأول– فإن الآية تشير إلى أن البر هنا هو ليس الصلاة من غير عمل، بل هو إيمان في القلب وتصديق بالعمل، يقول ابن عباس[17]: "ليس البر أن تصلوا ولا تعملوا، فهذا منذ تحول من مكة إلى المدينة، ونزلت الفرائض، وحد الحدود، فأمر الله بالفرائض والعمل بها".

ويعود القول في إعراب هذه الجملة إلى سلسلة من القواعد والقوانين النحوية:

إذا اجتمع معرفتان فالمتقدم هو المبتدأ، وهو رأي جمهور النحويين، ولغيرهم رأي آخر باعتماد الأكثر تعريفا للابتداء[18] ، وكان وأخواتها (ومنها ليس) أفعال ناقصة تدخل على الجملة الاسمية فتحولها إلى جملة فعلية وترفع المبتدأ (أو يبقى على حاله كما يرى أهل الكوفة) ويسمى اسمها وتنصب الخبر ويسمى خبرها.

وتقول: هذا الكلام الاعتماد فيه على المبنى كبير، والغاية منه تبرير الحركة الإعرابية، أما جانب المعنى فيه فضعيف إن كان موجودا، فهم يجعلون (ليس) بمنزلة الفعل المتعدي وما يليها بمنزلة فاعلها، وما يليه بمنزلة المفعول به[19] وهذا هو الوجه، فإن توسط الخبر بينها وبين اسمها فهو قليل، وقد ذهب ابن درستوية[20] إلى منعه تشبيها لها بما أراد الحكم عليها بأنها حرف، كما لا يجوز توسيط خبر ما، ورد عليه أبو حيان بقوله: "وهو محجوج بهذه القراءة المتواترة، وبورود ذلك في كلام العرب"[21] ولكنه قال: "والوجه يلي المرفوع".

فالحوار كله كما ترى حول جواز توسط الخبر، وتشبيه (ليس) بالفعل تارة وبالحرف تارة أخرى، وحول رفع اسمها ونصب خبرها... الخ، ولكن أحدا لا يتحدث عن تأثير (ليس) في معنى الجملة، ولا عن معنى الجملة إذا توسط الخبر أو قل قبل توسطه.

والذي نراه: أن (ليس) أداة نفي تدخل على الجملة التوليدية الاسمية فتحولها إلى جملة تحويلية منفية من حيث المعنى، اسمية من حيث المبنى[22] فهي لا تدل على

مسمى لتكون من الأسماء، ولا هي تدل على حدث وزمن لتكون من الأفعال، والاسم ما يدل على مسمى والفعل ما دل على حدث وزمن، والحرف ما ليس كذلك كما يبين سيبويه[23].

وترى أيضا أن المبتدأ هو المسند إليه في الجملة، والخبر هو المسند كما قرر النحاة والبلاغيون بإجماعهم، فالكلمة التي تصلح أن تكون المسند إليه في الجملة هي المبتدأ تقدمت أم تأخرت.

ونرى كذلك أن ما يؤثر على بؤرة الجملة (وهو المبتدأ في الاسمية والفعل في الفعلية) يؤثر على الجملة بكاملها، وما يؤثر على جزئية فيها فتأثيره محصور في تلك الجزئية من حيث الدلالة[24] فيكون تحليل الجملة السابقة كما يلي[25]:

البر أن تولوا وجوهكم..... = (م + خ)

تحولت إلى ليس ⇐ البر أن تولوا وجوهكم..... = (م + خ)

أما الفتحة على (البر) في قراءة، وهي التي منعها ابن درستوية[26] ويرى فيها أبو حيان أن الانصراف إلى غيرها (قراءة الجمهور بالرفع) أولى.

ويقول فيها القرطبي[27]: "ويقوى قراءة الرفع أن الثاني معه الباء إجماعا في قوله: (وليس البر بأن تأتوا البيوت من ظهورها" ولا يجوز فيه إلا الرفع، فحمل الأول على الثاني أولى من مخالفته له، وكذلك هو في مصحف أبي بالباء (ليس البر بأن تولوا) وكذلك في مصحف ابن مسعود أيضا، وعليه أكثر القراء".

قلنا: أما الفتحة فمردها إلى عادة لغوية عند بعض قبائل العرب،و هذا أمر مألوف، فقد ورد عنهم ما رفع فيه الركنان بكان، وما جاء فيه بعدها بالنصب أو الرفع والنصب[28].

أما القضيتان الثانية والثالثة ففي قوله تعالى: (...والموفون ... الصابرين).

فقيل: يكون (الموفون) عطفا على (مَنْ) لأن (مَنْ) في موضع جمع ومحل رفع؛ كأنــه قـــال: ولكن البر المؤمنون والموفون، و(الصابرين) نصب على المدح أو بإضمار فعل، قاله الفراء[29] والأخفش[30].

وقـــال القرطبـــي[31]: "والعرب تنصب على المدح وعلى الذم كأنهم يريدون بذلك إفراد الممدوح والمذموم، ولا يتبعونه أول الكلام، وينصبونه".

وقال الزجاج[32]: "الأجود أن يكون (الموفون) مرفوعا على المدح؛ لأن النعت إذا طال وكثر رفع بعضه ونصب بعضه على المدح، المعنى: هم الموفون بعهدهم.

وجائـــز أن يكون معطوفا على (من)، والمعنى: ولكن البر، وذو البر المؤمنون والموفون بعهدهم"

وقال أيضا[33]: "وفي نصبها (الصابرين) وجهان: أجودهما المدح كما وصفنا في النعـــت إذا طـــال، المعنى: أعني الصابرين، قال بعض النحويين أنه معطوف على ذوي القـــربى، فكأنه قال: وآتى المال على حبه ذوي القربى والصابرين، وهذا لا يصلح إلا أن يكـــون (والموفـــون) رفـــع على المدح للمضمرين، لأن ما في الصلة لا يعطف عليه بعد المعطوف على الموصول".

وقـــد قـــال الكســـائي[34] بالـــرأي القـــائل بعطف (الموفون) على (مَنْ) وعطف (الصـــابرين) على (ذوي القربى)، ولكن النحاس رفض هذا الرأي بل خطأه قائلا: "وهذا القـــول خطأ وغلط بين؛ لأنك إن نصبت (والصابرين) على (ذوي القربى) دخل في صلة (من) من قبل أن تتم الصلة وفرقت بين الصلة والموصول بالمعطوف".

وقـــيل[35]: (الموفـــون) عطف على المضمر الذي في (آمن) و(الصابرين) عطف على ذوي القربى.

وقال أبو جعفر[36]: "يكونان منسوقين على ذوي القربى وعلى المدح"

نقـــول: هـــذه التوجـــيهات والاختلافات منشأها العامل النحوي ومحاولة تبرير الحركة الإعرابية استنادا إلى نظرية العامل وإقامة المبنى من غير اهتمام كبير بالمعنى،

ومـــن غـــير اهتمام بالحقيقة التي تؤكد أن العربي لم يكن يعرف في سليقته في التعبير نســقا ولا فــاعلا ولا مفعولا، ولا تقدير أعني ولا أمدح...... الخ، بل كان ينطق بصوت معيــن معــبرا عن فكرة معينة يغير هذا الصوت ليعبر عن فكرة جديدة في ذهنه نستدل نحــن علــيها بالصــوت الذي عبر العربي به، وهذا الصوت استقر أمر الاصطلاح عليه الحركة الإعرابية (الفتحة والضمة والكسرة والسكون والألف والواو والياء....).

ولــو حاولنا تفسير هذه الآية على ضوء المعنى فإننا سنجد أن علينا أن نبحث لهــذا الاســتعمال القرآنــي عــن نظير في الاستعمال اللغوي عند العرب، ليصب النص القرآني في الاستعمال اللغوي عند العرب، فهو منه في أرفع درجة بيانية.

جاء في شعر العرب[37]:

لا يبعــدن قومــي الذيــــن هـــــم ـــــم العــداة وآفـــة الجــــزر
النازليــــن بــكــل مــعـتـــــرك والطيــبــون معـــاقـــــد الأزر

بنصب النازلين.

وقال آخر (أمية بن عائذ الهذلي):

ويــأوي إلـــى نســـوة بائســـات وشعثــاً مراضيــع مثل السعــالــي

بنصب شعثا.

وقال الشاعر:

وكل قــوم أطاعــوا أمــر مرشدهــم إلا نميــرا أطاعت أمــر غاويــهــا
الظاعنيــن ولما يظعنــوا أحــدا والقــائلــون لمــن دار تُخلّــيــهــا

بنصب الظاعنين.

وقال آخر:

إلى الملك القَــرْم وابــن الهمــــام وليــث الكــتيبـــة في المُزدحَم[38]

وذا الــــرأي حيــن تَعـمّ الأمـــــور ذات الصليــــل وذات اللـــــجـــم

ومنه قول الشاعر:

فليت التي فيهــا النجــوم تواضعــت على كــل غــث منهــم وسميــــن

غيوث الورى في كل محــل وأزمـــة أسود الســـرى يحميــن كــل عريــن

ومـــنه قوله تعالى: (لكن الراسخون في العلم منهم والمؤمنون يؤمنون بما أنزل إليك وما أنزل من قبلك والمقيمين الصلاة والمؤتون الزكاة)(النساء: 162).

وهـنا نقول: إن القول في هذه القضية متصل اتصالا وثيقا بما قلناه في مسألة قولـــه تعالى: (صبغة الله) البقرة: 138، وبيان ما للحركة الإعرابية من قيمة دلالية، فهي تعــد عنصرا من عناصر تحويل الجملة من معنى إلى معنى[39] من غير أن نقرنها بعمل عـــامل، فلم يكن العربي الذي كان يتكلم لغته سليقة يعرف عاملا ولا معمولا -كما ذكرنا سابقا- وإنما كان يعبر عن معنى في نفسه بكيفية نطق يغيرها لتعبر عن معنى آخر في ذهــنه، فنهــتدي نحــن السامعين إلى المعنى في ذهنه بما هو ماثل أمامنا منطوقا (أو مكــتوبا)، فالحــركة هــنا مرتــبطة بمعنى، وإلا لكانت متصلة على نسق واحد بحركة المعطــوف علــيه كمـــا هو مستقر في جل لغة العرب، مرتبطة بمعنى غير المعنى الذي كانت تؤديه الكلمة في الجملة بحركتها الأخرى.

والـــذي نراه أن (الموفون) معطوف على خبر لكن (مَنْ آمن) سواء أكانت هي (من) الخبر قائما برأسه أم أنها سادة مسد المضاف المحذوف على تقدير: ولكن البر بر مـــن آمـــن بالله[40] وكثيرا ما تحذف العرب المضاف وتجعل المضاف إليه يباشر الموقع التركيبـــي والدلالـــي في الجملة، كقوله تعالى: (واسأل القرية) [41] كما يحذفون المنعوت ويحلون النعت محله[42].

فـــتكون بذلك (الموفون) متسقة في المبنى والمعنى مع حركة ما عطفت عليه: (ولكـــن الـــبر مـــن آمـــن بالله واليوم الآخر والملائكة والكتاب والنبيين) وهذا هو رمز العقـــيدة، فلـــيس بمؤمن من لم يؤمن بالله، أو برسوله أو باليوم الآخر، أو بالملائكة أو

بالكتاب أو بالنبيين، فإن حققها الإنسان حقق أركان الإيمان، فينصرف بعدها إلى الخطوة الثانـية ممـا يسـتحث عليه المسلم المؤمن (وآتى المال على حبه) لمن يعطيه؟ فيأتي الإرشـاد القرآني الإلهي: (ذوي القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل والسائلين وفي الـرقاب) وهـذا رمز التصرف السلوكي السليم في ضوء العقيدة السليمة، رمز التصرف نحو الآخرين في مجتمع يعيش فيه هذا الذي آمن بالله...... فصحت عقيدته.

ثم جاء التكليف الثالث المترتب على صلاح العقيدة (وأقام الصلاة وآتى الزكاة) وهـذا رمز التصرف في حقوق الله في أركان الإسلام، فمن صلحت عقيدته فقد وجب أن يكون من عناصر إبراز صلاح العقيدة التصرف السليم نحو حقوق الله وحقوق المجتمع.

ثـم جـاء التكلـيف الـرابع(والموفون بعهدهم إذا عاهدوا) أليست هذه المهام عسـيرة عسـيرة؟! بلى وربي، إنها لغاية في العسر لا تقوى عليها إلا كل نفس صفت وشـفت وأخلصـت النية إلى باريها، بل إن كل بند من بنود كل تكليف يحمل مشقة ليس باليسير أن ينهض به الإنسان إلا بتأييد من المولى عز وجل.

ونحـن نعـرف أن جل المسلمين يعتنقون الإسلام ويقولون: أشهد أن لا إله إلا الله، ولكـنهم لا يتصرفون في ضوئها، فهم يدارون ويمارون ويتهاونون في حدود الله، بـل يكسـرونها سعيا وراء الجاه أو المال أو السلطان، وهم يعلمون أن ذلك لا يتفق مع مقولـتهم أو شهادتهم تلك، يالها من مشقة: إن شهدت أن لا إله إلا الله، فاعلم أن عليك أن تعلـم وأن تتصرف في ضوء ما تعلم: الله وحده الرزاق وهو وحده قاطع الرزق، كما أنـه وحده المنصف، وهو وحده المعطي والسالب لما يعطي،وهو الحاكم وحده فلا الثناء إلا له ولا رضـوخ إلا لعظمـته ولا سـلطان إلا منه ولا قوة إلا به، ولا قضاء حاجة إلا بعونـه وبه ومنه، ولا رزق إلا مما وسع ملكه هو وليس في الرزق ما في يد الآخرين، فهـو الذي يهب ويأخذ، ويعطي ويمنع، ويحيي ويميت ويرفع ويخفض، فإن أعطى لغير عـابد فقد ابتلاه، يمد له مدا، وإن خفض أو حرم عابدا فقد أعطاه أجر الابتلاء، فكل من العطـاء والحـرمان ابـتلاء (فأمـا الإنسان إذا ما ابتلاه ربه فأكرمه ونعمه فيقول ربي

أكرمــن، وأمــا إذا ما ابتلاه فقدر عليه رزقه فيقول ربي أهانن) إنها طبيعة الإنسان (لا يرى الخير إلا في ما ظاهره الخير.......).

هذه واحدة: (وحدانية الله) وما فاتنا الحديث فيها أكبر وأكثر مما ذكرنا.

فمــاذا نقــول عــن التكليف في شهادة: أن محمدا رسول الله، من التصديق به والتصــديق بما جاء به وتصديقه وتصديق كل كلمة علمها عن ربه أو نطقها في حديثه الشــريف، والتصــديق يقتضــي العمل، أليست هذه مهمة عسيرة؟، حقا عسيرة، أليست مهمــة لــم يتمكــن حتى أصحابه عليه وعلى آله أفضل الصلاة من القيام بها كما يجب فانقلبوا على أعقابهم خاسرين، جاء في صحيح البخاري، في باب الحوض وهو في آخر كــتاب الــرقاق ص94 من الجزء الرابع بإسناد إلى أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم:

"بيــنما أنا قائم فإذا زمرة حتى عرفتهم خرج رجل بيني وبينهم، قال: هلم، قلت أين؟.

قــال: إلــى الــنار والله، قلت: وما شأنهم؟ قال: إنهم ارتدوا بعدك على أدبارهم القهقرى، ثم إذا زمرة حتى إذا عرفتهم خرج رجل من بيني وبينهم، قال: هلم، قلت: إلى أيــن؟ قــال إلــى النار والله، قلت وما شأنهم؟ قال: إنهم ارتدوا بعدك القهقري، فلا أرى يخلص منهم إلا مثل همل النعم".

وجــاء في صحيح البخاري أيضا في الباب ذاته عن أسماء بنت أبي بكر، قالت: قــال النبــي صــلى الله علــيه وسلم: "إني على الحوض حتى أنظر من يرد عليّ منكم، وســيؤخذ نــاس دونــي، فأقول: يا رب،مني ومن أمتي!!، فيقال: هل شعرت ما عملوا بعــدك؟ والله مــا برحوا يرجعون على أعقابهم، فكان ابن مليكة يقول: اللهم إنا نعوذ بك أن نرجع على أعقابنا أو نفتن عن ديننا".

وأخــرج فــي الباب نفسه أيضا عن ابن المسيب أنه كان يحدث النبي صلى الله علــيه وســلم قــال: "يرد على الحوض رجال من أصحابي فيحلأون عنه، فأقول يا رب، أصحابي!!! فيقول: إنك لا علم لك بما أحدثوا بعدك، إنهم ارتدوا على أعقابهم القهقرى".

يجدون سبيلا لصرف أموالهم في غير قلائد الحسان في سهرات يضرب فيها الدف ويدار فيها الشراب وترقص فيها الغانيات (الفنانات)؟!!!.

فكيف لو تحدثنا عن العهد ونقضه والوفاء به، فلو تحدثنا عن العهود التي حصلت زمن رسول الله صلى الله عليه وسلم وحدها وما جرى عليها لطال بنا الحديث ولاحتاج الأمر إلى مئات الصفحات، ويكفي أن نذكّر بقوله صلى الله عليه وسلم: "فمن أعطى عهد الله ثم نقضه فالله ينتقم منه، ومن أعطى ذمة النبي ثم غدر بها فالنبي خصمه يوم القيامة"[43].

ويكفي أن نقول في عسر تحقيق البر الذي جاء في هذه الآية (ولكن البر......) إن جل المفسرين ذهبوا إلى أن هذه صفات الأنبياء[44] فهم وحدهم الذين يستطيعون تحقيق هذه الصفات، ومنهم من قال بأن المقصود بهذه الآية هو الإمام علي بن أبي طالب[45] ؛ وقال الزجاج والفراء: "هذه الآية تتناول الأنبياء المعصومين لأنهم الذين يجمعون هذه الصفات" وجاء في الدر المنثور[46] "من عمل بهذه الآية فقد استكمل الإيمان".

ألا يستحق هذا كله الصبر، الصبر عليه والصبر لتحقيقه، والصبر على ما يسببه، والصبر ... "والصبر في الإسلام رمز كبير، وأمر عظيم: للوصول إلى الغاية.... للوصول إلى مرضاة الله ورضاه، ولتحقيق أوامر الله واجتناب نواهيه... (اصبروا وصابروا ورابطوا واتقوا الله لعلكم تفلحون)، (والعصر إن الإنسان لفي خسر إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وتواصوا بالحق وتواصوا بالصبر).

ألا يستحق الصبر أن ينفرد بحركة تخالف حركة النسق، والتغيير في الحركة الإعرابية عنصر من عناصر التحويل في المعنى[47] ، وهنا تتضح دلالة نصب (الصابرين) تعظيما وإكبارا وتقديرا ومدحا....الخ.

أليس هذا هو الاتساق مع ما نطقت به العرب سجية من غير معرفة بأبواب النحو التي تعرف، ومن غير معرفة بعامل أو معمول، أليس في ذلك إغلاق باب الغث من الكلام الذي قيل في حق القرآن الكريم مما لا يليق بعظمته وعزته، جاء في تفسير

القرطبي نص اقتبسه هنا لأبين خطورة الجري وراء تعدد وجوه الإعراب من غير تفكير فيما يجره من ويلات على المعنى، فتأمله، يقول القرطبي[48]: "وقال بعض من تعسف في كلامه: إن هذا غلط من الكتاب حين كتبوا مصحف الإمام، قال: والدليل على ذلك ما روي عن عثمان أنه نظر في المصحف فقال: أرى فيه لحنا وستقيمه العرب بألسنتها، وهكذا قال في سورة النساء (والمقيمين الصلاة) وفي سورة المائدة (والصابئون)".

مسألة:

(سل بني إسرائيل كم آتيناهم من آية بينة ومن يبدل نعمة الله من بعد ما جاءته، فإن الله شديد العقاب) (البقرة:211)

اختلف النحاة في موضع (كم) من الإعراب[49] ، فقيل في موضع نصب على أنها مفعول ثان لآتيناهم، وهذا مذهب الجمهور[50] أو على مذهب السهيلي.

وقيل: في موضع نصب على إضمار فعل يفسره ما بعده وهذا رأي ابن عطية[51] ، جعل ذلك من باب الاشتغال، فقيل[52]: كم في موضع نصب إما بفعل مضمر بعدها لأن لها صدر الكلام، وتقديره كم آتيناهم، أو بآتيناهم".

ورد عليه أبو حيان قائلا[53]: "وهذا غير جائز إن كان قوله (من آية) تمييزا لكم؛ لأن الفعل المفسر لهذا الفعل المحذوف لم يعمل في ضمير الاسم الأول المنتصب بالفعل المحذوف ولا في سببيته، وإذا كان كذلك لم يجز أن يكون من باب الاشتغال".

ونحن نوافق أبا حيان في الحكم وإن كنا نختلف معه في التعليل كما سيأتي، وأجاز ابن عطية وغيره[54] أن تكون (كم) في موضع رفع بالابتداء، والجملة من قوله (آتيناهم) في موضع الخبر والعائد محذوف، التقدير: آتيناهموه، قال أبو حيان[55]: "وهذا لا يجوز عند البصريين إلا في الشعر، وعند الكوفيين لم يجز إلا في الاضطرار" وزاد القرطبي[56] "ولم يعرب" وهي اسم لأنها بمنزلة الحروف لما وقع فيه معنى الاستفهام، وإذا فرقت بين كم وبين الاسم، كان الاختيار أن تأتي بمن كما في هذه الآية، فإن حذفتها نصبت في الاستفهام والخبر، ويجوز الخفض في الخبر كما قال الشاعر:

كـــم بجـــودٍ مقـــرف نـــال العـــلا

وكريـــــم بخلــــه قــــد وضـعــــه

ونســـأل: مـــا الميزان الذي اعتمده القرطبي وغيره في اسمية (كم) هذه، أتشير إلـــى مصـــمى كمـــا جـــاء في حد الاسم عند سيبويه إنه يدل على مسمى كرجل وفرس وحائط؟!، أم أنها تقبل علامات الاسمية كما وردت عند ابن مالك:

بـــالجـــر والـــتنويـــن والـــنـــدا وال

ومسنـــد للاســـم تمـــييـــز حصـــل

ونســـأل أيضا: أين يكمن معنى الاستفهام في موضعي الاستشهاد عند القرطبي (الآيـــة وبيت الشعر)؟ أفيهما استفهام أم أنهما خبريتان تقريريتان؟! أليس في إدخالهما فـــي الاســـتفهام إفساد واضح للمعنى خدمة لمبنى (كم) الذي ألفنا وجوده في الاستفهام فأخذنا نؤول كل شيء لخدمة هذا الوجه، فإن كانت للاستفهام حقا فما الجواب المتوقع، فكل سؤال يحتاج إلى جواب، وهل هذا سؤال بحاجة إلى جواب؟!!.

يقـــول أبو حيان[58]: "ورُجْحانه هو أن تكون (كم) في موضع نصب على ما ذكر في البداية، و(كم) هنا استفهامية ومعناها التقرير لا حقيقة الاستفهام".

أليس هذا بغريب أن يقوله أبو حيان بخاصة، وهو الطود الشامخ في علم النحو والمعنى والتفسير؟!! وقد رتب على تعدد الآراء السابقة قول في (من آية).

فقـــيل هي تمييز لكم، ويجوز دخول من على تمييز الاستفهامية والخبرية سواء وليها أو فصل بينهما بجملة وبظرف ومجرور[59].

وقـــيل: هـــي مفعـــول ثان لآتيناهم وذلك على التقدير الذي ذهب إليه من جواز نصب (كم) بفعل محذوف يفسره آتيناهم[60].

وعلـــى التقدير الذي قدره صاحب البحر[61] من أن (كم) تكون كناية عن قوم أو جماعـــة، وحـــذف تميـــيزها لفهم المعنى، فإذا كان كذلك، فإن (كم) خبرية فلا يجوز أن تكـــون (من آية) مفعولا ثانيا لأن زيادة (من) لا تكون في الإيجاب على مذهب البصريين

غــير الأخفـــش، وإن كانت استفهامية فيمكن أن يقال يجوز ذلك فيه لانسحاب الاستفهام على ما قبله، وفيه بعد؛ لأن متعلق الاستفهام هو المفعول الأول لا الثاني.

فانظـــر بـــالله ماذا ترى غير مجموعة من أقوال الرفض المتعددة على الصنعة النحوية وتبرير القبول وعدمه بالتعلق والعامل، أما نصيب المعنى فلا قيمة له، ولا عبرة لكون (كم) استفهامية أو خبرية، ولا فرق بين أن تكون (من آية) في موضع التمييز أو تكون في موضع المفعول به؟!.

يقـــول الطـــبري[62]: "يعنـــي بذلك جل ثناؤه: سل يا محمد بني إسرائيل الذين لا ينـــتظرون بالإنابـــة إلى طاعتي والتوبة إلي بالإقرار بنبوتك وتصديقك فيما جئتم به من عـــندي، إلا أن آتـــيهم فـــي ظلل من الغمام وملائكتي.......... (وقد) آتاهم الله آيات بيـــنات: عصـــا موسى ويده، وأقطعهم البحر وأغرق عدوهم وهم ينظرون، وظلل عليهم الغمـــام، وأنـــزل علـــيهم المن والسلوى، وذلك من آيات الله التي آتاها بني إسرائيل في آيـــات كثـــيرة غـــيرها، خـــالفوا معها أمر الله، فقتلوا أنبياء الله ورسله، وبدلوا عهده ووصيته إليهم".

إذاً فالآيـــة تتعلق بكثرة البينات التي قدمها الله لبني إسرائيل، ولكنهم ما يزالوا يـــناورون ويكذبون، ويضعون العراقيل في سبيل من يعتزم الإيمان برسول الله صلى الله علـــيه وســـلم بطلب المزيد من البينات، فجاء الرد من جنس الحديث، وكأنه يقول لهم: وهـــل السـّــر فـــي تبديل نعمة وتحريفها أنكم تفتقرون إلى الأدلة والبينات؟!! فعندكم من البيـــنات كثير كثير، فترى أن (كم) هنا هي كم الخبرية التي تفيد الكثرة أو التكثير، وهي ليســـت باسم ولا فعل، شأنها في ذلك شأن كم الاستفهامية، فكل منهم عنصر يضاف إلى الجملـــة ليفيد معنى جديداً، وينقلها من بعدها الدلالي الأول إلى بعد دلالي آخر، فهي أداة لها دور دلالي كما يلي:

(سل بني إسرائيل كم آتيناهم من آية بينة)

===> آتينا بني إسرائيل آيات بينات

= ف + فا + مف + 1 (متلازمان) + مف 2 (متلازمان)

===> كم آتينا بني إسرائيل آيات بينات.

= عنصر تكثير + ف + فا + مف 1 + مف2

===> كم آتينا بني إسرائيل من آية بينة.

= عنصر تكثير + ف + مف 1 (متلازمان) + 7 (مف 2 متلازمان).

مسألة:

(ولا تجعلــوا الله عرضـــة لأيمانكم أن تبروا وتتقوا وتصلحوا بين الناس والله سميع عليم) (البقرة: 224)

اختلف النحاة في موقع (أن تبروا) من الإعراب ، ترتب عليه اختلاف في تفسير الآية على وجوه[63].

قال الزجاج[64] وتبعه التبريزي[65] (أن تبروا) في موضع رفع بالابتداء والمعنى بركم وتقواكم وإصلاحكم أمثل وأولى، وقدم التبريزي خبر المبتدأ المحذوف بأن المعنى: "أن تبروا وتتقوا وتصلحوا بين الناس خير لكم من أن تجعلوا الله عرضة لأيمانكم".

قـــال أبو حيان[66]: "وما ذهب إليه التبريزي والزجاج ضعيف؛ لأن فيه اقتطاع أن تبروا مما قبله، والظلم هو اتصاله به ولأن فيه حذفا لا دليل عليه".

ولكـــن ما ذكره الزجاج في معانيه غير ذلك[67]: "موضع أن نصب بمعنى عرضة؛ المعنى لا تعرضوا باليمين بالله في أن تبروا، فلما سقطت (في) أفضى لمعنى الاعتراض، فنصب أن...... والنصب في (أن) في هذا الموضع هو الاختيار عند جميع النحويين".

وهـــذا الوجـــه (النصـــب) هـــو اختيار سيبويه[68] "وأكثر النحويين أن موضعه النصب؛ لأنه لما حذف المضاف وصل الفعل وهو القياس".

قال الزمخشري[70]: "أن تبروا وتتقوا وتصلحوا" عطف بيان لأيمانكم؛ أي للأمور المحلوف عليها التي هي البر والتقوى والإصلاح بين الناس".

قال أبو حيان[71]: "وهو ضعيف؛ لأن فيه مخالفة للظاهر؛ لأن الظاهر من الإيمان هـــي الأقســـام والبر والتقوى والإصلاح هي المقسم عليها، فهم متباينان، فلا يجوز أن يكـــون عطف بيان على الإيمان، لكنه لما تأول الإيمان بالأشياء المحلوف عليها ساغ له ذلـــك، وقـــد بيـــن لـــنا المعنى أنه لا حاجة تدعونا إلى تأويل الإيمان بالأشياء المحلوف علـــيها، وعلى مذهبه تكون (تبروا) في موضع جر، ولو ادعى أن يكون تبروا وما بعده بدلا من إيمانكم لكان أولى؛ لأن عطف البيان أكثر ما يكون في الإعلام".

وقـــيل[72]: (أن تبروا) في موضع المفعول من أجله، ولكن القائلين بهذا اختلفوا فـــي التقدير، فقيل: كراهة أن تبروا، وهذا رأي الكوفيين[72] ، وقيل: لترك أن تبروا، قاله المبرد[73] ، وقيل لأن لا تبروا ولا تتقوا ولا تصلحوا، قاله أبو عبيده والطبري[74] ، وقيل: إرادة أن تـــبروا[75] ، وروي هـــذا المعـــنى عن ابن عباس ومجاهد وعطاء وابن جريج وقـــتادة وإبراهـــيم والضحاك والسجي ومقاتل والفراء وابن قتيبة والزجاج في آخر من روي عـــنهم أن المعـــنى: لا تحلفوا بالله أن لا تبروا، فتعلق بقوله: ولا تجعلوا، قال أبو حـــيان: "ولا يظهـــر هـــذا المعنى لما فيه من تعليل امتناع الحلف بانتفاء البر، بل وقوع الحلف معلل بانتفاء البر، فينعقد منه شرط وجزاء لو قلت في معنى هذا النهي وعلته إن حلفـــت بـــالله بـــررت لم يصح، فلا يترتب على الامتناع من الحلف انتفاء البر، ولا على وجـــوده وجـــوده، بـــل يترتب على الامتناع من الحلف وجود البر، وعلى وقوع الحلف انتفاء البر.

وهـــذا الـــذي ذكرناه يؤيد القول بأن التقدير: إرادة أن تبروا؛ لأنه يعلل الامتناع من الحلف بإرادة وجود البر، وينعقد منه الشرط والجزاء".

وقـــيل: إن المعـــنى فـــي الآيـــة إنما نهيكم عن هذا لما في توقي ذلك من البر والـــتقوى والإصلاح، فتكونوا –معاشر المؤمنين– بررة أتقياء، أورده أبو حيان[76]. وقد جعـــل الزمخشـــري تعلـــق الـــلام في لأيمانكم بالفعل فقال[77]: "فإن قلت: بم تعلقت اللام لأيمـــانكم؟ قلـــت بـــالفعل؛ أي لا تجعلـــوا الله لأيمانكم برزخا ومجازا، ويجوز أن يتعلق

بعرضة لما فيها من معنى الاعتراض؛ بمعنى لا تجعلوا شيئا يعترض البر، من اعترضني كذا".

وقال أبو حيان[78] ردا على الزمخشري: "ولا يصح هذا التقدير؛ لأن فيه فصلا بين العامل والمعمول بأجنبي؛ لأنه علق (لأيمانكم) بتجعلوا، وعلق (أن تبروا) بعرضة، لا يجوز فقد فصل بين (عرضة) وبين (لأن تبروا) بقوله (لأيمانكم) وهو أجنبي وهذا لا يجوز".

وقيل[79]: "أن (أن تبروا) في موضع نصب على إسقاط الخافض والعامل فيه قوله (لأيمانكم)، التقدير: لإقسامكم على أن تبروا، فنهوا عن ابتذال اسم الله تعالى وجعله معرضا لأقسامهم على البر والتقوى والإصلاح اللاتي هن أوصاف جميلة لما نخاف في ذلك من الحنث، فكيف إذا كانت أقساما على ما تنافي البر والتقوى والإصلاح، قال أبو حيان[80]: "وعلى هذا يكون الكلام منتظما واقعا كل لفظ منه مكانه الذي يليق به".

وخلاصة القول إن في موضع أن (تبروا) ثلاثة أقوال: الرفع على الابتداء، والخلاف في تقدير الجر، والجر على وجهين عطف البيان والبدل، والنصب على وجهين: إما على المفعول من أجله على اختلاف في تقديره، وإما على أن يكون معمولا لأيمانكم على إسقاط الخافض[81].

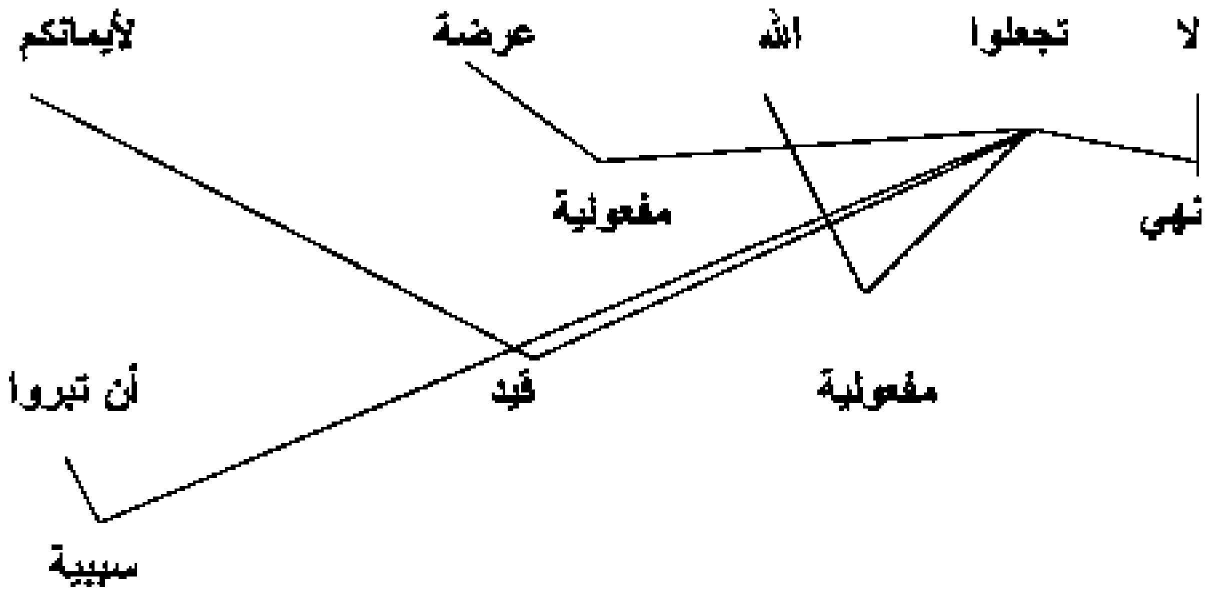
قال النيسابوري في أسباب نزول هذه الآية[82]: نزلت في عبد الله بن رواحة ينهاه عن قطيعة ختنه بشر بن النعمان، وذلك أن ابن رواحة حلف أن لا يدخل عليه أبدا ولا يكلمه ولا يصلح بينه وبين امرأته، ويقول: قد حلفت بالله أن لا أفعل، ولا يحل إلا أن أبر في يميني، فأنزل هذه الآية".

وخلاصة ما جاء في هذه الآية في ما ورد عند الطبري[83]: "أنها نهي للرجل يحلف على ما لا يصلح، وفي عمله قطيعة وعدم تقوى وعدم إصلاح، وعليه إن فعل أن يكفّر عن يمينه وأن يفعل الذي هو خير".

نقول: إن القول بوجه الرفع لا يستقيم المعنى معه: بركم وتقواكم وإصلاحكم أولى...، ففيه تقدير لا يحتاجه التركيب ولا يقتضيه المعنى، وفيه فصل بين الجملة: ولا

تجعلــوا الله عرضـــة لأيمانكم ومقتضاها، والقول بالجر مردود أيضا، فهو إما على البدل وهذا فساده بين، فالبدل يحل محل المبدل منه، فإن حصل ذلك فسد المعنى كليا، وإن كان على عطف البيان فالقول فيها لا يختلف كثيرا عما قاله أبو حيان في رده، بالإضافة إلى ما قلناه في البدل.

أما النصب على المفعول من أجله فهو الوجه – في ما نرى– وعلى تقدير: من أجــل أن تــبروا، فمناســبة الآيــة واضحة الدلالة فهي نهي من يتخذ من اليمين سبيلا للإقلاع عن عمل البر، فتكون العلاقة الدلالية كما يلي:



الهوامش

1- انظــر: الطــبري 570/1، القرطبي 144/2، معاني الزجاج 215/1، الكشاف 316/1، معانــي الفراء 82/1، البحر المحيط 411/1، الميزان 310/1، تبيان الطوسي 485/1، مجمع البيان 407/1، وانظر شرح المفصل 11/1.

2- الطبري 570/1.

3- معاني الفراء 83/1.

4- معاني الأخفش 150/1، القرطبي 144/2.

5- البحر 411/1 –412.

6- القرطبي 144/2.

7- البحر 412/1.

8- البحر 412/1، القرطبي 144/2.

9- انظر خليل عمايره: في نحو اللغة وتراكيبها، الفصل الثالث.

10- وقــد فصــلنا القول فيها في الفصل الثالث من كتابنا في نحو اللغة وتراكيبها،، وانظر الكتاب: 255/1 وما بعدها، شرح المفصل: 92/2، شرح ابن عقيل: 299/3، الإنصاف في مسائل الخلاف مسألة- الهمع: 170/1، ابن الناظم ص 235.

11- انظر في هذه المسألة: معاني.

12- الفراء 103/1ـ104.

13- وانظر معاني الزجاج: 246/1.

14- القرطبي: 238/2، مجمع البيان: 473/1، وتبيان الطوسي: 94/2.

15- وانظر الطبري: 894/2، والدر امنثور: 410/1 ـ 417، تبيان الطوسي:94/2 ـ 95، الميزان 428/1.

16- وانظر الطبري: 94/2.

17- السابق.

18- انظر الهمع: 28/2، شرح المفصل: 98/1، والمغني: 588.

19- وانظر البحر المحيط: 2/2.

20- السابق.

21- السابق.

22- وانظر خليل عمايره: أسلوبا النفي، والاستفهام في اللغة العربية.

23- الكتاب: 12/1.

24- وانظر خليل عمايره: في نحو اللغة وتراكيبها، الفصل الثالث.

25- م = مبتدأ، خ = خبر، ن = عنصر نفي.

26- البحر المحيط: 2/2، وانظر الكشاف: 330/1 ـ 331.

27- القرطبي: 238/2، وانظر البيان: 140/1.

28- الهمع: 64/1.

29- معاني الفراء: 105/1 ـ 108، وانظر في المسألة مجاز القرآن: 65/1 ـ 66.

30- القرطبي: 239/2.

31- السابق.

32- معاني الزجاج: 247/1.

33- السابق.

34- إعراب النحاس: 231/1 ـ 232.

35- السابق: 323/1.

36- السابق.

37- وانظر الكتاب: 202/1، معاني الفراء: 107/1 ـ 108، القرطبي: 239/2، الطبري: 2/100، الإنصاف ص 189، الخزانة: 414/4، إعراب النحاس: 231/1 ـ 232.

38- وفي هذين البيتين أقوال، انظرها في هامش الطبري: 100/2.

39- وانظر: خليل عمايره في نحو اللغة، وتراكيبها، الفصل الثالث.

40- وانظر: القرطبي: 138/2، تبيان الطوسي: 95/2.

41- وانظر شرح المفصل: 23/3.

42- وانظر شرح ابن الناظم ص195.

43- الدر المنثور: 417/1.

44- انظر معاني الفراء: 104/1، ومعاني الزجاج: 346/1.

45- وانظر تبيان الطوسي: 99/2.

46- الدر المنثور: 417/1.

47- وانظر خليل عمايره: في نحو اللغة وتراكيبها، الفصل الثالث.

48- القرطبي: 240/2، وانظر الكشاف، وأبو حيان والألوسي فقد ناقشوا هذا القول الكاذب المنسوب في تفسيرهم آية النساء 162.

49- انظر في هذه المسألة: الطبري: 332/2، القرطبي: 27/3، الفراء: 125/1، مشكل إعراب القرآن: 125/1، معاني الزجاج: 280/1، الدر المنثور: 581/1، البحر المحيط: 126/2، تبيان الطوسي: 190/2، مجمع البيان: 539/2، الميزان: 110/2، الكشاف: 354/1.

50- البحر: 126/2.

51- السابق.

52- السابق.

53- السابق.

54- البحر: 126/2، القرطبي: 27/3.

55- البحر 126/2، وانظر: القرطبي: 27/3، الكشاف: 354/1.

56- القرطبي: 27/3.

57- الكتاب: 12/1.

58- البحر: 126/2.

59- وانظر القرطبي: 27/3، والبحر المحيط: 127/2.

60- البحر: 127/2.

61- السابق.

62- الطبري: 332/2، وانظر تبيان الطوسي: 190/2.

63- انظر هذه المسألة: معاني القراء: 144/1، الطبري: 399/2، معاني الزجاج: 298/1، القرطبي: 97/3، المشكل: 130/1، إعراب النحاس: 262/1، البيان: 155/1، الكشاف: 362/1، البحر المحيط: 177/2، الدر المنثور: 642/1، الإملاء: 94/1، أسباب النزول: 54، الميزان: 222/2، مجمع البيان: 566/2، تبيان الطوسي: 225/2.

64- معاني الزجاج: 298/2.

65- البحر المحيط: 177/2.

66- البحر: 177/2.

67- معاني الزجاج: 298/1 ـ 299.

68- الكتاب.

69- الطوسي: 227/2.

70- الكشاف: 363/1.

71- البحر: 177/2.

72- إملاء ما من به الرحمن: 94/1 ـ 95، البحر: 178/2.

73- المقتضب، البحر المحيط: 178/2.

74- الطبري: 412/2.

75- البحر: 178/2.

76- البحر: 178/2.

77- الكشاف: 362/1 ـ 363.

78- البحر: 178/2.

79- السابق.

80- السابق.

81- البيان: 155/1.

82- أسباب النزول: 54.

83- الطبري: 400/2 ـ 403.

قائمة بأهم المصادر والمراجع

1- القرآن الكريم.

2- الأزهية في علم الحروف- علي بن محمد الهروي، ت عبد المعين الملوحي، مجمع اللغة العربية - دمشق 1982.

3- أسلوب التوكيد في اللغة العربية، خليل عمايره - دار الفكر الإسلامي- عمان- الأردن.

4- أسلوبا النفي والاستفهام في اللغة العربية، خليل عمايره -دارا لفكر الإسلامي عمان- الأردن.

5- أسباب النزول - للوحداوي النيسابوري، دار الكتاب الجديد - 1341هـ.

6- إعراب القرآن أبو جعفر النحاس، ت: زهير زاهر، مطبعة الأماني، بغداد 1977.

7- الإنصاف في مسائل الخلاف بين النحويين البصريين والكوفيين، أبو البركات الأنباري، ـ: محمد محي الدين عبد الحميد- مطبعة السعادة، والمكتبة التجارية الكبرى.

8- إملاء ما من به الرحمن، أبو البقاء العكبري -مطبعة الحلبي- القاهرة.

9- البحر المحيط- أبو حيان الأندلسي، مطبعة السعادة -مصر، ودار الفكر، 1983.

10- تأويل مشكل القرآن- ابن قتيبة، ت السيد أحمد صقر، مطبعة عيسى البابي الحلبي- مصر 1954.

11- التبيان في إعراب القرآن، العكبري، ت علي البجاوي، مطبعة عيسى الحلبي 1976.

12- التبيان في تفسير القرآن، أبو جعفر محمد بن الحسن الطوسي، دار إحياء التراث العربي، بيروت 1963.

13- التبين عن مذاهب النحويين- البصريين والكوفيين أبو ابقاء العكبري، ت عبد الرحمن العثيمين، دار الغرب الإسلامي، بيروت 1986.

14- تفسـير القرطبـي، محمد بن حمد الأنصاري: (الجامع لأحكام القرآن) مؤسسة مناهل العرفان، بيروت 1990.

15- تفسـير الطـبري: جـامع البيان عن تأويل مشكل آي القرآن، مطبعة مصطفى البابي الحلبي، 1953.

16- التلخيص في علوم البلاغة، الخطيب القزويني، ضبطه وشرحه عبد الرحمن البرقوقي، دار الكتاب العربي، بيروت 1982.

17- توضـيح المقاصد والمسالك بشرح ألفية ابن مالك، لابن أم قاسم المرادي، ت علي بن سلطان الحكمي، 1985،ط2، مكتبة الكليات الأزهرية.

18- الجنى الداني في حروف المعاني، لابن أم القاسم المرادي، ت فخر الدين قباوة وآخر، دار الآفاق الجديدة، بيروت 1983.

19- حجة القراءات، لابن أبي زنجلة، ت سعيد الأفغاني، مؤسسة الرسالة، بيروت 1982.

20- خـزانة الأدب ولـب لباب لسان العرب، عبد القاهر البغدادي، ت عبد السلام هارون، وطبعة بولاق المصورة.

21- الخصائص، أبو الفتح عثمان بن جني، ت محمد النجار، دار الكتب المصرية- القاهرة 1953.

22- الـدر المنثور في تفسير القرآن بالمأثور، جلال الدين السيوطي، مطبعة الحلبي 1314 هـ

23- دلائل الإعجاز: عبد القاهر الجرجاني، دار المعرفة، بيروت 1978.

24- رأي في اسم الإشارة في مبناه ومعناه، خليل عمايره، المجلة الدولية للتواصل اللساني المغرب العربي، عدد، 1991.

25- روح المعاني، للآلوسي، ت طه الزيني، دار الزيني للطبع والنشر.

26- كتاب السبعة في القراءات، لابن مجاهد، ت شوقي ضيف، دار المعارف- مصر.

27- شرح ألفية ابن مالك، لابن الناظم، ت عبد الحميد السيد محمد عبد الحميد، دار الجليل، بيروت.

28- شـــرح الشواهد الكبرى، للعيني، مطبوع على هامش طبعة بولاق المصورة من خزانة الأدب.

29- شرح المفصل، موفق الدين بن يعيش، عالم الكتب- بيروت.

30- الضـــمير العـــائد ولغـــة أكلونـــي البراغيث، خليل عمايره، مجلة كلية الآداب، جامعة الإمارات عدد، 1991.

31- في التحليل اللغوي، خليل عمايره، دار المنار، الزرقاء، الأردن 1987.

32- في نحو اللغة وتراكيبها، خليل عمايره، عالم المعرفة، جدة، السعودية 1984.

33- القـيمة الدلالــية للاسم الموصول في التركيب الجملي، خليل عمايره، المجلة العالمية للدراسات العربية والاسلامية، أمريكا 1991، عدد

34- الكتاب، سيبويه، طبعة بولاق سنة 1316 هـ، وطبعة عبد السلام هارون، عالم الكتب بيروت 1986.

35- الكشاف، الزمخشري، ط الاستقامة 1953

36- لسان العرب- ابن منظور- دار صادر- بيروت.

37- مجـــاز القـــرآن – أبـــو عبيدة، تحقيق محمد فؤاد سزكين، مطبعة الخانجي- القاهرة 1954م.

38- مجمـــع البـــيان في تفسير القرآن، للفضل بن الحسن الطبرسي، دار المعرفة، بيروت 1986.

39- المسائل الغريبة في النحو، ابن هشام، ت علي البواب، دار طيبة، الرياض.

40- المساعد في تسهيل الفوائد، بهاء الدين بن عقيل، ت محمد كامل بركات، مركز البحث العلمي وإحياء التراث الإسلامي، مكة المكرمة، 1980.

41- معاني القرآن –للأخفش، ت فايز فارس، دار البشير، عمان، 1981.

42- معاني القرآن وإعرابه للزجاج، ت عبد الجليل شلبي، عالم الكتب، بيروت 1988.

43- معانــي القــرآن، الفــراء، ت أحمد يوسف نجاتي ومحمد النجار، دار الكتب المصرية 1955.

44- مغنــي اللبيــب عــن كتب الأعاريب، ابن هشام، ت مازن المبارك، دار الفكر، بيروت 1983 وت محمد محي الدين عبد الحميد.

45- المقتضب- المبرد، ت محمد عبد الخالق عضيمة، عالم الكتب، بيروت.

46- الملخــص فــي ضــبط قوانين العربية، لابن أبي الربيع، ت علي بن سلطان الحكمي، 1985.

47- المــيزان فــي تفسير القرآن، محمد حسين الطباطبائي، مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، بيروت 1937.

48- النشــر فــي القراءات العشر، لابن الجزري،مراجعة علي الضباع، دار الكتب العلمية بيروت.

49- نهــج الــبلاغة، للإمــام علي بن أبي طالب، شرح ابن أبي الحديد، دار إحياء التراث العربي بيروت -لبنان.

50- همــع الهوامــع، شــرح جمع الجوامع في علم اللغة العربية، جلال الدين السيوطي، مطــبعة السعادة، مصر 1327هـــ، وت عبد العال مكرم، دار البحوث العلمية، الكويت، 1979.

إعراب المعنى ومعنى الإعراب في نماذج من القرآن الكريم

إعراب المعنى ومعنى الإعراب

في نماذج من القرآن الكريم*

لســـنا هنا بالمعنيين بالحديث عن نظريات المعنى: النظرية الإشارية، أو النظرية الفكــرية، أو نظرية المنبه والاستجابة، أو النظرية الاسمية في المعنى، ولا بالحديث عن آراء العلمـــاء الذيـــن بحثوا في المعنى قديما وحديثا، فقد شغل المعنى العلماء منذ زمن بعيد، قد لا يقل عمقه في التاريخ عن عمق اهتداء الإنسان إلى التفكير والتعبير عن هذه التفكــير بلغة، وما محاولة حصر نظريات المعنى في عدد محدود، مثلا: نظرية أفلاطون وأن المعانـــي هي المثل الخالدة، ونظرية لوك في أن المعاني هي ما تدل عليه الكلمات مـــن أفكـــار، والنظرية الاسمية التي ترى أن المعاني هي ما تحمله الكلمات أسماء لها، ونظـــرية فجنشتاين التي تذهب إلى أن المعنى هو استخدام اللفظة في بيئتها الاجتماعية اللغوية، والنظرية السلوكية التي تربط المعنى بالاستجابة المنطوقة لمنبه أو مثير..إلخ، قلنا ما محاولة حصر نظريات المعنى في عدد محدود إلا من قبيل الحصر الكلي لأغراض تعليمية أكثر منها لأغراض البحث العلمي الذي يرى أن الفلاسفة والعلماء كان لكل منهم آراؤه التـــي تســـوغ أن يعـد صاحب نظرية في المعنى تحتاج إلى بحوث لتفصيل القول فيها.

ولكنـــنا معنـــيون في هذا البحث بالوقوف قليلا مع مقولة طالما رددها كثير من علمـــاء اللغـــة العربـــية: القدمـــاء والمحدثين، تنص على أن "الإعراب فرع المعنى"، لا إعراب، في ما نفهمه منها، إلا بعد فهم المعنى، إذ أن الأصل هو المعنى، وبه أو له يتم توجـــيه الفرع وهو الإعراب، فالإعراب إبانة عن إبانة، وتكون الإبانة الأولى للفظة في إطـــار وحدتهـــا الدلالية (الجملة) بحسب ترابطها مع بقية ألفاظ هذه الوحدة، فهي تعبير حسي منطوق يجسد بعدا دلاليا يتم لها بارتباطها في دائرتها الدلالية، أو بارتباط دائرتها

---

* مجلة التواصل اللساني ــ المجلد الرابع ــ العدد الأول ــ مارس 1992م.

الدلالية بدائرة الوحدة الحسية التي تجاورها، وبارتباط دوائر الوحدات كلها ببؤرة الوحدة الدلالية الأم (الجملة)، فستكون الإبانة الثانية (الإعراب فرع) توجيها للممثل الصرفي، لتقويمه وتحديد استقامته على خطه، ممثلا لباب نحوي يأخذ حركة إعرابية وسمه بها نحاة العربية على ضوء نظرية أسماها العلماء، "نظرية العامل". ولكن جهودهم قد انصرفت إلى حد كبير لمتابعة هذا الفرع وما ترتب عليه وعلى التخريج على ضوئه، عن الأصل وتحديد دائرة هذا المبنى ونوع ارتباطها بغيرها في نطاق الوحدة الدلالية، أصبح النحو عندهم: "علم وضع الحركات على أواخر الكلم ".

ولما كانت الكلمات ممثلات صرفية لأبواب نحوية، فإن كل ممثل يأخذ حركة حالة الباب الذي يمثله، ولما كانت الأبواب التي تشترك في حالة واحدة متعددة فإن الحركة التي تعطى للكلمات أو الممثلات الصرفية التي تشترك في حالة واحدة هي أيضا واحدة. وبناء على ذلك فإن المعرب يقف أمام الجملة يوجه الكلمات فيها نحوا، استنادا إلى ما تحمله من حركات إعرابية جامعا الأبواب التي تشترك في هذه الحركة ليوجه المعنى على ضوئها، فانقلب الأصل عنده ليكون فرعا، والفرع عنده ليكون أصلا، فأخذ يقول في إعراب كلمة واحدة: هي حال، وقيل هي مفعول من أجله، وقيل هي نائب عن مفعول مطلق، وقيل بل هي نعت لمنعوت محذوف، وقيل هي تمييز وهو بعيد، وقيل بل هي كذا أو كذا لولا أن الصيغة النحوية تأبى ذلك. فالوجه عنده من حيث الدلالة هو (كذا) ولكن الدلالة عنده الآن فرع، وهو وجه مرفوض، لأن الأصل عنده (وهو ما يفترض أن يكون فرعا) يأباه.

فإذا كانت اللغة في أهم جانب من جوانبها تقوم بنقل رسالة بين المتكلم والسامع، وإن كانت الإبانة بالإعراب، هي الكشف عن أبعاد هذه الرسالة وحدود أثر وضوح نقلها، فإن أهم غاية يجب أن يسعى إليها المعرب في إبانته، تكمن في دقة تحديد الباب الدلالي الذي تأتي الكلمة ممثلا حقيقيا له، مارة بجانب منه لتأخذ حركته الإعرابية كممثل صرفي له مشتركا في هذه الحركة مع غيره من الأبواب، فتحدد الدائرة الدلالية بابه وإن اشترك مع غيره في العلامة.

لعل مما يلفت الانتباه في قراءة كتب إعراب القرآن بخاصة، وكتب معاني القرآن بعامــة، أن القــارىء يجد نفسه أمام عدد من التخريجات للكلمة الواحدة، في إطار الآية الواحــدة، قد تصل إلى عشرة تخريجات، وقد تزيد قليلا أو تنقص قليلا أو كثيرا، فيحاول أن يفهــم الــنص استنادا إلى واحد منها، فيرى أن غيره أولى منه، ثم ينتقل منهما إلى ثالث، ثم إلى رابع... إلخ، ليعود إلى حيث بدأ، والأمر –في ما نرى– لا يقتضي هذا ولا ذاك، لــولا لم تعكس المقولة "الإعراب فرع المعنى" لتصبح "الإعراب أصل المعنى" أو قل "الإعراب غاية المعرب".

وسنحاول هنا أن نبين في نماذج نختارها من سورتي الفاتحة والبقرة كيف يتم إعــراب المعنى بعد أن يتضح في ما يمكن أن تسميه: "إعراب المعنى" فيكون له إعراب جلي، لا يضل معه المعرب ولا يشقى، تدعمه أسباب النزول وما جاء في "كتب التفسير" بعــد أن نعــرض تعدد الوجوه في ما يمكن أن نسميه "معنى الإعراب"، ونعالج فيه كذلك عــددا مــن القضايا التي كانت موضع خلاف بين النحاة، نبدي فيها رأيا نخالف به آراء النحاة السابقين، وننبيه على مواضع الخلاف الطويل بينهم:

مسألة: يقول تعالى: "غير المغضوب عليهم ولا الضالين" الفاتحة: 7

يرى بعض النحاة :[1] أن (غير) بدل من الذين أنعمت عليهم على معنى أن المنعم عليه هم الذين سلموا من غضب الله والضلال.

ويــرى آخــرون[2] أنــه صفة على معنى إنهم جميعا جمعوا بين النعمة المطلقة، وهي نعمة الإيمان، وبين السلامة من غضب الله والضلال.

فإن قلت: كيف صح أن يقع (غير) صفة للمعرفة وهو لا يتعرف وإن أضيف إلى المعارف، قلت الذين أنعمت عليهم لا توقيت فيه، كقول الشاعر:[3]

ولقد أمر على اللئيم يسبني

ولأن المغضــوب علــيهم والضــالين خلاف المنعم عليهم، فليس في (غير) إذن الإبهام الذي يأبى عليه أن يتعرف.

وفي (غير) قراءة بالنصب[4] نسبت إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وعمر بن الخطاب ورويت عن ابن كثير، وخرجها النحاة على أنها حال، صاحبه الضمير في عليهم والعامل أنعمت[5] وقيل هو حال من (الذين) وهذا ضعيف لأنه[6] مضاف إليه، والصراط لا يصح أن يعمل بنفسه في الحال، وقيل إنه ينتصب على الحال من (الذين) ويعمل فيها معنى الإضافة.

وقيل: إنها منصوبة على الاستثناء المنقطع، وهذا رأي نسبه أبو حيان إلى الأخفش والزجاج[7] وقيل إن النصب على تقدير أعني[8].

إن من الواضح أن اختلاف النحاة في موقع كلمة (غير) قائم على تبرير الحركة الإعرابية، فإذا كانت بحركة الجر فهي بدل من الضمير في (عليهم)، أو من (الذين)، أو أنها نعت للذين لأنهم لا يقصد بهم أشخاص مخصوصين، فجرى مجرى النكرة، فجاز أن يقع وصفا له وإن كانت مضافة إلى معرفة. وقد رفض أبو حيان الرأي القائل بالبدل من الضمير في عليهم، وهو رأي منسوب للفارسي[9] (قائلا): "وهو ضعيف وإن قاله أبو علي"، وكذلك القول بأنها نعت، وهو مذهب سيبويه[10]، ينصره مذهب ابن السراج في أنها تتعرف إذا وقعت مخصوص لا شائع[11] وهو رأي ضعيف، لأنه يفترض أن يكون معرفة بالإضافة، ولكن النحاة يدافعون بسبل مختلفة لسلب هذا البعد عنها وأنها جرت مجرى النكرة، فهم يريدون منها خدمة باب النعت وحركته فهي معرفة، وكذلك (الذين) التي هي نعت لها، مبهمة لعدم اقترانها بأشخاص بعينهم.

نقول: إن الذهاب بكلمة (غير) إلى الجر على البدلية من الضمير في (عليهم) أو من (الذين) أمر لا يستقيم مع المعنى، فالله يعلم عبده ما يقول: اهدنا الصراط المستقيم، صراط الذين أنعمت عليهم، فسرد الحديث في الآيات المتلاحقة في ذكر الصراط وأصحابه يعود به إلى بؤرة الجملة الأصل في عملية التعليم الإلهي.

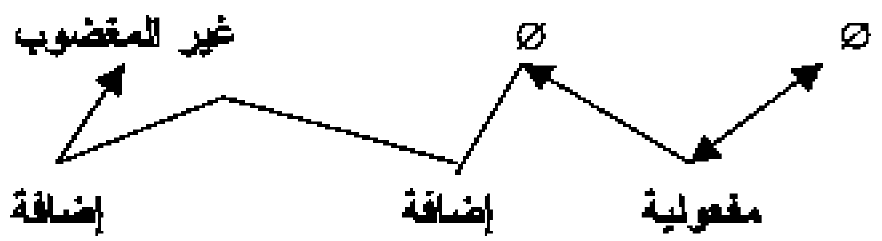
(اهدنا)، أولا: الصراط المستقيم، ولكن حاجة العبد إلى التمسك بهذا الصراط، الصراط الذي يقود مستقيما إلى الجنة، وهذه غاية ما يصبو إليه الإنسان مكافأة على استقامته في الدنيا المعوجة المملوءة بما يصرفه عن الصراط المستقيم بما فيها من

مغريات المال، والجاه، والسلطان، والجنس، والمركز، والله يعلم ما في نفس عبده من لوعة وشوق وأمل الاستقامة على هذا الصراط ليزحزح عن عذاب أخفه أن يقف الرجل على جمرة يغلي منها دماغه، فكرر سبحانه وتعالى مضمون العبارة التي يعلمها عبده، والتي يحب العبد البقاء في ظلالها مبتهلا لله متضرعا له أن يهديه صراط الذين أنعم عليهم، وأن يهديه غير صراط الذين غضب عليهم وأن يهديه صراط غير الضالين، والمغضوب عليهم هم اليهود، والضالون هم النصارى عند جل علماء التفسير والنحو واللغة[12] ، فتكون (لا) في ولا الضالين بمعنى غير كما يرى الكوفيون[13].

فالفعل (اهدنا) وهو بؤرة الجملة الأصل، مكرر محذوف في الجمل المتلاحقة هكذا: اهدنا الصراط المستقيم، اهدنا صراط الذين أنعمت عليهم، اهدنا صراط غير المغضوب عليهم واهدنا صراط غير الضالين.

ولكن الحذف يتم في العربية لغرض بلاغي، فيؤدي المعنى بطريقة كأنها السحر، يدرك السامع البعد الدلالي ولكنه يعجز أو يحار في تقدير المحذوف، يقول الجرجاني[14] في الحذف: "هو باب دقيق المسلك، لطيف المأخذ، عجيب الأمر، شبيه بالسحر، فإنك ترى به ترك الذكر أفصح من الذكر، فالصمت عن الإفادة أزيد للإفادة، وتجدك أنطق ما تكون إذا لم تنطق، وأتم ما تكون بيانا إذا لم تبن، وهذه جملة قد تنكرها حتى تخبر، وتدفعها حتى تنظر...".

ونضيف أن المتكلم يحذف ما يحذف لغرض بلاغي، يكون التعبير عنه بالحذف أبلغ من الذكر، فليس من حق السامع أن يذكر ما حذف المتكلم، فإنه إن فعل فقد أفسد الغرض البلاغي الذي من أجله حذف المتكلم، ودأبنا[15] على التعويض عن المحذوف بإشارة المجموعة الخالية ∅ وتسمى في علم اللغة الحديث **zero morpheme** فهي كلمة موجودة لا تجسد، وعلى ذلك تكون الجملة غير المغضوب عليهم، هكذا:



فتشمل الآيات المتلاحقة الحديث عن ثلاثة أنواع من الصراط وهي في مضمونها واحد، لثلاثة أقسام من الناس[16]، يتحدث الله عن واحد منهم بجلاء ووضوح وهم أصحاب الصراط المستقيم الذين يؤمنون بآيات الله ولا يستكبرون عن عبادته، ويكفرون بالشيطان، ويدركون أنه لهم عدو مبين "...أن لا تعبدوا الشيطان إنه لكم عدو مبين، وأن اعبدوني هذا صراط مستقيم، ولقد أضل منكم جبلا كثيرا...." (يس 62)، وجاء عن علي بن أبي طالب (رضي الله عنه) في معنى الصراط المستقيم: أي قولوا اهدنا صراط الذين أنعمت عليهم بالتوفيق لدينك وطاعتك، لا بالمال والصحة، فإنهم قد يكونون كفارا أو فساقا، قال: وهم الذين قال الله فيهم "ومن يطع الله والرسول فأولئك مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقا" النساء 71.

ويتحدث الله عن القسم الثاني من الناس، وهم الذين غضب عليهم ولعنهم وأعد لهم عذابا أليما، فمسهم بالحديث مسا يذكر بهم، وبطريقهم الذي سلكوا، فلعنهم الله وغضب عليهم وجعل منهم القردة والخنازير، وهم الذين اعتدوا في السبت، يقول تعالى: "ولقد علمتم الذين اعتدوا منكم في السبت فقلنا لهم كونوا قردة خاسئين" البقرة: 56، وكأن العبد المتوسل إلى ربه بعد أن قال: اهدنا الصراط المستقيم، وهو يستحضر في ذهنه كل أنواع الاستقامة وما تقود إليه، ومضت في ذهنه بارقة تذكره بسبيل التهجه المغضوب عليهم وما قادت إليه، فتوسل إلى ربه ثانية اهدنا صراط غير هؤلاء الذين غضبت عليهم.

ثم يقرن الله سبيل السوء هذا مقدما إياه على سبيل سوء آخر، حتى يرفع العبد يديه متوسلا لإنقاذه من سبيل الذين ضلوا الطريق، وهم القسم الثالث من الناس "ولا تتبعوا أهواء قوم قد ضلوا من قبل وأضلوا كثيرا وضلوا عن سواء السبيل" المائدة 77، "والصراط المستقيم لا محالة ليس هو الطريقين الآخرين من الطرق الثلاث، أعني طريق المغضوب عليهم، وطريق الضالين، فهم من الطريق الأول الذي هو طريق المؤمنين غير المستكبرين"[17].

وإن حمل (غير المغضوب عليهم) على البدلية أو النعت، أو حتى على الاستثناء المنقطع، أو تقدير (أعني) في قراءة النصب يحرم المرء من التفكير في ما في الوجه الخفي من صراط غير المغضوب عليهم، وصراط الضالين. ويحققه تقدير ارتباط هذين باهدنا صراط غير المغضوب عليهم، واهدنا صراط غير الضالين.

مسألة: "إن الله لا يستحي أن يضرب مثلا ما بعوضة فما فوقها، فأما الذين آمنوا فيعلمون أنه الحق من ربهم، وأما الذين كفروا فيقولون ماذا أراد الله بهذا مثلا، يضل به كثيرا ويهدي به كثيرا وما يضل به إلا القوم الفاسقين" البقرة: 26.

في هذه الآية مجموعة من القضايا[18]:

الأولى تتعلق ب(ما) و(بعوضة) في قوله: مثلا ما بعوضة –فقيل فيها زائدة ويكون التفسير: مثلا بعوضة، وتكون (بعوضة) بالنصب على البدل من (مثلا).

وقيل: (ما) نكرة وهي بدل من (مثلا)، أي مثلا شيئا بعوضة، أي ببعوضة.

وقيل: تكون بمعنى الذي و(بعوضة) مرفوع خبر مبتدأ مقدر، وتقديره: الذي هو بعوضة، كقوله تعالى (تماما على الذي أحسن)، أي هو أحسن، وتكون (ما) في (فما فوقها) عطف على الأولى أو على بعوضة إن جعلت (ما) زائدة.

وفي هذين الوجهين من التكلف والصنعة النحوية التي تعتمد على التركيب من حيث الحركة الإعرابية وافتراض العلاقة الإسنادية ما لا يخفى على الدارس المدقق. فكيف يمكن أن تكون (ما) بدلا من (مثلا)، وما المعنى الدلالي في ذلك، وكيف يمكن أن يكون تركيب الجملة في: أن يضرب ما هو بعوضة، ليسد البدل مكان المبدل منه وهو على نية تكرار العامل، ولتستكمل الجملة تركيبها دخلت (هو) من غير اهتمام ببعدها الدلالي أو معناها الذي تضيفه إلى الجملة تحقيقا لقولهم: كل زيادة في المبنى تقابلها زيادة في المعنى. ولماذا جعلت بعوضة بالرفع، وما الموقف منها في حال النصب. وهذا موضوع القضية الثانية من قضايا هذه المسألة.

الثانـية، وتـتعلق بكلمة (بعوضة) منصوبة، يرى الفراء[19] أن نصبهم بعوضة يكون من ثلاثة أوجه:

أولها: أن توقع الضرب على البعوضة، وتجعل (ما) صلة كقوله:

(عمـا قلـيل ليصـبحن نادمين) يريد عن قليل والمعنى -والله أعلم- أن الله لا يستحي أن يضرب بعوضة فما فوقها مثلا.

وهـذا رأي على الرغم مما فيه من اتساق مع الدلالة في ظاهره. إلا أنه ضعيف مـن حيـث التركيـب والتحريك فيه تقديما وتأخيرا من غير حاجة إلى ذلك فبدلا من أن يوقـع الفـراء الضـرب على (بعوضة) ويؤخر (ما)، كان الأولى أن يوقع الضرب على (مثلا) كما جاء نصا وترتيبا في الآية.

وثانـيهما: أن تجعل ما اسما والبعوضة صلة فتعرفها بتعريف (ما)، وذلك جائز فـي (من) و(ما) لأنهما يكونان معرفة في حال ونكرة في حال، والرفع في (بعوضة) هنا جائز، لأن الصلة ترفع واسمها منصوب ومخفوض.

وهـذا وجـه "التكلف فيه واضح لا يحتاج إلى مناقشة طويلة، فتارة تكون (ما) نكـرة وأخرى معرفة، وتارة تكون الصلة بالرفع وأخرى بالنصب وثالثة بالخفض وكلها مع الدلالة والمعنى الذي يساعد في فهم الآية.

وثالـثها: يقـول الفـراء[20]: "وهو أحبها إلي -فإن تجعل المعنى على: إن الله لا يسـتحي أن يضـرب مثلا ما بين بعوضة إلى ما فوقها والعرب إذا ألقت "بين" من كلام تصـلح "إلى" في آخره نصبوا الحرفين المخفوضين اللذين خفض أحدهما ب"بين" والآخر ب"إلـى"، فـيقولون: مطـرنا ما بين زبالة فالثعلبية، وله عشرون ما ناقة فجملا، وهي أحسن الناس ما قرنا فقدما، يراد ما بين قرنها إلى قدمها ويجوز أن تجعل القرن والقدم معـرفة، فتقول: هي حسنة ما قرنها فقدمها؛ فإذا لم تصلح (إلى) في آخر الكلام لم يجز سقوط "بين" ومن ذلك أن تقول: داري ما بين الكوفة والمدينة فلا يجوز أن تقول: داري، مـا الكوفة فالمدينة، لأن "إلى" إنما تصلح إذا كان ما بين المدينة والكوفة كله من دارك، كمـا كان المطر آخذا ما بين زبالة إلى الثعلبية ولا تصلح الفاء مكان الواو فيما لا تصلح

فـيه "إلــى"، كقولــك: دار فلان بين الحيرة فالكوفة، محال. وجلست بين عبد الله فزيد، محــال. إلا أن يكــون مقعدك آخذا للفضاء الذي بينهما، وإنما امتنعت الفاء من الذي لا تصلح فيه إلى..."

ويــتابع الفراء موضحا هذا الرأي المحبب إليه، بتعقيد يصعب على المرء متابعة تخــريجه، يجمع له الحجج والأدلة الضعيف منها والقوي، والذي قاله أعرابي لا يعرف نســبه ولا قبيلته، يقول: "لأن الفعل فيه لا يأتي فيتصل، و(إلى) تحتاج إلى اسمين يكون الفعل بينهما كطرفة عين وإن قصر قدر الذي بينهما مما يوجد، فصلحت الفاء في (إلى) لأنك تقول: أخذ المطر أوله فكذا وكذا إلى آخره فلما كان الفعل كثيرا شيئا بعد شيء في المعــنى كان فيه تأويل من الجزاء قال الكسائي: سمعت أعرابيا ورأى الهلال فقال الحمد لله مــا إهلالــك إلــى سرارك، يريد ما بين إهلالك إلى سرارك فجعلوا النصب الذي كان يكون في (بين) فيما بعده إذا سقطت ليعلم إن معنى (بين مراد).

وهــذا دفاع طويل وأقوال متعددة، وآراء تجمع بين البعيدة عن الهدف والقريبة منه، تدور بكاملها حول إثبات الحاجة إلى (بين) في هذا السياق بعد (ما) وهذا أمر نرى أن الحاجــة إليه ليست قائمة. والقضية التي نحن بصددها مختلفة عن هذا اختلافا كبيرا لا يصـــح معه القياس عليه. فالفراء افترض أن هناك (بين) وأخذ يدافع عن وجود نظائر لتركيــب هــي فيه محذوفة، وهو أمر لا تشير إليه الدلالة ولا تقتضيه، بل بوجود (بين) يضعف التعبير، وبحذفها يزداد ضعفا، وبإعادة تقديرها إفساد للمعنى الدلالي ل(ما).

ورابعهــا: أن تكــون (مــا) زائــدة للتوكيد وبعوضة بدل من (مثلا)، وقد سلف الحديــث عــنه في القضية الأولى، ومثله من غير افتراق كبير القول: أن تكون (ما) في موضــع نصــب نكرة بدل من مثل وبعوضة نعت لما، والجديد في هذا القول أن تعد ما زائــدة للتوكيد، وهو أمر لا حاجة إليه لعدم وجود ما تؤكده، فالسابق عليه نكرة يحتاج إلــى تخصــيص وبــيان وتوضيح، وليس إلى توكيد، ولكن الحاجة لتخريج الفتحة على بعوضة لتكون بدلا من (مثلا) دفع إلى هذا الرأي.

والجديـــد الآخـــر في هذا القول، أن يقال: إن بعوضة نعت لما، في حين أن (ما) تحتاج إلى ما يوضحها على سبيل البدل وليس على سبيل النعت، وسنبين ذلك بعد قليل.

والقضية الثالثة[22]: تتعلق بقوله تعالى: (ماذا أراد الله)

فقيل: ما وذا في موضع نصب بإراد تقديره: أي شيء أراد الله بهذا المثل.

وقـــيل: ذا بمعـــنى الذي فتكون (ما) في موضع رفع بالابتداء وما بعدها الخبر، فتكون (مثلا) منصوبة على التفسير، وما بعد ذا صلة له.

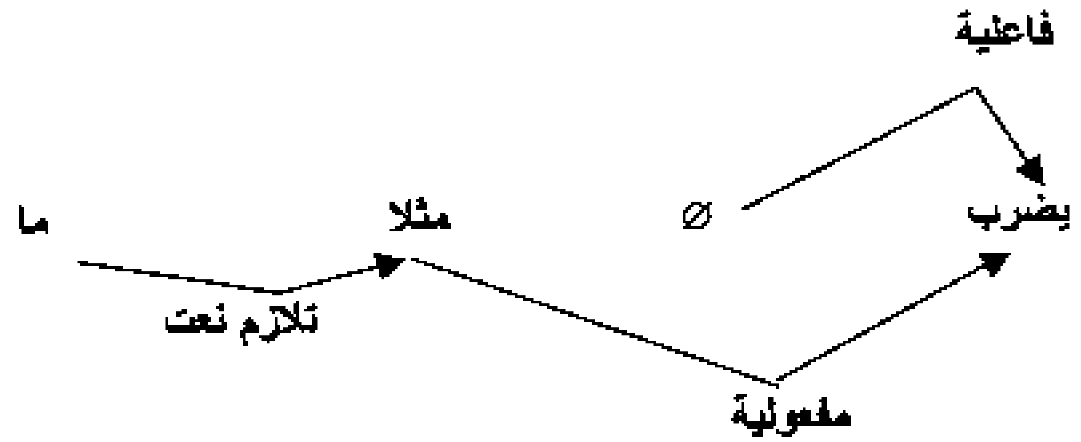
وقيل: هو حال من (ذا) في هذا والعامل فيه الإشارة والتنبيه، وقيل هو حال من اسم الله فيما زاد العكبري[23].

إذا مـــا نظـــرنا إلـــى الكلمات في الجملة على أنها وحدات دلالية يقصد منها في نهايـــة التركيـــب الوصـــول إلى المعنى الدلالي الكلي الذي هو حصيلة مجموع العلاقات الدلالية ببؤرة الجملة، فإننا سنحلل الجملة موضع تعدد الوجوه الإعرابية دلاليا كما يلي:

أن يضـــرب مـــثلا... متعلقة بالفعل (يستحي) الذي هو بؤرة الجملة الكبرى التي تقـــدم فاعلهـــا (الله) علـــى بؤرتها (الفعل يستحي) لتوكيده، ثم زيد توكيدا بأن التي هي عنصـــر توكيد، ثم جاء المصدر (أن يضرب) ليرتبط بالبؤرة برباط دلالي يتضح باتضاح الـــترابط فـــي الجملة الصغرى (يضرب وما جاء بعدها). فالآية كلها مرتبطة بالسابقات علـــيها ردا علـــى أولـــئك الذي عابوا على الله. في ما يروى عن ابن عباس[24] "ضرب المثلين السابقين (كمثل الذي استوقد نارا) و(كصيب من السماء) فقالوا: الله أعلى وأجل من أن يضرب هذه الأمثال" وهو قول المنافقين، فجاء الرد بأن الله لا يخشى ولا يستحي أن يضرب مثلا بشيء مهما كان حجمه صغيرا، لأن صغير الأشياء عنده وكبيرها بمنزلة واحـــدة من حيث لا يكون الصغير سهلا يسيرا ولا الكبير صعبا عسيرا، فجاز له سبحانه أن يضرب المثل بما شاء، فقال (إن الله لا يستحي أن يضرب مثلا) فما صفة هذا المثل؟ وتأتـــي الإجابـــة عـــند جل المفسرين بوصفه بكلمات العموم، فيقول الطبري[25]: "مثلا ما يعنـــي الأمـــثال صـــغيرها وكبيرها"، ويقول الزجاج[26]: "كأنه قال: إن الله لا يستحي أن يضرب مثلا شيئا من الأشياء" ويذهب القرطبي[27] إلى المعنى ضمنا، ويقول الطوسي[28]:

عن قتادة: معناه أن الله لا يستحي أن يضرب مثلا أي أن يذكر من الحق شيئا ما قل أو كثر، وإلى مثل هذا ذهب الطبرسي[29] بما مثله في ذلك الطباطبائي في تفسيره[30].

أقـــول: إن لفظة (مثلا) هي المفعول به للفعل (يضرب)، وهي كلمة نكرة مبهمة عامـــة، فاحتاجت إلى كلمة علمة أخرى لتزيل ما في الأولى من احتمال اللبس بعمومها، فيـــتوقف السامع عند مثلا: إن الله لا يستحي أن يضرب مثلا، فيذهب عقله إلى ضخامة المثل أو كبره أو عظمته، فاحتاجت إلى: مثال ما، وفي ذلك ترك العنان للعقل ليذهب كل مذهب، وليقدر ما شاء أن يقدر، فلا ينتظر السامع بعد كلمة (ما) وقتا أو برهة من وقت لـــيفكر فـــي مثل، فجاءت (مثلا ما) قاطعة كل احتمال للتوقف والانتظار، ولما كان التابع والمتـــبوع يخضـــعان لظاهرة التلازم، وهما وإن كانتا كلمتين تركيبا إلا أنها كلمة واحدة دلالة، فهما كتلة واحدة متلازمة على سبيل النعت والمنعوت.



ثم وردت كلمة (بعوضة) لتوقف القارئ أو السامع تحديدا عند الذي أراد الله أن يحدده، فقال بعوضة، لتحل محل: مثلا ما، على سبيل البدل. ولعل هذا يقترب مما يذهب إلـــيه أبـــو حـــيان[31]: (والـــذي نختاره من هذه الأعاريب أن ضرب يتعدى إلى اثنين هو الصـــحيح... مـــثلا ينتصـــب بضـــرب، وما صفة تزيد النكر شياعا لأن زيادتها في هذا الموضع لا تنقاس وبعوضة بدل).

وأمـــا القول في سر اختيار الله البعوضة مثلا ففيه أقوال كثيرة منها ما هو عن الصحابة رضوان الله عليهم، ومنها ما هو عن الأئمة الأخيار، أبرزها[32] قول الصادق – علـــيه الصلاة والسلام– أنه قال إنما ضرب الله المثل بالبعوضة لأن البعوضة على صغر

حجمهـــا خلق الله فيها جميع ما خلق في الفيل مع كبره، وزيادة عضوين آخرين، فأراد الله أن ينـــبه بذلك المؤمنين على لطيف خلقه وعجيب صنعه"، وقيل[33]: "إن البعوضة لما كانت من أصغر خلق الله تعالى خصها بالذكر من القلة، فلا يستحي أن يضرب المثل في شيء الكبير بالكبير والحقير بالحقير".

ولله المثل الأعلى في ضرب الأمثال أما القول في القضية الثالثة فيعتمد على ما فصـــلنا القـــول فـــيه في كتابنا "أسلوبا النفي والاستفهام في اللغة العربية"[34] فنرى أن أدوات الاستفهام عناصر تحويل تدخل على الجمل لتنقلها إلى معنى دلالي هو الاستفهام، فهـــي ليســـت بأســـماء ولا هي بأفعال، وهي كتل لغوية هكذا استعملتها العرب، فليست (مـــاذا) مكونـــة مـــن (ما) و(ذا) وليست ذا اسما موصولا، ولا بمعنى الذي فالأصل في الجملة الخبرية: أراد الله مثلا:

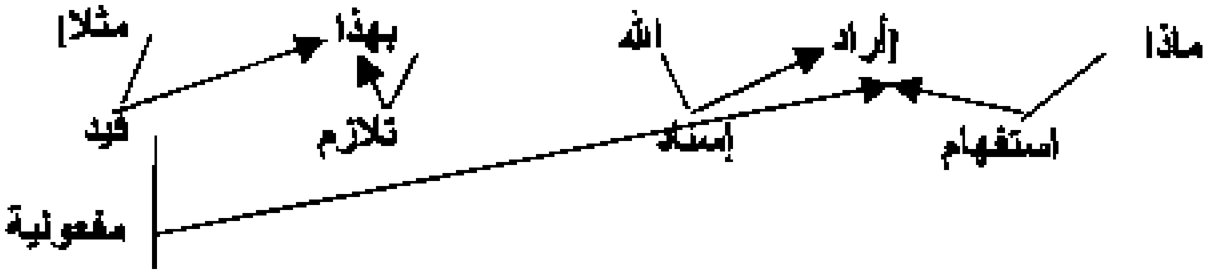
=فعل + فاعل + مفعول به

ثم دخلها عنصر تحويل وهو القيد المحدد أو المخصص (بهذا)، فأصبحت: أراد الله بهذا مثلا= فعل + فاعل + قيد محدد مخصص مقدم على ما يحدد للعناية + مفعول به.

ولمـــا أريـــد التحول للاستفهام أدخل عليها عنصر الاستفهام (ماذا) وهو عنصر اســـتفهام اســـتعمله العـــرب بكثرة، كما استعملوا (ما) كما في هذا ؟ وغيره، فأصبحت الجملة: ماذا أراد الله بهذا مثلا؟

عنصر الاستفهام (فعل + فاعل + قيد مقدم + مفعول به)

ولمـــا كـــان تأثـــير عنصر الاستفهام واقعا على بؤرة الجملة لارتباطه بها، فإن تأثـــيره ممتد إلى بقية الجملة وهذا ما نعنيه بفتح القوسين (   ) ليضما الجملة بكاملها هكذا:



مسألة: "ثم أنتم هؤلاء تقتلون أنفسكم وتخرجون فريقا منكم من دياركم تظاهرون عليهم بالإثم والعدوان، وإن يأتوكم أسارى تفادوهم وهو محرم عليكم إخراجهم أفتؤمنون ببعض الكتاب وتكفرون ببعض، فما جزاء من يفعل ذلك منكم إلا خزي في الحياة الدنيا ويوم القيامة يردون إلى أشد العذاب وما الله بغافل عما تعملون" البقرة: 85.

وفي هذه المسألة ثلاث قضايا[35]: الأولى في: ثم أنتم هؤلاء تقتلون أنفسكم، فقيل: أنتم مبتدأ، وهؤلاء خبره، وتقتلون جملة فعليه في موضع نصب على الحال من (ألاء)، ولا يستغنى عنها لأنها كما لا يستغنى عن وصف المبهم كذلك لا يستغنى عن حاله وقد اختاره أبو حيان[36]: "والمقصود من حيث المعنى الإخبار بالحال، ويدل على أن الجملة حال مجيئهم بالاسم المفرد منصوبا على الحال كقولهم: ها أنت ذا قائما".

وقيل: أنتم مبتدأ، وتقتلون خبره، وهؤلاء في موضع نصب بتقدير (أعني).

وقيل: هؤلاء منادى مفرد، وتقديره: يا هؤلاء، فحذف حرف النداء، وتقتلون الخبر وقال الأنباري[37]: "وهذا الأخير رأي ضعيف، ولا يجيزه سيبويه، لأن حرف النداء إنما يحذف مما لا يحسن أن يكون وصفا (لأي)، نحو زيد وعمرو، وهؤلاء يحسن أن يكون وصفا لأي، نحو يا أيها هؤلاء، فلا يجوز حذف حرف النداء منه.

وذهب الكوفيون إلى أن (هؤلاء)بمعنى الذين، فيكون خبرا لأنتم، وما بعد صلته، وقد ضعفه العكبري بقوله[37] "لأن مذهب البصريين أن (أولاء) هذا لا يكون بمنزلة الذين" وقال أبو حيان: "هي مسألة خلافية في علم النحو".

وقيل: إن الخبر (هؤلاء) على تقدير حذف مضاف تقديره: ثم أنتم مثل هؤلاء كقولك: أبو يوسف أبو حنيفة، فعلى هذا تقتلون حال يعمل فيها معنى التشبيه.

وقال الزمخشري: والمعنى: ثم أنتم بعد ذلك هؤلاء المشاهدون، يعني: إنكم قوم آخرون غير أولئك المقرّين تنزيلا لتغير الصفة منزلة تغير الذات[38].

وقيل: هؤلاء رفع بالابتداء، وأنتم خبره مقدم، وتقتلون حال بها تم المعنى، وهذا قول أبي الحسن بن أحمد في ما يروي ابن عطية[39].

وذهـب ابـن كيسان وغيره[40] إلى أن (أنتم) مبتدأ و(يقتلون) الخبر، و(هؤلاء) تخصـيص لما نبهوا على الحال التي هم عليها مقيمون، فيكون إذ ذاك منصوبا بأعني. وقـال أبـو حـيان[41]: "وقـد نص النحويون على أن التخصيص لا يكون بالنكرات، ولا بأسماء الإشارة".

كمـا هـو واضح في هذه التخريجات الكثيرة سعي حثيث واضح لإقامة التركيب الجملـي على مسند ومسند إليه، من غير اهتمام كبير بالاختلاف في المعنى الذي يترتب على كل تقدير، فالتقدير في الحال غيره في النداء، غيره في الاسم الموصول، غيره في تقديم الخبر على المبتدأ أو تقديم المبتدأ على الخبر.

ولمـا كـان الإعـراب فـرع المعنى، فإن علينا أن نعرف معنى الآية: عن ابن عـباس[42]: "أنبهم الله من فعلهم (بني إسرائيل) وقد حرم عليهم في التوراة سفك دمائهم، وافـترض عليهم فيها فداء أسراهم، فكانوا فريقين، وطائفة منهم من بني قينقاع حلفاء الخـزرج، والنضـير وقريظة حلفاء الأوس، فكانوا إذا كانت بين الأوس والخزرج حرب خرجـت بنـي قيـنقاع مع الخزرج وخرجت النضير وقريظة مع الأوس يظاهر كل من الفريقيـن حلفـاءه على أخوانه، حتى يتسافكوا دماءهم بينهم، وبأيديهم التوراة يعرفون مـنها ما عليهم وما لهم، والأوس والخزرج أهل الشرك يعبدون الأوثان لا يعرفون جنة ولا نارا، ولا بعثا ولا قيامة، ولا كتابا ولا حراما ولا حلالا. فإذا وضعت الحرب أوزارها افـتدوا أسراهم تصديقا لما في التوراة، وأخذا به، بعضهم من بعض؛ يفتدي بنو قينقاع مـا كان من أسراهم في أيدي الأوس، وتفتدي النضير وقريظة ما كان في أيدي الخزرج مـنهم ويطلـون ما أصابوا من الدماء، وقتلوا من قتلوا منهم فيما بينهم مظاهرة لأهل الشـرك علـيهم، يقـول الله تعـالى ذكـره حين أنبأهم بذلك: (أفتؤمنون ببعض الكتاب وتكفـرون ببعض)؛ أي تفادونه بحكم التوراة وتقتلونه، وفي حكم التوراة أن لا يقتل ولا يخـرج مـن ذلك. ولا يظاهر عليه من يشرك بالله ويعبد الأوثان من دونه ابتغاء عرض

مـــن عـــروض الدنيا، ففي ذلك من فعلهم مع الأوس والخزرج -فيما بلغني- نزلت هذه القصة".

فالحديــث هــنا كله منصب على (أنتم) المخاطبين من اليهود الذي أقروا ميثاقا غلـيظا، وعــرفوا حكما في التوراة واضحا صريحا أن لا يفعلوا... ولكن لم يطل الزمن، ولــم تتعاقــب الأجيال، فالأوس والخزرج هم الأوس والخزرج وبنو قريظة وقينقاع هم أنفسهم موجودون، والعهد ما يزال حديثاً، والخطاب في التوراة لم يطمس، ولكنكم (أنتم) أيها المخاطبون قد خالفتموه وفعلتم... فنقول: أليست (أنتم) هي بؤرة الموضوع في هذه الآية؟! بلى وربي.

فجــاء بهـــا الله فـــي مطلع الكلام متقدمة على فعلها اتساقا مع عادة العرب في الكـــلام، والعـــرب إن أرادت العـــناية بشيء قدمته، فهي فاعل مقدم للعناية والتوكيد، ثم احـــتاج الأمـــر إلـــى مـــزيد من العناية والتوكيد فوضع بعدها (أولئك) التي تفيد في هذا الســـياق توكـــيدا بالغا لارتباطها بمن تشير إليه الإشارة التي لا تقبل زحزحة عمن قصد بها: أنتم هؤلاء...

أما الضمير في (تقتلون) فهو أصلا تكرار للضمير أنتم لتوكيده قبل تقديمه:

تقتل أنتم   أنتم ⇐ تحولت إلى: أنتم تقتل، أنتم ...

⇐ تحولت إلى: أنتم تقتلون...

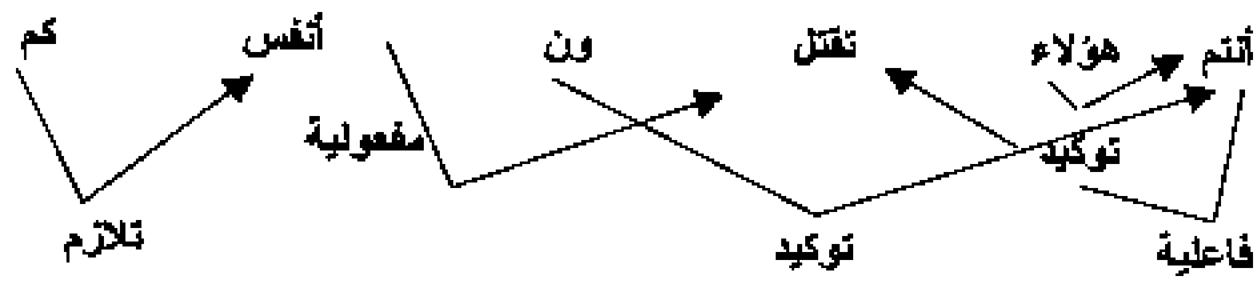
⇐ تحولت إلى: أنتم هؤلاء تقتلون...

ولعمـــري قـــد أصـــاب الفريق الذي أورده الطبري[43] في تفسيره عين الحقيقة، يقـــول الطـــبري: "وقد زعم بعض البصريين أن قوله (هؤلاء) في قوله: (ثم أنتم هؤلاء) تنبـــيه وتوكـــيد لأنتم، وزعم أن أنتم وإن كانت كناية عن أسماء جماع المخاطبين، فإنما جاز أن يؤكدوا بهؤلاء وأولى، لأنها كناية عن المخاطبين كما قال خفاف بن ندبه:

أقول له والرمح يأطـــر متنـــــه   تبين خفافا أنني أنا ذلكمـــــــــــــا

يريد أنا هذا".

ولكن مذهب البصريين يمنع تقدم الفاعل على فعله، فلا غرابة أن لا يقولوا: (أنتم) فاعل مقدم، و(هؤلاء) توكيده، فجعلوا: أنتم مبتدأ، هؤلاء توكيده، وتقتلون الخبر. فيكون ترابط الجملة في دوائرها الدلالية كما يلي:



والقضية الثانية في: "وهو محرم عليكم إخراجهم"

قيل: أن يكون (إخراجهم) مبتدأ، ومحرم خبرا وفيه ضمير عائد على الإخراج إذ النية به التأخير.

ولا يجيز الكوفيون تقدير الخبر إذا كان محتملا ضميرا مرفوعا فلا يجيزون: قائم زيد، على أن يكون (قائم) خبرا مقدما، ولا يجيز هذا الوجه البصريون لأن عندهم أن ضمير الشأن لا يخبر عنه إلا بجملة مصرح بجزئيتها، وأجازوا أن يكون (هو) مبتدأ وليس ضمير الشأن، بل هو عائد على الإخراج ومحرم خبر عنه[44] وإخراجهم بدل.

وهذا فيه خلاف، فهناك من منع وقد أجازه الكسائي[45].

وعن الكوفيين إعراب (محرم) عندهم خبر مقدم، و(إخراجهم) مبتدأ مؤخر، وقال أبو حيان[46] وهو المناسب للقواعد، إذ لا يبتدأ بالاسم إذا كان نكرة ولا مسوغ لها ويكون الخبر معرفة"

وقال القرطبي[47]: "وإن شئت كان (هو) كناية عن الحديث والقصة والجملة التي بعده خبره، أي: والأمر محرم عليكم إخراجهم، فإخراجهم مبتدأ ثان، ومحرم خبره، والجملة خبر عن هو، وفي محرم ضمير ما لم يسم فاعله يعود على الإخراج".

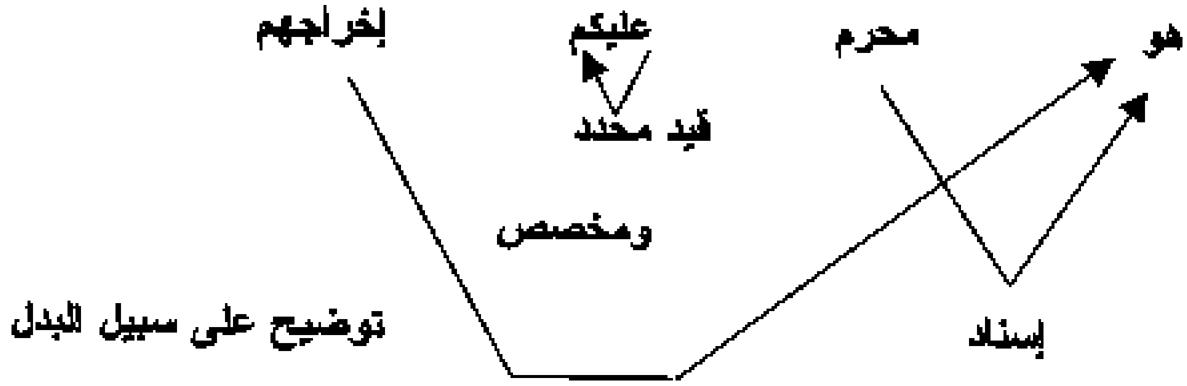
ورد القرطبـــي قول الفراء بأن هو عماد، بقوله[48]: "وهذا عند البصريين خطأ لا معنى له، لأن العماد لا يكون في أول الكلام" وأجازه الزجاج[49].

تــرجع هــذه الآيـــة إلـــى أن اليهود[50] كانوا إذا استضعفوا قوما أخرجوهم من ديارهم، وقد أخذ عليهم الميثاق أن لا يسفكوا دماءهم، ولا يخرجوا أنفسهم من ديارهم، وأخــذ علـــيهم الميثاق أن أسر بعضهم أن يفادوهم، فأخرجوهم من ديارهم ثم فادوهم، فآمـــنوا بـــبعض الكـــتاب وكفـــروا بـــبعض، آمنوا بالفداء وكفروا بالإخراج من الديار فأخرجوا".

فالنهـــي فـــي الآيـــة منصب على أمرين: عدم سفك دم بعضهم بعضا، وهذا أمر واضح بين لا إمكان للمراوغة فيه أو إدخاله منطقة اللبس، فمن يقتل فقد نقض عهد الله وميثاقه.

والأمـــر الثانـــي: عـــدم إخراجهم بعضهم بعضا من ديارهم، وإذا وجدوا بعضهم أســـرى فـــي أيـــدي غيرهم أن يفتدوهم، وهذا أمر يحصل فيه إمكان المراوغة من بني إسرائيل، فقد كانوا يخرجون من ليسوا معهم في وفاق، يخرجونهم من ديارهم ويفتدون مـــن يجدونه أسيرا في يد غيرهم. وأحيانا يفتدون حسب أهوائهم ورغباتهم قال الطبري عـــن الربـــيع بـــن أنس[51] قال: "أخبرني أبو العالية أن عبد الله بن سلام مر على رأس الجـــالوت بالكوفـــة، وهو يفادي من النساء من لم يقع عليه العرب ولا يفادي من وقع عليه العرب، فقال عبد الله بن سلام: أما إنه مكتوب عندك في كتابك أن فادوهن كلهن".

فالنهي –كما ذكرنا– منصب على الاثنين، ولكن الله ود –وهو أعلم بما أراد– أن يلفت الانتباه إلى فداحة الأمر الثاني، وأنه على درجة من الخطورة في المخالفة، فخصه بذكره (هو)، ولكن (هو) هذه على ما فيها من تعريف إلا أنها مبهمة تحتاج إلى توضيح، فجـــاءت كلمة (إخراجهم) لتوضيحها وإزالة الإبهام منها بزيادة لفت انتباه إليها، فتكون الدوائر الدلالية كما يلي:



أما القضية الأخيرة ففي: "فما جزاء من يفعل ذلك منكم إلا خزي"

قيل: (ما) استفهامية؛ أي: أي شيء جزاء من يفعل ذلك منكم ؟.

و(ما) في موضع رفع بالابتداء، و(جزاء) خبره، و(خزي) بدل من جزاء.

وقيل: يجوز أن تكون (ما) نفيا، و(جزاء) مبتدأ، وإلا خزي: خبره.

الخزي جزاء في الدنيا، والخزي الذل والصغار، وسواء أكان في هذا الذل في الدنيا هو إخراج بني النضير من ديارهم، أم كان حكم الله الذي أنزل على نبيه من أخذ القاتل بمن قتل والقود به قصاص، أم مقاتلة بني قريظة وسبي ذراريهم، فكله صغار وذلك عاجل في الدنيا، أما في الآخرة فإنهم يأخذون عذابا شديدا، والله سبحانه لا يغفل أبدا عما يقوم به الظالمون.

لما كان ورود هذه العقوبة يحتاج إلى درجة عالية من التوكيد المناسب للدرجة العالية في الرغبة من الردع، فقد وقع نبأ العقوبة في أسلوب الحصر الذي يأتي في العربية في درجة عالية في التوكيد وهذا يعتمد على النفي وإلا:

فأصل الجملة التوليدي:

جزاء من يفعل ذلك = مبتدأ

خزي = خبره

والمبتدأ يتضمن (من) الاسم الموصول وما ألحق به على ضوء ظاهرة التلازم[52] الفعل والفاعل (من) والمفعول به.

ثـم جيء بعنصر النفي (ما) التي يقتضي المعنى في هذا الأسلوب التوكيدي أن تقـترن ب (إلا) الحاصـرة، فأصبحت الجملة: ما جزاء من يفعل ذلك إلا خزي في الحياة الدنيا = ما + إلا = توكيد

جزاء من يفعل ذلك = مبتدأ مؤكد، وبما أنه بؤرة الجملة فالتوكيد يشمل الجملة كلها.

خزي = خبر

في الحياة الدنيا = قيد زمني محدد.

مسألة: "بئس ما اشتروا به أنفسهم أن يكفروا بما أنزل الله بغيا أن ينزل الله من فضـله علـى مـن يشاء من عباده، فباءوا بغضب على غضب وللكافرين عذاب مهين" البقرة: 90

وفيها قضيتان، الأولى[53] في: "بئس ما اشتروا به أنفسهم".

اختلف النحاة في (بئس ما) ألها موضع من الإعراب أم لا، فذهب الفراء إلى أنه بجملـته شيء واحد ركب كحبذا، هذا ما قاله ابن عطية عنه[54] ، وقال المهدوي[55]: قال الفراء يجوز أن تكون (ما) مع (بئس) بمنزلة كلما.

قال أبو حيان[56]: "فظاهر هذين النقلين أن لا موضع من الإعراب لها".

أمـا ما جاء عن الفراء في معانيه فقوله[57]: "و(بئس) لا يليها مرفوع مؤقت ولا منصوب مؤقت، ولها وجهان، فإذا وصلتها بنكرة قد تكون معرفة بحدوث ألف ولام فيها نصـبت تلـك النكرة، كقولك: بئس رجلا عمرو، ونعم رجلا عمرو، وإذا أوليتها معرفة فلتكـن غير مؤقتة، في سبيل النكرة؛ ألا ترى أنك ترفع فتقول: نعم الرجل عمرو، وبئس الـرجل عمرو، فإن أضفت النكرة إلى نكرة رفعت ونصبت، كقولك: نعم غلام سفر زيد، وغلام سفر زيد. وإن أضفت إلى المعرفة شيئا رفعت، فقلت: نعم سائس الخيل زيد، ولا

يجـوز النصـب إلا أن يضطر إليه شاعر، لأنهم حين أضافوا إلى النكرة رفعوا، فهم إذا أضافوا إلى المعرفة أحرى ألا ينصبوا".

وذهـب الجمهور إلى أن لها موضعا من الإعراب[58]، واختلف في ذلك، أموضعها نصـب أم رفـع، فذهب الأخفش إلى أن موضعها نصب على التمييز والجملة بعدها في موضـع نصـب علـى الصفة، وفاعل بئس مضمر مفسر بما، والتقدير: بئس هو شيئا اشـتروا به أنفسهم، و(أن يكفروا) هو المخصوص بالذم. وبه قال أبو علي الفارسي في أحـد قولـيه، واختاره الزمخشري، ويحتمل على هذا الوجه أن يكون المخصوص بالذم محذوفـا، واشتروا صفة له، والتقدير: بئس شيئا اشتروا به أنفسهم، و(أن يكفروا) بدل مـن ذلك المحذوف، فهو في موضع رفع، أو خبر مبتدأ محذوف تقديره: هو أن يكفروا. وقد ذهب الكسائي إلى ما ذهب إليه هؤلاء من أن (ما) موضعها نصب على التمييز، وثم ما أخرى محذوفة موصولة هي المخصوص بالذم. والتقدير: بئس شيئا الذي اشتروا به أنفسـهم، فالجملة بعد ما المحذوفة صلة لها فلا موضع لها من الإعراب، وأن يكفروا – علـى هـذا القول– بدل، وقال الفراء في رأي الكسائي[59]: "وقد أجازه الكسائي في كتابه على هذا المذهب، قال الفراء: ولا نعرف ما جهته... فهذا قوله وأنا لا أجيزه".

ويجوز على رأي الفراء السابق[60] أن يكون خبر مبتدأ محذوف، أي هو كفرهم، فيكون القول في الجملة بعد ما على أقوال ثلاثة:

1- أن يكون صفة لما هذه التي هي تمييز فموضعها نصب.

2- أن يكون صلة ل(ما) المحذوفة الموصولة، فلا موضع لها.

3- أن يكون صفة لشيء المحذوف المخصوص بالذم، فموضعها رفع.

وذهـب سـيبويه[61] إلى أنها في موضع رفع على أنه فاعل بئس، فقال سيبويه: "معـرفة تامـة، الـتقدير بئس الشيء، والمخصوص بالذم على هذا محذوف، أي شيء اشتروا به أنفسهم" وعزي هذا القول؛ أعني أنها معرفة تامة لا موصولة إلى الكسائي[62]. وقـال الكسـائي أيضـا[63]: "الهاء في به تعود على ما المضمرة، وما الظاهرة موضعها النصب، وهي نكرة".

قبل أن نضع ما نراه قولا واحدا في هذه القضية نرى أولا أن نناقش قولا أورده جل النحاة والمفسرين في حديثهم عن هذه الآية، وثانيا أن نعرض معنى الآية في سياقها.

أولا: يقول الفراء[64]: "وسمعت العرب تقول في نعم المكتفي بما: بئسما تزويج ولا مهر، فيرفعون التزويج ببئسما".

ونرى أن عبارة: (تزويج ولا مهر) عبارة مستقلة جاءت للتعبير عن الدهشة والاستغراب أن يتم زواج بلا مهر، فالواو فيها بمعنى الباء. وفي الجملة أيضا عنصر التنغيم الذي عليه تقوم الجملة أصلا، وبه تؤدي معناه الذي قصد بها، تزويج بلا مهر، أو ولا مهر للزوجة يدفع، إنه لأمر غريب عجيب، فالنغمة الصاعدة هنا تعبر عن معنى الدهشة التي قد نجسدها بقول النحاة استفهام إنكاري محذوف الأداة، ونقول: بل هي جملة فيها معنى الاستفهام الإنكاري وأداته التنغيم ليس غير.

أصبحت الجملة بمثابة المثل وجرت مجراه. ولما أراد المتكلم ذم المضمون الذي جاء في هذه العبارة أدخل عليها عنصر الذم، بل عنصر توكيد الذم، ففي نعم معنى المدح وبئس معنى الذم. كما يقول الزجاج[65] "...نعم مستوفية لجميع المدح، وبئس مستوفية لجميع الذم، فإذا قلت: نعم الرجل زيد، فقد استحق زيد المدح الذي يكون في سائر جنسه.... وكذلك إذا قلت: بئس الرجل، دللت على أنه استوفى الذم الذي يكون في سائر جنسه".

ثانيا: المعنى: يقول الطبري[66]: فمعنى الآية: (بئس الشيء باعوا به أنفسهم الكفر بالذي أنزل الله في كتابه على موسى من نبوة محمد صلى الله عليه وسلم، والأمر بتصديقه واتباعه، من أجل أن أنزل الله من فضله، وفضله حكمته وآياته ونبوته على من يشاء من عباده، يعني به على محمد صلى الله عليه وسلم بغيا وحسدا صلى الله عليه وسلم من أجل أنه كان من ولد إسماعيل ولم يكن من بني إسرائيل).

وهنا نقول: إن أصل الجملة: اشتروا أنفسهم بالكفر بما أنزل الله... ثم تحولت للعناية بالمقدم، والعرب إن أرادت العناية بشيء قدمته، فأصبحت: بالكفر بما أنزل الله...

اشـــتروا أنفســـهم، ثم جاء القيد المحدد وهو الجار وما يليه مرتبطاً باشتروا لأنه أصل الجملـــة فاحتاج إلى ضمير يعود على الكفر يربط الجملة به ويؤكده، فتحولت إلى: الكفر بمـــا.... اشـــتروا أنفسهم به ثم جاءت كلمة الذم بئس، التي نرى أن بعض القبائل كانت تـــنطق بهـــا ومعهـــا ما، وقبائل أخر كانت تنطق بها من غير ما، طبقا للعادات اللغوية السائدة.

فتفـــيد (بئس) استغراق الذم، فتكون مستوفية الذم الذي يكون في سائر جنسه، فهي عنصر طارئ على الجملة ليفيد استغراق الذم، ولا علاقة لها بفعلية أو اسمية. وما كان القول فيها بالفعلية أو الاسمية، وهو أمر شغل النحاة كثيرا وما يزال، فانقسموا فيه إلـــى بصريين وكوفيين ومناصر هؤلاء وأولئك، ما كان القول بالفعلية أو الاسمية إلا من الإحســـاس بضرورة تصنيف كل كلمة في قسم من أقسام الكلمة: اسم أو فعل أو حرف، قبلـــت الكلمة خصائص الاسمية أو الفعلية أم رفضت. فالاسم ما دل على مسمى، والفعل ما دل على حدث وزمن، هذه الألفاظ بئس ونعم وحبذا لا تدل على مسمى ولا على حدث ولا على زمن، فما مقياس إلحاقها بالاسمية أو الفعلية سوى ما ذكرنا.

ونـــرى أن نعـــم وبئس ألفاظ (أدوات) جاءت لتوكيد معنى المدح أو معنى الذم، وهـــو الـــذي عبر عنه الزجاج بقوله[67]: نعم مستوفية لجميع المدح الذي يكون في سائر جنســـه... وبئس مستوفية لجميع الذم الذي يكون في سائر جنسه. وقد فصلنا القول في نعم وبئس ومعناهما في كتاب مستقل فليرجع إليه من شاء مزيدا من التفصيل[68].

اشتروا أنفسهم بالكفر بما أنزل الله...

-بالكفر بما أنزل الله... اشتروا أنفسهم.

-الكفر بما أنزل الله... اشتروا أنفسهم به.

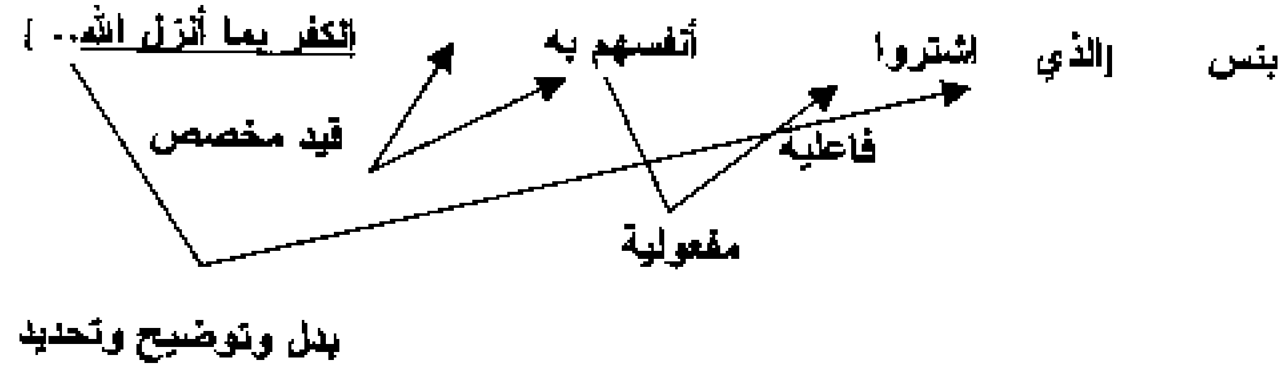
-بئسما (الكفر بما أنزل الله... اشتروا أنفسهم به).

ولكن بعض القبائل العربية كانت لديها عادة لغوية تتعلق بعود الضمير على غير ما كانت عليه جل قبائل العرب، فكانت تجيز عود الضمير على لاحق[69] ، وقد جاءت بعض آيات القرآن الكريم بها "فأوجس في نفسه خيفة موسى" طه: 67.

وعلى هذا يكون دخول (بئسما) مباشرة على الجملة في وضعها الأول، وهكذا: اشتروا أنفسهم به أعني الكفر بما أنزل الله...

بئسما (اشتروا أنفسهم به أعني الكفر بما أنزل الله...)

ونرجح أن بئس، وهي أداة لتوكيد الذّم، قد دخلت على الجملة المكونة من الموصول (ما) وصلته: بئس الذي اشتروا أنفسهم به، ولإزالة الإبهام في الاسم الموصول جيء بالكفر بما أنزل الله... فتكون الدوائر الدلالية للجملة كما يلي:



والقضية الثانية في[70]: (بغيا)، وفيها أقوال:

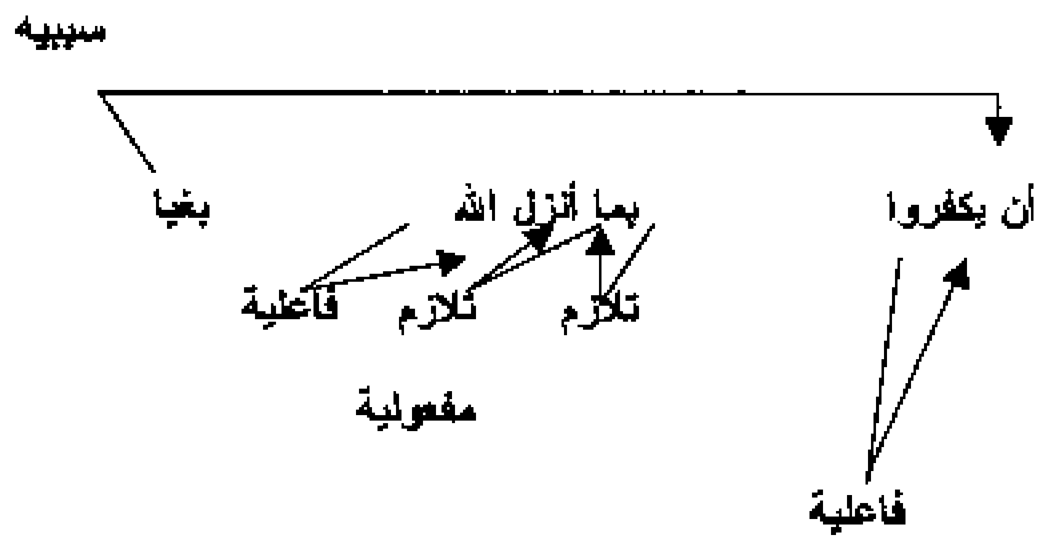
بغيا أي حسدا، فانتصابه على أنه مفعول من أجله، وظاهره أن العامل فيه يكفروا، أي كفرهم لأجل البغي.

وقال الزمخشري[71] (هو علة اشتروا)، فيكون العامل فيه على قوله اشتروا.

وقيل: هو نصب على المصدر وليس مفعولا من أجله وتقديره بغوا بغيا، وحذف الفعل لدلالة الكلام عليه (أن ينزل الله)، أن مع الفعل بتأويل المصدر، وذلك المصدر المقدر منصوب على أنه مفعول من أجله أي بغوا تنزيل الله.

وقيل: التقدير: بغيا على أن ينزل الله، لأن معناه حسدا على أن ينزل الله، أي ما خص الله به نبيه من الوحي، فحذفت على.

إذا كـــان معـــنى بغيا: حسدا، فكيف يمكن أن تذهب إلى أن (بغيا) تكون مفعولا مطلقا إلا بتعسف وجور على المعنى واعتماد على التأويل الذي هو أضعف حجج النحاة. فالـــيهود قـــد استحقوا الغضب على الغضب من الله لما ارتكبوه من كفرهم بعيسى عليه الســـلام، وتحـــريفهم الـــتوراة ثـــم كفـــرهم برسالة محمد صلى الله عليه وآله وسلم[72] (ورجوعهم بعد ما كانوا عليه من الاستنصار له في الاستفتاح به، وبعدما كانوا يخبرون الـــناس من قبل مبعثه أنه نبي مبعوث مرتدين على أعقابهم حين بعثه الله نبيا -بغضب مـــن الله اســـتحقوه منه بكفرهم به وجحدهم بنبوته وإنكارهم إياه، وذلك (حسدا لمحمد صـــلى الله عليه وسلم من أجل أنه كان من ولد إسماعيل ولم يكن من بني إسرائيل[73] ، فيكون الترابط الدلالي للكلمات وارتباطها ببؤرة الجملة كما يلي:



فالعلاقـــة تشير بوضوح إلى ارتباط السببية بين الفعل (يكفر) و(بغيا) على سبيل المفعول من أجله.

هوامش ومراجع البحث

1- وانظر الكشاف 69/1 ، 17.
2- السابق.
3- الكتاب 24/3، والعيني 58/4 والخزانة 173/1.
4- وانظر الكشاف 69/1 ، 71 والسبعة 111، 112.
5- وانظر مشكل إعراب القرآن 72، البحر المحيط 28/1، البيان في غريب إعراب القرآن 1/، إعراب النحاس 125/1.
6- إملاء ما من به الرحمن 8/1.
7- البحر المحيط 28/1.
8- البيان في غريب القرآن 40/1.
9- البحر المحيط 28/1.
10- السابق.
11- السابق والمغني 210.
12- وانظـــر الدر المنثور للسيوطي 41/1. 42 حيث أخرج عن ابن جرير عن أبي زيد أن الضالين هم اليهود، وأخرج عن عبد بن حميد عن سعيد بن جبير أن المغضوب عليهم ولا الضـــالين هـــم الـــيهود والنصارى، وهذه قضية نص عليها علماء التفسير، وهم كثيرون.
13- إعراب النحاس 125/1.
14- دلائل الإعجاز 112.
15- وانظر في نحو اللغة وتراكيبها ص 124 وما بعدها.
16- وانظر الميزان 29/1 وما بعدها، وانظر مجمع البيان 104/1 وما بعدها.
17- الميزان 29/1.
18- وانظر فيها: البيان 66/65/1، مشكل إعراب القرآن 84/83/1 البحر المحيط 122/1/ 124، إعـــراب الـــنحاس 153/1، المســـاعد على تسهيل الفوائد 244/243/1، مجاز القـــرآن 35/34/1 إملاء ما من به الرحمن 22/1، الكشاف 266/1، معاني الفراء 1/ 23/21، معاني الزجاج 103/1، التبيان في تفسير القرآن 111/1، وما بعدها (*).

19- معاني الفراء 23/21/2..

20- السابق.

21- السابق.

22- وانظر المشكل 84/83/1، إملاء ما من به الرحمن 26/1 الكشاف 266/1، البيان 1/ 67/66.

23- إملاء ما من به الرحمن 26/1، وانظر الكشاف 266/1.

24- وانظر الطبري 179/1، التبيان في تفسير القرآن 111/1، معاني للزجاج 103/1.

25- الطبري 178/1.

26- معاني للزجاج 104/1.

27- وانظـر القرطبي 244/242/1 ومثله قول السيوطي في الدر المنثور 104/1 "لم يرد البعوضة وإنما أراد المثل".

28- التبيان في تفسير القرآن 111/1.

29- مجمع البيان 164/1.

30- الميزان 91/1.

31- البحر 123/122/1 وانظر البحر المحيط 124/1.

32- البحر 124/1.

33- السابق.

34- خليل عمايره: أسلوبا النفي والاستفهام في اللغة العربية.

35- انظـر هذه المسألة: الطبري 396/1، القرطبي 20/2، معاني للزجاج 164/1، البحر المحيط 290/1، مشكل إعراب القرآن 103/1، شرح المفصل 11/2، إملاء ما من به الرحمن 48/1، البيان 103/1، معاني الفراء 51/1، الكشاف492.

36- البيان 104/103/1.

37- البحر المحيط 290/1.

38- وانظر البحر المحيط 290/1.

39- البحر المحيط 291/290/1.

40- البحر المحيط 291/290/1، المشكل 103/1.

41- البحر 291/290/1.

42- الطبري 397/1.

43- الطبري 397/396/1.

44- معاني الفراء 50/1.

45- البحر المحيط 292/1.

46- السابق.

47- القرطبي: 22/2.

48- السابق.

49- معاني الزجاج 176/1.

50- الطبري 399/1 وانظر القرطبي 22/2، وتبيان الطوسي 335/1، الميزان 219/1.

51- الطبري399/2.

52- خليل عمايره: أسلوب التوكيد في اللغة العربية

53- انظر في هذه المسألة الطبري 414/1، القرطبي 28/2، معاني الزجاج، البحر المحيط 304/1، مشكل إعراب القرآن 53، البيان 108/1، معاني الفراء 56/1، شرح المفصل 135/7، الإنصاف مسألة 14، الهمع 39/38/5، شرح ابن 181.

54- البحر 304/1، وانظر في معاني الفراء 58/1.

55- السابق.

56- السابق.

57- معاني الفراء 57/56/1.

58- البحر 305/304/1.

59- معاني الفراء 57/1.

60- البحر المحيط 305/1.

61- البحر المحيط 305/1، وقابله بما جاء في الكتاب 155/3.

62- معاني الفراء 57/1، البحر المحيط 305/1، البيان 109/108/1.

63- مشكل إعراب القرآن 105/1.

64- معانـــي الفـــراء 58/1، معاني الزجاج 173/1، الطبري 415/1، وانظر قولا نافعاً في القرطبي 28/2، تبيان الطوسي 346/1، الميزان 222/1، مجمع البيان 312/1.

65- معاني الزجاج 172/1.

66- الطبري 415/1.

67- معاني الزجاج 172/1.

68- خليل عمايره: "أسلوب التوكيد في اللغة العربية".

69- خليل عمايره: "الضمير العائد ولغة أكلوني البراغيث".

70- انظر البحث المحيط 305/1، 306.. معاني الزجاج، 173/1، الطبري 41/1، القرطبي 28/2، والدر المنثور 18/1.

71- الكشاف 296/1 وانظر البحر المحيط 315/1.

72- تبيان الطوسي 349/1.

73- الطبري 410/1.

النظرية التوليدية التحويلية
وأصولها في النحو العربي

النظرية التوليدية التحويلية وأصولها في النحو العربي*

لقــد كانــت بداية الاتجاه في الدراسات اللغوية المعاصرة في الغرب إلى ما هي علــيه، كانــت فــي الآراء والأفكــار التــي نشرت في كتاب[1] Course in General Linguistics الذي نشر سنة 1916م بعد وفاة صاحب هذه الآراء (فردينا دي سوسير) العــالم السويســري (ت 1913)، الــذي يعد بحق رائد المدرسة اللغويةالحديثة. وعلى أفكاره قامت المدارس اللغوية في أوروبا وأمريكا. وربما كانت أول المدارس التي قامت علــى أفكاره مدرسة براغ البنيوية التي ازدهرت سنة 1942م وأفل نجمها 1957 عندما نشر العالم الأمريكي تشومسكي مؤسس النظرية التوليدية التحويلية كتابه[2] Syntactic Structures يضم بين دفتيه بذور النظرية الجديدة التي طورها في كتابه Aspects of the Theory of Syntax فغــدت نظرية متكاملة يمكن تحليل النص اللغوي في ضوئها بطريق أفضل من تلك التي عليها البنيويون[3].

مــنذ سنة 1916م، السنة التي نشرت فيها أمالي دي سوسير سالفة الذكر إلى ســنة 1957م الســنة التي ظهرت فيها النظرية التوليدية، نشأت مدارس كثيــرة لتحليل الــنص اللغوي في أوروبا وأمريكا، وربما كان من أبرزها في أوروبا تلك التي قامت في بريطانــيا علــى يــد العــالم الإنجليزي فيرث Firth ، وتسمى المدرسة الاجتماعية أو الســياقية. أما في أمريكا فكانت مدرسة سابير Sapir الذهنية أبرز المدارس حتى سنة 1939م ثــم تلتها مدرسة Bloomfield السلوكية حتى سنة 1949م ثم مدرسة Harris التوزيعــية، أمــا هــاريس فهو أستاذ تشومسكي وزميله وصديقه القريب. ويرى بعض الباحثيــن أن فكــرة الــنظرية التوليدية جاءت في أعمال الأستاذ، ولكنها اختلطت بأفكار التلمــيذ الــذي طورهــا فعرفت به وعرف بها وانصرف الباحثون عن آراء الأستاذ في

* بحث نُشر أصلاً في المجلة العربية للدراسات اللغوية ـ الخرطوم ـ المجلد الرابع ـ العدد الأول ـ ذو القعدة 1405 هـ ـ أغسطس ـ 1985م.

مدرسته التوزيعية التي كان يرى فيها جوانب نقص وما يزال إلى يومنا هذا بل وجد هو نفسه فيما يذهب إليه تلميذه ما يسد الثغرات في نظريته[4].

لا ريب أن تشومسكي قد وضع نظرية جديدة لفتت انتباه العلماء والباحثين في الغرب ثم امتدت إلى الشرق فأخذ يشتغل في ضوئها العلماء في المعاهد والجامعات الشرقية وفي العالم العربي بخاصة، آخذين بالقوانين التوليدية التحويلية التي وضعها تشومسكي وتنطبق على اللغة الإنجليزية، يطبقونها على اللغة العربية. وهنا نجد أن علينا أن نعرض الأسس الرئيسية التي تقوم عليها هذه النظرية أو مما كتب عنها.

أسس النظرية التوليدية التحويلية:

منذ سنة 1957م أي منذ أن نشر تشومسكي كتابه Syntactic Structures أصبح زعيماً للمدرسة اللغوية في الولايات المتحدة الأمريكية، فقد تجرأ على نقد مدرسة بلومفيلد بخاصة، نقداً قوياً انصب على أهم الأسس التي تقوم عليها، لينشئ على أنقاضها مدرسته التي تحمل أفكاراً تتناقض وأفكار بلومفيلد في كثير من الجوانب وإن كانت تأخذ عنها أو تلتقي معها في بعض النقاط، وكان جلُّ نقد تشومسكي ينصب على الجوانب السلوكية في نظرية بلومفيلد وفي آراء السلوكي المشهور سكنر Skinner الذي كان له أثره في النظرية اللغوية.

يبدو أن النقطة الرئيسية في نظرية تشومسكي، التي قادت تفكيره إلى ما تبعها من أفكاره، هي فكرة (الفطرية اللغوية) [5] في ذهن الإنسان. متخذا من المقابلة بين الإنسان وغيره من الحيوانات، نقطة يعتمد عليها، فالإنسان غير السوي ـــ فضلا عن الذكي القادر ـــ يستطيع إنتاج الجمل والتعبير عما في نفسه، في حين أن أذكى الحيوانات وأكثرها تدريباً وتقبلاً لما يعلمها الإنسان لا يستطيع ذلك. ومما جعل تشومسكي يزداد تمسكاً بهذه الفكرة وتوكيداً لها في نظريته، ما يراه في تدرج الطفل الصغير في الكلام، وفي انتقاله إلى تعلم اللغة، فالطفل[6] يبدأ في سن معينة (سنة أو سنتين) إنتاج الجمل، وما أن يصل إلى سن معينة (السابعة مثلا) حتى يكون قادراً على التعبير عما في نفسه بعدد كبير من الجمل التي لم يكن قد سمعها من قبل، وقادراً أيضاً

ـ إلـى حد معين ـ على إدراك السليم من الجمل التي يسمعها من غير السليم، ويأتي إلـى المدرسة في هذه السن ليتعلم كيف يكتب، ويقرأ، وليس كيف يولد جملا. ومما هو جديـر بالذكـر هـنا أن تشومسكي قد تأثر في هذه النقطة بخاصة بما قاله الفيلسوفان الفرنسـي ديكارت (ت 1650) الذي كان يرى أن الإنسان يختلف عن الحيوان في أن له عقـلا، وأن أهـم خصائص العقل إنتاج اللغة، وهذه نقطة معروفة عند أصحاب المذهب العقلـي. والألماني همبولـت (1767 ـ 1835)، الذي يرى أن اللغة نتاج العقل، وهي الصـوت المـنطوق الذي يعبر به المتكلم عن فكره، وهي (اللغة) نتاج عدد من العمليات الخلاقـة العضـوية غـير الآلـية، تتم في الذهن، ويظهر أثرها على السطح الخارجي بالأصوات والكلمات والجمل، وبها يتم التفاهم بين المتكلم والسامع.

قلـنا إن فكرة الفطرية اللغوية في نظرية تشومسكي، تتمثل حجراً أساساً يعتمد علـيه المبـنى كله، فقد قادته هذه الفرضية إلى فرضية أخرى تتعلق بها، وهي أن هذه الفطرية الذهنية قائمة على عدد من الكليات النحوية (القواعد الكلية) [7] التي تقوم بضبط الجمـل المنـتجة وتنظيمها بقواعد وقوانين لغوية عامة، تخضع لها الجمل التي ينتجها المـتكلم، يختار ما يتصل بلغته من قوالب وقواعد من بين الأطر الكلية العامة في ذهنه، والتـي هـي كلية شمولية عالمية[8] **Universals** متساوية عند بني البشر تكون في الإنسـان مـنذ ولادتـه ويسميها **linguistic acquisition device** وهي فطرية ـ كما ذكرنا ـ تولد مع الإنسان ثم يقوم بملئها بالتعابير اللغوية من المجتمع الذي يعيش فيه، فتنضـج وتقوى بالتدريج. وكلما اكتسب الإنسان ما يملأ به هذه الكليات الفطرية، ازداد الـنمو الداخلي التنظيمي للقواعد الكلية في ذهنه، في جزئية منها. وهي تلك المسؤولة عـن بـناء الجمـل وتركيـبها في لغته، فتتكون لديه القدرة على توليد الجمل وبنائها مضـبوطة بقواعـد وقوانيـن تسمى (القواعد التوليدية) [9] **Generative Rules** فليس الأمـر ـ كمـا يـرى تشومسكي ـ اكتسابا كما يراه السلوكيون يتم بالتقليد والمحاكاة والتخزين في الذهن الذي يولد صفحة بيضاء. فيسمع صاحبه (الطفل) أصواتاً يقلدها، ثم تشـير هـذه الكلمات إلى معان ترتبط بها في ذهنه (دال ومدلول)، ثم يكتسب قدرة على تركيـبها فـي جمـل، ويصبح لهذه الجمل والتراكيب معان هي في جملتها مأخوذة من

معانـــي المفـــردات ودلالـــتها. إذاً فالقواعد والقوانين النحوية المسؤولة عن بناء الجمل وتراكيـــبها فطـــرية (ذهنية كلية عالمية) [10] ، وهي التي تقوم بضبط الجمل بعد توليدها لـــتجعلها جمـــلا نحويـــة أو غـــير نحوية: [11] يدركها المتكلم والسامع المثالي في لغة معينة[12] ، ويسوق مثالين مشهورين:

1) Colourless green ideas sleep furiously,

فهـــذه الجملـــة يدرك المتكلم ـــ السامع الإنجليزية بأنها بلا معنى، ولكنها تنتظم كلماتها طبقا للغة الإنجليزية، ويدرك أن الجملة:

2) Furiously sleep ideas green colourless.

جملـــة بلا معنى ولا انتظام في مفرداتها طبقا لقواعد النحو في اللغة الإنجليزية، فليست جملة (نحوية).

وقـــد ترتب على هاتين الفرضيتين (الفطرية والشمولية) فرضية أخرى تبرز في المصطلحين التاليين: الكفاية Competence والأداء Performance فالكفاية تكون في امـــتلاك المـــتكلم ـــ السامع Ideal speaker-hearer القدرة على إنتاج عدد هائل من الجمـــل مـــن عدد محدود جداً من الفونيمات الصوتية والقدرة على الحكم بصحة الجمل التـــي يســـمعها من وجهة نظر نحوية تركيبية ـــ كما ذكرنا قبل قليل ـــ ثم القدرة على الربط بين الأصوات المنتَجة وتجمعها في مورفيمات تنتظم في جمل، القدرة على ربطها بمعـــنى لغـــوي محدد، ذلك كله يتم بعمليات ذهنية داخلية، يتم التنسيق بينها بما يسمى (قواعد إنتاج اللغة).

وهـــذه القواعـــد والقوانيـــن وتلـــك القدرة كامنة في الذهن، أما استعمالها (أي استعمال اللغة) فيسمى الأداء Performance . فالأداء هو الكلام أو هو الجمل المنتجة التـــي تبدو في فونيمات ومورفيمات تنتظم في تراكيب جملية خاضعة للقواعد والقوانين اللغويـــة الكامـــنة، وهي المسؤولة عن تنظيم هذه الفونيمات والمورفيمات في تراكيبها. فهـــو (الأداء) الوجه الظاهر المنطوق للمعرفة الضمنية الكامنة باللغة، ولكن هذا الوجه

قد لا يحصل بينه وبين الكفاية تطابق تام، فيكون في انحراف (خطأ) ناتج عن عوامل مقامية سياقية، أو ذهنية نفسية اجتماعية .. الخ.

وقد ارتبط بهاتين الفرضيتين فرضيتان أخريان في نظرية تشومسكي هما: البنية العميقة Deep Structure[13] والبنية السطحية Surface structure[14]. أما البنية العميقة فهي الأساس الذهني المجرد لمعنى معين، يوجد في الذهن ويرتبط بتركيب جملي أصولي يكون هذا التركيب رمزاً لذلك المعنى وتجسيدا له. وهي النواة التي لابد منها لفهم الجملة ولتحديد معناها الدلالي وإن لم تكن ظاهرة فيها، فلو أخذنا المثال التالي مثلا للتطبيق:

يشرح المدرس الدرس بطبشورة يكتب بها على السبورة.

فإن هذه الجملة المنطوقة تتكون في الأصل من ثلاث جمل أصولية (نواة) Kernal sentences، تجسد كل واحدة منها معنى عقليا في ذهن المتكلم وهذه الجمل هي:

(1) يشرح المدرس الدرس.

(2) يكتب المدرس بالطبشورة.

(3) يكتب المدرس على السبورة.

فتمثل الجمل الثلاث في مجموعها علاقة بين نقاط رئيسة (المدرس، الدرس، السبورة، الطبشورة) وهذه هي البنية العميقة التي يأتي دور تجسيدها بكلمات متتابعة منطوقة surface structure بنية سطحية، وتأتي هذه البنية السطحية متآلفة من الجمل النواة الثلاث لتكون جملة تحويلية معبرة عن العلاقة بين الكلمات السابقة، كما يلي: يشرح المدرس الدرس بطبشورة يكتب بها على السبورة. بصرف النظر عن الكيفية التي تأتي عليها البنية السطحية هذه، فقد تكون كما ذكرنا قبل قليل، وقد ينطق بها المتكلم مقدماً جزءاً من الجمل النواة على الآخر، فقد يقدم الجزء الثاني على الثالث، أو الثالث على الأول أو ... الخ. وهذا كله لا يقدم ولا يؤخر في المعنى الذي في ذهن

المتكلم أو في الكشف عنه. فالبنية السطحية ـ كما بينا ـ هي الكلام المنطوق المرتبط ارتباطا وثيقاً بالقواعد التحويلية في اللغة. فبها يتم انتظام الكلمات في جمل يعبر بها المتكلم عن علاقة ذهنية مجردة (معنى) بكلمات محسوسة منطوقة ويسوق تشومسكي المثل التالي ليوضح هذه النقطة:

الله الذي لا يُرى خلق العالم المرئي.

فهذه جملة تحويلية، وهي البنية السطحية لمعان ذهنية مجردة يمكن تمثيلها بالجمل النواة التالية:

الله لا يُرى.

العالم مرئي.

خلق الله العالم.

فيتم ربطها ببعضها، أو يتم تحويلها، لتظهر في الجملة التحويلية الكبرى: الله الذي لا يُرى خلق العالم المرئي. ويتم هذا التحويل بواسطة عدد من العناصر التي تستخدم لربط الجمل النواة ببعضها، لا مجال لذكرها هنا، فترمز الجملة الكبرى إلى المعنى الذهني المجرد الكامن في ذهن المتكلم، وهو ذو دور رئيسي في الوصول إلى المعنى الدلالي للتركيب الجملي.

وهنا تبرز نقطة جديدة في نظرية تشومسكي؛ وهي فرضية بعيدة المنال ـ فيما نرى ـ مع أنه يعول عليها، ويوليها أهمية كبرى وهي (الحدس Intuition) ويقصد بالحدس حدس الباحث للوصول إلى نية المتكلم المتبادر على إنتاج الجمل من جهة، وعلى الحكم بصحة أو خطأ ما يسمع، وحدس الباحث أيضاً في الوصول إلى معرفة المتكلم بلغته معرفة ضمنية بالملاحظة وغيرها من وسائل البحث، ليتوصل إلى استنباط قواعد اللغة وقوانينها.

وقد أوجد تشومسكي عدداً من الطرق لتحليل الجمل، مستخدماً الرموز الرياضية لتوضيح البدهيات التي يحتاجها السامع، ويعتمد في وضع هذه الطرق التي يمكن

حصـــرها فـــي ثلاث، على الإطار الرئيسي الكلي في نظريته، وهو أنّ هناك جهازاً يضم عـــدداً مـــن الرموز والكلمات التي ترتبط بمعجم دلالي، وتتضام في جمل خاضعة لقواعد وقوانيـــن كلـــية عالمـــية Universals[15] وتـــتحرك هـــذه الرموز والكلمات في الأطر القواعديـــة بعمليات ذهنية داخلية لتنتج عدداً لا حصر له من الجمل التي تعبر عن ترابط المعانـــي فـــي الذهـــن Deep structure، ثـــم تتحد لتصدر منطوقة مكونة بذلك جملة تحويلية تخرج طبقاً لقواعد التحويل[16] Transformational Rules.

فممـــا هـــو واضـــح مما عرضناه من الأسس الرئيسية التي تقوم عليها نظرية تشومســـكي التولـــيدية التحويلية أنها تعتمد على ركن خفي لم يبرز ذكره كثيراً مع أنه يمثل حجر الأساس فيها وهو الاعتماد على أصل وفرع في الجمل، فالأصل فكرة والفرع كيفـــية إخراج هذه الفكرة والأصل بنية عميقة، فرعها البنية السطحية كيفما تكون، وفي الجملـــة التـــي تحمل البنية السطحية كلمات أصل، وأخرى فروع يرمزون للأولى بكلمة unmarked word وللثانـــية marked words والأولـــى عندهم وثيقة الصلة بالبنية الأصـــل (البنـــية العمـــيقة Deep structure) والثانية لها صلتها الوثيقة بالبنية الفرع (البنـــية الســـطحية Surface structure) فالجملة، مثلا The teachers approved these things فـــيها كلمات teachers, approved, these, things كلمات من الصنف الثانـــي marked words وهـــي متصلة بفرع في الجملة هو الهيئة التي ظهرت عليها الجملـــة محولـــة عن أصل ذهني مجرد يلحظ في الذهن ولا يمس أو يجسد بالكلمات في هذه الجملة، فهو ماثل هنا في قوالب الذهن على النحو التالي:

teacher, approved, these, things وهكذا عندما نستعمل بدلا من كلمات التذكير في هذه الجملة أو قبلها كلمات تشير إلى المؤنث، فهو انتقال من أصل ذهني مجرد إلى فرع منطوق مجسد.

وإن كـــان لنا أن نستشير كتاب سيبويه في هذه القضية فإننا نجده قد نص على مـــثل هـــذا، يقول: وإنما كان المؤنث بهذه المنزلة، ولم يذكّر كالمذكر، لأن الأشياء كلها أصـــلها التذكير ثم تختص بعد، فكل مؤنث شيء، والشيء يذكّر، فالتذكير أول وهو أشد

تمكــناً، كمــا أن الــنكرة أشد تمكنا من المعرفة، لأن الأشياء إنما تكون نكرة ثم تعرّف. فالتنكــير قــبل وهــو أشد تمكنا، فالأول أشد تمكناً عندهم، فالنكرة تعرف بالألف واللام والإضــافة، وبــأن يكون علماً، والشيء يختص بالتأنيث فيخرج من التنكير كما يخرج المنكور إلى المعرفة[17].

وإذا مــا انتقلــنا من كتاب سيبويه إلى غيره من كتب التراث فإننا نجد أن هذا البــند يعــد من أهم البنود التي قامت عليها كتب الأصول في النحو وفي ضوئه تم بناء الــنظرية النحوية فيها، ومثالها كتاب ابن السراج (الأصول) وكتاب (الكواكب الدرية في تــنزيل الفــروع الــنحوية على الأصول الفقهية) للأسنوي، وكتب الخلاف، مثل: كتاب الإنصاف في مسائل الخلاف بين النحويين الكوفيين والبصريين للأنباري، وكتاب: مسائل خلافــية للعكبري واللمع والاقتراح وغيرها. وهنا نسوق عدداً من النصوص التي تشير إلى ما نذهب إليه:

مــن تمســك بالأصل خرج عن عهدة المطالبة بالدليل. ومن عدل عن الأصــل افتقر إلى إقامة الدليل[18].

1. لا حــذف إلا بدلــيل[19] فالأصل الإظهار والحذف فرع عليه. ومثل هذه القاعدة قولهم: ما حذف للضرورة لا يكون أصلاً يقاس عليه[20].
2. إذا لــم يصــح سماع الشيء عن العرب لجئ فيه إلى القياس. فالأصل ما سمع عــن العــرب هــو ما يقاس مما يستجد في اللغة على المقيس عليه في لسان العرب.
3. القليل لا يعتد به[22] فالأصل كثرة ورود الظاهرة اللغوية، والفرع قلتها في اللغة وإن كانت عمن يوثق بعروبته.
4. الفرع لابد أن يكون فيه الأصل[23] ففي التعريف أصل مجرد ذهني وهو التنكير، وفي التأنيث أصل ذهني يتصل ببنية عميقة هو التذكير، ويقولون (والفرع دائماً أضعف من الأصل)[24] ويقولون: يجوز أن يثبت للأصل ما لا يثبت للفرع[25].

وانظر إلى هذه القاعدة التجريدية الذهنية التي ترتبط بالبنية العميقة وإن لم يكن لهـا ظهـور، أو قل: لم يكن لها وجود في البنية اللغوية المنطوقة. يقول الأنباري: (قد يستعمل الفرع وإن لم يستعمل الأصل ثم لا يخرج الأصل بذلك من كونه أصلا ولا الفرع عن كونه فرعاً)[26].

والنصـوص فـي هذا البند كثيرة يمكن جمع العشرات منها من كتب التراث في المكتبة النحوية اللغوية. أورد منها نصوصاً سريعة واضحة الدلالة على ما نذهب إليه:

1. الأصل في الكلام أن يكون على لفظه[27].
2. الأصل في تحمل الضمير أن يكون للفعل[28].
3. الاسم هو الأصل والفعل فرع[29].
4. الأصل في الأسماء الصرف[30].
5. الأصل في الأسماء التنكير فهو أول أحوال الكلمة[31].
6. الأصل في الأفعال البناء[32].
7. الأصل في الأسماء ألا تعمل[33].
8. الأصل في الظرف ألا يعمل[34].
9. الأصل في حروف الجر ألا تعمل مع الحذف[35].
10. الأصل في الفعل ألا يعمل في الفعل[36].

هـذا فـي القواعـد الأصـول في تراكيب اللغة ونحوها. ولا نظن أن الجانبين الصـوتي والصرفي يقلان عن النحو في اعتماد علمائهما الفكرة الذهنية المجردة القائمة علـى الأصـل والفـرع في بناء قواعد الصرف وقوانين الأصوات. ويكفي أن اللغويين وعلـى رأسـهم أسـتاذهم الخليل بن أحمد قد وضعوا الأصوات (أصوات الحروف) في أصـول رمزوا لها أ، ب، ت، ث، ج، ح، خ، .. الخ. وحددوا مخرج كل من هذه الأصول فـي جهـاز الأصـوات ثم بينوا صفته دون اعتبار لكيفية خروجه عند ارتباطه بغيره.

فالأصـــل في صوت النون أن يكون هكذا (نَ) بفتحة كما عند اللغويين بعامة[38] ويسكون كمـــا هو عند ابن جني الذي يرى أن الحركة تقلق الحرف[39] ، ولكن هذا الصوت يخرج إلـــى فروع ندركها في المباني التالية: منفك، من رأى، منقلب، من يئس، ... الخ. وهذا مـــا يذهب إليه أصحاب علم اللغة المعاصر وبخاصة أحد أبرز من يعتمد عليه تشومسكي فـــي الجانب الصوتي في نظريته التوليدية التحويلية، وهو رومان ياكبسون، في التفريق بيـــن الفونـــيم والألوفـــون. فالفونيم هو الأصل وأما الألوفون فهو الفرع، وهو الكيفية الصوتية التي يأتي عليها الفونيم إذا ما دخل في تركيب صرفي.

أمـــا فـــي الصـــرف فلا نظن أننا بحاجة إلى شرح مفصل لإيضاح فكرة الأصل والفرع فيه، ويكفي أن نذكّر به بأمثلة نسوقها:

الأصل: قَوَلَ، والفرع قال وإن لم يكن الأصل مستعملا.

الأصل: بَيَعَ، والفرع باع، وإن لم يكن الأصل مستعملا.

الأصل: رَدَدَ، شَدَدَ والفرع ردَّ ، شدَّ، وهما مستعملان.

وفـــي قولهم الأصل في هذه الألف ياء وفي تلك واو، وهكذا في الإدغام والقلب والإعلال والإبدال وهذا لا يخفى على أحد من المثقفين فضلا عن المتخصصين.

وأمـــا النقطة الثانية التي نراها أصلا في النظرية التوليدية التحويلية في التراث العربـــي فهـــي قضـــية تجريد القاعدة النحوية وارتباطها بالكلام المنطوق عن طريق ما يسمى في كتاب النحو العربي بالعامل. ولا نرى أن علينا في هذا المقام أن نتحدث كثيراً عـــن اخـــتلاف الـــنحاة حول فكرة العامل، إذ منهم من جعله المتكلم ومنهم من رده إلى العلـــي الأعلى (إلى الله) ومنهم من جعله الكلمة مذكورة في الجملة أو مقدرة فيها. وهذا أمـــر معـــروف. ومن شاء مزيداً من التفصيل فعليه أن يرجع إلى كتب ابن فارس وابن جني وابن مضاء القرطبي[40].

والـــذي يعنينا في هذا المقام أن الكلام، المنطوق أو المكتوب، لابد أن ينتظم في الإطـــار الجملي في ضوء القاعدة النحوية أو القانون اللغوي الذي هو ذهني تجريدي لا

يذكــره الإنسان ولا يتذكره إلا إذا ذُكِّر به أو طُلب منه التعليل لما يقول. نقول مثلا: بلّغ محمــد الرسالة، برفع (محمد) ونصب (الرسالة). وعندما يطلب منّا التعليل نقول: محمد فــاعل وقع منه الفعل، وكل اسم أسند عليه العمل أو قام مقامه، فهو فاعل ولابد للفاعل أن يأخذ علامة حالة الرفع، فيسأل سائل: كيف إن تقدمت كلمة (محمد)؟ فتكون الإجابة: إنـــه لـــم يعـــد فـــاعلا وأصبح مبتدأ، وهنا يحصل التباين بين القاعدة الذهنية المجردة والمعنى الدلالي التركيبي[41] ، فــ (محمد) فاعل في حقيقة الأمر تقدم أو تأخر (وبهذا قال أهــل الكوفــة) [41] ولكن القاعدة تنص على أن الفاعل لا يتقدم فعله، والمعمول لا يتقدم عاملـــه، فهو مبتدأ خبره الجملة الفعلية بعده، الجملة التي فاعل الفعل فيها ضمير يعود على (محمد)، بل هو ذاته في حقيقة الأمر.

وقــد ترتب على فكرة العامل هذه نقاط واضحة الأثر في بناء النظرية النحوية. نعرض أهمها هنا مقابلة بما جاء في نظرية تشومسكي التوليدية التحويلية:

1- فكــرة الترتيــب word - order . يرى تشومسكي أن هذا العنصر شأنه شأن العناصــر الأخــرى التــي سنعرضها فيما يلي من نقاط ــ لا يكون إلا للربط بين أجزاء الجملـــة فـــي بنيـــتها السطحية Surface Structure، ولا علاقة له بالبنية العميقة أو التحتية Deep Structure فينظر إلى الجملة التالية مثلا: الرسول بلّغ الرسالة، تساوي في معناها المعنى الذي تؤديه الجملة في أي ترتيب آخر لها مثل:

بلّغ الرسول الرسالة

الرسالة بلّغ الرسول

ولكــن هذه الفكرة عند النحاة العرب تعد من أهم العناصر في إبراز المعنى في جزء من أجـــزاء الجملة، وقد نص سيبويه وغيره من النحاة[42] على أن العرب إن أرادت العناية بشيء قدمته، ويقول الجرجاني (الكلمات تقتفي في نظمها آثار المعاني (ويكون) ترتيبها علـــى حســـب ترتيب المعاني في النفس) [43] ويقول في موضع آخر: (والترتيب فن من الفـــنون التـــي يـــأخذ بها الفصحاء وأصحاب اللسان في الأساليب وأولئك الذين يجيدون التصرف في القول ووضعه الموضع الذي يقتضيه المعنى) [44] ولن نطيل في نقل ما نراه

يبيــن دور الترتيب في إبراز المعنى فيما نجده في كتاب دلائل الإعجاز وسنكتفي من هذا البــاب بالإشـــارة إلــيه ليرجع إليه من أراد التفصيل، يقول: (هو باب كثير الفوائد، جم المحاســن واسع التصرف، بعيد الغاية ..) [45] وليس دوره عند الجرجاني بأكبر مما هو عــند سيبويه، يقول سيبويه: "فإن قدمت المفعول وأخرت الفاعل، جرى اللفظ كما جرى فــي الأول، وذلــك كقولــك: ضرب زيداً عبدُ الله لأنك إنما أردت به مؤخراً ما أردت به مقدمــاً، ولــم ترد أن تشغل الفعل بأول منه، وإن كان إنما يقدمون الذي بيانه أهم لهم، وهــم ببــيانه أعــنى، وإن كانا جميعاً يهمانهم ويعنيانهم" [46] ، وهذا هو دور الترتيب في إبــراز المعنى عند المفسرين يقول القرطبي ".. إن قيل: لِمَ قُدم المفعول على الفعل؟ قيل له: اهتماما، وشأن العرب تقديم الأهم" [47].

2- الــزيادة: الــزيادة فــي الــنظرية التوليدية التحويلية تكون للتحسين في البنية السطحية ولا أثر لها في البنية العميقة عند تشومسكي نقول مثلا: قلت خيراً؛ فتضم هذه الجملــة بنية عميقة تبقى هي ذاتها عندما تتغير البنية السطحية إلى بنية أخــرى، مثل: قلت: إن الله عليم حكيم. وذلك لأن الاثنتين تعبران عن فكرة واحدة. وتبقى هي ذاتها لو غُيِّر ما جاء بعد (قلت) بأيَّة جملة أخرى تفيد معنى الخبر.

ولكن الزيادة عند النحاة العرب تعني شيءاً آخر، إذ إنها ترتبط بعدد من المباني الصــرفية التي لا دور لها في المعنى عند النحاة، ولها دور في المعنى بارز واضح عند المفسرين والبلاغيين، وهذا قسم منها:

1- حروف الجر الزائدة التي عبَّر عنها النحاة بقولهم: دخولها كخروجها، مثل:

لست عليهم بمسيطر

ما تسقط من ورقة إلا يعلمها الله

ما رأيت من أحد [48]

أمــا عــند المفســرين والبلاغيين فلها دور التوكيد ـ توكيد النفي ـ ويبدو أن الذي دفع النحاة للقول بالزيادة هنا ليس ما يسمونه (دخوله كخروجه) وإنما هو الحاجة

إلــى الاســم الذي بعد حرف الجر ليأخذ حركة أخرى غير الحركة التي طبعه بها حرف الجـر، النصـب فــي الجملة الأولى خبرا لليس، والرفع في الثانية فاعلا للفعل تسقط، والنصـب فـي الثالـثة مفعولا به للفعل المتعدي (رأى) فقالوا: مجرور لفظا مرفوع أو منصوب محلا... الخ يقول سيبويه في تعليقه على الباء في: ليس زيد بجبان أو بخيلا.. لأن الـباء دخلـت على شيء لو لم تدخل عليه لم يخل بالمعنى، ولم يحتج إليها، ولكن نصبا، ألا تراهم يقولون: حسبك هذا، فلا يتغير المعنى) [49].

2- فـي ضمير الفصل، على اختلاف بين الكوفيين والبصريين، فعلى الرغم من أن نظـرهما مـع وجهـة نظر المدرسة التحويلية الحديثة في أن الضمير جاء في التركيب الجملـي الظاهر ـ المنطوق أو المكتوب ـ أو كما يعبر عنه التحويليون جاء في البنية السـطحية ولا دور له في البنية العميقة، يقول سيبويه: "واعلم أن ما كان فصلا لا يغير مـا بعده عن حاله التي كان عليها قبل أن يذكر. وذلك قولك: حسبت زيداً هو خيراً منك. وكـان عـبد الله هو الظريف. قال الله عز وجل (ويرى الذين أوتوا العلم الذي أنزل إليك من ربك هو الحق). فصارت (هو) هاهنا وأخواتها بمنزلة (ما) إذا كانت لغوا في أنها لا تغير ما بعدها عن حاله قبل أن تذكر" [50].

3- الحـذف، يـرى أصحاب المدرسة التحويلية أن الحذف لا يغير كثيراً في البنية العمـيقة فـي الجملـة، فالقائل: كَسَرَ عليٌّ القلَم، إنما يرمي إلى التعبير عن فكرة ذهنية عميقة لا يغير فيها شيئاً عندما يقول: كُسِرَ القلَمُ، وهكذا الأمر في هذه الأداة تأتي للربط والتنسـيق فـي الجملة مثل: You are telling me you will be there tomorrow. فإن الأسلوب السليم في اللغة الإنجليزية يقتضي أن تضاف that بيـن الضميرين you, me ولكـنها (لمّا) لم يكن لها دور في البنية العميقة جرت ألسنة المتحدثين بالإنجليزية بحذفها ولو نظرنا إلى موقف النحاة العرب من هذه الظاهرة، فإننا سنجد أن رأيهم يماثل مـا يقولـه التحويلـيون، أو أن رأي التحويليين يماثل ما يقوله النحاة العرب القدماء، ونلمس هذا مثلا في

علي فهم الدرس	(الفاعل المضمر العائد)
إذا السماء انشقت	(الفعل بعد الأداة المختصة).
حضرت حتى أناقش هذا ..	(أن بعد حتى)
إياك الإهمال	(في التحذير) وفي غيرها من الأبواب.

فهناك ضمير (هو) محذوف مقدر بعد الفعل (فهم) في الجملة الأولى، وفعل مقدر بعد (إذا) تقديره انشقت (يفسره المذكور بعده في الثانية) وأداة (إن) بعد حتى تنصب الفعل (أناقش) في الثالثة. وهنالك عامل بعد إياك يعمل النصب في الإهمال في الجملة الرابعة، وكذلك الحال في الاختصاص والتحذير والنداء، وأن ظهور الكلمات المقدرة لا يغير في البنية العميقة شيئاً، وإن ظهرت فلن يكون لها دور إلا في التركيب الجملي، أي في المبنى وليس في المعنى. يقول سيبويه في حذف المبتدأ: "هذا باب يكون المبتدأ فيه مضمراً، ويكون المبنى عليه مظهراً، وذلك أنك رأيت صورة شخص فصار آية لك على معرفة الشخص. فقلت: عبد الله وربّي. كأنك قلت: ذاك عبد الله، أو هذا عبد الله، أو سمعت صوتا فعرفت صاحب الصوت فصار آية لك على معرفته فقلت: زيدٌ وربّي، أو مَسستَ جسدا أو شممت ريحا فقلت: زيدٌ، أو المسك، أو ذقت طعما فقلت: العسل"[51].

وقد تفرع من هذه العناصر عناصر أخرى قال بها التحويليون. وظهورها عندهم لا يضيف إلى المعنى شيئاً كالتبعية في مثل :الطالبان مجتهد + ان

والإحلال في مثل: رفع الله السماء

السماء رفعها الله

وهذان عنصران موقف النحاة العرب فيهما معروف في المطابقة في العنصر الأول وفي الاشتغال في العنصر الثاني.

والذي نراه أننا نستطيع أن نأخذ من النظرية التوليدية التحويلية شيئاً من المنهج وشيئاً من المصطلحات، ونغير معنى المصطلحات ودلالتها لتنطبق على اللغة العربية. فننظر إلى الجملة على أنها تقسم إلى قسمين توليدية وتحويلية قبل أن تقسم

إلــى اسمية وفعلية، وبذا يكون هذان القسمان حلقة سابقة على تقسيم الجملة المعروفة عــند النحاة فتكون الجملة التوليدية هي الجملة التي تحقق التعريف الذي نأخذه بتصرف من شرح ابن يعيش: هي الحد الأدنى من الكلمات التي تفيد معنى يحسن السكون عليه، وتســير فــي ترتيب مبانيها طبقاً لنظم الجملة الصغرى (الأصل) فيما يقاس على ما جاء عــن العــرب ويــتم انتقال هذه الجملة (التوليدية) إلى جملة تحويلية لغرض في المعنى بواحد أو أكثر من خمسة عناصر نحصرها في ما يلي:

1. الترتيب.
2. الــزيادة (مع مراعاة البنية الشكلية للجملة العربية، والمعنى اللغوي أو النحوي الذي يأتي به عنصر الزيادة).
3. الحذف.
4. الحركة الإعرابية.
5. التنغيم.

وكان بودنا أن نفصل القول في هذه النقاط لولا إننا إن فعلنا نكون قد ابتعدنا عما أريد لهذا البحث أن يكون عليه فيما جاء في عنوانه.

الهوامش

(1) انظر F. de Saussure, Course in general linguistics, McGraw-Hill Book, New York, pp. 65-95

(2) انظر N. Chomsky, Syntatic structures, Nouton and Co. The Hague, 1965, pp. 49-61

(3) انظر N. Chomsky, Aspects of the theory of syntax, M.I.T. Press, 1966, pp. 128-148.

(4) انظر تفصيل هذه المدارس وآراء أصحابها وعلاقة كل مدرسة بالأخرى في كتابنا (في نحو اللغة تراكيبها) عالم المعرفة ـ جدة 1984.

(5) انظر N. Chomsky, Aspects.

(6) انظر Ibid, pp. 25-27.

(7) انظر Ibid, pp. 35-55

(8) انظر Ibid, pp. 45-47.

(9) انظر Ibid, 106-111, 87.

(10) انظر N. Chomsky, Aspects, pp. 35-55.

(11) انظر Ibid, pp. 63-89

(12) انظر Ibid, pp. 3-10.

(13) انظر Ibid, pp. 10-25.

(14) انظر Ibid, pp. 16-18.

(15) انظر Ibid, pp. 25-29.

(16) انظر Ibid, pp. 35-55.

(17) انظر Ibid, pp. 89-98.

(18) سيبويه: الكتاب 129/2، ابن السراج: الأصول 175/1.

(19) الإنصاف: مسألة 104.

(20) الإنصاف: مسألة 104.

(21) الإنصاف: مسألة 72.

(22) ابن السراج: الأصول 101/1.

(23) الإنصاف: 28.

(24) الإنصاف: 28.

(25) الإنصاف: 16.

(26) الإنصاف: 28.

(27) ابن السراج: الأصول 66/1.

(28) الإنصاف: 7.

(29) الإنصاف: 29.

(30) الإنصاف: 106.

(31) الإنصاف: 70.

(32) الإنصاف: 72.

(33) الإنصاف: 5.

(34) الإنصاف: 6.

(35) الإنصاف: 57.

(36) الإنصاف: 84.

(37) انظر كتاب العين 5/1-57 وانظر كتاب سيبويه 431/4-433.

(38) ابن سينا: أسباب حدوث الحروف. الفصل الثالث.

(39) انظر: ابن جني: سر صناعة الإعراب 6/1-9، 19.

(40) انظـــر: ابـــن جنـــي: الخصـــائص 34/1، ابن مضاء: الرد على النحاة، ابن فارس: الصاحبي ص3-7.

(41) انظر الفراء: معاني القرآن، ومجالس ثعلب.

(42) انظر أبو حيان: البحر المحيط 42/7.

(43) الجرجاني: دلائل الإعجاز ص40.

(44) الجرجاني: دلائل الإعجاز ص83.

(45) السابق 83.

(46) سيبويه: لكتاب 34/1.

(47) تفسير القرطبي 145/1

(48) انظر تفصيل هذا في كتابنا: في نحو اللغة وتراكيبها

(49) سيبويه: الكتاب: 32/1.

(50) السابق 394/1.

(51) سيبويه: الكتاب 279/1.

حلقة الوصل بين الألسنية الحديثة والنحو العربي

حلقة الوصل بين الألسنية الحديثة والنحو العربي*

وحـد اللغـة مجموعة من الأصوات التي تآلفت تآلفا اعتباطيا عشوائيا، فكونت مجموعـة مـن المبانـي الصـرفية التي أصبحت الدوال لمدلولات تستدعيها، وتقتضي صـورتها اقتضـاء اجتماعـيا عرفيا، بعد أن كانت مع مدلولها - كسابقتها- في علاقة اعتباطـية عشـوائية، فالكلمـات: رجـل وفرس وحائط (وهي أمثلة تعريف الاسم عند سيبويه) تستدعي كل واحدة منها صورة معينة طبقا لموروث دلالي اجتماعي، أخذ بُعدا عرفيا قسريا، يعاقب من يخرج عليه، بالإعراض عنه وعدم إجابته، أو بنقده ومهاجمته، ثـم تسـتخدم المبانـي الصـرفية فـي تراكيـب لغوية، يؤدي كل تركيب معنى معينا، يحمـل فـي مجملـه فكـرة المـتكلم عـن العلاقة الذهنية بين صور جزئيات التركيب، أو يطلـب مـن السـامع توضـيحا لهذه العلاقة، أو يكلفه مشاركة القيام بها أو بشيء منها.

تنـتظم المبانـي الصرفية في التركيب اللغوي في لغة ما، طبقا لكيفية اجتماعية وقوانيـن، وصـفية فـي بدايتها، معيارية في نهايتها، عشوائية في نشأتها على ألسنة المتحدثيـن بتلك اللغة، مرنة الاستعمال في توالي العصور، متأثرة بما يكون المجموعة التـي تـتحدث بها من عوامل التأثير والتأثر، تراكيبها قابلة للزيادة أو الحذف أو إعادة ترتيـب مبانـيها، ليتمكن المتكلم من نقل إحساسه الحقيقي بالعلاقة الذهنية بين الصور التـي يتألف منها التركيب (بكلمات منطوقة أو مكتوبة)، فتجسد العلاقة الذهنية، وتكون دليلا يقود إليها، أي إلى ما يسمى بالمعنى الدلالي.

---

* الأصل محاضرة ألقيت في 1407/8/7هـ ، 1987/4/5م، النادي الأدبي في مدينة جدة، المجلد السابع، 1409/1/15هـ، 1988/8/27م.

علـــى الـــرغم مـــن أن مصطلح (المعنى الدلالي) من أكثر المصطلحات غموضا واتساعا في الدراسات اللغوية والأدبية والنقدية، مع كثرة استعماله كثرة تكاد تزيد على اســتعمال أي مصطلح آخر فيها، إلا أننا سنحاول هنا أن نجعله المحور الرئيس لحديثنا عـــن بؤرة محاولات المدارس اللغوية المعاصرة في تحليل النصوص، وكذلك نجعله في حديثـــنا عن المنهج الذي سار عليه نحاة العربية القدماء، ونجعل له كذلك الموقع نفسه في محاولة الربط بين ما وصل إليه السلف الصالح من نحاة العربية ومعطيات الدراسات اللغوية الحديثة.

إنّ حصر المدارس التي تحدثت عنه، واختطت كلٌ لنفسها منهجها الذي ترتضيه وتباهـــي غـــيرها بـــه، بل تعلن بأنها الأكمل في تحليل المنطوقة اللغوية في النصوص، والوصول إلى المعنى الدلالي، إن حصر هذه المدارس والحديث عن مناهجها يحتاج إلى جهـــود مجموعـــات من الباحثين، فضلا عن أن نتحدث عنه في صفحات قليلة محدودة، ولكنـــنا ســـنعمل على عرض سريع لأهم ما جاءت به أهم هذه المدارس، لنرى أين تقع دراساتنا اللغوية في هذه السلسلة المتصلة من المعرفة الإنسانية التي أخذت المخترعات الحديثة، وما توصل إليه الإنسان من وسائل الاتصال تلح، بل تحتم الاطلاع عليها؛ لأخذ السمين منها وترك الغث.

يرى كثير من الباحثين المعاصرين أن رأس الدرس اللغوي المعاصر في الغرب، هـــو العـــالم السويسريّ دي سوسير (1857– 1913م)، بعد أن نشر كتابه (محاضرات فـــي علـــم اللغة العام) بعد وفاته بثلاث سنوات، فترك هذا العالم بما جـــاء في كتابه من أفكـــار أثـــره فـــي العلمـــاء الذين جاءوا من بعده إلى يومنا هذا، يوجه كل منهم عبارة سوســـير زاعما أنه أدق من غيره وأقرب إلى فهم كنه ما أراده الرائد. ولعل من المفيد أن نكتفـــي مـــن اللغويـــن الذين تأثروا بدي سوسير بأصحاب المدارس التي بحثت في المعـــنى مكونة مدارس نحوية، أو أن معالم المدرسة النحوية ماثلة في ما يذهبون إليه. ونرى أن من المفيد حقا أن نذكر عددا من أهم النقاط التي جاءت في محاضرات سوسير مما بنى عليه العلماء من بعده.

فرق سوسير بين الكلام واللغة، فاللغة هي مخزون جمعي من اتفاقات التواصل الضـــرورية لأفراد أمة معينة، مخزون كامن في أذهانهم بالقوة، يستخدمه الفرد الواحد فـــي ما يسمى بالكلام استخداما ناقصا، يعبر به عما في ذهنه، طبقا لملكته وقدرته على استخدام هذه الملكة سيكولوجيا وفيزيولوجيا.

ولعـــل ممـــا يتصل بهذه النقطة بسبب، أن سوسير يرى -كما يرى غيره- أن اللغـــة المنطوقة هي الأصل جاءت المكتوبة لتجسده، رموزا له، فنشأ بذلك بند آخر من بنود أفكار سوسير، وهو العلاقة بين الدال والمدلول، المدلول: الذي هو التصور الذهني، والـــدال: الـــذي هـــو الصورة السمعية التي قد تأتي مكتوبة في هيكل لا يزيد على كونه رمـــزا مجســـدا للصـــورة الصوتية السمعية، والارتباط بين الدال والمدلول ارتباط ذهني ســـيكولوجي اتحـــدت أصواته (كما يرى عبد القاهر الجرجاني في دلائل الإعجاز) اتحادا عشـــوائيا اعتباطـــيا، ثـــم ارتبط هو بمدلوله بالرابطة نفسها، حتى إننا لنقول بأن القائل الأول لكلمة (ضرب) لو كان قد قالها (ربض) لما كان في ذلك ضير أو فساد، ولكنها بعد أن تتحد بمدلولها تأخذ بعدا اجتماعيا قسريا، ليس من اليسير أن يتغير.

ومـــن أبـــرز الـــنقاط التي قال بها سوسير أيضا، فكرة العمل الأفقي والعمودي للـــنظام اللغـــوي فـــي الجملة، ويعتمد على العمل الأفقي في إبراز الترابط بين مركبات الجملـــة من فعل وفاعل ومفعول، أو من مبتدأ وخبر، في نسق يتسق مع ما عليه قواعد اللغـــة موضـــوع الـــدرس. ويعـــتمد على العمل العمودي في الكشف عن المعنى بإبراز العناصـــر التي يمكن أن يتم تبادلها مع كل كلمة من كلمات الجملة تبادلا عموديا، فيعمل الاثنان (الأفقي والعمودي) معا لمساعدة المتكلم في الوصول إلى ما يريد، والسامع لفهم ما يسمع في علاقات استبدالية أو تركيبية.

ولدراســـة اللغـــة فـــي مـــا يظهر بوضوح عند سوسير منهجان: أحدهما وهو المسمى التزامني، **Dynchronic**: تتم به دراسة اللغة دراسة وصفية: ما هي عليه، أو ما كانت عليه في فترة محددة من تاريخها، استنادا إلى الملاحظات التي تتم على المبنية أو المـــنظومة اللغويـــة في تلك الفترة المحددة. والثاني: وهو المنهج المسمى التزمني

Diachronic، فتتم بها دراسة اللغة من حيث تطورها دراسة مقارنة لهجة بلهجة، أو لغة بلغة، أو لغة أو لهجة في فترة معينة، معها في فترة سابقة عليها أو لاحقة بها. وقد أصبح المنهج الأول (التزامني) هو المنهج الذي يرتضيه أصحاب المدرسة البنيوية، في حين أخذ أصحاب المدرسة التاريخية بالمنهج الثاني.

ذكـــرنا ســـابقا بأننا سنكتفي بعرض سريع لأهم المدارس اللغوية ذات الأثر في الـــدرس النحوي، فنعرض بإيجاز رأي أصحاب النحو البنيوي، ثم رأي أصحاب النظرية التوليدية التحويلية.

المنهج البنيوي

لـــيس من اليسير حصر المصطلح "البنيوية" والحديث عنها من خلال رجل واحد أو مدرســـة واحـــدة، ولكـــن، من اليسير أن نقول بأن البنيوية قامت كردة فعل للمناهج القديمـــة، وتُعَـــدُّ ثورة على التمسك بها تمسكا لا يميز بين الجيد والرديء، فظهرت هذه الثورة بعد بلومفيلد بوضوح، في المدرستين التاليتين: التوزيعية والوظيفية (وهناك عدد من المدارس ولكنني آثرت أن اكتفي بهاتين المدرستين):

أ- التوزيعية: على الرغم من أن التوزيعية منذ زمن بلومفيلد إلى زمن هاريس قـــد ظهـــر فيه عدد من العلماء البارزين، مثل: بلوك B.block، وهوكيت Hockett، وتراغـــر G.trager، وغـــيرهم، إلا أنّ الفضل في ظهورها مذهبيا ألسنيا له معالمه، يـــرجع إلى العالم الأمريكي الروسي الأصل، زيلغ هاريـــــس (1909) الذي يعد كتابه "مـــناهج فـــي الألســـنية البنائية 1951م" واضع هذه النظرية، مع أنه كان في كتابه هذا يطبق شيئا من أفكار بلومفيلد بمنهج خاص وطريقة رياضية عسيرة التتبع، معتمدا على أفكـــار الرائد الأول دي سوسير في تطبيقه، فيعتمد في نظريته اللغة وليس الكلام ميدانا للدراســـة، فيدرســـها دراســـة تزامنـــية، وليســـت تزمنية، وهذه من أبرز ما أشار إليه سوســـير. ثم يقوم بتقسيم النص إلى مكوناته الصرفية الرئيسية من المورفيمات، ليصل إلى تحديد العلاقات الداخلية بينها؛ أي إلى العلاقات الداخلية بين المباني التي قامت ببناء النص أو المنظومة اللغوية؛ لتحديد توزيع العناصر المكونة لها في سياق التشكل النصي

كـــاملا، وهــذه العناصـــر تتســـاق في تراكيبها اتسياقا قسريا يخضع لعدد من القوانين Restrictions، التـــي تـــتم علـــى ضوئها عملية التصنيف النحوي في أبواب – وهذا يذكـــرنا بعمـــل النحاة العرب القدماء تماما في إلحاق كل مكون صرفي في الجملة بباب نحوي.

إن تحلـــيل الـــنص –فيما يراه أصحاب هذه المدرسة– إلى ما فيه من مستويات تركيبـــية: صـــوتي وصـــرفي وتركيبي جملي، يقضي بأن ينظر إليها من حيث نهاية ما وصلت إليه، أي إلى التركيبي– الدلالي، ليصل المحلل في النهاية إلى القول بأن التركيب (س)، بتوزيع مبانيه، يساوي أو لا يساوي التركيب (ص). وقد دفع هذا الأمر إلى النظر فـــي مكونـــات الجملة، فهي عندهم: محدد واسم، ترتبط المحددات بالأسماء في التركيب لـــتحديد فئـــتها أو مكانهـــا أو زمانهـــا أو صفاتها... الخ، ويقوم بهذه الترابط عدد من الحـــروف والأدوات أو ما يسد مسدها، وربما كان المنهج في التحليل اللغوي يبدو بشكل بـــارز فـــي فـــرع مـــن فروع التوزيعية وليس فيها كلها، فقد برز في ما يسمى بمنهج "المكونات المباشرة" Immediate Consttuants.

يقـــوم المحلل في المنهج التوزيعي برد النص الذي بجمعه – عينة من عدد من المتكلميـــن المتجانســـين فـــي فـــترة محددة زمانا ومكانا– يرده إلى مستوياته الصوتية والصـــرفية والتركيبـــية، فيجمع المتبادلات المتماثلة شكلا من غير اهتمام كبير بالمعنى، فـــي مكـــان واحـــد، ثـــم يقوم بتصنيف القواعد التي تحكم التوزيع الشكلي في الصوت والصـــرف والتركيـــب، وهـــذا يذكرنا بمنهج نحاة العربية في تصنيف أبواب النحو على ضـــوء نظـــرية العامل: إلى مرفوعات ومنصوبات ومجرورات ومجزومات وتوابع، فإن نظـــرة ســـريعة إلى باب كان وأخواتها، أو إنّ وأخواتها، أو أفعال المقاربة، أو الحروف العاملـــة عمـــل لـــيس أو عمل إن، أو حروف الجر، ستبين أنّ النحاة العرب القدماء قد اعـــتمدوا الشكل في المتبادلات المتماثلة تأثيرا؛ ليجمعوها في باب واحد لا مسوغ لجمع جزئياته لو استثني هذا العنصر.

الوظيفية

ربما كان العالم الدانمركي هلمسليف– صاحب النظرية الكلوسيماتيكية– أولَ مَنْ أبــرز مفهوم الوظيفة والوظيفية إحياء لما جاء في محاضرات دي سوسير، ولكن الذي تصدر لها وجعلها نظرية ذات معالم في التحليل اللغوي هو العالم الفرنسي مارتينيه.

تـتكون الجملـــة موضوع التحليل، أو العينة اللغوية من مجموعة من المكونات الصغرى، فمثلا الجملة:

أكرم رئيس النادي ضيوفه مساء يوم الأحد

مكونة من: أكرم + رئيس النادي + ضيوفه + مساء يوم الأحد.

وكل من هذه مكونة من مجموعة من المكونات:

أكرم + (رئيس + ال+ نادي) + (ضيوف + ه) + مساء + يوم + الأحد)

وكــل مـــن هذه مكونة أيضا من مجموعة من المكونات الصغرى من الفونيمات والمورفـيمات الملتصـقة لـتكون لكسـيمات أو مونيمات، لكل منها وظيفته في النص موضـــوع التحلـــيل. وتكـــون دراســـة هـــذه المكونـــات من جانبين: فونتكس (صوتي) وســينتاكس (تركيبي –جملي)، يتضمنان دراسة الأصوات والمباني الصرفية، ووظائفها فـــي الجملة من غير انصراف إلى دراسة المباني الصرفية دراسة معجمية (أي من حيث هـــي جـــذور معجمية لكلمات تتفرع عنها)، أو دراسة اشتقاق صرفي؛ ذلك لأن مارتينيه يهـتم باللغـــة اهـــتماما يقـــابل وظيفتها الكلية، أي أنها تقوم ببنيتها الكلية بوظيفة نقل المعلومـــات بيـــن المتكلميـــن بها، وليس بجزئياتها: مفردات أو أصوات، ومن هنا فإنَّه يـــدرس المورفيم في المونيم من حيث وظيفته، كدراسة علامة التأنيث في الاسم المؤنث في اللغة العربية مثلا، أو علامة الجمع في جمع المذكر السالم أو المؤنث السالم، أو في الأفعال الخمسة...الخ.

درس مارتينـــيه الجملة تركيبا – وظيفياً، اعتمادا على فهمه دور كل من المسند والمســـند إليه، فالمسند إليه هو صاحب الوظيفة الرئيسة في التركيب الجملي. والعلاقة

بيـــنه وبين المسند علاقة كلية، وكل ما جاء في الجملة زيادة على ركنيها الرئيسين فهو مـــن قبيـــل التوسيع فيها. ولعل في هذا ما يذكرنا بما عند نحاة العربية والبلاغيين من اعتمادهم المسند إليه والمسند أصولا في الجملة، وما زاد على الأصول فيها فضلات أو تتمات. ويذكرنا كذلك بأن النحاة قد اعتمدوا المسند إليه بمثابة بؤرة الجملة.

وهـــناك عـــالم معاصـــر يقوم بتدريس علم اللغة في جامعة هارفرد S.Kuno يحـــاول أن يوجه أفكار المدرسة الوظيفية إلى وظيفية جديدة، يراها تمثل رأس مدرسة جديدة، تقف في وجه المدرسة التوليدية التحويلية.

بالإضـــافة إلـــى هاتين المدرستين فقد كانت هنا مدارس أخر، وكان هناك أفراد آخرون، يمثل كل منهم –بالمعالم التي وضعها– منهج تحليل لغوي، وكأنه مدرسة قائمة بذاتهـــا، مـــع أنـــه يسير في إطار كبير يسمى البنيوية، فقد كانت هناك حلقة براغ التي أسســـها ماثيســـوس سنة 1926م واستقطب لها تروبتسكوي ورومان جاكبسون، وهما من ألمع لغويي هذا العصر، فاصطبغت الحلقة بصبغة البحث المشترك في عدد من النقاط الرئيســـة في منهج دي سوسير من أبرزها الرمزية اللغوية والأخذ بالمنهج التزامني في التحليل.

هذا بالإضافة إلى الصبغة العلمية الجادة التي أضفياها على دراسة الأصوات من حيـــث ما يسمى Phonctics and phonology، وربما كان جاكبسون أبرز عالم حتى يومـــنا هـــذا يلفـــت الانتباه إلى دراسة الأصوات من حيث التنغيم والنبر، بالإضافة إلى علمية دراسة الأصوات الصامتة الصائتة كما هو معروف في الدراسات التقليدية.

وقـــد كانـــت هـــناك مـــدارس أخر في أوربا وأمريكا أبرزها مدرسة فيرث في بريطانـــيا، ومدرســـتا سابير وبلومفيلد في أمريكا. ولا أرى المقام يتسع للحديث عن أي منهما.

المدرسة التوليدية التحويلية

ذكـــرنا ســـابقا أن بلومفيلد قد ترك أثره الواضح في الدراسات اللغوية في هذا العصـــر، وكذلك في اللغويين الذي جاءوا بعده، فكان هاريس من بين أبرز من تأثروا به

فـــي جعـــل التوزيعية مذهبا له أبعاده في التحليل اللغوي، وقد كانت الصلة بين هاريس وتشومســـكي الذي جاء بالنظرية التوليدية التحويلية صلة صداقة حميمة، بعد أن قضى هـــذا (تشكومســـكي) مـــرحلة طلـــب العلم على يدي أستاذه هاريس، فتمكن التلميذ من الاطـــلاع من قرب على ما نشر وما لم ينشر من أعمال أستاذه وأفكاره، فأدرك الثغرات التـــي كانـــت فـــي التوزيعـــية بخاصة وفي البنيوية بعامة، وهو العالم البنيوي إلى سنة 1957م حيـــث نشـــر كتابه Syntactic Structures الذي يعد النواة الأولى للنظرية التوليدية التحويلية، وبداية الطريق للتحول عن البنيوية.

تقوم نظريته على عدد من الأسس الرئيسة، من أبرزها:

1- الفطـــرية اللغويـــة، وقد كان تشومسكي متأثرا في هذه النقطة بما كان في فلســـفة الفيلســـوف العقلي ديكارت، وهمبولت من بعده، ونحن نعلم أن تشومسكي كان معجبا بديكارت وبفلسفته إلى الحد الذي دفعه لوضع كتاب في الفلسفة الديكارتية.

يـــرى تشومســـكي أنّ الطفـــل يولد مزودا بعدد من القوالب الذهنية، يكون فيها الاســـتعداد الفطـــري لمخـــتلف اللغات، فتملأ هذه القوالب من واقع الاكتساب البيئي في الوسط اللغوي الذي يعيش فيه الإنسان.

2+3- الكفايـــة والأداء، تمـــثل الكفاية المخزون المعرفي في ذهن الإنسان من القواعـــد والقوانين اللغوية الكامنة، يكتسبها الفرد في حياته، فتأخذ تنمو معه منذ الفترة الأولى في حياته، فتمكنه من إنتاج الجمل الصحيحة والقواعدية، وتمكنه كذلك من الحكم على ما يسمع بالصحة أو الخطأ طبقا لهذا المخزون.

ويمثل الأداء استعمال الفرد المتكلم هذه القوانين في ما ينطلق به أو يكتبه، أي أنه عملية توظيف هذه القواعد، أو توظيف الكفاية، في استعمال الفرد. وأرجو أن يذكرنا هذا بما جاء في محاضرات سوسير من التفريق بين الكلام واللغة.

4+5- البنـــية العميقة والبنية السطحية: تعود البنية العميقة إلى الفكرة الذهنية المجردة في عقل الإنسان، تلك التي يود المتكلم التعبير عنها، وأما البنية السطحية فإنها تجســـيد هـــذه الفكـــرة الذهنية في كلمات منطوقة، يتم بها تحويل الفكرة من مرحلة إلى

مـــرحلة، فتـــنطق متفقة مع قوانين اللغة وقواعدها من حيث المبنى، وأما المعنى فيبقى متصلاً مع البنية العميقة بصلة، هي صلة الشيء المجسد بأصله المفترض.

6+7- قواعـــد الـــنحو التولـــيدي وقواعـــد النحو التحويلي: يبدو أن في هذين المصـــطلحين يكمـــن جـــل الفـــرق بين منهج تشومسكي في نظريته التوليدية التحويلية ومناهج المدارس البنيوية السابقة عليه أو المعاصرة له، فهو لا يكتفي بوصف اللغة كما هي، فيعمد إلى ما يمكن أن يسميه بالمعيارية أو التقعيد، ويبحث في طريقه عن عدد من الفرضيات ونقاط التشابه والالتقاء بين اللغات في ما يسمى عنده "بشموليات اللسان" في الأصـــوات ومعدوديـــتها، وإمكـــان إيجاد عدد غير محدود من الجمل منها، وفي المباني الصـــرفية الفـــنوية: اسم أو فعل أو حرف أو مصدر أو ظرف أو صفة أو...الخ. فتقوم قواعـــد النحو التوليدي بوصف مكونات الجمل وصفا تصنيفيا صرفيا (اسم، فعل، ......، مفـــرد، مثـــنى، ......، مذكر، مؤنث،......الخ) ثم توظيف ذلك للوصول إلى حل ما فيها من لبس، أو لإزالة اللبس القائم فيها من تماثل بعض العبارات في مبانيها واختلافها في المعنى.

أمـــا قواعد النحو التحويلي، فإنها تهتم بالعبارة محولة إلى ميدان حسي منطوق أو مكـــتوب، مقاســـة على قوانين اللغة التي تنطق العبارة بها، فيراعي فيها المتكلم ما يجـــب أن يراعيه ليحكم على عبارته بالصحة النحوية. ومن هنا تبرز عنده فكرة الجمل الـــتي يمكـــن أن تكـــون صحيحة نحوا ومغلوطة دلالة، إذ لا تطابق بين البنيتين العميقة والســـطحية، والمـــثل الذي يضربه لذلك يبين عمل الأداء مع البنية السطحية مع قواعد النحو التحويلي، لتمكن المتكلم من إيجاد عدد غير محدود من الجمل من عدد محدود من الصوتيمات والمورفيمات.

8- وأخـــيرا يعتمد تشومسكي فكرة الحدس للوصول إلى المعنى الدلالي، وربما كانـــت هـــذه الـــنقطة فـــي نظريته من نقاط الضعف التي كانت بتأثير من مدرسة سابير الذهنية. ومن أبرز ما يمكن أن يؤخذ على نظرية تشومسكي هو عدم إحكـــام الربط بين البنية العميقة والبنية السطحية، فالبنية العميقة عنده تكون في الذهن فكرة مجردة تبرز

فــي جملــة أو في جمل منطوقة لتكون تجسيدا لها، بقطع النظر عن الكيفية التي تظهر علــيها هذه الفكرة من حيث التقديم والتأخير أو التوسيع أو الحذف...الخ، فمهمة الجملة المنطوقة عنده إبراز الفكرة الذهنية الكامنة.

وكذلــك الحدس، فإنه يمثل نقطة ضبابية في نظرية تشومسكي. وهي كما ذكرنا تتصــل بسبب بفكرة الحافز الذهني عند سابير، فليس من سبيل للوصول إليه. ولهذا فقد صــرف بلومفيلد –صاحب المدرسة الديناميكية السلوكية– النظر عن البحث فيه لعسر الوصول إليه، وليس لعدم أهميته أو لضعف دوره في المنظومة اللغوية.

قــبل عرض إمكان الإفادة من هذه المدارس في النحو العربي نجد أن علينا أن نقــول بــأن إنــتاج العقــل البشــري ليس حكرا على فئة دون فئة، فليس هناك منتج ومســتهلك، بل ربما كان في الإحساس بضرورة معاداة كل حديث جديد في أيامنا هذه ما يبعد عنا، بل ما يبعدنا عن أن ندفع عجلة الدرس اللغوي عندنا لتسير بحد التسارع الذي كانــت عليه عندما أفاد منه الغربيون، ولم يجد أحد منهم ما يعيب أو يضير في الاطلاع على كتاب سيبويه أو معجم الخليل أو كتاب الإنصاف أو غيرها.

ونجــد لزاما علينا أن نذكر بإيجاز سريع بأن النظرية النحوية التي قامت عليها كتب النحو العربي منذ سيبويه إلى يومنا هذا هي نظرية العامل النحوي، فقسم النحاة في ضــوئها الكــلام إلــى مبنيات ومعربات، ثم قسموا المعربات إلى مرفوعات ومنصوبات ومجــرورات ومجــزومات وتوابــع، واقتضــى البحث في المبنيات البحث في الإعراب المحلــي، فوضــع الــنحاة القواعــد لكل باب من الأبواب الفروع في كل من هذه الأطر الكــبرى، اســتنادا إلــى عدد من الشواهد، وما خرج على هذه القواعد، فقد حكم عليه بالشــذوذ حــتى لو كان هذا الشاذ كثيرا في لغة العرب، أو كما يقول أبو علي الفارسي، هــو كثير في كلامهم ولكنه شاذ يحفظ ولا يقاس عليه. ومن هنا نشأ ما يمكن أن يسمى بقســرية القاعدة النحوية، ونشأ كذلك ما يسمى بمسائل الخلاف في وجهات نظر العلماء عــند كــل من البصرة والكوفة. ولا أرى أننا بحاجة في هذا المقام لضرب أمثلة، ويكفي الاطلاع على ما جاء في كتاب الإنصاف للانباري، لنرى أن من النحويين من كان يخرّج

ظاهـرة لغويـة معيـنة، يخـرّجها غيره تخريجا مناقضا تماما، كاسمية نعم وبئس أو فعليـتهما، وكأصـل الاشتقاق، وكجملة الحال وارتباطها بقد مثلا، فنشأ ما يسمى مجازا نحـو المدرسـة البصـرية ونحو المدرسة الكوفية، فوجدت كل مدرسة من يتعصب لها وللأخـذ بآرائهـا إلى يومنا هذا. ولكن حظ البصرة كان وافرا، فأخذت به الأجيال، حتى جـاء جـيل لا يعـرف عن منهج الكوفة كثيراً، ويعادي كل ما يخالف ما يعرف، معاداة صـارخة بحجـة أنـه يعـادي كل حديث لأنه حديث، أو قل لحداثته، حتى لو كانت هذه الحداثة عائدة إلى الكسائي أو الفراء أو ثعلب.

نـرى أن نحـاة العرب القدماء – رحمهم الله– قد بحثوا في الحركة الإعرابية بخاصـة، وفـي مبـنى الكلمـة والجملة بعامة، وأجادوا في ذلك إجادة ليس من اليسير لغـيرهم أن يصـل إلى ما يصل إليه دون اعتماد على ثمار جهودهم، ولا أظن كذلك أن أيـة محاولـة لا تعـتمد علـى ما جاء عنهم، يمكن أن تكون ناضجة تصلح للأخذ بها، وسـتكون – في ما نرى– مبتورة من خط البناء العلمي الذي يعتمد فيه اللاحق على ما وصل إليه السابق، مبتورة تماما كمحاولة الوقوف بأي من العلوم –ومنها النحو وعلوم اللغـة– عـند القديم بحجة المحافظة على كماله وقدسيته، أو عند الحديث بحجة إطراح القديم لعدم مواءمته مجريات العصر.

نقول هنا بأن نحاة العربية قد انصرفوا إلى البحث في المبنى وتخريج ما يتعلق بـه، عـن المعنى –إلا ما اتفق منه مع المبنى– وانصرف البلاغيون إلى الخط الموازي تمامـا، إلى أن جاء أحد علماء السلف الصالح –عبد القاهر الجرجاني– فضمّ المبنى إلى المعـنى في ما يسمى بالنظم، وما النظم إلا أن تضع كلماتك الموضع الذي يرتضيه علم النحو، كما يقول، فخرج عنده علم متوازن يفخر كل منا بأنه (الجرجاني) قد استطاع أن يمـس – علـى الأقل– ما ينادي به أصحاب المدارس الغربية الحديثة في الألسنية وفي الـنقد الأدبي. ولا حاجة بي في هذا المقام إلى الربط بين ما يقوله الجرجاني وما يقوله المحدثون من أصحاب المدارس.

سنعمل في ما تبقى من هذه الدراسة على وضع تصور نربط فيه بين المبنى والمعنى، والشكل والمضمون، نقترح على ضوئه تصنيفا يساعدنا في دراسة النحو العربي من غير إخلال بالحركة الإعرابية، فهي عندنا جزء أساس من فونيمات المبنى ذات الوظيفة الرئيسة للوصول إلى المعنى، بغيرها تنهار جمل العربية فلا تبين فيها الفاعل من المفعول ولا الحال من الصفة...الخ، فنعتمد على المنهج الوصفي في وصف الجمل وتحليلها، ونعتمد في المنهج الوصفي على النظر إلى المكونات الرئيسة في الجملة، على أنها مبان صرفية تجسد أبوابا نحوية رئيسة في ذهن المتكلم، وأما المكونات الفروع في الجملة فإنها تمثل أبوابا نحوية فرعية جاءت لإضافة معنى معين إلى الجملة الرئيسة، وأن لكل من المكونات الرئيسية موقعا أصيلا في الجملة، يمكن أن يتحول عنه لمعنى في ذهن المتكلم، تماما كما يكون الوصول إلى الغرض الذي يريده المتكلم عن طريق أحد العناصر الرئيسية في الجملة، أو بالتغيير في تنغيمها أو عن طريق الحركة الإعرابية.

ويقتضي المنهج الوصفي، الذي نتبع، أن ننظر إلى الجملة المنطوقة على أنها المادة المحسوسة أو المجسدة لفكرة في الذهن، ولما لم يكن من اليسير وصف الفكرة في الذهن، فإننا نرى أن نصفها من الجملة المنطوقة، بوصف ما يجري في الدوال للتعبير عما يراد أن تكون عليه المدلولات. والدوال والمدلولات تكون في جملة أصل وأخرى فرع، وقد تكون الجملة الأصل جملة فرعية في النموذج اللغوي المراد تحليله. ولنصل إلى دقة في وصف المعنى الدلالي، نرى أن الجملة لها بنية رئيسة نسميها (الجملة التوليدية) ذات البعد الدلالي الأول (القريب)، لها معناها ولها أطرها، فإذا ما جرى عليها تغيير، ويكون التغيير بأحد عناصر التحويل (وسنتحدث عنها بعد قليل)، أو بأكثر من عنصر، وكل تحويل لابد أن يكون له دور في المعنى، فإن كانت الجملة التوليدية ترتبط بالبنية السطحية، أو بالبعد الدلالي الأول، وتخضع لقواعد الأطر الرئيسة في البناء الجملي، فإن الجملة بعد أن يدخلها عنصر من عناصر التحويل، تصبح جملة تحويلية، وترتبط بالمعنى الدلالي الثاني، الذي يود المتكلم أن يصرف بناء الجملة له. وتخضع الجملة حينئذ لقواعد التحويل، وقواعد التحويل هذه يبرز فيها بدرجة رئيسة

وصف الحركة الإعرابية ذات المعنى، والأخرى ذات الاقتضاء، طبقا للقياس اللغوي على ما جاء عن العرب، ولا مجال فيها لحركة المحل أو التقدير.

فالجملـــة، إذا، هـــي الحـــد الأدنى من الكلمات التي تحمل معنى يحسن السكوت علـــيه، وبدلا من تفصيل القول في اختلافات النحاة في تقسيم الجملة إلى اسمية وفعلية، وفـــي اختلافهم في الفرق بين الجملة والقول والكلام، نرى أن الجملة التي ينطبق عليها التعريف السابق هي جملة توليدية، ونقصد بالتوليدية تلك التي تتكون من عدد محدد من الكلمـــات التـــي جاءت كلماتها تمثل الأبواب النحوية الرئيسة فيها، بغير نقص أو زيادة، وإن كانـــت تحـــتملهما. وتخضع هذه الجملة لقواعد أي من الأطر الرئيسة التالية، وهي التي نسميها قواعد النحو التوليدي:

1- فعل لازم + فاعل.

2- فعل متعد +فاعل + مفعول 3،2،1.

3- فعل +مفعول به ضمير +فاعل.

4- مسند إليه معرفة + مسند نكرة.

5- مسند شبه جملة + مسند إليه نكرة.

6- مسند إليه معرفة + مسند معرفة هو ذاته المسند إليه.

فهـــذه الأطـــر هـــي أطـــر الجملة التي تنطبق على أي منها في مرحلة تكونها الأصلي. وإن بعدها الدلالي هو نقل الخبر من المتكلم إلى السامع أو المخاطب ليس غير، دون توكـــيد أو نفي أو استفهام أو شرط، أو نداء أو تحذير أو فخر أو تعظيم...الخ، فإن قصـــد المتكلم أن ينقل لسامعه أيا من هذه المعاني أو سواها، فإن عليه أن يحول الجملة مـــن هـــذه الإطار إلى إطار آخر مستخدما عنصرا أو أكثر من العناصر التالية: الترتيب الـــزيادة، الحذف، التنغيم، تغيير الحركة الإعرابية. وكل تحويل لابد أن يكون لغرض في المعنى أو أنه يتصل به بسبب.

تـــأخذ الجملة اسمها الثابت في الاسمية أو الفعلية في حال وجودها في مرحلة الجملة التوليدية. "والعبرة بصدر الأصل"، فالجمل:

علي مجتهد

محمد رسول

في البيت رجل

هذا محمد

فهذه جمل اسمية، ولكنها توليدية، ومعناها الإخبار المحايد. أما الجمل:

حضر علي

بلغ محمد رسالة ربه

أكرمني النادي الأدبي

فجمـــل توليدية فعلية، توليدية لأنها مكونة من حدها الأدنى في إطار من الأطر السابقة، فعلية لأن صدرها فعل. أما الجمل:

كان علي مجتهدا

إن عليا مجتهد

ليس علي مجتهدا، بمجتهد

فجمـــل اســمية من حيث صدر الأصل، تحويلية جاءت فيها عناصر زيادة، وكل زيـادة في المبنى تقابلها زيادة في المعنى، فجاءت الزيادة في الأولى للإشارة إلى الزمن الماضي، وفي الثانية للتوكيد، وفي الثالثة للنفي وتوكيد الخبر المنفي.

وهـــذا ما يجب أن يفهمه السامع، قصده المتكلم أم خرج عليه لجهله بأساليـــب العربية. فالكلمات تخرج في تركيب جملي، معبرة عما في ذهن المتكلم، ومطابقة له، (أو هكذا يفترض أن تكون)، يقول الجرجاني: "لا يتصور أن تعرف للفظ موضعا من غير أن

تعــرف معناه، ولا أن تتوخى في الألفاظ من حيث هي ألفاظ ترتيبا ونظما، وأنك تتوخى الترتيب في المعاني، وتعمل الفكر هناك" (الدلائل:93).

ولــيكون تحليل الجملة تحليلا تاما، يوصل إلى المعنى الدلالي، لابد من أن تتحد مســتويات التحلــيل اللغــوي اتحادا تاما، في نظرة تحليلية متكاملة. فالمستوى الأول – التحلــيل الصــوتي Phonetics and phonology تحــدد فــيه الفونــيمات المكونة للمورفيمات في الجملة، وفونيمات الصوامت والصوائت؛ ليتم في المستوى الثاني تحديد المبــنى الصــرفي بما فيه لكسيمات ومورفيمات ومونيمات، فيتحدد بذلك القسم الصرفي الذي ينتمي له المبنى: اسم، فعل، اسم فاعل، اسم مفعول... مفرد، مثنى، جمع، سالم أو تكســير، مؤنــث، مذكــر..الخ، ثم يأتي دور المستوى التركيبي، وفيه يتم تحديد حاجة الكلمة الأولى إلى ما يليها من كلمات انطلاقا من أن بؤرة الجملة الفعلية (الفعل)، وبؤرة الجملــة الاسمية (المبتدأ). وبناء على ذلك فإن الحركة الإعرابية تحدد على كل كلمة في الجملــة من واقع الباب النحوي الذي هي ممثل صرفي له، فهي تجسيد محسوس لقالب ذهني أو لباب ذهني مجرد.

واعــتمادا على هذا فإننا نرى أن نجمع أطر التراكيب الجملية المحولة في عدد مــن الأبــواب الكــبرى (أبــواب المعنى) على أساس المعنى وليس على أساس العمل والعــامل، فــتخرج بذلك جمل النفي في باب، وجمل التوكيد في باب، وجمل الشرط في بــاب، وجمــل الاستفهام في باب... وهكذا في بقية الأبواب. وبذا، فإننا لا نجد بابا من أبــواب المعنى موزعا في عدد كبير من الأبواب، إذ نجد في كتب النحو مثلا، ليس التي تفيد النفي، في باب كان ومازال وظل وأمسى وصار، ونجد ما، في باب ما يلحق بليس، ونجـد لا، تارة في ما يلحق بإنّ وأخرى بما يلحق بليس. ولن في باب ناصب المضارع مــع أن وإذن وكــي... وغيرها. وما النافية في منطقة مهملة لأنها لا تترك أثرا إعرابيا على ما يليها.

فنســتطيع بذلــك أن نفيد من التراث النحوي ومن التراث البلاغي، ومن نتائج جهود علماء الألسنية الحديثة في ضم المضمون إلى الشكل والمعنى إلى المبنى، ليسيرا

فــي خطيــن متوازيين يوصلا ن إلى نتيجة واحدة، كما نوضحه في الرسم التالي. وبذا فإنـــنا نمكــن كــلا مـــن الطالب والمعلم من أن يحذو حذو العرب في كلامهم، وأن يفهم السامع ما تنطوي عليه أساليبهم وتعبير لسانهم.

أفكار في ذهن المتكلم ـــــــــــ منطقة خارجة عن ميدان البحث اللغوي ← تتحول إلى رموز دوال (كلمات منطوقة) ← تنتظم في جمل طبقا للقواعد النحوية واللغوية العربية = تساوي وهذه

وهذا = النحو = يساوي قوانين النحو وقواعد اللغة ⊂ تتضمن وهذه

عناصر تحقيق سلامة المبنى	⊂ تتضمن	الحركة الإعرابية + القياس اللغوي
عناصر تحقيق المعنى	⊂	الترتيب + الزيادة + الحركة الإعرابية + الحذف + التنغيم

المعنى الدلالى

فنصـــرف بذلك النحو عن التعريف الذي يرتضيه له جل النحاة، بأنه العلم الذي يبحث في حركات أواخر الكلمات، إلى البحث في المعنى المحدد للجملة من خلال المباني الصـــرفية فيها. فالبحث النحوي على ضوء التعريف السابق يحصر الحديث عن المرحلة الأولـــى من مراحل تكوين الجملة، أي عن المرحلة الذهنية، ويصرفه عنها؛ لأن الإنسان – فـــي مـــا نرى– يفكر بمجموعة من الأبواب النحوية يستوي في ذلك العربي وغيره، الأمـــي والمتعلم، ثم يجسد هذه الأبواب التي هي ذهنية مجردة بمبان صرفية تؤدي ثلاثة أدوار: تمثـــيل صرفي للباب النحوي، تمثيل معجمي لمعنى الوضع، تمثيل سياقي. تلتحم هـــذه الأدوار الـــثلاثة فـــتأخذ الحركة الإعرابية دور المنسق بين التمثيل الصرفي للباب الـــنحوي، والتمثـــيل الســـياقي لتوصل إلى المعنى الدلالي للباب اللغوي الذي تنتمي إليه الجملـــة. وبذا لا نقف بالنحو عند مرحلة التفكير الذهني المجرد الذي انقلب إلى رياضة عقلـــية، لـــيس بالضرورة أن يكون من يعرفها قادرا على الكتابة الصحيحة، فضلا على النطق الصحيح.

قلنا: لا نقف بالنحو عند مرحلة التفكير الذهني، ونضيف هنا فنقول: ونمر بهذه المـــرحلة فـــي ربط التمثيل الصرفي بالتمثيل السياقي، ونخرج بتكامل بين جهود العلماء مـــن السلف الصالح وما يحتاجه المتعلم والمعلم في هذا العصر المتجدد في حاجاته لما يقرب أبناءه من لغتهم السليمة.

والله نسأل السداد في القول والعمل، وأن يجعل قولنا وعملنا زلفى تقربنا إليه.

هذا عرض للأطر الرئيسة التي يمكن على ضوئها أن يصنَّف النحو على أساس المعنى موضوعاً في مبنى سليم. فإن كنت أصبت فذاك فضل الله وإن كنت على غير ذلك فأرجو أن يتكرم علي كل من يرى نقطة تحتاج إلى إصلاح بما يراه، فجهودنا متكافئة – إن شاء الله– لنحقق قول رب العزة (وتواصوا بالحق وتواصوا بالصبر).

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

المصادر التي اعتمدت عليها المحاضرة

1- Rorthbart, Harold, Cybernetic Creativity, New York: Robert Speller & Sons, 1972.

2- Mitroff, Ian & Ralph H. Kilmann, Methodological Approaches to Social Sciences, San Franscisco: Jossey – Bass, 1975.

3- International Encyclopedia of the Social sciences, article: Creativity, New York: Mac;ilian & Freepress, 1968: Vol (3). Pp. 434-461.

4- Rank, Otto, Art and Artist: Creative Urge & Personality Development, New York: Knopf, 1932.

5- Liam Hadson, Contrary Imaginations, New York: Schocken Books, 1966.

Austin, J.L. How to do thins with words, Cambridge, Mass, Harvar, Un, Press 1962.

Bloom field L – Language New York 1933.

Boas, F., Race, language and Culture, New York Macc;illan 1940.

Chomsky, N. – Syntatic Structure, Mouton 1957.

- Aspectgs of the theory of syntax, ca;bridge, Mass 1965.
- Studies on se;antics in generative grammar, Mouton 1972.

Cook, W.Q., - On lagmemes and transforms, Georgetown, Uni Press 1964.

- Introduction to Tagmamic Analyies, New York, Holt Rindsart and Winston 1969.

Fillmore, ch. J. A case for case, in universals in ling uisties, Theory 1968.

Gleason, H.A. An introduction to descriptive lingustics Rindsart and Winston, 1955.

Harris, Z.S. Methods in Structural Linguistics Chicago Uni Press 1951.

- Srring analysis of Sentence Structue Mouton 1962.

- **Papers in Structural and transfer motional lingustics 1970.**

Hockett, C.F. A course in Modern Lingistics New York Macc;illan 1958.

Jakobson, R. Rundam antals of language, Mouton 1963.

Katz, J.J. and Fodor J.A. the Structure of Semantic Theory, language XXXIX2, 1963.

- **An integrated theory of linguistic description, Cambridge, Mass 1964.**

Lyons, J. Introduction to theoretical linguistics, Cambridge Uni Press 1968.

Martinet, A. Functional View of language, Oxferd 1962.

Ogeden, C.K. and Richards I.A. the Meaning of meaning 1923.

Spir Languagem an intrudction to the Study of speech, New York 1921.

Ullmann, S Semantics, an introductin to the science of meaning Oxford 1962.

- خليل عمايره: في نحو اللغة وتراكيبها، عالم المعرفة – جدة 1984.

- خليل عمايره: في التحليل اللغوي، منهج وصفي وتطبيقي على التوكيد اللغوي والنفي اللغوي والاستفهام – دار المنار – الأردن 1986.

البنية التحتية بين عبد القاهر الجرجاني وتشومسكي

البنية التحتية

بين عبد القاهر الجرجاني وتشومسكي*

د. خليل أحمد عمايره

إن الناظر في المؤلفات القديمة، اللغوية والنحوية، يدرك قيمة هذا التراث الضخم الذي تركه لنا السلف، ويدرك أيضا الجهد والمعاناة التي بذلها اللغويون والنحاة في جمع مادتهم ودراستها والتمعن فيها لتقعيد القواعد النحوية ووصف الظواهر اللغوية على حد لا يقل عما يقوم به الباحثون اللغويون المعاصرون، فقد قاموا بجمع كمية كبيرة من المعطيات (الشواهد) وتدوينها ثم تصنيفها إلى مستويات لغوية: صوتية phonetics، وصرفية(Morphological) وتركيبية (Syntactic Structures)، ثم قاموا بوضع العناصر التي يمكن أن تكون في مجموعها نظرية لغوية متكاملة، لا تقل عن النظريات اللغوية لعلماء اللغة المعاصرين في الغرب والشرق. وقد أدرك بعضهم أنّه كان يصف اللغة وصفا علما شاملا، يعرفها ويضع الخصائص التي تنطبق على العربية وعلى غيرها. يقول ابن جني معرفا اللغة وحدها. أمّا حدُّها فإنّها أصوات يعبر بها كلُّ قوم عن أغراضهم[1] ومنهم من كانت له في اللغة نظرية إلا أن أفكار هذه النظرية كانت مشتتة مبعثرة في مؤلفاته، الأفكار التي لو جمعت لانتظمت في نظرية لا تقل قوة وشمولية عن النظريات اللغوية لمشاهير علماء اللغة المعاصرين.

ولنأخذ عبد القاهر الجرجاني (ت: 471هـ) لهذا مثلا فنقابل بين أفكاره اللغوية وأفكار أصحاب النظريات اللغوية المعاصرة.

ولما كان العالم السويسري F.de Saussure، هو رائد المدرسة اللغوية الحديثة الذي تأثر بأفكاره معظم معاصريه مثل Sapir، وbloomfield، و Boas في اعتمادهم المنهج الوصفي .Descriptive Structural Approach سبيلا وحيدا للبحث اللغوي.

---

* بحث نُشر في مجلة الأقلام العراقية العدد 9 عام 1983م، 88 ــ 95.

وقد تأثر بأفكاره أيضا كثير ممن جاءوا بعده. أي في العقود الثلاثة الماضية من هذا القرن، ويأتي على رأس هؤلاء العالم الأمريكي Noam Chomasky الذي بعد أن نشر كتاب Syntactic Structures سنة 1957 قمة الهرم في المدرسة اللغوية المعاصرة، لذا نرى أن نقابل بين عناصر نظرية سوسير اللغوية في نقطتين من أهم بنودها وما يماثلهما عند الجرجاني لنصل إلى المقابلة بين الجرجاني وتشومسكي.

يرى سوسير كما يرى غيره من علماء اللغة أنّ اللغة المعاصرة ظاهرة اجتماعية مكونة من مجموعة من الرموز الصوتية[2] أو الحروف المكتوبة التي لا معنى لها قبل تآلفها وانتظامها في مبان صرفية، يتم ترتيب هذه الرموز والحروف في مبانيها بطريقة عشوائية في بداية أمرها، ثم تكتسب معنى تشير إليه فيصبح ارتباطها به ارتباطا اصطلاحيا اتفاقيا ثابتا في التداول بين أفراد اللغة الواحدة، ولكن هذه المباني تكتسب أبعادا أخرى في التركيب الجملي والسياق الذي ترد فيه.

ويقول عبدالقاهر الجرجاني:...... وذلك أنّ نظم الحروف هو تواليها في النطق فقط، وليس نظمها بمقتضى عن معنى، ولا الناظم لها بمقتضى في ذلك رسما من العقل اقتضى أن يتحرى في نظمه لها ما تحراه، فلو أن واضع اللغة كان قد قال "ربض" مكان "ضرب" لما كان في ذلك ما يؤدي إلى فساد[3]. ومبرر هذا التتابع بين هذه الرموز في الكلمة الواحدة هو مقتضى جهاز النطق،... هو العجز عن أن ينطق بالحروف أو أن تدخل بجملتها في النطق دفعة واحدة[4]. ويقول أيضا: ولا معنى للعلاقة والسمة حتى يحتمل الشيء ما جعلت العلاقة دليلا عليه وخلافه، فإنّما كانت "ما" مثلا علما للنفي لأنّ ههنا نقضيا له وهو الإثبات، وهكذا إنّما كانت "من" لما يعقل لأن ههنا ما لا يعقل[5].

أما النقطة الهامة الثانية التي طلع بها دي سوسير وكان لها أثرها الواضح على النظريات اللغوية التي تلت نظريته، وهي التمييز بين وجهين للغة[6]. الأول: Parole، وهو الكلام أو الوجه الذي يستعمله الأفراد في المجتمع الصغير وفقا لقواعد عامة، لغوية واجتماعية وسلوكية، يراعيها أفراد المجتمع فلا يخرجون عنها، ولكن هذه القواعد تبقى مراعاة في حدود تلك المجموعة الصغيرة، في لهجتها وفي المعاني التي

تحملهـا الكلمـات، وفي الاستجابة التي تترتب عليها. أما الوجه الثاني فهو: Langue اللغـة وهـي النتاج الاجتماعي الجماعي للمجتمع الكبير الذي يهدف أفراده أن يكون ما يـنقلونه إلـى غـيرهم واضحا مفهوما. وهذا يقتضي أن يراعي هؤلاء الأفراد القواعد والـنظم والضوابط اللغوية المشتركة بين أفراد المجتمعات الصغيرة في المجتمع الكبير. وهـذا الوجـه مـن اللغة هو النموذج الذي يمكن جمعه ودراسته لتقعيد القواعد العامة ووضـع النظم اللغوية التي تتسم بها تلك اللغة[7]. وهي المهمة التي كانت موضع اهتمام اللغويـين والـنحاة العـرب القدماء، يقول السيوطي: اعلم أنّ اللغويّ شأنُه أنْ ينقلَ ما نطقـت بـه العرب ولا يتعداه (Descriptive Struetural approach). وأما النحويُّ فشـأنه أنْ يتصـرفَ فـيما نقلـه اللغوي ويقيس عليه[8] Prescriptive Structural approach.

أمـا اللغة عند الجرجاني فهي الوسيلة الوحيدة للتخاطب والتفاهم بين الناس... ممـا يعلـم بـبداءة العقول أن الناس يكلم بعضهم بعضا ليعرف السامع غرض المتكلم ومقصـوده[9] بمجموعـة من المفردات، وبصفة أعم بكل الوحدات التي ضبطت بالتواضع لتسمية الحوادث والأشياء، وإقامة الفروق بين المفاهيم.

لقـد تأثر العالم اللغوي المعاصر N.Chomsky بآراء دي سوسير في أن اللغة ظاهـرة اجتماعية ذات شقين: لغة وأطلق عليه Competence،[10] ويعني به القدرة التي تمكـن كلّ فرد من أفراد المجتمع الناطق باللغة من التعبير عما في نفسه بجمل يفهمها أفـراد المجـتمع الآخرون، وإن لم يكن قد سمعها مركبة من أحد من قبل، فلديه القدرة علـى تولـيدها مركـبة من المباني الصرفية ذات المعاني المعجمية مع مراعاة القواعد النحوية التي على ضوئها يتم له ربط هذه المباني الصرفية بعضها ببعض في جمل ذات حـدود وأنظمة ومعايير، وعلى ضوئها أيضا يستطيع أن يصرف المعنى الذي في نفسه بتحريك المباني الصرفية في الحد الذي تسمح به قواعد النحو واللغة، وهي التي يسميها Transitional rules،[11] وبعـبارة أخـرى هي الجانب الأدبي المضبوط بقواعد صوتية وصـرفية ومعجمية تهدف تحقيق المعنى الدلالي العميق يعبر عنه Deep Structures (البنية التحتية)[12].

وأمّـا الشـق الثاني فهو الكلام ويطلق عليه Performance،[13] وهو مجموعة الأصـوات اللغويـة المنطوقة، ينطق بها مجموعة من الأفراد بكيفية معينة. وليس من الضـروري أن تكـون متفقة مع قواعد اللغة وقوانينها وأنظمتها، أو خاضعة لها، وإنما تخضع للموقف الذي يكون فيه المتكلم فيعبر عما في نفسه دون تأمل أو تبصر وهذا هو ميدان Surface Structures،[14] (البنية السطحية).

يَعـدُ تشومسـكي الجملـة نقطـة الانطلاق في التحليل اللغوي خلافا اللغويين السـابقين علـيه، وبخاصة أصحاب المدرسة البريطانية هنري سويت وجاردنر ودانيال جونـز الذين كان تركيزهم على الأصوات وتحليلها، إلى أن جاء العالم البريطاني فيرث J.Firth وأفاد مما كتبه سلفه وأضاف إليه ما أسماه السياق اللغوي VerbalContext، [15] وذلـك لأن تشومسـكي وجد أن كل لغة تبنى على عدد محدود من الأصوات اللغوية (فونـيمات) ينتج عنها عدد كبير جدا من المباني الصرفية (مورفيمات) في حين إن عدد الجمل الناتجة عن انتظام هذه المباني الصرفية لا سبيل إلى حصره، ومن جانب آخر لأن الجملـة هي الصيغة الظاهرة المستعملة في الإشارة إلى المعنى، وهي الميدان الذي يهتم بـه الباحـث اللغـوي لاستنباط القواعد التي تساعد الناطق بلغة ما على توليد التراكيب السـليمة وإطـراح غـير السـليمة. وبعبارة أخرى، فإنه يرى أن الجملة -وهي ميدان الدراسـة اللغوية لاستنباط القواعد النحوية هي أيضا مكونة وفقا لقواعد وقوانين لغوية نحويـة ترتضيها تلك اللغة، فتندرج في باب من أبواب نحوها لتفيد معنى قد تتحول عنه إلى معنى آخر وفقا لمجموعة من القواعد النحوية أيضا Transformational rules و يقـول الجرجاني: ... وذلك أن تجيء إلى اسمين يحتمل كل واحد منهما أن يكون مبتدأ ويكون الآخر خبرا له، فتقدم تارة هذا على ذاك، وأخرى ذاك على هذا، فأنت في هذا لم تقـدم... على أن يكون متروكا على حكمه الذي كان عليه مع التأخير... بل على تخرجه عن كونه... إلى كونه...[16] .

ويـرى تشومسـكي أنّ للجملـة وهـي بؤرة التحليل اللغوي من حيث علاقتها بالمعـنى وتحقيقها، وجهين: سطحي خارجي ظاهر surface structure وتحتي باطني

عميق deep structure نقول مثلا، Sincerity may frighten the boy فهذه جملة (S)[17] نحللها كما يلي:

Frighten the boY VP Det (Art) N (1) A
SinceritY NPN (2)
MaY AUX (3)
SinceritY NP F P (1) B
frighten the boY VP F P (2)
the boY N P F O OF VP (3)
frighten V F MV (Main V) (4)
the to Y C N (Count N) (1) C
Frighten TV (2)
sinceritY AN (abstract N) (3)

وعلى الرغم من أن المعلومات الواردة في التحليل السابق هي معلومات صحيحة، لازمة وأساس لمعرفة ترابط الكلمات في النظام اللغوي، إلا أن الموضوع الرئيس، وهو اتحاد هذه المعلومات في تركيب يولده التحدث باللغة على ضوء نظام نحوي واضح القواعد، لا تحققه هذه الطريقة.

Taxonomic approach،[18] القائمة في التحليل على وضع هذه المعلومات في قوائم من التصنيفات الجزئية، ولا تساعد في الوصول إلى الاختلاف في المعنى الناتج عن استبدال الفعل (frighten) بفعل آخر مثل vartue أو elapse أو admire،[19] وستبقى الرموز أمام الفعل هي بعينها (vp) في الحالات الأربع، لا تتغير، وذلك لأن التحليل لم يذهب إلى أكثر من وصف المباني الصرفية. وربما كان قصور هذه الطرق في الوصول إلى المعنى المطلوب من الجمل وبخاصة الجمل الملتبسة هو الذي دفع تشومسكي إلى رفضها ورفض الأسس والأهداف التي يقوم اللغويون البنيانيون بالتحليل في ضوئها، ودفعه أيضا إلى الاتجاه نحو الوجه الثاني من وجوه التحليل اللغوي وهو البحث عن البنية التحتية أو العميقة Deep structure ، لأنها في رأيه تمكن الباحث من وصف الأسس النحوية لتتابع المباني الصرفية، الأسس التي تمكن المتحدث بلغة ما أن

يشـكل عددا غير محدود من الجمل، وهذا هو ما يسميه النحو التوليدي Generative grammar، ولنأخذ عددا من الجمل الملتبسة نحللها تحليلا سطحيا ثم نبحث عن معناها العميق[20].

1- بقالـة الجامعة الجديدة واسعة (لوحة على مدخل بقالة بالقرب من جامعة اليرموك)

ج= م أ+ أ

فـإذا اعتـبرنا أنّ المضـاف إلـيه والنعـت بمثابة كلمة واحدة، فيكون النعت (الجديـدة) نعـتا لكلمـة بقالـة، في حين إذا قصد أن يكون النعت تابعا للجامعة فيكون تحليلها:

ج= أ+م أ+أ.

فمـثل هـذه الجمـل تبقى ملتبسة لا سبيل إلى الوصول إلى معناها العميق إلا بـتحويلها إلـى جملة أخرى مثل: بقالة واسعة للجامعة الجديدة أو: بقالة جديدة واسعة للجامعة...الخ.

2- الطالبات والطلاب المجتهدون يحبون علم اللغة

ج= أ+ ح + م1 + م ف + م1.

= أ + ح + (أأ/ن) + (ف ض) + (أأ)

فـتكون كلمة (المجتهدون) نعتا للطلاب، في حين إن المتكلم قد يقصد أن تكون نعتا للطالبات كما هي للطلاب، ولكن جاءت بلفظة المذكر على التغلب في العربية، فيكون تحليلها:

ج= م أ + ح + م أ + م ف + م أ

= (أأ/ن) + ح + (أأ/ن) + (ف ض) + (أأ).

وهــذا الــنوع من الجمل يبدو مقبولا، تقبله اللغة وتدافع عنه، بحجة أن ما قبل حرف العطف يساوي ما بعده. وأن الناظر في البنية التحتية لهذه الجملة يدرك أنها تعني ربط النعت بالاسم السابق على حرف العطف والاسم الذي يأتي بعده.

3- ألاَ يا سلمي يا دارَ ميّ على البِلَى

ج= ح + ح + م ف + ح + م أ + ح + أ

= ح + (ح¯) + (ف ض) + ح أ أ) + (ح أ).

= ح + ح [(أ) مقدر + (ف ض) + (ح أ أ) + (ح أ)].

مــثل هذه الجمل مقبول في اللغة لوجود القرينة الدالة على الاسم المقدر، وهي يــاء النداء التي لا تدخل على الفعل، وهذا يبدو من النظر في البنية التحتية للجملة، فإن المــتكلم ينادي (أحدا) ليلقي إليه بحديث معين، فلابد من تقدير ما يشير إلى (أحدا) وهو (أ/مقدر).

لــنعد الآن إلى الجملة السابقة، الموضوعة باللغة الانجليزيــة ... Sencerity may فــإن التحليلات الموضوعة أمامها لم تزد كما قلنا، على الوصف السطحي لمباني هذه الجملة، ولعلاقة هذه المباني بعضها ببعض وفقا لقواعد نحوية معينة Generative rules وقــد تتغــير مواقع هذه المباني، فيتغير معنى الجملة في كل مرة إلى معنى جديد وفقا لقواعد نحوية معينة Transformational rules فالجملة تولد وفقا لقواعد تنسجم مع ناموس اللغة، أية لغة، ثم يتحول تركيبها وفقا للمعنى الدلالي ولتحقيق البنية التحتية المقصود منها، فإن وظيفة القواعد التحويلية الرئيسة هي تحويل البنية التحتية لتبدو في تراكيب سطحية، إذ إن البنية التحتية تمرُّ عادةً بسلسلةٍ من قواعد التحويل قبل أن تصبح تركيــبا سطحيا متكاملا، وإن المعنى الرئيس في الجملة كلها (المكونة من مجموعة من الجمــل القصــيرة أو التراكيب السطحية) يكمن في بنيتها التحتية، سابقا بذلك استعمال القواعــد التحويلــية[21]. وبعبارة أخرى فإن لكل جملة وجهين ماثلين بارزين فيها، وجه يبدو في الشكل، والآخر يبدو في المعنى. وإن الهدف الجوهري للجملة يكمن في المعنى الــذي يتمثل في بنيتها التحتية، أما الشكل فإنه يتحقق في تركيبها السطحي. وإن معنى

الجملــة العميق يبدو في تراكيب سطحية وفقا لقواعد النحو التحويلي، التي وإن كانت لا تغــير المعــنى الأســاس فــي الجملة، إلا أنها تؤثر على التراكيب السطحية التي تبدو عليها[22].

فاللغــة، أيــة لغــة، تضم مجموعة من الجملة البسيطة للتعبير عن معنى بعينه Kernal Sentences ثــم تحويــل هذه الجمل للتعبير عن معان أخرى، وذلك باستخدام قواعد النحو التحويلي[23]. ولنضرب مثلا من العربية لتوضيح هذه الفكرة:

1قابل 2رئيسُ الجامعة 3الطلابَ 4مساءَ أمسِ 5في مكتبةِ الجامعة 6تكريماً لهم.

فــإن الأصــل فــي الجملة الفعلية في اللغة العربية أن تبدأ بفعل، ومن هنا فقد جــاءت هــذه الجملــة مولودة على الأصل، تسير في تتابع كلماتها وفقا لقواعد نحوية معينة، ولكنها قابلة للتحويل إلى عدد هائل من الجمل بالتقديم والتأخير، كما يلي:

2	1	3	4	5	6
3	1	2	4	5	6
4	1	2	3	5	6
5	1	2	3	4	6
6	1	2	3	4	5
3	4	2	1	5	6
5	2	1	4	5	6
6	5	4	2	1	3
6	5	4	1	2	3
6	2	1	3	5	4
6	2	1	3	4	5

...... الخ

يتم هذا التحويل في الجملة في حدود يسمح بها النحو ليحقق في كل مرة معنى دلاليا يختلف عنه في الأخرى، ولا يخرج عن النظام النحوي للغة. أو كما يعبر عنها أبو سعيد السيرافي: معاني النحو منقسمة بين حركات اللفظ وسكناته وبين وضع الحروف في مواضعها المقتضية لها، وتأليف الكلام بالتقديم والتأخير، وتوخي الصواب، وتجنب الخطأ في ذلك. وإن زاغ شيء عن النعت فإنه لا يخلو أن يكون سائغا بالاستعمال النادر والتأويل البعيد، أو مردودا لخروجه عن عادة القوم الجارية على فطرتهم[24]: وإن مواقع الكلمات واستعمالها في الجملة يكون وفقا لترتيب المعاني في النفس. يقول الجرجاني: "لا يتصور أن تعرف للفظ موضعا من غير أن تعرف معناه، ولا أن تتوخى في الألفاظ من حيث هي ألفاظ ترتيبا ونظما، وإنك تتوخى الترتيب في المعاني، وتعمل الفكر هناك، فإذا تم ذلك اتبعتها الألفاظ وقفوت بها آثارها، وإنك إذا فرغت من ترتيب المعاني في نفسك، لم تحتج إلى أن تستأنف فكرا في ترتيب الألفاظ، بل تجدها تترتب لك بحكم أنها خدم للمعاني، وتابعة لها، ولاحقة بها. وإن العلم بمواقع المعاني في النفس، علم بمواقع الألفاظ الدالة عليها في النطق[25]. لذا فإن جوهر الكلام هو ذلك الكلام النفسي، وأما الكلام اللفظي فهو ظل لهذا الكلام النفسي[26] مضبوطا بقواعد وقوانين اللغة، وهي غاية ما يصبوا إليه علم اللغة الوصفي ليقدم جملة تعبر عن هذا المعنى[27].

نحاول الآن أن نضع الرسم التالي ليبين مطابقة هذه الأفكار لعلم اللغة المعاصر ومعطياته:

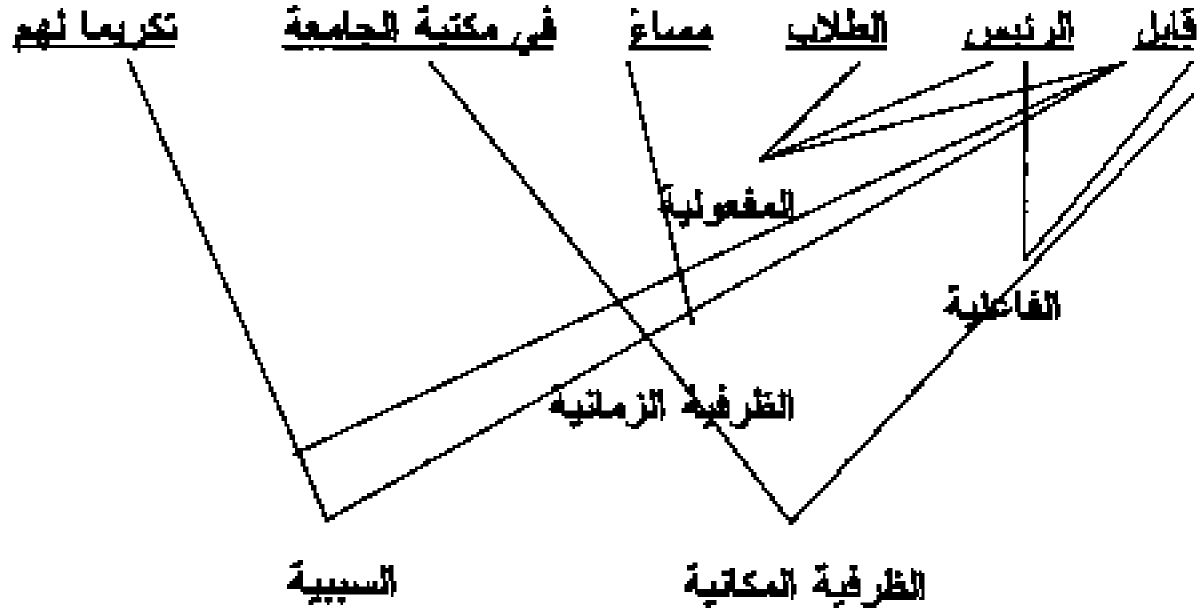
المعنى الدلالي أكبر من > تركيب فونولوجي+ تركيب مورفولوجي ⊂ بنية سطحية + قواعد تحويلية U البنية العميقة ⊂ النحو ⊃ التنغيم.[28]

مجموعـــة مـــن الأصوات اللغوية الخاضعة
لنظام الأصوات وجهاز النطق في اللغة

مجموعـــة من المباني الصرفية الخاضعة
لنظام صرفي معين، وقوانين تركيبية معينة
البنية التحتية (المعنى)[29]

مجموعـــة من التراكيب السطحية الخاضعة
لـــنظام القواعد التحويلية، والموجودة وفقا
لقواعد النحو التوليدي

وستعرض البنية التحتية عند عبد القاهر الجرجاني، بعد أن نعرض فهمه للبنية السطحية. يرى الجرجاني أنّ المباني الصرفية التي تحتويها اللغة (أوضاع اللغة) تحتاج معهـــا إلى شيء آخر لتكون قادرة على جعل السامع يعرف غرض المتكلم ومقصوده[30] المقصـــود الـــذي هو بالتأكيد ليس معاني الكلم المفردة[31]. فالكلمات وحدها لا تفيد حتى تؤلف ضربا خاصا من التأليف، ويعمد بها إلى وجه دون وجه من التركيب والترتيب[32]، فمـــا هذا الشيء الذي يربط بينها؟ فليس من عاقل يفتح عين قلبه إلا وهو يعلم ضرورة أن المعـــنى فـــي ضم بعضها إلى بعض، وتعليق بعضها ببعض، وجعل بعضها بسبب من بعض، لا أن ينطق ببعضها في أثر بعض من غير أن يكون فيما بينها تعلق[33] فما معنى هـــذا التعلـــيق؟ ومـــا الأســـباب إلى تربط هذه الكلمات بعضها ببعض؟ وهل التعليق هو الاقتضـــاء بالعمل والعامـــل؟ أم هو ترابط بين كلمات تمثل كل منها بابا نحويا؟ وإن كان ذلـــك كذلـــك، فهل هذا هو الذي قصده الجرجاني بجعل بعضها بسبب من بعض، فالجملة خـــيط يـــربط بيـــن مجموعة من الأجزاء يقوم التركيب (النحو) فيها بوظيفة هامة، هي تحديـــد الكيفية التي تترابط عليها هذه الأجزاء لتكون الجملة[34]، فالجملة تترابط كلماتها على النحو التالي:



وهــذه في حد ذاتها مصطلحات نحوية، لا يستطيع السامع أن يفهم منها غرض المــتكلم ومقصــوده. فمــا التعلق عند الجرجاني إذا؟... ويعلم كذلك ضرورة إذا فكر أن التعلق يكون بين معانيها لا فيما بين أنفسها، ألا ترى أنا لو جهدنا كل الجهد أن نتصور تعلقــا فيما بين لفظين لا معنى تحتهما لم نتصور[35]. إذا فالتعليق هو بؤرة النظرية عند الجرجاني، وهو مصطلح موازٍ لمصطلح آخر يستعمله كثيرا وهو النظم، معلوم أن ليس الــنظم ســوى تعليق الكلم بعضها ببعض، وجعل بعضها بسبب من بعض[36]، لا نظم في الكلــم ولا ترتيب حتى يعلق بعضها ببعض، ويبنى بعضها على بعض، ويجعل هذا بسبب من ذلك[37]. وهنا نستطيع أن نضع اللبنة الأولى في بناء المعادلة اللغوية عند الجرجاني:

النظم = أو ◄——► التعليق

ويقــول في موضع آخر: واعلم أن ليس النظم إلا أن تضع كلامك الوضع الذي يقتضيه علم النحو، وتعمل على قوانينه وأصوله، وتعرف مناهجه التي نهجت، فلا تزيغ عنها، وتحفظ الرسوم التي رسمت فلا تخل بشيء منها[38].

النظم ≡ أو ◄——► قوانين النحو وأصوله ومناهجه (علم النحو).

ثــم يوضــح تكونــي العلاقة بين الكلمات قائلا ليست إلا توخي معاني النحو في معاني الكلم[39] فتصبح المعادلة كما يلي:

النظم ≡ ←——→ التعليق ≡ ←→←→ علم النحو □ قوانيــــن الــــنحو وأصوله ومناهجه ←→ المعنى الدلالي بين السامع والمتكلم.

وإن هــذا المعــنى الدلالي (المذكور في آخر المعادلة) يخضع للتحويل والتغيير وفقــا للمعنى الموجود في الذهن، فيأتي ترتيب الكلمات في الجملة دالا عليه مشيرا له.. فلا يتصور أن تعرف للفظ موضعا من غير أن تعرف معناه ولا أن تتوخى في الألفاظ من حيث هي ألفاظ ترتيبا ونظما، وإنك تتوخى الترتيب في المعاني وتعمل الفكر هناك[40].

وهنا نضرب أمثلة توضح البنية السطحية Surface structure وأوجه التحليل علـــى ضوئها عند العرب، ثم نعرض متابعة عبد القاهر الجرجاني التحليل لتحقيق البنية العميقة Deep structure فنحلل جملة قصيرة كما يلي:

أ- أكرم خالد فاطمة

أكرم: فعل ماض متعد.

خالد: اسم مفرد مذكر علم.

فاطمة: اسم مفرد مؤنث علم.

ب- أكرم: فعل ماض مبني على الفتح.

خالد: فاعل مرفوع وعلامة رفعه الضمة الظاهرة على آخره.

فاطمة: مفعول به منصوب وعلامة نصبه الفتحة الظاهرة على آخره.

فإنــه كمــا يبدو واضحا أن التحليل الأول تحليل يعتمد على قسم من أقسام علم اللغــة وهــو الصرف Morphology ، في حين يعتمد الثاني على قسم من أقسام علم التركيب (النحوSyntax) وهو الوظيفة المعتمدة على العامل الذي يؤثر على أواخر الكلم فـــي الجملة، فيطبعها بحركة إعراب معينة، وإن طريقتي التحليل هاتيـــن لا تكشفان عن المعــنى، فإننا لو وضعنا كلمة (أكرم) بدلا من (أهان) أو كلمة (علي) بدلا من (خالد) ... الخ لما اقتضى ذلك أي تغيير في التفصيل المذكور أمام هذه الكلمات، في حين إن التباين

في المعنى بين أكرم وأهان، هو التباين بين الشيء وضده. ولعل الأمثلة التالية توضح جانبا آخر من جوانب تحليل التركيب السطحي للجملة نقول:

قطع الرجل الشجرة. قطعت الشجرة. انقطعت الشجرة.

فإن كلمة الشجرة في الجملة الأولى مفعول به، وفي الثانية نائب فاعل، وفي الثالثة فاعل، وفي الحقيقة إن كلمة الشجرة في الجمل الثلاث هي موضوع وقوع الحدث. وقد جاءت في الجملة الأولى ممثلا مندوبا عن باب نحوي يعبر عنه بالمصطلح النحوي (مفعول به) الذي يجب أن يحمل ممثله حالة النصب، التي يرمز إليها إمّا بالفتحة أو الياء أو الألف، وتحتاج إليه الجملة عندما يكون فعلها متعديا. وفي الجملة الثانية جاءت ممثلا مندوبا عن باب نحوي آخر يعبر عنه بالمصطلح النحوي (نائب فاعل) تحتاج إليه الجملة عندما يكون فعلها متعديا، وفاعلها غير معروف، أو لا يراد التصريح به، وهذا الممثل يحمل علامة يرمز لها إما بالضمة أو الواو أو الألف، وفي الثالثة. جاءت ممثلا لباب آخر يسمى الفاعل، ويذهب إليه متمما للفعل اللازم، ويأخذ حالة يرمز لها بالضمة أو الواو أو الألف.

على الرغم من أن طرق التحليل هذه لا تكشف عن المعنى الدلالي للجملة، إلا أنها لازمة ضرورية، مرحلة أولى، للتحليل، ولكن دورها ينتهي بتحديد الحركة الإعرابية على أواخر الكلم، ثم يأتي دور التحليل العميق للجملة. ولنعرض هنا كيف يعالجه الجرجاني: ...إذا قلت ضَرَبَ زيدٌ عمرا يوم الجمعة ضرباً شديدا تأديبا له، فإنك تحصل من مجموع هذه الكلم على مفهوم هو معنى واحد. لا عدة معان كما يتوهمه الناس، وذلك لأنك لم تأت بهذه الكلم لتفيد أنفس معانيها، وإنما جئت بها لتفيد وجوه التعليق التي بين الفعل الذي هو ضرب وبين ما عمل فيه، والأحكام التي هي محصول التعلق (وهذه هي المرحلة الأولى)، وإذا كان الأمر كذلك، فينبغي لنا أن ننظر في المفعولية من عمرو وكون يوم الجمعة، زمانا للضرب، وكون الضرب شديدا، وكون التأديب علة للضرب، أيتصور فيها أن تفرد عن المعنى الأول الذي هو أصل الفائدة، وهو إسناد الضرب إلى زيد، وإثبات الضرب به له حتى يعقل كون عمرو مفعولا به، وكون يوم

الجمعـــة مفعــولا فيه وكون ضربا شديدا مصدرا، وكون التأديب مفعولا له، من غير أن يخطر ببالك كون زيد فاعلا للضرب؟

(ثم تأتي مرحلة الكشف عن البنية التحتية deep structure) وإذا نظرنا وجدنا ذلــك لا يتصور، لأن عمرا مفعول لضرب وقع من زيد عليه، ويوم الجمعة زمان لضرب وقــع مــن زيد، وضربا شديدا بيان لذلك الضرب، كيف هو وما صفته، والتأديب علة له وبيـــان أنه كان الغرض منه. وإذا كان ذلك كذلك، بان منه وثبت أن المفهوم من مجموع الكلــم معنى واحد لا عدة معان، وهو اثباتك زيدا فاعلا ضربا لعمرو في وقت كذا وعلى صفة كذا ولغرض كذا، ولهذا المعنى نقول: إنه كلام واحد.[41]

ويقول في موضع آخر: ومما ينبغي أن يعلمه الإنسان ويجعله على ذكر، أنه لا يتصور أن يتعلق الفكر بمعاني الكلم أفرادا ومجردة من معاني النحو، فلا يقوم في وهم، ولا يصنـــح فـــي عقـــل أن يتفكر في معنى فعل من غير أن يريد إعماله في اسم، ولا أن يـــتفكر فـــي معنى اسم من غير أن يريد إعمال فعل فيه، وجعله فاعلا له أو مفعولا، أو يـــريد مـــنه حكمـــا سوى ذلك من الأحكام مثل أن يريد جعله مبتدأ، أو خبرا أو صفة أو حـــالا، أو مـــا شاكل ذلك. وإن أردت أن ترى ذلك عيانا فاعمد إلى أي كلام شئت، وأزل أجزاءه عن مواضعها، وضعها وضعا يمتنع معه دخول شيء من معاني النحو فيها، فقل في: قفا نبك من ذكرى حبيب ومنزل

من نبك قفا حبيب ذكرى منزل: ثم انظر هل يتعلق منك فكر بمعنى كلمة منها؟[42]

ولعلـــنا نســـتطيع هنا على ضوء كلمات الجرجاني أن نضع تحليلا يكشف البنية التحتية والمعنى الدلالي في الجملة، ولنتخذ من المفعول به نقطة الانطلاق فنقول:

عمرا: هو الذي أوقع عليه زيد الضَرب

زيد: هو الذي أوقع الضرب على عمرو

ضرب: هو الحدث الذي أوقعه زيد على عمرو

يوم الجمعة: هو الزمان الذي أوقع فيه زيد الضرب على عمرو

ضربا شديدا: هو توكيد للضرب الذي أوقعه زيد على عمرو وبيان نوعه

تأديبا له: هو السبب أو العلة التي من أجلها أوقع زيد الضرب على عمرو

وهنا نرى أن نشير إلى أن التحليل السطحي السابق لازم وضروري لوضع الحركة الإعرابية التي تكون في كثير من الأحيان قرينة مساعدة للوصول إلى المعنى[43]، ثم يأتي دور القواعد التحويلية transformational rules التي هي جزء من النحو، التي في ضوئها يتم ترتيب الكلمات في الجملة لترتيب معانيها في النفس، يقول الجرجاني: وجملة الأمر: انه لا يكون ترتيب في شيء حتى يكون هناك قصد إلى صورة وصنعة إن لم يقدم فيه ما قدم، ولم يؤخر ما أخر، وبدئ بالذي ثني به، أو ثني بالذي ثلث به، لم تحصل لك تلك الصورة وتلك الصنعة[44] ويقول: ثم اعلم أن ليست المزية بواجبة لها (الكلمات) في نفسها ومن حيث هي على الإطلاق، ولكن تعرض بسبب المعاني والأغراض التي يوضع لها الكلام، ثم بحسب موقع بعضها من بعض، واستعمال بعضها مع بعض[45].

النظم = ← قواعد النحو + قوانين اللغة < القواعد التوليدية والتحويلية = ←المعنى

ويقول: لا نعلم شيئا يبتغيه الناظم بنظمه غير أن ينظر في وجوه كل باب (من أبواب النحو) وفروقه، فينظر في الخبر إلى الوجوه التي تراها في قولك: زيد منطلق، وزيد ينطلق، وينطلق زيد، ومنطلق زيد.... وفي الشرط والجزاء إلى الوجوه التي تراها في قولك: إن تخرج أخرج، وإن خرجت خرجت، وإن تخرج فأنا خارج، وأنا خارج إن خرجت، أنا إن خرجت خارج، وفي الحال إلى الوجوه التي تراها في قولك: جاءني زيد مسرعا، وجاءني يسرع، وجاءني وهو مسرع... فيعرف لكل من ذلك موضعه ويجيء به حيث ينبغي له، وينظر في التي تشترك في معنى، ثم ينفرج كل واحد منها بخصوصية في ذلك المعنى، فيضع كلا من ذلك في خاص معناه... وينظر في الجمل التي ترد، فيعرف موضع الفصل فيها من موضع الوصل... ويتصرف في التعريف والتنكير والتقديم والتأخير في الكلام كله، وفي الحذف والتكرار، والإضمار والإظهار، فيضع كلا من ذلك في مكانه[46]. وإن الاقتصار على أي من التحليلين النحوي الوظيفي، أو

الصرفي، يؤدي إلى الفصل بين المعنى والنحو، فيذهب كل في طريق، له أتباعه وأنصاره، وليس من الضروري أن يلتقيا. يورد الجرجاني الخبر التالي: ... وعن بعضهم أنه قال: رآني البحتري ومعي دفتر شعر فقال ما هذا؟ فقلت شعر الشنفرى، فقال: أين تمضي؟ فقلت إلى أبي العباس (ثعلب) اقرؤه عليه، فقال: قد رأيت أبا عباسكم هذا منذ أيام عند ابن ثوابه، فما رأيته ناقدا للشعر ولا مميزا للألفاظ، ورأيته يستجيد شيئا وينشده، وما هو بأفضل الشعر. فقلت له: أما نقده وتمييزه فهذه صناعة أخرى ولكنه أعرف الناس بإعرابه وغريبه[47].

ولو حاولنا دراسة الأبواب النحوية على ضوء المعنى الذي هو غاية ما يصبو إليه المتحدث والكاتب، لقمنا بدراسة عدد من الأبواب المتفرقة في كتب النحو القديمة والحديثة في باب واحد يربط المعنى بين أجزائه، ولاستطعنا أن نفصل بين كثير من العناصر اللغوية الموضوعة في باب نحوي واحد لا يربط بينها إلا أنها تترك أثرا موحدا على أواخر الكلمات التي تليها، وربما كان المعنى الذي يحمله هذا مغايرا تماما للذي ينقله الآخر. وهذا هو الذي دفع القوم قديما إلى القول في أبي العباس... أما نقده وتمييزه (الشعر) فهذه صناعة أخرى، ولكنه أعرف الناس بإعرابه وغريبه، وهو الذي يدفع كثيراً من المعاصرين حتى أساتذة الجامعات لأن يفصلوا بين حقل الأدب وحقل اللغة والنحو، فهم إن كانوا من أصحاب الأدب، فإنهم غير مسؤولين عن إقامة الجملة السليمة، أو عن وضع الحركة الإعرابية المطلوبة، أو عن ترتيب الكلمات في الجملة. وانظر إلى ما يترتب على ذلك عند طلبة العلم على يديهم، وتصور كيف لو كان الأستاذ أو الطالب من تخصصات أخرى في كلية الآداب أو العلوم أو الهندسة أو غيرها.

هوامـــــــش

1 ابن جني، الخصائص، دار الهدى بيروت 33/1.

2 انظـر: F. DE Saussure, Course in general linguistics 1966, pp. 66-78

3 الجرجاني، دلائل الإعجاز ط 1977 ص 98.

4 الجرجاني، دلائل الإعجاز، ص 372.

5 الجرجاني، أسرار البلاغة ص 347.

6 انظر: F. DE Saussure, Course in general linguistics pp, 17-18

7 وربما كان في هذا تفسير لبعض الشواهد النحوية واللغوية في اللغة العربية، التي ترد مخالفة للقواعد النحوية، والتي يسميها نحاة البصرة "شاذة" لأنهم كانوا يسيرون وفقاً لمـــنهج معــياري. في حين عمد أهل الكوفة لوضع قاعدة لهذا الشاذ فاختلطت عندهم قواعد الكلام بقواعد اللغة، وذلك لأنهم يسيرون وفقاً لمنهج وصفي.

8 السيوطي المزهر 59/1.

9 الجرجاني، دلائل الإعجاز ص 462.

10 انظـر: N. Chomsky, Aspects of the theory of syntax, the M. I. T. Press 1978, pp. 10-11.

11 انظر: N. Chomsky, Aspects, p. 139

12 انظر: N. Chomsky, Aspects, pp. 16-18
وانظـر: Jacobs and Rosenhaum, Transformations style and meaning pp. 77-78

13 انظر: N. Chomsky, Aspects, pp. 10-25

14 انظر: N. Chomsky, Aspects, pp. 16-18

15 انظـر: J. Frith, Papers in linguistics 1934, 1951 Oxford University Press 1969.

16 انظر الجرجاني، دلائل الإعجاز ط 1977 ص 142.

17 انظر: N. Chomsky, Aspects, pp. 63-4

18 انظر: N. Chomsky, Aspects, p. 152

19 لـم تعتبر الـ التعريف في تحليلنا من الاسم ولم نرمز له برمز مستقل كما هو الحال في اللغة الإنجليزية.

20 م ف = مركبي فعل. م أ = مركب اسمي، ح = حرف ، ن = نعت ض = ضمير.

21 انظـر: Jacobs and Rosenbaum, Transformations, style and meaning p. 20

22 انظـر: Jacobs and Rosenbaum, Transformations, style and meaning, p. 20

23 انظر: E. Bach, Syntactic theory, New York, 1974, p. 134

24 التوحيدي، الامتاع والمؤانسة القاهرة 1952، 107/1.

25 الجرجاني، دلائل الإعجاز ص 93.

26 الجندي، درويش نظرية النظم عند عبد القاهر. مكتبة نهضة مصر، 1960 ص 47.

27 انظر: J.R. Frith, Paper in Linguistics, 1934 p. 190

28 كـان هذا الرسم البياني بعد مناقشة واقتراح من Prof. Theo Vennemann في لقـاء شخصـي كان بيني وبينه في مارس 1981م في بولندا أثناء حضورنا المؤتمر اللغوي الدولي الثاني.

29 انظر: J.T. Grnder guide to transformational grammar, New York 1973, p. 177

30 الجرجانـي دلائل الإعجاز تحقيق عبد المنعم خفاجي مكتبة القاهرة 1969، ص 375، 462.

31 الجرجاني، دلائل الإعجاز ص 375.

32 الجرجاني، أسرار البلاغة، ص 3.

33 الجرجانـي، دلائل الإعجاز ص 416. وانظر أيضاً: Jacoba and Rosenbaum, Transformations, style and meaning, Massachusetts, 1971, p. 145.

34 انظر: D. Bolinger, Meaning and form, Longman, 1979, p. 124

35 الجرجاني، دلائل الإعجاز ص 416.

36 الجرجاني، دلائل الإعجاز ص 44.

37 الجرجاني، دلائل الإعجاز ص 97.

38 الجرجاني، دلائل الإعجاز ص 117.

39 الجرجاني، دلائل الإعجاز ص 339.

40 الجرجاني، دلائل الإعجاز ص 93.

41 الجرجاني، دلائل الإعجاز ص376.

42 الجرجاني، دلائل الإعجاز ص 386.

43 تمـــام حســـان، اللغة العربية معناها ومبناها، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، 1973، ص 205.

44 الجرجاني، دلائل ط 1977، ص 352.

45 الجرجاني دلائل الإعجاز ط 1977 ص 128.

46 الجرجاني، دلائل الإعجاز ص 118.

47 الجرجاني، دلائل الإعجاز ط 1977 ص 264.

* تمـت مناقشة كثير من نقاط هذا البحث مع كل من الأستاذ الدكتور S. Kuno أستاذ علـم اللغـــة فـــي جامعة هارفرد، والأستاذ الدكتور سلمان العاني أستاذ علم اللغة في جامعـــة انديانا والأستاذ الدكتور يوسف الهليس أستاذ علم اللغة في الجامعة الأردنية أثـــناء رحلـــة إلى جامعة هارفرد بدعوة من قسم علم اللغة لالقاء بعض المحاضرات، وبدعم من جامعة اليرموك. وهنا أقدم شكري لهؤلاء جميعاً

اللغة بين الإنسان والفكر

اللغة بين الإنسان و الفكر

اللغة نظام إشاري يرى فيه الإنسان كيان نفسه، ويقرأ به العالَم الذي يعيش فيه، فيرى رسم طبائع المجتمعات وخصائصها التي تتميز بها، فيسهم بذلك في بناء مجتمعه ، وكــذا يســهم مجــتمعه في بنائه، من خلال هذا النظام الإشاري، فيتكون بذلك السلوك والســلوك اللغــوي الــذي يعبّر عن فكر المجتمع كما يعبر عن فكر الفرد في المجتمع، فيــتحقق بذلــك وجود أهم خاصيتين للإنسان: التفكير ووسيلة التعبير (اللغة)، وبها يتم تكوين الحضارة الإنسانية، وتناقل هذه الحضارة عبر القرون ، فيكونان العلامتين اللتين تقفان دليلاً على انسانية الإنسان[1] ، واشارة الى بقاء حضارته ونتائج تفكيره بعد زواله. ولكــنّ اللغــه تــبدو واضحة الاتصال بالإنسان أكثر من غيرها ؛ ذلك لكثرة اتصاله بها واستعمالها اداةً منطوقاً و مكتوباً ؛ يثبت بذلك تجاربه و علمه ومعارفه ، يقول ابن حزم [2] ((لا ســبيل الــى معــرفة الاشــياء الا بتوسط اللغة)) ، فتكون اللغة علامة كلامية محسوســة لابــراز مــا في مكنون الإنسان وضميره كما يقول الامام الغزالي [3] ايضاً : ((..... ولا مــتكلّم الا وهــو محتاج الى وضع علامة لتعريف ما في ضميره)) ، وذهب ابــن حــزم الى أبعد من هذا في ابراز ارتباط وجود الإنسان باللغة ، أو لابراز اهميتها لاستمرار كينونته ووجوده ، يقول [4] : ((لا سبيل الى بقاء أحد من الناس ووجوده دون كلام)) .

ومع أن اللغة تبدو مكوّنا رئيساً لوجود الإنسان و استمرار حياته وحضارته، الا أن الفكــر فــي الإنســان قد يبدو أكثر أهمية ، و أصلب دلالة على كينونه هذا الكائن و استمراره في هذا الكون ، فبالفكر يدرك الإنسان وجوده ووجود كلّ ما يحيط به ، متخذاً لنفســه سبيلاً الى التجريد ووضع التصور الدقيق لعلاقته بكل ما حوله ، فيسن القوانين ويشــرع الشرائع ويقيس شيئاً على شيء ، فيقبل ويرفض ويحكم بخيره وشرّه ، ويرى ذاتــه، بــل بــه يعلم وجودها ويدركه ، ومن هنا تأتي مقولة الفيلسوف العقلي ديكارت المشهورة: ((أنا افكر إذن أنا موجود)) .

وبالفكر كذلك يستطيع الإنسان ان يربط بين المدرك حسياً والمتصور عقلاً فيربط بين موجودات الكون ويؤلّف بينها ، وبه أيضاً يستطيع وضع تصوراته الفلسفية و التاريخية و أساطيره الذهنية و حقائق معتقداته و تجسيدها ، فيتضافر بذلك الفكر مع اللغة لتجسيد انسانية الإنسان و التعبير عن كينونته ، وهو تضافر بين مطلق ومقيد – كما ترى – فبينما يلغي الفكر الحواجز و الحدود لينطلق في أفق غير محدود من التصور، تأتي اللغة للتعبير عن الاشياء و الوقوف معها ، وهنا يكون التنافس بين اللغات في القدرة على السير بمحاذاة الفكر و التعبير عنه ، وهنا أيضاً يكون التنافس بين المتكلمين بلغة واحدة في القدرة على التعبير بتلك اللغة المقيدة عن انطلاق الفكر أو عن الفكر المنطلق .

فتكتمل أسباب استمرارية الوجود الإنساني في هذا الكون العجيب المليء بالمتكاملات المتناقضات أحياناً وبالمتناقضات غير المتكاملات غالباً ، الوجود القائم على المطلق و المقيّد ، أو المجرّد و المحسوس فيدرك ذاته ويعقل وجوده ، يقول عبد السلام المسدي [5] :((اذا كان ديكارت قد عدّ الفكر حجة على الوجود بقولته (انا افكر ، اذن أنا موجود ، فان ابن حزم قد أجاز لنا أن نشتق من تحليلاته بعد ربط الوجود باللغة عبر الفكر مقولة قد نصوغها عنه بقولنا :((أنا أتكلم فانا أعقل فانا موجود))

وكما أن التكامل بين المطلق (الفكر) والمقيد (اللغة) قد تجسّد بهما الاحساس بانسانية الإنسان، فان هذا الإنسان يجري بدوره تفاعلاً ثنائياً بينه و بين اللغة التي يستعمل، فهو عندما يستعملها ينتقل بها من حدود الفردية اللغوية الى التعددية اللغوية، وتنقله هي من حدود فرديته الإنسانية الى اطار الجماعة و المجتمع الإنساني ، فبها يبني تعبيره عن تجربته في ذاته لتدخل في موقعها من مجتمعه فتنظّم فيه وتصنّف، فيعلم بذلك افراد الجماعة ما تنقله اللغة ، أو ما يستطيع مستعمل اللغة ان يُحمّلها عن تجارب الفرد او تصوراته أو تجريده الامور (وليس الاشياء) أو تفكيره فيها أو فكرته عنها، فيصبح ما لا شكل له في شكل ، وما لا حسّ له محسوساً في نظا م اشاري فردي (الكلام: وهو الاستعمال الفردي للغة) في اطار اشاري جمعي كبير (اللغة : وهي المخزون الذهني الجمعي للافراد المتكلمين) [6] ، ويخضع هذا النظام الإشاري الفردي

الى عملية اعداد ذهني يربط بين الدوال ومدلولاتها وفقاً لقوانين وصيغ لا يكون الخروج عليها من الامور الميسورة ؛ فتكون اللغةُ بذلك معبراً وممراً للفكر واشارة اليه ، ويكون هـو موضوعاً لادائها ومغذّيا لها ومادةً مختزنة أو مسرحاً خلفياً لها ، فيكونان (اللغة و الفكـر) فـي تشـابك عجيب لا يدري الباحث بأيّهما يبدأ ، ومن هنا كان هذا الموضوع مـيداناً خصـباً لآراء الفلاسفة ودراستهم منذ زمن بعيد في التاريخ الإنساني المعروف، ولكنها أخذت تتجه عند فلاسفة اللغة المتأخرين نحو دراسة الفكر في اللغة أو المعنى في اللغة ، أو اللغة و المعنى، وهذه قادت الباحثين نحو منهجية الدرس اللغوي و البحث في فلسفة اللغة ، فالمعنى جزء من الفكر ولاسبيل للبحث فيه ضرباً من الميتافيزيقا، والفكر محسـوس باللغـة ، واللغـة تحتاج الى منهجية للبحث فيها ، فكانت المنهجية اللسانية (بـنظرياتها المـتعددة) أكثر ما شدّ الباحثين في القرن الحالي على الأقل ، مع أنّ قسماً مـن الفلاسـفة أبدوا تحفظاً شديداً نحوها الى ان جاء العالم اللغوي المعاصر تشومسكي Chomsky بنظريـته التولـيدية التحيلية ليجعل الصلة بين اللسانيات وكلٌ من الفلسفة وعلـم الـنفس وثـيقة قويـة ، بـل متداخلة الى الحدّ الذي جعل الفلاسفة يتخذون من اللسـانيات ومناهجها منطلقا لنظرياتهم وآرائهم الفلسفية مما جعل بعض الباحثين يرى ((ان توضيح اللغة هو المقدمة التي اقتصرت عليها الفلسفة أخيراً)) .

لقـد تعددت المدارس التي بحثت في الفكر و اللغة ، وفي المعنى و اللغة ، وفي الإنسـان و الفكر و اللغة ، وكان أبرزها المدرسة التجريبية المنطقية ، وعلى رأسها كلّ مـن رسـل Russell وجورج مور G.Moore ، ولعل من أبرز علمائها فتجنستين W.Fitgenstein الـذي اسـتطاع ان يـنحوَ بهـا اتجاها يختلف عن اتجاه الفلاسفة السـابقين الذيـن حـافظوا علـى منهجهم فيها باسم مدرسة كمبردج التحليلية ، فاتجه فتجنستين الى تطوير مدرسة عرفت باسم مدرسة اكسفورد التي التي برز فيها عدد من كـبار الفلاسـفة مـثل :رايل G:Ryle وأوستين G.Austin وستراوسن Strawson وغـيرهم. فنهجـت كلّ مدرسة في تناول اللغة وفقاً لتصور العلماء فيها عن اللغة ميتا فيزيقـياً وتعبيرياً . فعُنيت مدرسة كمبردج بوضع أسس معينة لانشاء الجمل ، ثم عمدت الـى التأويل الدلالي للجمل المنشأة ، ثم أخذت ترفض أيّة جملة تكون بابعاد ميتافيزيقية

ولا تخضع لأسس بناء الجمل التي ارتضتها هذه المدرسة . يقول زكي نجيب محمود [7] :((اننا نشترط شروطاً خاصة للعبارة العلمية كي تكون مقبولة على اسس منطقية تجعل لها (معنى قابلاً للتحقيق ، بحيث يمكن الحكم عليها بالصواب او بالخطأ)) ويقول معلقاً علـــى جملـــة ((الروح عنصر بسيط)) قائلاً [8] :((هذا كلام فارغ من المعنى ؛ لأنّ فيه رمـــزاً لايشـــير الـــى مرموزله بين عالم الاشياء)) فهي لا تخضع للتجربة المعملية في المختـــبر ، ولا يمكـــن الـــتحقق مـــن صوابها أو خطئها كقولك مثلاً : ((الذهب عنصر بســـيط))، فلوصله ذلك الى افتراض يحتاج الى اعادة نظر في ما نرى ، يقول [9] :((ان الكـــلام اذا كان له معنى مفهوم فلا بد ان يكون هناك في عالم الاشياء الواقعة فرق بين اثـــباته ونفيه)) . وهذه تمثل أبرز السّمات و الشروط التي يتم طبقاً لها بناء الجملة في هذه المدرسة : الصواب و الخطأ او الصدق و الكذب في العبير أو قابلية ما فيه للتحقيق او عدم امكان ذلك .

أمـــا مدرســـة اوكسفورد فقد تأثرت الىحدّ كبير بافكار الفيلسوف فيجنستين في ابراز دور اللغة واستخدامها ف بالتحكم بالسلوك اللساني ومن ثم أخذت تهتم بالاستخدام اللغـــوي وما يكون فيه من معنى للنموذج اللغوي ، يقول أحد الباحثين [10] : إن ((أبرز نقطـــة في نظرية فيجنستين في المعنى هي هتافه (لا تسل عن المعنى و انما اسأل عن الاســـتخدام))) . وبهـــذا المنظار ينظر أستن الى التعبير اللغوي ؛ فيرى أنّه اذا استطاع تعبـــير ان يســـتمر حـــياً فذلـــك لأنـــه تلقى من الاستخدام الطويل عند الاجيال المتتابعة قـــدرة علـــى انـــتاج فـــوارق ومميزات تجعله أهلاً لأن يُصغى اليه قبل ان يجري عليه تصحيح))[11] . وعليه ، فإن اللغة ما دامت ضمن حدود استخدامها وفقاً لمعاييرها، فانّها تؤدي وظيفتها اداءً صحيحاً .

ويـــبدو أنّ ما التقت عليه المدرستان – من أن الجملة إن لم تكن قابلة للتحقيق فانها ميتافيزيقية لا معنى لها ولا فيها – يبدو انّه موضع رفض وانكار في منهج علماء اللســـانيات– فكثـــير مـــن الجمل التي تصدم بالحقائق العلمية أو البديهيات و المسلّمات المنطقـــية، تحمـــل معـــنى مع انّ المعنى غير قابل للتحقيق علمياً او منطقياً او مختبرياً ...الخ .

وقــد بيّنا في أكثر من موضع من أعمالنا السابقة [12] أن الفكرة تنشأ في ذهن صــاحبها في مرحلة في ميتافيزيقية اسميناها هناك [13] البناء ، ثم تتعلق دالاً بمدلولها الإشاري اللغوي ،ولكنه أيضاً في مرحلة ذهنية اسميناها التعليق ، ثم تأتي المرحلة التي يتم فيها ترتيب هذه الدّوال طبقاً لاحساس صاحبها بأهمية تتابعها في ما يسمى الترتيب، واخــيراً تصــدر عن جهاز النطق أو مكتوبة في مرحلة النظم ، فكلّ جملة – ان لم تكن رطانة قصد بها مجرد النطق – فهي نظم له معنى تمّ فيه اتحاد مستويات اللغة: الصوتي فــي تألــيف المبانــي الصــرفية في كل لغة وفقاً لاسسها التي يبدو أنّها غالباً ما تكون اعتباطــية عشــوائية فــي بدايتها ثم تصبح عرفية اجتماعية . و الصرفي الذي يتم فيه التعليق بين الدال و المدلول ، ثم التركيبي الذي يقف فيه الممثل الصرفي مجسّداً اشارياً حسياً لباب نحوي ذهني مجرد ، لتحقيق معنى دلالي Semanties قائم على قيمة ترتيب المباني انعكاساً لقيمة علاقة الفكر باللغة [14] ، وليس انعكاساً لعلاقة المعنى بالصدق او الكــذب ، أو إمكــان التحقيق تجريبياً أو عدم ذلك . ونرى ان المنهج اللساني يبحث في التعبــير اللغوي من داخله (المعنى)، وصولاً اليه من خارجه (تركيب المباني وترتيبها)، ولــيس كمــا تذهــب المدرستان الفلسفيتان السابقتان محتكمتين الى عنصر خارج عن اللغة .

وهــذا كلّــه يثير سؤالاً عن العلاقة بين الفكر و اللغة. فالحديث عن الفكر ، في الحقــيقة، حديــث عــن موضوع متعددة الجوانب في طبيعته ، وليس أقلّ منه تعدداً في طبيعــته الحديــث عــن اللغــة ، فمن أكثر الظواهر الكونية تفرعاً في أصولها الظاهرةً اللغويــةُ، ومن أكثر الامور تعدداً في الطبيعة البشرية الفكرُ ، فالفكر محتاج في ديمومته وبقائــه ، فضــلاً عن كينونته وظهوره ، الى اللغة ، فهي له ومضة الوجود الفعلي في لحظة المباشرة الحسية ، وهو لها لحظة الحول والتحويل من أصوات حسية لا قيمة لها أو فــيها ، الــى أصــوات منظّمة تقول شيئاً ، وتعني شيئاً ، فتجمع الفرد الى الجماعة فينتمي اليها ، وتنمو الجماعة بالفرد فكراً ولغةً أو لغةً وفكراً . يقول الشهرستاني [15]: ((كــلّ الحــروف و الكلمات محالها اللسان ، وكلّ المعاني والمفهومات محالها الجنان، وبمجموع الأمرين معاً سمي الإنسان ناطقاً ومتكلماً)) . وهذا حقاً هو الربط بين الفكر و

اللغــة ، أو هــو حقاً علاقة التلازم بين الإنسان مفكراً و الإنسان متكلماً ، علاقة يتعذر الفصل فيها بينهما ، يقول ايضاً : ((لو وجدت اللسانية منه دون المعاني الجنانية سمي مجـنوناً لا مـتكلماً الا بالمجـاز)) .فهي علاقة تجعل كلّ واحد منهما يحتاج الى الآخر فـيلازمه ، فيتلازم بذلك في التصرّف الإنساني الكلامي الانتماءُ الفكري الداخلي والتعبيرُ عـن هذا الانتماء في نظام يسمعه المتلقي فيحمل اليه أبعاداً قد تتطابق في مرجعيتها مع مـا فـي ذهـن المـتكلّم فيرى ما فيه على حقيقته ،وقد ينحرف كلّ منهما – توصلاً أو تحصـيلاً – فلا يرى أحدهما ما يراه الآخر ، فيحصل اللبس و من ثم الخلاف والاختلاف الفكـري . وقـد أجاد علماء البلاغة العرب في التراث العربي إحكام التنسيق بين المبنى اللغوي و المضمون الفكري ، أو المعنى الدلالي ، في أنساق تركيبية دلالية تعكس علاقة الـتلازم بيـن الفكـر و اللغة ، وإن نظرة فاحصة الى حديث السكاكي [16] عن عنصري التركيب و الاستدال لَتبين عمقَ ادراك العلماء هذه العلاقة المتلازمة بينهما ، إدراكاً نتج عـنه ايجاد نحوي دلالي دقيق جداً، يقول [17] : ((..... الاستدلال ؛ وهو اكتساب اثبات الخـبر للمبـتدأ ،أو نفـيه عنه ، بوساطة تركيب جمل)) ، وأنت اذا نظرت في اسلوب القصـر ، وكـيف عالجه السكاكي،من قصر الفاعل على المفعول ، وقصر المفعول على الفـاعل من جانب ، والقصر بين المفعولين من جانب آخر ، وقصر الحال على صاحبه، أو قصر صاحب الحال على الحال فانك وأجد تلازماً عجبي التلاحم بين التراكيب اللغوي و الاسـتدلال الفكري ، فانظر الفرق بين التراكيب التالية و ما يقابلها لترى قلب المعنى و الاستدلال عليه بالتركيب [18] ، ((اعلم انك اذا أردت قصر الفاعل على المفعول قلت: ما ضـرب زيد الا عمراً ، على معنى لم يضرب غير عمرو ، واذا أردت قصر المفعول على الفـاعل قلـت : ما ضرب عمراً الا زيدٌ ، على معنى لم يضربه غير زيد ، و الفرق بين المعنيـين وآضـح .....)) . و((اذا اردت قصـر احد المفعولين على الآخر ، في نحو: كسوت زيداً جبّة ، قلت في قصر زيد على الجبة ؛ ما كسوت زيداً الا جبة، أو ما كسوت الا جـبة زيداً . وفي قصر الجبة على زيد : ما كسوت الا جبة زيداً ، أو : ما كسوت الا زيداً جبة [19] ((واذا اردت قصر ذي الحال على الحال قلت : ما جاء زيد الا راكباً ، و: مـا جاء إلا راكباً زيد ، وفي قصر الحال على ذي الحال : ما جاء راكباً الا زيد ، أو ما جاء زيد راكباً)) [20] .

تحمـــل كـــلّ جملـــة من كلّ زوجين من الجمل السابقة معنى يختلف عن المعنى المستقر في الجملة الاخرى ، فتعكس توجهاً ذهنياً غير مقابله في الاخرى ، فيترتب على كلّ فهمٍ معين وربما تصرف سلوكي كلامي أو جسمي ، و الفرق في المعنى بينهما – كما يقول السكاكي – واضح .

وممـــا يبيّن مدا التلازم بين الفكر واللغة ان متكلّما قد يتكلم بجملة مستبدلاً كلمة بكلمة أو حرفاً بحرف ،فيفهم سامعه خلاف ما كان المتكلّم يرمي اليه ، فيحصل التناقض الفكـــري أو ســـوء الفهم، و ما يترتب عليه من خلافات ، ومن كان لهذا أن يكون لولا وجودُ اللغة بمبانيها ووقراءتها اللغوية و السياقية و أبعادها الاجتماعية ، وتراكيبها التي تخضع لقوانين البناء اللغوي ، ويتمّ تفكيكها بالتحليل اللغوي ، وفي كلّ بناء وتفكيك يبني المتكلّم ويفكّك المحلّل فكراً في لغة او لغةً فيها فكر . ولعل هذا يذكرنا بما يذهب اليه ابن جنـــي فـــي تعريف اللغة [21] :((وحدّ اللغة مجموعة من الاصوات يعبر بها كل قوم عن اغراضـــهم)) ونقـــول : يعبّر بها كل قوم عمّا في أنفسهم أو عن فكرهم .ونظير هذا ما جـــاء به دي سوسير[22] عندما عرّف اللغة بأنها نظام من العلامات المعبرة عن الافكار، فهـــي عنده: أ) نظام ، ب) بل هي نظام اشارات وعلامات ، ج") وفوق ذلك هي نظام اشارات له غاية وهدف وهو التعبير عن الافكار ، فالنظام ذهني مجرد تجسّده الاشارات، فهـــو روحها ، وهي تجسيده ، ثم تصبح هي بلا قيمة إن لم تكن فيها فكرة ، فهذه ثلاثة أمـــور تتشـــابك لتكويـــن كيان واحد ، لا الى اللغة وحدها هو ، ولا الى الفكر وحدة هو أيضـــاً، وبهـــذا أيضـــاً نستطيع تفسير العلاقة بين الدال و المدلول في ما يذهب اليه دي سوســـير[23] وما يذهب اليه ريتشارد وأوجدن[24] في المثلث الدلالي الوارد كتابهما القيّم The meaning of meaning ، فالفكـــر ، بذلـــك فـــي اللغة و اللغة وعاء الفكر ، بها نفكـــر، وبهـــا نعـــبّر عمّا نفكر ، فهي التي تمثّل ذاتنا أمام ذاتنا و أما م الآخرين ، وهي علامـــة له أو عليه تنظمه في اطار مدرك مصنّف ، يلتقيان عند الإنسان وفيه ،فلا يكون أحدهمـــا فيه الا بالآخر ،ولا يكون هو بغيرهما ، فبهما ينتقل ويتحول، وبه يخرجان الى حـــيّز الوجـــود فيستمران ويتجددان وفقا للنظام اللغوي الفكري ، أو الفكري اللغوي في جملة من القواعد والقوانين الذهنية المجرّدة الموجودة في الإنسان قدرة كامنة أو طاقة

فطـــرية او هـــي واقـــع غير شعوري - كما يرى الفلاسفة اللغويون - ولكنّ تجسيده الكلامـــي يجعلـــه كينونة قائمة في قوانين ، حركتها تحركه ، و الزيادة عليها او الحذف مـــنها أو كيفـــية اخراجها تجعلها في تحوّل دائم فالمتكلم عندما يتكلم جملة تتكوّن على سبيل المثال، ليس غير، من فعل متعدٍ وفاعل ومفعول به، فانّه في الحقيقة، يجسّد ابواباً مجردة في الذهن مضمونها :

فعل وفاعل ومفعول به، كما يلي :

↓ ↓ ↓

أكرم الطالب المعلم

ويتضمن كلُ لفظ (أو ممثل صرفي) معنى أو فكراً، كما يلي :

أكرم	← الطالب	← المعلّم
↓	↓	↓
رمز حدث ه[25] ... الاكرام فِي زمن ...	رمز الذي أوقع الاكرام في زمن ...	رمـــز مَنْ وقع له فِي زمن ...

رمز مَنْ وقع له الاكرام في زمن ..

فـــان أجـــرى المـــتكلم تقديماً وتأخيراً في الممثل الصرفي، فانه في حقيقة الأمر يجري التغيـــير فـــي جزئية فكرية يترت عليها تغير (محدود أو شامل) في المعنى الكامن في التركيـــب، ولا يكون هذا التغير الا في حدود ما تسمح به اللغة،أو قل مايسمح به الفكر اللغـــوي القائم على السماع ممن يتكلم تلك اللغة سليقة من غير تكلّف، وهذا مايمكن أن يسمى بالنظام اللغوي أو التنظيم النحوي للغة، أو قل هو تنظيم الإنسان أو فكر ا لانسان بـــنظام مـــن الإنســـان، فهو تنظيم للشكل بالمضمون، وتنظيم المضمون بالشكل الذي لا يستطيع تجاوزه. وهذا النظام اللغوي الإشاري يقوم على المباني الإشارية الصرفية وما يرتـــبط بهـــا مـــن نظام صوتي أو نحوي تركيببي قابل للتفكيك الى وحداته الصغرى، أو

التجمع في وحدات معقدة كتعقيد الفكر الذي في اجتماعها، أو في ما أُريد له ان يكون في اجتماعها. وإنّ أيّ خروج على ذلك فانه (أ) إمّا من الخطأ الذي لا يُعتدّ به، أو (ب) من الخروج الرمزي المجازي على الحقيقة ومنها، وهذا بدوره إمّا أن يكون مستنداً على بُعد اجتماعي: تراثي أو معاصر، فيبرز ذاتَ مبدعه ومكنونه، فيفهمه متلقيه مع ادراكه الاسلوب التعبيري أو البياني الذي وضع فيه ذاته. أو (ج) هو من الخروج الرمزي أو المجازي الذي تبتكره الذات لترجمة ذاتها بدوالّ غير مألوفة البتة، أو غير مألوفة لهذا الغرض، فعندئذ على هذا المبدع أن يعاني في صراعه مع المجتمع، أو أن يستكين ألى ان يصبح أثراً بعد عين،ولعل في الشعر المعاصر بأصناف قصائده المختلفة ما يبيّن ما تذهب اليه ويدعمه .

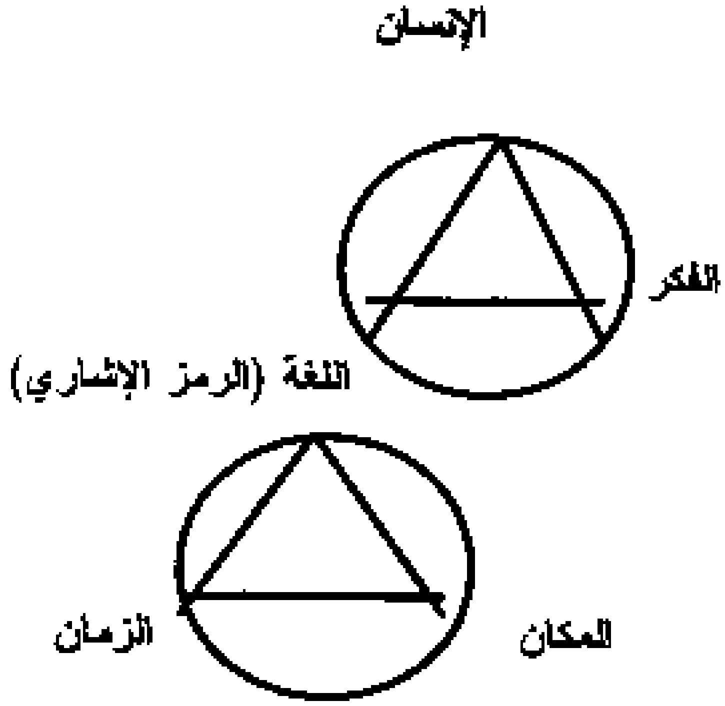
البعدان الزماني و المكاني في اللغة و الإنسان .[26]

من أهم سمات اللغة أنّها نظام وأداء، ويمكن ان ينظر اليها بأنها نظام آداء، او آداء نظام، الآداء من الإنسان والنظام ايضاً للإنسان، فتندمج هذه الظواهر الثلاث لتكوّن وحدة متكاملة، تُدرَك وتُحَسّ، وتطلق وتُقيَّد، وتجرَّد وتجسَّد، ولكنها تحتاج الى احساس ثنائي بأينَ ومتى، او بالمكان الذي يتم فيه البناء اللغوي الفكري، او الفكر اللغوي، ليكتسب تماسكاً بين افراد المجموعة المكانية، فتضمن له البقاء بعد الكينونة، وكذا تحتاج الى الزمان الذي يضمن لها الاستمرار بالانتقال، او الانتقال للاستمرار، فتبقى (الوحدة المتكاملة) تنتقل مع التاريخ، فتحفظ بذلك الإنسان والفكر واللغة عبر التاريخ سواء أضاق المكان ام اتسع. فبذا يعيش الإنسان بين ثنائية المكان والزمان، ومن ثم يعيش الفكر بين هاتين الثنائيتين، وعلى ذلك فان اللغة تعيش ايضاً بين ثنائية المكان والزمان، ولكنها تجد لزاماً عليها ان تبتكر اشارات لغوية تدل عمّا في الإنسان (الفكر) صادرٍ عنه (النظام اللغوي) معبرٍ عن زمان حدوثه ومكان حدوثه، فكأنما هي اشارة تعلو مضمون فكرة زمن الحدث في مكان حدوث الحدث. فهي حادثة في زمن، معبرةٌ عن فكر في زمن او مرتبطٍ بزمن، وحين تعلو الحدث للتعبير عنه زماناً فانها تتشكل فيه مكاناً، وبهذا تتكون لغة قوم ما في زمن معين ومكان معين، مهمتها التعبير باللغة او

الاشارة اللغوية عما هو ليس من اللغة اصلاً (الزمان والمكان)، او هو على الاقل خارج اللغـــة، ولكنّ تجسيده كائن باللغة، فهما وجوداً لا ينفكان عنها، وبها حضورهما الدائم، وأيضــاً لــو غابا عنها لغاب منها بُعدان رئيسان في الفكر والإنسان، فالإنسان يضع في اللغـــة، بوصـــفها مكانـــاً، تركيب ما يقول، ويضع في ادائها، بوصفه انجازاً، زمان هذا القــول، وبـــذا يتحقق تجسيد فكر الإنسان في معنى، ولو كانت اللغة زماناً فقط لخسرت نظامها وانفرط العقد الذي يجمع نظامها الصوتي في مبان صرفية ذات أبعاد دلالية، ولو كانت مكاناً فقط، لما أمكن لمتكلّم ان يخبر عمّا يريد، فهما خارجان عنها ولكن وجودها بهمـــا يـــتحقق، وادراكهما بها يكون، فهما دليلان على وجودها، وهما اشارتان تهديان المتلقـــي الى وجود الكلام والمعنى الكامن فيه، ذلك المعنى الذي لا يكون الكلام بغيره ذا قـــيمة. فهما لها اشارة تدل على خصوصيتها، فيتفاعلان (الزمان والمكان) فيها للارتباط بـــأحداث الاشـــياء، او بالأشياء حادثةً، فتتم بين الطرفين علاقة جدلية يستدعي أحدهما الآخـــر ليتمّ به، وبه يكتمل، فيكون كل واحد من الطرفين دالاً فيه دليل، ذلك وإن بدا ان اللغـــة دليل على الذات (ذات نفسها)، كما هي دليل على ماليس من ذات نفسها (الزمان والمكان)، ذلك لأن الزمان والمكان دليل وجود كل موجود، وبغيرهما لا دليل على وجود الموجـــود (ليس الخالق)، فقد أصبحت اللغة بوصفها موجوداً تكون زمانية ومكانية معاً، ولكـــن لا يذهبـــن بنا التفكير الى المساواة بين اللغة والاشياء لاستوائها كلها في المكان والـــزمان، فقد انفردت اللغة في ذاتها بخاصية لها وليس لغيرها وهي التعبير بالذات عن الـــذات، كما هو التعبير بها عن الاشياء، فهي فاعل في نفسه ومفعول نفسه أيضاً، فهي مبدعه لما تحتاج اليه في نفسها من ذاتها، تنتجه وتجعله من وحدات ذاتها، ولعل الزمان والمكـــان وإن لم يكونا من ابداعها الا أنّها مادتها الاساس، يجعلانها تتسم بأهم عناصر قدرتها التعبيرية في الاشارة الى الثابت والمتحوّل، والماضي والحال والمستقبل، والأصل والفـــرع، والتـــناظر والتـــناقض، والنفي والاثبات، فيكون لها الثبوت المكاني والتحول الزمانـــي، وكـــذا الـــتحول المكانـــي والـــتحول الزمانـــي، مما ينشأ عنه مناهج دراسة الحضـــارات، وكـــذا مقارنـــة الحضارات ببعضها زماناً ومكاناً في نظام لغوي فيه طاقة ابداعية خلاّقة.

فلـــنا مـــن قـــبل: إن اللغة نظام اشاري يعبّر عن ذاته كما يعبر عن الاشياء من خـــارج ذاته، فكما أنّه فاعل نفسه فهو مفعول نفسه ايضاً، وهو بقدرة خلاّقة تبتدع لكل شـــئ اشـــارة تعبيرية، تصبح له رمزاً ويكون لها مادة، ولكن الغريب في الأمر أن هذا الابـــداع لا يكـــون الا مرتبطاً بالزمان او المكان، او بهما معاً مما جعل العلماء ينظرون اليهما على أنّهما المكوّن الأساس للغة البشرية[27]، فما من لغة الا وفيها طريقة للتعبير عن هذين العنصرين بأبعادهما المختلفة (البعيد والقريب). ولعل هذا يفسّر انصراف قسم واضح من جهود علماء العربية الى الفعل بأزمنته المختلفة، فهو عندهم[28] "ما دل على حـــدث وزمـــان ماض او مستقبل" وعلى هذا المعنى يلتقي جُلّ النجاة، فيقول ابن كيسان (مـــثلاً) "الفعـــل مـــا كان مذكوراً لأحد الزمانين: ما مضى، وما يستقبل، او احدهما وهو الحـــال"[29]، ولعـــل تعريف المبرد يُعدّ من اقرب ما نريد اقتباسه، يقول[30]: "الفعل ما دلّ علـــى حـــركة" ويقول[31]: "الفعل ما دل على حدوث شئ في زمان محدود" وزاد بقوله: "الفعل ما حَسُنَ فيه أمس أو غد"[31]" ولكنه جلّ النجاة يدورون في حدود ما قاله سيبويه فـــي هذا الصدد، يقول [32]: "الفعل امثلة اخذت من لفظ احداث الاسماء، وبنيت لما مضى، ولما يكون ولم يقع، وما هو كائن لم ينقطع".

فـــالفعل حـــدث، والحـــدث في زمن والزمن متحرك مختلف، يقول ابن ولاد[33]: "الفعـــل مـــا كان مختلفاً"، ويقول ابن السراج[34]: "الفعل كل لفظ دلّ على معنى في نفسه مقـــترن بزمان محصل" والى مثل هذا ذهب الصيمري[35] وابن بابشاذ[36] والدينوري [37] والصـــقلي [38] والزمخشري [39]، وابن الخشاب [40]، والانباري [41] وغيرهم كثير. فكأن الـــزمان هـــو المسؤول عن حركة الثابت وهو المكان وفيه يحصل الحدث، فيتكون بذلك الاحساس الإنساني بهما، فيكتمل المثلث وتبدأ حول رؤوسه دائرة هكذا:



ويتصل باللغة (وهي رمز اشاري في الإنسان تعبّر عن فكره) رأسا مثلث فيهما المكان والزمان، وحولهما دائرة حتى يتوقف الباحث المفكر طويلاً امام السؤال: ايُّ هذه الثلاثة بالآخر يكون؟ فكلٌ للآخر مكوِّن اساس، وعنصر رئيس.

والمتأمل في ذلك كله يجد ان العلماء في تعريفاتهم لايقدمون تدقيقاً حدّياً للزمن فــي اللغة الا من الاستشعار الزماني المستقى من منطق الواقع في حدوث الاشياء فيه، وهــذا (اي الواقع) يختلف في علاقته بالزمن عن علاقة اللغة بالزمن، فالواقع حادث في الزمــن، اما اللغة فهي التي تخلق الزمن وتحدث فيه، فالزمن في اللغة بنية لغوية ناتجة عــن علاقة تشتبك فيها القوالب الصرفية اللغوية في علاقات تبين حدوث الحدث وتخبر عنه فتجعل له زمناً سواء أكان زمن النطق، اما سابقاً عليه، ام انصرافاً به نحو غده كما عبّر بعض النحاة، قال المبرد [42]:"الفعل ما دل على حدوث شئ في زمان محدد" ثم قال: "الفعــل ما حسن فيه أمس وغد" وقال ابن السراج [43]:"الفعل ما دلّ على معنى وزمان، وذلــك الــزمان إمّا ماضٍ وإما حاضر، وإمّا مستقبل". فالحدث هنا عند ابن السراج هو (معــنى) والــدال عليه هو العنصر الإشاري (الفعل) لكن الذي اكسب (المعنى) احساساً بــالوجود عن مستعمل العنصر الإشاري هو الزمن، يقول ابو اسحاق الزجاج[44]:" الفعل صــوت مقطّــع مفهــوم علــى معــنى في زمان ومكان مأخوذ من حدث"، ويقول ابن

السراج [45]: "الفعل ما كان خبراً ولا يجوز ان يخبر عنه" وقد عبّر عنه النحاس تعبيراً جميلاً، يقول [46]: "الفعل ما دلّ على المصدر وحسن فيه الجزم والتصرف"، والمصدر هو الحدث، والتصرّف دليل الحركة على ماهو ثابت، فأنت به تحرك، وتخبر، وتسنده ولا تسند اليه، فتحقق بذلك فائدة، انظر لترى هذا في قول الفارسي [47] والانباري: [47] "الفعل ما كان مستنداً الى شئ ولم يستند اليه شئ" ثم في قول الرماني[48]: "الفعل ما دل على معنى دلالة الفائدة" او هو كلمة تدل على معنى مختص بزمان دلالة الافادة".

ويقودنا هذا الى القول بأن الزمان في العربية اذا ما كان في تركيب جملي فان عناصر الترابط الجملي، نقصد ارتباط الكلمة بالكلمة في الجملة، وبعض عناصر توجيه الزمن بأدوات معينة تدخل على الفعل فتصرفه إمّا للماضي او للمستقبل ... الخ، او عناصر توجيه الزمن في الجملة كالروابط الشرطية وغيرها، وهذا كلّه يحتاج في العربية الى مزيد من عمق الدراسة والبحث الذي يقوم على التجريد بين الفكر واللغة تجريداً ذهنياً فلسفياً قبل ان يتم التوحيد بينهما لنتمكن من الوقوف على معنى قول العلماء، الفعل ما دلّ على حدث وزمن، فنتمكن من التحديد الدقيق للألفاظ الصرفية او الاشارات اللغوية الدالة على الزمان الذي فيه الحدث، او على الحدث في الزمان، فلا تبقى التصنيفات الصرفية وبخاصة في الفعلية هائمة عائمة.

ويقود هذا ايضاً الى القول بأن عدداً من الألفاظ في العربية قد أدرجت في الفعلية وهي في الحقيقة تفتقر الى الخيط الذي يربطها بها، فـ (ليس)، مثلاً ، فعل ماض، و(نعم) فعل، وبئس فعل، وأَجْمِلْ وأَجْمَلَ في التعجب فعلان، وعدا وخلا وحاشا اذا كان بعدهما الاسم منصوباً فأفعال، في حين اذا كان بعدها مجروراً فهي حروف جر، وتوجه (ما) قبلها لتكون مصدرية ان كانت هذه افعالاً، وزائدة ان كانت حروف جر.وغير ذلك في العربية والدرس النحوي كثير، وقد ترتب على ذلك عدم الربط الدقيق بين عناصر الجملة ربطاً دلالياً، مما ترتب عليه عدم القدرة على الدخول في عمق النص للوقوف على حقيقة الزمن الفعلي للحدث والكلام وليس الاكتفاء بالوقوف مع الصيغة وما صنّفت فيه [49].

نعود هنا الى القول بأنّ اللغة تصنع التعبير عن الزمن، تصنعه بمبانيها ونظامها الداخلــي، وسياق استخدامها، ولو ترك الزمن بلا لغة لما كان للإنسان ان يدركه او أن يُحــسّ بــه، ويكون هذا الزمن، أو دعنا نقول يكون التعبير عن هذا الزمن بما يمكن ان يسمى

أولاً: زمــن الخطاب، وتكون فيه اللغة اشارة الى ذاتها كما تكون اشارة اليه، فتشير الى مضمون الزمن كما تشير الى زمن اداء هذا الزمن فيكتسب بهذا البعد أهمية باللغة فــي الخطاب وتحليله فهو يدل على المعنى المتضمّن وإن كان يبدو زمناً في شكل الخطاب.

وثانــياً: زمن الارسال والاستقبال، وهو ما يُعبّر عنه بزمن الاتصال، فيبدأ احدهما وهو الارســال في الحاضر ولكنه ينتهي في الماضي، ويبدأ الثاني بعد الأول بقليل ليعيد الماضــي الى الحاضر، ويبقيان في تعاقب مستمر حتى ينقضي حدوثهما، فيعتمدان على اللغة وهناك يكون:

ثالــثاً: زمــن السياق، والمقصود هنا المجال التداولي للخطاب في بنية لغوية وعدد من العلاقــات والقرائــن التــي تعــبر عن زمن الخطاب، فهو ابداع زمن ثالث يبدعه الخطاب ليدركه المتلقي، يحدد ما يريده الخطاب وليس ما يريده المتلقي، ولا حتى ما يريده المبدع، فهو (زمن مجرد + انصراف دلالي لعلاقات البنى والقرائن)، فهو كائــن لمــا يشكله الخطاب في ابداعه وليس من أجل ابداعه، فيتشكّل نوعاً بتشكل الخطاب موضوعاً: حواراً، او سرداً، او تاريخاً حقيقياً او اسطورياً، او نفسياً نثراً او شعراً، رواية، او قصة، او مسرحاً ... الخ.

يــبدو مما عرضنا قبل قليل ان الزمن وحدة فكرية انسانية تحاول جاهدة التحرر مــن الحــدود والقــيود، ولكن الإنسان يعمل جاهداً لتحديده وحصره، فجعل له موازين: الســاعة والــيوم والاسبوع والشهر والسنة، واتخذ الشمس والقمر والكواكب لمحاصرة هــذه الوحدة المتحررة المتفلّتة حتى اخذ يخرج من حدوده الى حدود التفكير في الزمن الآخــر الذي يحاول ان يرسم له حدوداً تصورية لغوية "في يوم كان مقداره خمسين ألف

سنة" أو "يدبر الامر من السماء الى الارض ثم يعرج اليه في يوم كان مقداره ألف سنة مما تعدون"، فهذه كتلة زمنية هائلة عجيبة الترامي يدركها الخالق ولا يدركها المخلوق، فيقرّبها له، او يقـرّبه هولهـا بكلمات لغوية يعلمها سبحانه علم اليقين، فيقرّ بها من المخلوق تصوراً ذهنياً لغوياً وليس ادراكاً حسيّاً، لأنه ليس للفكر من غير اللغة ان يحمل أيّ دلالـة ذاتيه على الزمان كما ان ليس للافعال من غير البنية ان تحمل أيّ دلالة ذاتية عليه، وهذا يدل على ان الفكر يحتاج الى اللغة ليدرك ما يجري خارجاً عنه، فتكون اللغة بهـذا المعـنى وسيطاً في انتظامه ضمن الزمان، وكذلك الافعال تكون محتاجة الى البنية لكـي تدل على معانيها الزمانية، والبنية بهذا المعنى تكون وسيطاً في اداء هذه الدلالات الزمانـية، وقد أدرك الجرجاني هذا، فقال[50]:"اذا قلنا في الفعل إنّه يدلّ على الزمان، لم يكـن انه يدل على الزمان بنفسه، ولكن أنّه يدل على كون الزمان الماضي زماناً للمعنى" وعليه، فان بنية اللغة، بوصفها ترتيباً داخلياً لوحدات النظام في اللغة، لتتمكن من تحريك المعانـي بين الغياب والحضور، ولتحويل التماس بين الاشياء والاحداث باللغة الى كلام يعـبّر عن عمق الماضي والتعبير عنه بدلالته الغائبة، ويحرك الحال والحضور ليعبّر به عـن استشراف المستقبل بأبنية لغوية ونظام وترتيب لغوي أيضاً، وبذا فانّ كلّ ما يحدث فَولاً يكون بين مرحلتين أو وجودين: وجود يكون فيه ثم يمضي الى غياب، ووجود كان فـيه ثـم يعود بعد مضي الى حضور، وبذا أيضاً، فان الفكر يدور مع اللغة حيث تدور، فيعيش فيها بين لحظتين أو وجودين لا تكفّ احداهما تدور حول الاخرى: الماضي زماناً مـن غير انعدام، والحاضر مكاناً من غير انقضاء، وعلى ذلك فان الفكر محتاج لأن يتخذ في اللغة بعدين: الزمان والمكان ليكون دالاً وحدثاً حادثاً، وتوفر اللغة له ذلك، فتطلقه في الـزمان وتعطي لحدوثه فيها افعال غيابه عنها، ولكنها قد تدوّنه وتثبته، فتعطي لوجوده دوام الحضـور فيها نصّاً يكتسب دوامه من دوام المكان النصّي الذي فيه الخطاب حاملاً معه تجربة الاجيال السابقة وخبراتها وحضارتها ونتائج تفكيرها ومعطيات ما يحمله جيل الـى جـيل، فيحدث التفاعل بين الاجيال والتلاحق والتلاقح بين الافكار والحضارات منذ فجـر الـتاريخ الى ان يرث الله الارض وما عليها، وتهيء بذلك للاجيال امكان الدراسة بمنهجيها الزماني والمكاني بكل ما فيهما من جوانب الحضارة ومعطياتها ونتائجها. فتتم بذلـك صـناعة المعـرفة تصوّراً وانتاجاً وانجازاً وممارسةً، وكلما اتسعت دائرة الفرد

وقدرتـــه فـــي استعمال لغته، اتسعت دائرة قدرته على الابداع وزيادة المعرفة، ومن هنا تأتـــي الاشارة بوضوح الى العلاقة بين الفكر والمعرفة في اللغة، فبها يصبح شكلاً تثبت فيه ما انتهت اليه تجارب الإنسان وممارساته وما وصلت اليه تأملاته وتصوراته، فتكون اللغـــة دالاً للمعـــرفة، بـــه تعلن عن نفسها شكلاً ومضموناً فتتشكل اللغة مع الافكار من طبـــيعة واحـــدة. ولمّـــا كانت الافكار علامات على الاشياء واشارات اليها، فان الكلمات علامات على الافكار والمعارف واشارات لها ايضاً.

فكلامـــنا اشـــارات أو علامات دالة، وافكارنا حين نفكر اشارات وعلامات دالة، وقدرتنا على التمييز بين عناصر المعرفة وأضربها يكون باشارات وعلامات فارقة دالة، ووجودنـــا الإنساني اشارة دالة على النوعية التي يمتاز بها هذا المخلوق عن غيره من المخلوقات باحتوائه اشارة الفكر واشارة اللغة واشارة الزمان واشارة المكان.

الهوامش

1- وانظر: الشهرستاني، محمد، نهاية الاقدام في علوم الكلام، بغداد، ص323.

2- ابـو محمـد علـي بن حزم الاندلسي، التقريب لحد المنطق والمدخل اليه بالالفاظ العامية والامثلة الفقهية، تحقيق احسان عباس بيروت 1959م ص155.

3- ابو حامد الغزالي، المستصفى من علم الاصول، المكتبة التجارية الكبرى، مصر 1937 ص 29.

4- ابو محمد علي بن حزم الاندلسي، الاحكام في اصول الاحكام، مطبعة الامام ط2، مصر، 1/ 29.

5- عـبد السـلام المسدي، التفكير اللساني في الحضارة العربية، الدار العربية للكتاب، ليبيا – تونس، 1981 ص56.

6- وانظر، دي سوسير، دروس في الألسنية العامة. ترجمة صالح القرمادي وزميليه ص27-32.

7- زكي نجيب محمود، موقف من الميتافيزيقا، دار الشروق، بيروت، 1983 مقدمة ط2.

8- السابق ص 7.

9- السابق ص 14.

10- محمود فهمي زيدان، في فلسفة اللغة، دار النهضة العربية، بيروت 1985.ص 107.

11- السابق.

12- انظـر خليل عمايره: دعوة لقراءة جديدة للنحو العربي، مجلة دراسات يمنية-عدد قديم، العـامل النحوي بين مؤيديه ومعارضيه، دار الفكر الاسلامي – عمان، وقفة مع صلوات في هيكل الحب للشابي، مجلة دراسات يمنية صنعاء.

13- وهـذه المصطلحات الاربعة قد اخذناها من دلائل الاعجاز للجرجاني الا أننا نذهب بها الى غير ما يذهب اليه بها عبد القاهر الجرجاني.

14- وانظر، خليل عمايره، آراء في الضمير العائد ولغة أكلوني البراغيث، دار البشير- عمان 1989 ص18.

15- الشهرستاني، محمد، نهاية الاقدام في علوم الكلام، بغداد، بلا تاريخ ص323.

16- السكاكي محمد بن علي، مفتاح العلوم، دار الكتب العلمية، بيروت 1987 ص 298 .

17- السابق ص 435 .

18- السابق ص 297 .

19- السابق .

20- السابق 297 - 298 .

21- ابن جني، عثمان، الخصائص ج1 ص33 .

22- دي سوسير دروس في الألسنية العامة - ترجمة صالح القرمادي وزميليه، الدار العربية للكتاب 1985 ص27-32.

23- السابق.

24- Richerds and Ogden ، The meaning of meaning.

25- سنتحدث بعد قليل عن جانب من الزمان والمكان في اللغة.

26- لسنا بالمعنين هنا بالتحدث عن الزمن في اللغة كما يفيده الفعل باداة او بغير اداة ولا من وجهة نظر نحوية أو لغوية، وانما من وجهة نظر فلسفية ترتبط باللغة والفكر وجوداً

27- انظر: نايف خرما، اضواء على الدراسات اللغوية المعاصرة - عالم المعرفة-الكويت.

28- انظـر: الزجاجي، الجمل في النحو، تحقيق علي الحمد مؤسسة الرسالة ، بيروت 1984، ص 10.

29- ابـن كيسـان، الموفقـي في النحو ، نشر في مجلة المورد - بغداد عدد 2 مجلد 4 عام 1975، ص106.

30- البطليوسي، الحلل في اصلاح الخلل ص 70.

31- السابق.

32- سيبويه، الكتاب 12/1.

33- البطليوسي، الحلل في اصلاح الخلل ص70.

34- العكبري، مسائل خلافية ص 63.

35- الصيمري، التبصرة والتذكرة، 74/1.

36- ابن بابشاذ، شرح المقدمة المحسبة، ص 193.

37- الدنيوري، ثمار الصناعة 39/1.

38- الصقلي، مقدمة في النحو ص 63.

39- الزمخشري، المفصل 343.

40- ابن الخشاب، المرتجل، ص14.

41- الانباري، اسرار عربية، 11.

42- البطليوسي، الحلل في اصلاح الخلل ص70.

43- ابن السراج، الاصول في النحو 38/1.

44- البطليوسي، الحلل في اصلاح الخلل 71.

45- الموجز في النحو ص 27.

46- النحاس، التفاحة ص 14.

47- الجرجاني، المقتصد في شرح الايضاح 76/1 وانظر، منثور الفوائد للانباري ص 28.

48- الرماني، الحدود 67، وانظر، شرح عيون الاعراب للمجاشعي، ص 47.

49- لسنا هنا بحاجة الى تفصيل القول الابواب النحوية السابقة ودلالتها على الاسمية او الفعلية، ويكفي ان نقرأ مسألة نعم وبئس في كتاب الانصاف ونرى الخلاف بين النحاة في

اعــرابها خلافاً من النقيض الى ضده تماماً فتارة هو عند بعضهم فعل ويحتاج الى فاعل، واخرى هو عند غيرهم اسم فهو مبتدأ يحتاج الى خبر.

50- عــبد القاهر الجرجاني، دلائل الاعجاز، تحقيق محمود شاكر، مكتبة الخانجي، القاهرة ص 569.

قائمة المراجع والمصادر

1- الانباري، ابو البركات، اسرار العربية، تحقيق محمد بهجت البيطار، مطبعة الترقي، دمشق سنة 1957.

2- الانباريــن ابــو الــبركات، الانصاف في مسائل الخلاف، تحقيق محي الدين عبد الحميد - القاهرة.

3- الانباري، كمال الدين ابو البركات، منثور الفوائد، تحقيق حاتم الضامن، دار الرائد العربي، بيروت ط1، 1990.

4- ابــن بابشــاذ، طاهر بن احمد، شرح المقدمة المحسبة، تحقيق خالد عبد الكريم، المطبعة العصرية الكويت ط1 ج1 1976، ط1ج2، 1977.

5- البطليوسي، ابو محمد عبد الله، الحلل في اصلاح الخلل من كتاب الجمل، تحقيق سعيد عبد الكريم سعودي، دار الرشيد للنشر، بغداد، ودار الطليعة بيروت 1980.

6- الجرجانــي، عبد القاهر، دلائل الاعجاز، تحقيق محمود شاكر، مكتبة الخانجي، القاهرة بلا تاريخ.

7- الجرجانــي، المقتصــد في شرح الايضاح، تحقيق كاظم بحر المرجاني، دار الرشيد العراق 1982.

8- ابــن جنــي، ابــو الفتح عثمان، الخصائص تحقيق محمد علي النجار، دار الهدى للطباعة والنشر - بيروت، دار الشؤون الثقافية العامة، بغداد، ط2 سنة 1990.

9- ابن حزم، ابو محمد علي، الاحكام في اصول الأحكام، مطبعة الامام مصر، ط2.

10- ابــن حــزم، التقريب لحدّ المنطق والمدخل اليه بالألفاظ العامية والامثلة الفقهية، تحقيق احسان عباس، بيروت 1959.

11- خرما، نايف، اضواء على الدراسات اللغوية المعاصرة- عالم المعرفة- الكويت.

12- الديــنوري، ابــو عبد الله الحسين بن موسى، ثمار الصناعة في علم العربية، تحقيق حنا حداد، وزارة الثقافة عمان-الاردن ط1، 1994.

13- الرماني، ابو الحسن علي بن عيسى، الحدود، نشر في (رسالتان في اللغة) تحقيق ابراهيم السامرائي، درا الفكر-عمان-الاردن 1982.

14- الزجاجـــي، ابـــو القاســـم عبد الرحمن بن اسحاق، الجمل في النحو، تحقيق علي توفيق الحمد، مؤسسة الرسالة، بيروت ودار الأمل - اربد ط1، 1984.

15- زكي نجيب محمود، موقف من الميتافيزيقا، دار الشروق، بيروت ط2 1983.

16- الزمخشري، ابو القاسم محمود بن عمر، المفصل في علم العربية، دار الجيل، بيروت، ط 2، بلا تاريخ..

17- زيدان، محمود فهمي، في فلسفة اللغة، دار النهضة العربية، بيروت 1985.

18- ابـــن الســـراج، ابو بكر محمد بن سهل، الاصول في النحو، تحقيق عبد الحسين الفتلي، مؤسسة الرسالة، بيروت ط2، سنة 1985.

19- السكاكي، محمد بن علي، مفتاح العلوم، دار الكتب العلمية، بيروت 1983.

20- ســـيبويه، ابـــو بشر عمرو بن عثمان قنبر، الكتاب، تحقيق عبد السلام محمد هارون دار الجيل، بيروت، ط1 1991. والمطبعة الاميرية بولاق 1317هـــ.

21- سوســـير، فردينالد دي، دروس في الألسنية العامة - ترجمة صالح القرمادي وزميلية - الدار العربية للكتاب 1985.

22- الشهرستاني، محمد، نهاية الاقدام في علوم الكلام، بغداد، بلا تاريخ.

23- الصـــقلي، ابـــو عـــبد الله محمد بن ابي الفرج، مقدمة في النحو، نشر في مجلة المورد العراقية، عدد2 مجلد 12، 1983.

24- الصـــيمري، ابـــو محمد عبد الله بن اسحاق، التبصرة والتذكرة، تحقيق فتحي احمد علي الدين، دار الفكر، دمشق، ط1، 1982.

25- العكـــبري، ابـــو البقاء، مسائل خلافية في النحو، تحقيق محمد خير حلواني، دار المأمون للتراث، ط2 دمشق، بلا تاريخ.

26- عمايـــره، خليل احمد، آراء في الضمير العائد ولغة أكلوني البراغيث، دار البشير، عمان سنة 1979.

27- عمايره، دعوة لقراءة جديده في النحو العربي.المجلة الدولية للتواصل اللساني - جامعة فاس.

28- عمايــره، فــي نحــو اللغة وتراكيبها - مؤسسة علوم القرآن - الامارات العربية - ط2 1992.

29- عمايــره، العــامل النحوي بين مؤيديه ومعارضيه ودوره في النحو العربي.- دار ثروت للطباعة والنشر جده 1992.

30- عمايره، وقفة مع "صلوات في هيكل الحب" للشابي، دراسات يمنيه-صنعاء.

31- الغزالي، ابو حامد، المستصفى من علم الاصول، المكتبة التجارية الكبرى، مصر، 1937.

32- ابن كيسان، الموفقي في النحو، نشر في مجلة المورد العراقية، العدد 2 مجلد 4، 1975.

33- المجاشــعي، ابــو الحسن علي بن فضال، شرح عيون الاعراب، تحقيق حنا حداد، مكتبة المنار، الزرقاء 1985.

34- المســدي، عبد السّلام، التفكير اللساني في الحضارة العربية، الدار العربية للكتاب، ليبيا- تونس سنة 1981.

35- الــنحاس، ابــو جعفــر، التفاحة في النحو، تحقيق كوركيس عواد، مطبعة العاني، بغداد 1965.

من نحو الجملة إلى الترابط النصّي

من نحو الجملة إلى الترابط النّصّي

تُعــدُّ اللغة أهم وسيلة تعبير إنساني؛ يستخدمها الفرد لنقل المعلومات بينه وبين مجتمعه فردا أو جماعة، أو مع ذاته في دعائه أو همهمته في مخاطبة الذات، أو مناقشة أفكــار مــع نفسه، أو مع آخرين يفترضهم أو يتوهمهم، فيبادر بمجموعة من الأصوات استجابة لهذا الموقف أو ذاك، ولا يكون هذا كله بقصد الإبلاغ أو نقل المعلومات، وإنما هو استجابة نفسية أو اجتماعية أو فكرية أو اقتصادية.

ولــو تأملنا الجمل التي تقال في مثل ما سبق، فإننا سنجد أنها تقع في إطارين مختلفيــن، فإن كانت من النوع الذي يقصد به المتكلم تحقيق الاتصال أو نقل المعلومات بينه وبين مجتمعه، فإنها تتسم بتتميم الفائدة في ذاتها، أو بذاتها، أو بالأجزاء المرتبطة بهــا فــي السياق النصي، أمّا إن كانت من النوع الثاني: الهمهمة أو مخاطبة الذّات، أو حــتى مخاطــبة آخريــن بقصد إزالة حرج إطالة الصمت في جلسة اجتماعية ليس بين حاضــريها ميادين مشتركة للحديث، كما يحصل بين كثير من الناس في مثل هذا الموقف فــي بريطانيا، يتحدثون عن الطقس أو ما يتصل به، فتكون الجمل مقطوعة عن السياق، أو هي قابلة للقطع عن السياق: الطقس جميل، الجو متقلب، البرد شديد، الثلوج غزيرة، أو أن يخاطــب النفس لائما أو معاتبا فيقول: اليوم أنفقت كثيرا، ليتني فعلت كذا... إلخ، أو أن يدعو ربّه: اللهم اغفر لي، يا الله سامحني، رب أعطني..... إلخ.

فــإذا ما تأملنا الجمل في الإطارين السابقين، فإننا سنجد أن أهم سمة تتسم بها جمــل الإطار الثاني أنها "مغلقة" تفيد معناها مقطوعة عن غيرها، في حين تكون جمل الإطــار الأول "مــترابطة" وكأنهــا مفتوحة من طرفيها أو من طرف واحد على الأقل، تنتظر ارتباطها بغيرها من طرف واحد أيضا على الأقل، فإذا ما حاولنا أن نصنف دراسة الإطاريــن الســابقين، فإننا نجد أن الأول كان موضوع الدرس النحوي، وأن الثاني كان

موضـــوع درس النقد الأدبي مستخدما لذلك معطيات البلاغة بمصطلحاتها وقدرتها على بناء الصورة الفنية الأدبية.

فقـــد درس نحـــاة العربـــية القدماء الجملة ومكوناتها، وحدوها بأنّها مجموعة الكلمـــات التـــي تحمـــل معنى يحسن السكوت عليه[1]، وأنها إمّا اسمية مكونة من مبتدأ وخبر، أو فعلية مكونة من فعل وفاعل، ومن مفعول به عند بعضهم، يضاف إلى هذه أو تلـــك بعض الفضلات بعد تحقيق الإسناد، وظلت الجملة الوحدة الرئيسة للدرس اللغوي النحوي حتى يومنا هذا عند النحاة واللغويين، فأخذوا يدرسون الأبعاد الدلالية في حركة مبانـــيها أو في ترتيب وحداتها الصرفية، وما يترتب على ذلك من تسمية الجملة اسمية أو فعلـــية ودراســـة خلافات العلماء في ذلك، أو تنصرف الدراسة إلى معرفة الحذف أو الـــزيادة فـــي الجملة الواحدة، مع تعدد وجهات نظر العلماء في دراسة المعاني المترتبة على ذلك كله، مع أن جلّ النحاة درسوها من حيث الحركة الإعرابية وما يسببها حذفا أو إضـــمارا أو ذكرا، من غير اهتمام كبير بما يترتب على أي عنصر من هذه العناصر من حيـــث الدلالة أو المعنى، ولا من حيث الخروج على أصل المباني في التركيب الجملي أو على أصل حركاته، فالأصل في الخبر مثلا أن يكون مفرداً (تركيبيا) فيأخذ عندئذ الحركة الأصـــل لباب الخبر، ولكنه إن خرج على أي من هذين الأصلين، كان يمثل الباب النحوي (الخـــبر مـــثلا) جملة اسمية أو جملة فعلية أو شبه جملة، فإن كلاً من هذه تؤدي دورا دلالـــيا مخـــتلفا عن الأخرى، وكذا إذا تغيرت الحركة الإعرابية عن أصل وضعها، فإنها تـــؤدي دورا دلاليا مختلفا، (وامرأته حمالةَ الحطب)، وسنبين ذلك في ما بعد. ويكفي هنا أن نقتـــبس مـــا قاله الجرجاني فيما يقوي ما تذهب إليه في أن المقصود بالإطار الكبير للـــنحو هـــو إدراك المعـــنى المترتب على البدائل المستعملة في تمثيل الأبواب النحوية، يقـــول[2]: "وهـــل رأيـــتم إذ قـــد عرفـــتم صورة المبتدأ والخبر، وأن إعرابهما الرفع، أن تـــتجاوزوا ذلـــك إلـــى أن تنظروا في أقسام خبره، فتعلموا أنه يكون مفردا وجملة، وأن المفـــرد ينقســـم إلـــى ما يتحمل ضميرا له، وإلى ما لا يحتمل الضمير، وأن الجملة على أربعـــة أضـــرب، وأنه لابد لكل جملة وقعت خبرا لمبتدأ من أن يكون فيها ذكر يعود إلى المبـــتدأ، وأن هـــذا الذكر ربما حذف لفظا وأريد معنى، وأن ذلك لا يكون حتى يكون في

الحال دليل عليه، إلى سائر ما يتصل بباب الابتداء من المسائل اللفظية والمسائل الجليلة التـــي لابـــد مـــنها؟" ثم يتابع قائلا[3] "...... وهكذا ينبغي أن تعرض عليهم الأبواب كلها واحـــدا واحدا، ويسألوا عنها بابا بابا، ثم يقال لهم: ليس إلا أحد أمرين: إما أن تقتحموا التـــي لا يرضاها العاقل، فتنكروا أن يكون بكم حاجة في كتاب الله، وفي خبر رسول الله صـــلى الله علـــيه وسلم وفي معرفة الكلام جملة، إلى شيء من ذلك. وتزعمون أنكم إذا عرفـــتم مثلا أن الفاعل رفع، لم يبق عليكم في باب الفاعل شيء تحتاجون إلى معرفته: ثم يقول[4]: "وإما أن تعلموا أنكم قد أخطأتم حين أصغرتم أمر هذا العلم".

ومـــن العلماء من انصرف إلى دراسة الجملة المسكوكة[5] التي تتكون من مبان محـــددة بترتيب ثابت لا يقبل التغير، ما أن ينطق المتكلم بأولها حتى يتمكن السامع من إكمالهـــا فـــي مـــا يســـميه علمـــاء اللغـــة المعاصرون (توقع ما سيقال) Linguistic Collocations(المـــتلازمات الكلامية) [6]، ومع أن هذا النوع من الدراسة يقوم على بعد آخر في الدرس اللغوي، إلا أن الجملة هي وحدتُهُ في التحليل والدراسة: دراسة الحقيقة أو المجاز في الانحراف اللغوي والاتساق اللغوي اعتمادا على أنّ بين المبدع والمتلقي، أو المـــتكلم والسامع لغة مشتركة تستند إلى موروث اجتماعي مشترك، وكذا تقوم على مجموعة من النظم التي قد يُدرس فيها كلّ نظام على حدة، وباستقلال عن الآخر، فيكون كـــلّ نظـــام مـــنها عـــندئذ قوة كامنة، بالقوة تنتظر خروجها في الاستعمال لتكون بذلك موجـــودة بالفعل ووسيلة تعبير وتأثير، هذه النُظُم هي: النظام الصرفي، والنظام التركيبي (النحوي)، والنظام الدلالي بشقيه المعجمي والسياقي.

تخـــتلف دراســـة كـــلّ نظام منها عن دراسة الآخر باختلاف العناصر التي تَهمُّ دارس كـــل نظام؛ فدارس الأصوات مثلا يهتم بمخارجها، وصفاتها، والوسيلة التي تحمل موجاتهـــا، وصامتها ومتحركها، وطويلها وقصيرها.... الخ، ويهتم دارس الصرف ببنية الكلمـــة وما يجري فيها من تغيير من إعلال وإبدال أو إدغام، ومعرفة موازين الكلمات.. الخ. في حين يهتم دارس النظام التركيبي في الجملة العربية بنسيج الجملة وما فيها من تقديم وتأخير، وما فيها من حركات إعرابية، ومحاولة تفسير أسباب وجودها، وتقسيمها إلـــى اسمية أو فعلية .... الخ. ويقف الدارس للنظام الدلالي مع المعنى المعجمي للفظة

فـــي معـــزل عن السياق كما يهتم بها في سياق، ويهتم أيضا بالحقول والدوائر الدلالية التـــي تعـــتمد على علاقات المفردات بعضها ببعض. فتتهيأ بذلك عناصر دراسة النسيج النصي المسبوك في تتابع جملي قوامه المعنى، فهذا يمثل الخيط الذي تنتظم فيه مفردات الـــنَّص في جمله في ما يسميه عبد القاهر الجرجاني "بالنظم" [7] ويسميه كثير من النقاد القدمـــاء غـــيره "بالســـبك" فالمفردات: (ذكرى، نبك، من، قفا، ومنزل، حبيب،...الخ)[8] مجموعـــة من المفردات لا سبك لها ولا نظم فيها، فلا معنى لها مجتمعة، ومن ثمّ فهي ليســـت بجملة، وعليه فليست بنسيج نصّي يتناوله النحو أو الدلالة. فالحرف (منْ يحتاج إلـــى ما ينضم إليه فيجره ويلازمه، (من ذكرى) وذكرى تحتاج إلى مضافها وتفتقر إلى الالـــتحاق به لتتلازما (من ذكرى حبيب) وحرف النسق يربط بين متجانسين على سبيل التلازم (من ذكرى حبيب ومنزل) والفعل يحتاج إلى فاعل ينضم إليه ويلازمه (قفا) وهذا يفـــتقر إلـــى غاية أو سبب له، (قفا نبك)، فيحصل بذلك السبك في المباني تحقيقا للسبك الدلالي، ولو جعلها متكلم: من ذكرى حبيب ومنزل قفا نبك لكان فيها سبك دلالي قاصر، يفتقر إلى القدرة على سلاسة توصيل المعنى، وأكثر منه قصورا أو فسادا في السبك أن يقول:

ومن ذكرى حبيب ومنزل نبك قفا.

ولا يخفـــى ما في هذا النَّص من أسباب القصور أو الفساد، ومن ثم لا يخفي ما فـــيه من نقص في المعنى المتوخى من نسيج النص. وهناك أسباب كثيرة تقود إلى مثل هـــذا الفساد أو القصور فتؤدي إلى ما يسمى بالغموض أو اللبس Ambiguity، فتقول مـــثلا: مـــررت بأصدقاء خالد وعلي، فهل أن من مررت بهم هم أصدقاء خالد وأصدقاء علي أم أنهم أصدقاء خالد ومررت بعلي أيضا.

ونقـــول: زيـــارة الأصدقاء مشكلة، فيلتبس المعنى من غير قدرة على تحديد أن المضاف إليه فاعل في المعنى أو المفعول.

ونقول: مد الله في عمرك وبارك فيك، فهل هذه جملة خبرية أم هي إنشائية.

ونقول: معهد المخطوطات مهتم بمصادر الثقافة القديمة، فهل النعت للمصادر أم هو للثقافة.

ونقول أخبر الطالب المعلم أن أباه قد حضر إلى المدرسة، فهل الضمير عائد على الطالب أم عائد على المعلم.

ونقول: يهدي الله من خلقه من يشاء، فهل فاعل يشاء يعود على فاعل يهدي أم هو عائد على مفعول لذاته (مَنْ) [9].

ولما كان النحو هو النظام المعياري الذي يحتكم إليه في ضبط التراكيب الجميلة، فإنّ ذلك يجب أن يقود إلى فرضية تعدد المعنى بتعدد تغيير وظائف الأبواب النحوية في الجملة أولا، وبتعدد الممثلات الصرفية للأبواب النحوية في التركيب الجملي، ولكن المعنى يتضح، إما بتحديد علاقة الباب النحوي بالباب النحوي في الجملة، ومن ثَمّ بتحديد علاقة الممثل الصرفي بالممثل الصرفي فيها؛ لأن الباب يتضح ويتجسد محسوسا بممثله الصرفي[10]، أو أن السياق النصي يحدده ويوضحه، فلو أخذنا، مثلا، قوله تعالى ﴿ما أعجلك عن قومك يا موسى﴾[11] في معزل عن السياق الذي وردت فيه، فإنها قد توجه إلى التعجب كما توجه إلى الاستفهام، كما توجه إلى النفي أيضا، ولكن السياق يصرفها إلى معنى واحد ليس غير: ﴿قال هم أولاء على أثري وعجلت إليك ربِّ لترضى﴾[12] وفي قوله تعالى: ﴿قالوا لن نُؤثرك على ما جاءنا من البينات والذي فطرنا فاقض ما أنت قاض﴾[13] يقول تمام حسّان " تحتمل الواو هنا أن تكون للقسم والمعنى "نقسم بمن فطرنا"، وأن تكون بمعنى العطف، والمعنى "لن نؤثرك على من فطرنا"، والقرينة الدالة على العطف قرينة حالية، وهي أنهم كانوا في حالة اعتراف بالدخول في دين موسى، فلم يسبق لهم عهد بأن الله فطرهم، وإذا لم يسبق لهم ولا لفرعون هذا العهد، فإن القَسَمَ حينئذ غير مراد، وإنما المراد إعلان الدخول في دين موسى، وأنهم لن يفضلوا فرعون على الإله الذي خلقهم"[14].

ويمكن أن يحمل على هذا الضرب: التورية، والمجاز، والألغاز والأحاجي، وكذا المشترك اللفظي، وظاهرة التضاد في اللغة، فكلّها ظواهر تحتاج إلى عناصر خارجة عن

اللغة، بل عن الجملة التي تكون فيها الظاهرة ليتمكن السامع أو المتلقي من فهمها، ولو لـم تتضـح هـذه العناصر (القرائن) لمتلقي النَص، فإنه لن يفهم معناها، فتكون هي له عندئذ جملا بلا فائدة إخبارية، أو بلا قيمة اتصال بين المبدع والمتلقي.

ففـي الـتورية كمـا في الكناية، هناك معنيان أحدهما قريب لا يكون مقصودا، والثانـي بعـيد وهو المقصود بالجملة، ولكنّ الكناية تفترق عن التورية في إمكان إيراد المعنيـين وإن كانـت البلاغة المقصودة تكمن في البعيد، في حين إن المعنى البعيد في التورية هو الذي يراد ليس غير[15] فانظر إلى قول الشاعر:

وصاحبٍ لمّا أتاه الغنـى تاه ونفس المرء طمّاحة

وقيل هل صادفت من يدٍ تحمدها، قلت ولا راحة

فـتأمل الكلمتين (تاه)، و(راحة): فهل تاه بمعنى ضلّ طريق الصواب والخير، أم هي بمعنى تبختر وتكبّر وتعالى. وراحة، هل الراحة هي راحة اليد أم قلة التعب ، فكانت كلمـة (يد) في صدر البيت الثاني وقد ارتبطت بكلمة تحمدها مانعة إيراد المعنى القريب. وانظر إلى قول الشاعر في خياط أعور خاط له قباء، وبعد أن أخذه ولبسه قال:

خاط لي عمرو قُبـاءً ليت عينيـه سـواء

فاسأل الناس جميعـا أمديـح أم هجـاء

وحقـا، لـيس بمقـدور الناس جميعاً الحكم (أمديح أم هجاء)، فإن كان أعجبه القباء فمديح وتمنٍ بأن تكون العين غير السليمة كالسليمة، وإن لم يعجبه فهجاء ودعاء لأن تـتعطل السليمة فتستوي مع أختها. ومثلها قول المسؤول الأعور الذي قال لمحدثه وقـد أوصـاه بـأن يهـتم بأمـر عزيز غال، قال (هي في عيني) فهل يعني بها عنايته بالوحـيدة الغالية وقد زادت قيمتها لانفرادها في وجهه وضياع أختها، أم تراه يقصد أنه سيضـعها فـي ما قد أصبح عنده مهملا وموضع نسيان. وهذه هي التعمية لعدم إمكانية الوصـول إلـى المعـنى بأيـة وسيلة إلا أن يصرّح المتكلم بما قصد، فالتعبير بغير هذا التصريح لا تواصل فيه ولا إعلام.

ولعل مثله، ولكن بدرجة أقلّ تعمية وأكثر اتصالاً وإعلاماً، ما نجده في الجمل أو التراكيب التي تحصل فيها مغالطة وإمكان صرف التركيب أو توجيهه إلى وجهة دلالية غير مقبولة، أو إلى وجهة سيئة يقصدها، في حين يحمل التركيب معنى حسناً يغالطه به، فتكون (كلمة حق أريد بها باطل)، وما استعمال (لمراعاة حقوق الإنسان) في التفكير المعاصر إلا من هذا الضرب الذي ظاهره فيه الرحمة وباطنه فيه العذاب والدمار. ومثل ذلك قولنا: "عدوك عدوك" أو "عدوك هو عدوك" أو "اليهودي يهودي مهما أكرمته" فالقرينة في الجملة الثانية (مهما أكرمته)، وفي الجملة الأولى التنغيم والسياق هما القرينة التي تجعل في الجملة درجة اتصال وإعلام، ولولا ذاك لكان المبتدأ هو الخبر والخبر هو المبتدأ، فلا إخبار حينئذٍ. والأصل أن المبتدأ هو الموضوع ويحتاج إلى خبر، فالخبر هو المحمول عند المناطقة، وهما عند النحاة العرب القدماء مسند إليه ومسند، ومن المعلوم أن المسند إليه أو الموضوع أو المبتدأ أسماء لمسمى واحد تقريبا مع اختلاف ظلال كل مصطلح عند الفئة التي تستعمله، والذي يعنينا هنا أن هذه أسماء لمسمى ذهني مجرد، هو باب نحوي، يجسّده ممثل صرفي، هو "عدوك" في الجملة الأولى، و"اليهودي" في الجملة الثانية ويحتاج إلى ما يجسّد باب الخبر ويرتبط به ليتم سبك الجملة وينتظم عقدها، وهذه هي العلاقات النحوية – في ما نرى–؛ أي هي علاقات أبواب نحوية، ومن ثمّ هي علاقة الممثلات الصرفية التي تمثلها، محققة بذلك الترابط المعجمي في علاقات نحوية، فينتج عن ذلك المعنى الدلالي للجملة المسبوكة. ومثل هذا يكون من الجمل في إطار سبك النص، كما سنبين في موضوع لاحق. ففي إطار الترابط المعجمي في علاقات نحوية نستطيع القول: أقام كبيرُ الحجارة وليمةً في شارع الذهب الأصفر في حديقة الماء البارد. فمن حيث العلاقات النحوية فإن الجملة ترقى إلى مستوى الصحة التامة، إذ إن الفعل جاء على ميزانه في الأفعال، واقتضى فاعلا، ومفعولا به، فكان الفاعل مكونًا من مضاف ومضاف إليه، أخذ كلٌ حركته الإعرابية الصحيحة، وهكذا الأمر في بقية الأبواب في الجملة وممثلاتها الصرفية: الجار والمجرور، والمضاف إليه والنعت.... إلخ. ويمكننا بناء على ذلك إن نعربها إعرابا سليماً، ولكنها لا يمكن أن تسمى جملة من حيث السبك أو الفائدة أو تحقيق الاتصال بين

مـبدع ومتلقٍ؛ وذلك لأنها لا تحقق الترابط المعجمي، وأرجو ألاّ يذهب ذهن القارئ إلى توجـيه الـنّص على أنه من المجاز، باحثاً له عن درجة من درجات السَبك وقبوله؛ لأنّ المجـاز يكون بنقل اللفظ من معناه الأصلي إلى معنى آخر لعلاقة بين المعنيين مع قرينة مانعـة مـن إرادة المعنى الأصلي[16]؛ أي المعنى المعلوم في العرف الاجتماعي بين الدال والمدلـول ناتجاً عن علاقة لغوية؛ كالتشبيه مثلاً، أو عن علاقة عقلية؛ السببيّة والحالية والمحلـية وغيرها. وعدم احتمال ورود المعنى الأصل، إمّا لأن الترابط المعجمي يمنعه كما في الجملة السابقة، أو لأن السياق يصرف الذهن عن المعنى الأصل.

فـإن تحقق الترابط المعجمي، في علاقة نحوية سليمة، فقد تحقق أهم عنصرين مـن عناصـر السـبك أو التسـيج النّصّي، الذي يحقق الإعلام أو الاتصال بين المتلقي والمـبدع، ثم تأتي بعدهما عناصر أُخر، تسهم في إكمال السّبك وقوة التسيج، ومن أهم هـذه العناصـر: مقدار عناصر بناء الصورة الفنية في النّصّ، بل يكاد هذا العنصر يُعدُّ المسـؤول عن إعجاب المتلقي بما يسمع أو يقرأ، فيجعله في منطقة الإعجاب بالتصوير الجمـيل وبخاصـة فـي الشعر وبنائه، أو ردّه وإخراجه من جمل السبك الفني، أو من جمـال الشـعر فـي بـنائه، ومن هذا ما يستشهد به جُلّ النقاد القدماء وقسم كبير من المحدثين مثالاً لهذا الشعر قول الشاعر[17]:

ولما قضينا من منى كلّ حاجـــــة	ومسح بالأركان من هـــو ماسـح
وشدت على حدب المهاري رحالهـــا	ولم ينظر الغادي الذي هو رائـــح
أخذنـــا بأطراف الأحاديـــث بيننــا	وسالت بأعناق المطيّ الأباطـــــح

فالـترابط المعجمـي موجود، والعلاقات النحوية قائمة سليمة، ولكن الخطاب لا يزيد على كونه من الشعر المبتذل الذي لا قيمة فيه: زرنا البيت وحججنا، ومسح بأستار الكعـبة من شاء، ثم شددنا الرحيل فلم ير الغادي الرائح،... الخ، فهي قصة وصف، أو وصف في قصّة.

ولكـنّ قـراءة النّصّ قراءة أُخرى، تكشف عن شيء خلف الكلمات، تسهم في بناء الصورة الفنية الوجدانية للشعر في مثل هذه الحالة: سفر وانتقال واغتراب، ورؤية

البيـت الحـرام وأداء مناسـك الحج، جِمالٌ تتحرك ورجال بجهزونها، وأحاديث المودة والمحبة في الله، وصداقة وتوقع افتراق، وسفر العودة ومحاولة التغلب على ما فيها من مشـاعر الانصـراف عـن البيت الحرام (وهو أمر يعرفه كلّ من جرّبه)، وكذا مشاعر الانصـراف عن الأصدقاء الذين التقت الروح معهم بالروح، إنها تجربة نفسية صاخبة، متعارضـة المشـاعر، جعلـت الشـاعر يرى أن وصفها يغني عن كشف ما فيها، وأن التصـريح بهـا يغنـي عن الإيحاء بما فيها، أي جعلته يضع الصورة النفسية في مكان الصـورة الفنـية. وعليه، فقد كان من النقاد مَنْ حكم له، وجلّهم حكموا عليه. ولعل ما نذهـب إليه هو الذي قصده عبد القاهر الجرجاني حين حكم لهذا النص بالحسن، وبأنه[18] "الذي لا تجده إلا في كلام الفحول ولا يقوى عليه إلا أفراد الرجال، كقوله:

وسالت بأعناق المطيّ الأباطح"

وهذا التناسق بين العلاقات النحوية والترابط المعجمي هو الذي جعل عبد القاهر الجرجاني ينوه بهذا الشعر قائلاً[19]: "وليست الغرابة في قوله:

وسالت بأعناق المطيّ الأباطح

علـى هـذه الجملـة، وذلـك أنه لم يُغرب لأن جعل المطيّ في سرعة سيرها وسهولته كالماء يجري في الأبطح، فإنّ هذا شبه معروف ظاهر، ولكن الدقة واللطف في خصوصية أفادها، بأن جعل (سال) فعلا للأباطح، ثم عدّاه بالباء، وبأن أدخل الأعناق في البيـن، فقـال (بأعناق المطيّ) ولم يقل: بالمطي، ولو قال (سالت المطي في الأباطح) لم يكـن شـيئاً. وكذلـك الغرابة في البيت الآخر[20]، ليس في مطلق معنى (سال) ولكن في تعديته بعلى والباء، وبأن جعله فعلاً لقوله (شعاب الحي)، ولولا هذه الأمور كلّها لم يكن هذا الحسن، وهذا موضوع يحق الكلام فيـه".

ومـثل هـذا نـرى في كثير من أغراض الشعر العربي القديم، الوصف والغزل والمديح والرثاء، فإذا ما نظرنا إلى كثير من القصائد في هذه الأغراض فإننا سنجد أنّها لا تخـتلف عن الأبيات السابقة، في أنها وصف لعلاقة بالمحبوبة وعينيها، وقدّها، ولون شـعرها أو خدودهـا، وشـهْدِ ريقها، وثقل أردافها وإقبالها تارة وتمنّعها أخرى لإظهار

دلالها..... الخ، لو أننا سنجد وصف علاقة بالممدوح أو المرثي، وكيف أنّ الدنيا تنقص كثيراً لو لم يكن فيها هذا الكائن، أو ذاك الذي كان... الخ.

نقول: إنّ عدداً من العناصر (كما قال الجرجاني في النّصّ السابق)، ذكرنا قسما منها وسنوالي ذكرها، تجعل الحُسن في نصّ معين؛ فيحكم له بالجمال في السبك أو النسيج. ونودُّ هنا أن نؤكد أهمّية عنصر الصورة الوجدانية التي تكمن خلف عناصر النحو والبلاغة والمعجم، أي خلف الصورة الفنّية للنّص، وأنّ إدراكها قد يحوّل حكم الناقد تحويلا تاما أو يقويه، كما هو الحال بين معظم النقاد في جانب والجرجاني في جانب آخر في ما يتعلق بالأبيات السابقة.

ومن العناصر السابقة الهامة أيضاً في سبك النّص وتحقيق نسيجه بأبعاد إعلامية اتصالية بين المبدع والمتلقي، وبين الفرد والمجتمع، أو بين الإنسان وتراث الأمم، التأويل، ونقصد بالتأويل المعنى الداخلي للنّص، وليس المعنى الذي تفيده الكلمات في ظاهر التركيب، فيؤخذ من العبارة من المعنى أكثر مما يعطيه ظاهر لفظها للوهلة الأولى عند سماعها، مع أنهما غالباً في اتجاه دلالي واحد، خلافا لما عليه الكناية والتورية أو كما يقول أبو حيان[21] "التأويل إنما يسوغ إذا كانت الجادة على شيء، ثم جاء شيء يخالف الجادة فيتأوّل" أو هو صرف الكلام عن ظاهره إلى وجوه خفية تحتاج لتقدير وتدبر" [22].

يقول تعالى: ﴿اتقوا الله حقّ تقاته ولا تموتن إلا وأنتم مسلمون﴾ [23] فليس النهي هنا عن الموت ولا هو عن أي شيء آخر، بل هو أمر وحثّ شديد على الالتزام بالإسلام والتمسّك به حتى اللحظة الأخيرة، حتى إن القارئ يتصور للوهلة الأولى أن الأمر فيها هو بعدم الموت حتى يتم الإسلام. ومثل ذلك في قوله[24]: ﴿فمن كان منكم مريضاً أو على سفر فعدة من أيّام أخر، وعلى الذين يطيقونه فدية طعام مسكين فمن تطوع خيراً فهو خيرٌ له، وأن تصوموا خير لكم إن كنتم تعلمون﴾، فمن يقرأ (يطيقونه) يرى فيها للوهلة الأولى إذْناً حتى لمن هو قادر على الصيام أن يفتدي بإطعام مسكين، فإن تطوّع فصام فهو خير له، ولكن إفطاره مع القدرة على الصيام لا إثم فيه إن دفع الفدية، وهذا ما

ذهـــب إليه مجموعة من أساتذة قسم اللغة العربية في إحدى الجامعات العربية في شرح هـــذه الآيـــة لطلابهـــم. ومن ذلك قوله تعالى: ﴿وما أرسلنا قبلك من المرسلين إلا أنهم لـــيأكلون الطعـــام ويمشون في الأسواق وجعلنا بعضكم لبعض فتنة أتصبرون وكان ربك بصـــيراً﴾[25] فالـــنظرة الأولى تشير إلى أن الصفة البارزة في الرسل أنهم يأكلون الطعام ويمشـــون فـــي الأســـواق، أما المعنى المقصود فهو أن الله يختار رسله من البشر إلى البشـــر، يقومون بأعمالهم كما يقوم غيرهم بحاجات الدنيا من أكل الطعام والانتشار في الأســـواق، فليسوا من الملائكة، رداً على من قال: ﴿ما لهذا الرسول يأكل الطعام ويمشي فـــي الأسواق﴾ [26]؛ لهذا جاءت الآية بعدها: ﴿وقال الذين لا يرجون لقاءنا لولا أُنزل علينا الملائكة أو نرى ربنا لقد استكبروا في أنفسهم وعتوا عتواً كبيراً﴾ [27] فانكشف المعنى في الآيـــة السابقة في (يأكلون الطعام ويمشون في الأسواق) بأنهم أُناس بدليل إنكارهم عدم إنزال الملائكة، وبدليل طلبهم رؤية الله مباشرة، مما جاء فيه قوله تعالى: (استكبروا في أنفســـهم)، وفـــي هـــذا تجاوز كبير للحد، فجاء قوله تعالى (عتوا)، يقول الزمخشري[28]:

"وتجـــاوزوا الحد في الظلم، يقال: عتا علينا فلان، وقد وصف العتو بالكبير، فبالغ في إفراطه".

ومـــن عناصـــر ســـبك النَّص ونسجه تحقيق التَّضام بين أركان الجملة، أي بين الممثلات الصرفية للأبواب النحوية في الجملة وصولا إلى تحقيق الاتساق الدلالي للجملة وارتباطها بغيرها من جمل النص، فيتحقق بذلك نسيج النص، وبذا يتم التضافر بين نحو الجملـــة ونحـــو الـــنص لتحقيق التناص وقيمته الدلالية في النص مـــن سؤال وإجابة، وحـــوار ورد، وغمـــوض وتوضـــيح، وإيجاز وتفصيل، وإطلاق وتقييد، وغير ذلك من عناصـــر بناء النص الواحد في المقام أو الموقف الذي يتم فيه إبداع ذلك النص، فإن لم يـــتحقق الـــترابط الـــنحوي للجملـــة الواحدة والاتساق الدلالي لجمل النص، فإن النسيج النصـــي يبقى بلا قدرة على إيجاد التواصل بين المبدع والمتلقي، وبذا يفقد الخطاب أهم سمة له كما في كثير من الشعر الحديث في هذه الأيام.

وكـــذا إن لـــم يـــتحقق الإتساق الدلالي مع التضام النحوي في النص، فإن تعدد احـــتمالات المعنى يقود إلى ما يسمى باللبس في النص، وما يسمى بتعدد وجوه الإعراب

في الجملة[29] فإن لم يكن في النص ما يزيل اللبس، أو أن يكون في المكنون المعرفي أو فـي الإحالة المرجعية لدى كل من المبدع والمتلقي ما يزيل هذا اللبس، فإن اللبس واقع لا محالـة، والـنص نـاقص في قيمته الإعلامية، فيتحول بذلك إلى وصف للمباني في مجموعـة من الجمل التي تفتقر إلى حسن السبك وإلى عناصر نسيج النص. فإن تحقق التضـام التركيبي مع الاتساق الدلالي، حصل حسن السبك وأجاز ذلك للمبدع أن يصرف الممـثل الصـرفي عن حركته التي يرى المتلقي للوهلة الأولى أنها يجب أن تكون على غير ما تظهر عليه، ولا يكون ذلك إلا لغاية دلالية يتحول إليها المعنى[30] ويود المبدع شد الانتـباه إلـيها، وقـد ورد مـثل هذا كثيرا في القرآن الكريم وفي الشعر العربي، يقول تعالى:[31] ﴿ولكن البر من آمن بالله واليوم الآخر والملائكة والكتاب والنبيين وآتى المال علـى حـبه ذوي القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل والسائلين وفي الرقاب وأقام الصـلاة وآتـى الـزكاة والموفون بعهدهم إذا عاهدوا والصابرين في البأساء والضراء وحيـن البأس﴾، (فالصابرين) تركيبيا معطوفة على (الموفون) والمعطوف على المرفوع يقتضـي الـرفع وليس النصب كما في الآية، ولكن لما كان الاتساق الدلالي واضحا فقد صـرفت (الصـابرين) إلى قيمة دلالية جديدة تكمن في شد الانتباه إلى ما في اللفظة في هـذا السـياق من أهمية بالغة، يدركها من يفكر في الصبر في البأساء والضراء وحين البأس.

وانظـر إلى قوله تعالى[34]: ﴿لكن الراسخون في العلم منهم والمؤمنون يؤمنون بمـا أنـزل إلـيك وما أنزل من قبلك والمقيمين الصلاة المؤتون الزكاة والمؤمنون بالله والـيوم الآخر أولئك سنؤتيهم أجرا عظيما﴾، ترى تحقق السبك النصي واتساق المعنى، ممـا أتـاح الفرصة لشد الانتباه إلى (المقيمين الصلاة) بتغيير الحركة الإعرابية، ونحن علـى يقين من إدراك كل قارئ أو سامع أهمية الصلاة وإقامتها في الإسلام، فهي عماد الديـن، فمـن أقامهـا أقام الدين، ومن هدمها هدم الدين، فاقتضى ذلك أن تنفرد بحركة تخـالف حـركة بابها النحوي في التضام التركيبي. ونرى أنّ عدم صرف الحركة (حالة النصب) إلى المعنى جعل النحاة يختلفون كثيرا في توجيه إعراب هذه الكلمة، فقيل محله جـر عطفا على (ما) وقيل هي نصب على المدح وقيل عطف على الكاف (أي مجرور)،

حتى قيل: (هذا غلط من الكاتب) وهو قول عجيب[33] وقد استطاع الكرماني[33] – في ما نرى– أن يبين وجهة نظر جمهور النحاة في هذا الموضوع وأن يرد عليه ضمنا، ولكنه لم يذكر غيره بديلا له مع عدم موافقته عليه، يقول: (والجمهور إلى نصب على المدح لأن العرب إذا أرادت المبالغة في الذم أو المدح عدلت عن إعراب الاسم الأول إلى النصب بإضمار أعني، أو إلى الرفع بإضمار (هو) .... لا يجوز أن ينصب على المدح، لأن المدح والذم إنما يكون بعد تمام الكلام) ولعلنا نستطيع توجيه قول السكاكي في الرد على من طعنوا في القرآن الكريم من حيث الإعراب مستشهدين بهذه الآية وغيرها، فقال[34] "يقال لصاحبها (الاعتراضات) سمعت (عرفت) شيئا وغابت عنك أشياء، اخدم علم النحو يطلعك على استقامة جميع هذا".

ومما جاء في القرآن الكريم من صرف المعنى وتحويله إلى معنى جديد لتغيير في الحركة الإعرابية عما يقتضيه الترابط النحوي أو التضام التركيبي، وبه يتحقق حسن السبك النصي وقوة نسيجه، قوله تعالى:

﴿يا أيها الناس إنما بغيكم على أنفسكم متاعَ الحياة الدنيا ثم إلينا مرجعكم ﴾ يونس 23

﴿إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات لهم جنات النعيم خالدين فيها وعدَ الله حقا﴾ لقمان 9-8.

﴿ذلك عيسى بن مريم قولَ الحق الذي فيه يمترون﴾ مريم34.

﴿لكن الذين اتقوا ربهم لهم غرف من فوقها غرف مبنية تجري من تحتها الأنهار وعدَ الله﴾ الزمر20.

﴿والمحصنات من النساء إلا ما ملكت أيمانكم كتابَ الله عليكم﴾ النساء24.

﴿فما استمتعتم به منهم فآتوهن أجورهن فريضة﴾ النساء24.

﴿صبغةَ الله ومن أحسن من الله صبغة ونحن له عابدون﴾ البقرة138

﴿إن الذين آمنوا والذين هادوا والصابئون والنصارى..﴾ المائدة69

وقد دأب النحاة على توجيه الحركة الإعرابية توجيها يتسق مع نظرية العامل، فيجعلون كلمة (وعدَ) في الآيات السابقة على القسم، و(ضرب) على المصدرية، وغير ذلك مما يكون تسويغه معمولاً لعامل محذوف يعمل النصب، ولو كانت هذه الكلمات مرفوعة لقيل هي خبر لمبتدأ محذوف، أو هو نعت مقطوع أو..... ، كما في قول الشاعرة (الخرنق بنت هفان)[35]

لا يبْعدنْ قومي الذين هـــم سَمُّ العُداة وآفة الجُـــزر

النازلين بكلِّ معتـــرك والطَّيبون معاقـــدَ الأُزُر

ومما يحول فيه المكنون العرفي والإحالة المرجعية دون حصول اللبس في النَّص ما جاء في قوله تعالى[36]: ﴿فكَذَّبوه فأنجيناه والذين معه في الفلك﴾ وفي قوله تعالى[37]: ﴿فأنجيناه ومَنْ معه في الفلك المشحون﴾؛ أي أنَّهما يحولان دون صرف الواو إلى باب الحال وجعلها للعطف ليس غير، وكذا في قوله[38]: ﴿والذين يتوفون منكم ويذرون أزواجا يتربصن بأنفسهم أربعة أشهر وعشرا﴾ وقوله تعالى[39]: ﴿والمطلقات يتربصن بأنفسهن ثلاثة قروء﴾، فالإحالة المرجعية تبين أنّ (يتربصن) في موضع الأمر بمعنى فليتربصن، وليست نعتا في الأولى ولا خبراً في الثانية كما قد يُتوهم من البحث في التضام التركيبي للجملة الواحدة، وقد أدرك صاحب الكشاف أن المعنى مختلف عما في الجملة الخبرية، إلا أنّ الصنعة النحوية، والبحث في نحو الجملة دفعة إلى محاولة الجمع بين التضام النحوي والاتساق الدلالي، يقول في تعليقه على (المطلقات يتربصن): (فإن قلت: فما معنى الإخبار عنهن بالتربص؟ قلت هو خبر تأكيد للأمر، وأصل الكلام: وليتربصن المطلقات، وإخراج الأمر في صورة الخبر تأكيد للأمر، وإشعار بأنّه مما يجب أن يتلقى بالمسارعة إلى امتثاله، فكأنهن امتثلن الأمر بالتربص" [40].

وتتضافر الإحالة المرجعية أحيانا مع قرينة لغوية في النَّص لتحقيق حسن السبك وقوة النسيج النَّصي، كما في قوله تعالى[41]: ﴿وما علمناه الشعر وما ينبغي له إن هو إلا ذكر وقرآن مبين﴾ فبالإحالة المرجعية والمكنون المعرفي نعلم أن محمدا عليه

وعلى آله أفضل الصلاة والسلام لم يكن شاعرا ولم يقرض الشعر في يوم من الأيام، وخير من يعلم ذلك كفار قريش، فـ(ما) في (ما ينبغي له) تنصرف قطعا إلى النفي مع أن التركيب الجملي لا يمنع كونها موصولة، فينقلب المعنى ويتحول إلى غير ما هو له، ويعود الضمير عندئذ في (له) على الشعر وليس على الرسول، وهذا خلاف لكل مكنون معرفي عن محمد بن عبد الله بن عبد المطلب. ثم جاءت القرينة اللغوية (إن هو إلا ذكر وقرآن مبين) لتصرف (هو) إلى النص القرآني، ولتبين أنّه قرآن وليس بشعر، فيتم الترابط العجيب بين نفي أن يكون محمد شاعرا، وكذا نفي أن يكون ما أنزل على محمد صلى الله عليه وسلم شعرا.

وتعطي البلاغة بالإضافة إلى ما ذكرنا سابقا (الاستعارة والكناية والتورية والمجاز.... الخ) تعطي الفصل، والوصل، والاعتراض، والتمثيل، والتأويل، ورد العجز على الصدر والمصاقبة بين الصوت والمعنى، والإيجاز والإطناب، والتزاوج بين معنيين أو أكثر كالشرط والجزاء مثلا كقول البحتري[47]

إذا ما نَهى الناهي فلجّ بي الهوى أصاخت إلى الواشي فلجّ بها الهجرُ

والتقسيم والجمع كقول حسان[48]:

قوم إذا حاربوا ضرّوا عدوّهم أو حاولوا النفع في أشياعهم نفعوا

سجيّة تلك منهم غير مُحدثَة إنّ الخلائق فاعلم شرّها البدعُ

وبالفصل والوصف يتحقق الانسجام والتناسق بين الجمل المتصلة أو المترابطة بأحد حروف الربط (العطف) فيزداد[49] "الاشتباك والاقتران حتى لا يتصور تقدير أفراد في أحدهما عن الآخر... ومن البيِّن في ذلك قوله:

لا تطعموا إن تُهينونا ونكرمكم وأن نكُفّ الأذى عنكم وتؤذونا

ويقدم الوصل والفصل أيضا عند الجرجاني معنى البيان والتحقيق والتوكيد وتفيد الاستفهام أيضا، يقول: ..." وكذلك يكون في الجمل ما تتصل من ذات نفسها

بالتـــي قبلها، وتستغني بربط معناها لها عن حرف عطف يربطها. وهي كل جملة كانت مؤكدة للتي قبلها ومبيّنة لها، وكانت إذا حصلت لم تكن شيئا سواها" [50] كما يقدم الفصل والوصل عددا من المعاني في النص، يقول الجرجاني[51]: "اعلم أنّه ما من علم من علوم الـــبلاغة أنـــت تقول فيه إنه خفي ودقيق صعب إلا وعلم هذا الباب أغمض وأخفى وأدق وأصعب، وقد قنع النّاس فيه بأن يقولوا إذا رأوا جملة قد ترك فيها العطف: إن الكلام قد استؤنف وقطع عما قبله، لا تطلب أنفسهم منه زيادة على ذلك، ولقد غفلوا غفلة شديدة " وانظـــر فـــي هذا المثال الذي أورده الجرجاني: قال تعالى[52]: ﴿إن الذين كفروا سواء علـــيهم أأنذرتهـــم أم لـــم تنذرهم لا يؤمنون، ختم الله على قلوبهم وعلى سمعهم وعلى أبصـــارهم غشـــاوة، ولهـــم عذاب عظيم﴾ فقوله تعالى (لا يؤمنون) تأكيد لقوله (سواء علـــيهم أأنذرتهـــم أم لم تنذرهم)، وقوله (ختم الله على قلوبهم وعلى سمعهم) تأكيد ثان أبلـــغ مـــن الأول، لأن من كان حاله إذا أنذر مثل حاله إذا لم ينذر كان في غاية الجهل، وكان مطبوعا على قلبه لا محالة)

وتقدم البلاغة أيضا المحسنات البديعية، اللفظية والمعنوية: كالجناس، والطباق، والسجع، والاتساق الصوتي أو التنافر الصوتي، والايقاع والقافية والروي في الشعر.

أمـــا من خارج النّص فهناك عناصر هامة تسهم في بناء النّص، وفي فهمه أو إعادة بنائه، كالسياق، والموقف أو المقام والاستنتاج، والصورة الوجدانية[53]، والمكنون المعرفي، والإحالة المرجعية، والتصور الذهني لمحتويات النص، وغيرها.

إن تضافر هذه المعطيات والعناصر كلها هو ما يحقق بناء النص وفهمه، أي ما يحقـــق الاتساق الدلالي في التضام النحوي، فيتمّ بذلك نسيج النص أو سبكه، أو يتحقق بـــذل ما يرى الجرجاني – كما ذكرنا سابقا– أنه النّظم، وهو عنده الإطار الكبير لمفهوم الـــنحو، ففيه يتّحد جوهر البلاغة مع معدن النحو لسبك النص سواء أكان النص بيتا من الشـــعر أم فصـــلا مـــن النثر، يقول[54] "... إن كنت وفّيته حقّه من النظر، وتدبرته حقّ التدبر، إلا أنك قد علمت علما أبى أن يكون للشك فيه نصيب، وللتوقف نحوك مذهب، أن لـــيس (الـــنظم) شيئا إلا توخي معاني النحو وأحكامه ووجوهه وفروقه فيما بين معاني

الكلام، وأنك قد تبينت إنه إذا رُفع معاني النحو وأحكامه مما بين الكلم حتى لا تراد فيها في جملة ولا تفصيل، خرجت الكلم المنطوق ببعضها في إثر بعض في البيت من الشعر والفصل من النثر".

وبذا يتبين أن النَص اللغوي الذي نبدع أو ندرس أو نحلل، حصيلة جملة من العمليات الفاعلة، قل أن يأخذها النحوي المهتم بنحو الجملة في الحسبان؛ لأن وحدة التحليل عنده -كما ذكرنا في مقدمة هذا البحث- هي الجملة بأبوابها وكلماتها، والحركة الإعرابية على أواخر الكلمات، حتى إن بعض نحاة العربية عَرّف النحو بأنه علم وضع الحركات على أواخر الكلم في الجمل. وعلى الرغم من أهمية الجملة عنصرا في التحليل، إلا أنّ الوقوف معها فقط يحرم النّص من روحه وجماله، ويحرمه كذلك من علاقات بين العناصر داخل الجمل المتصلة فيه، علاقات التماسك بين مفرداته، وجمله وأشباه الجمل، والضمائر وما تعود عليه، والتوجيهات البلاغية التي تكوّن صوره الفنّية، فضلا عن أنه يهمل تماما العناصر المحيطة بالنّص، وهي ذات أهمية بالغة في إبداعه وفي فهمه، وإعادة إبداعه، وسنتحدث هنا عن عدد من هذه العناصر، نبين ماهيتها وأهميتها:

1- السياق: أخذ العلماء في السنوات الأخيرة ينظرون بشيء من الشك إلى إمكان تحليل جملة – فضلا عن سلسلة لغوية – تحليلا كاملا من غير مراعاة السياق، "فإذا قصد النحوي المهتم بالجملة أن يقدم أحكاما بشأن مدى "نحوية" جملة من الجمل، فإنه يعتمد ضِمْنياً على اعتبارات ذات علاقة بالسياق" ومن ثم فإن محللَ النّص، والنّص يتكونُ من مجموعة من الجمل المترابطة، أي مجموعة من المقاصد والسياقات المترابطة، تكون مقصدا واحدا استعملت فيه اللغة أداة تواصل في سياق معين من كاتب أو متكلم للتعبير عن معان وتحقيق مقاصد، فيسعى المحلل إلى وصف مظاهر الاطراد في الإحداثات اللغوية التي يستعملها الناس لإيصال تلك المعاني والمقاصد"؛ فيتحتم بذلك أن يكون السياق الذي ورد فيه النص موضع أهميته، فيتمكن المحلل من فك الغموض وإزالة الإبهام في كثير من الكلمات التي تحتاج إلى إحالة، مثلا: هذا، هنا، ذاك، أنت، الذي،

وغيرها، وبفهمها وإزالة إبهامها يتمكن المحلل من الدخول في الإطارين الزماني والمكاني للحدث اللغوي، ويتمكن أيضا من تحديد هوية مسميات الأسماء في النّص. وذلك يُيَسِّر أمر الإحالات وكشفها في النّص. ولعلّ من الهام أن نشير هنا إلى أن أنواع السياق: السياق النصي، والسياق المكاني، والسياق الزماني، والسياق الاشاري، والسياق...... تتضافر كلها لتكوين السياق الموسع وتؤدي كلها دورا هاما في تحليل النّص وفهمه[55].

2- المقام أو الموقف: سلَّمُ الحديث عن السياق إلى الحديث عن المقام أو الموقف الذي يقال فيه النَّص، فمعرفة المقام الذي يقال فيه النص يساعد على كشف أوجه الدلالة لجملة ما غامضة فيه، أو مخالفة للعرف الاجتماعي في هذا الموقف، فيكون المحلل قادرا على تحديد الحقائق المرتبطة بالموضوع مما يقدمه المقام، خلافا لما كان يذهب إليه بعض الباحثين من أهل المنطق، حيث يرون بأنّ للكلمات والأطروحات معنى في حد ذاتها يمكن بطريقة أو بأخرى تحديده بمعزل عن المشاركين في الخطاب والظروف والمناسبات التي وقع فيها الحدث الكلامي، وهم في منهجهم هذا لا يأخذون في الحسبان دور المتكلم والمستمع. ومن هنا جاء رد فعل فيرث صاحب المنهج الاجتماعي ورأس المدرسة اللسانية في بريطانيا ليقول[56]: "أما أنا فأقترح أنه لا يمكن الفصل فصلا تاما بين الأصوات (المنطوقة) والسياق الاجتماعي الذي يؤدي فيه دورها، ومن ثم فإنّه يجب النظر إلى كلّ النصوص في اللغات المنطوقة على أنّها تحمل في طياتها مقومات القول بحيث تحيل على مشاركين نموذجين في سياق معمم. وقد أخذ هايمز[57] بمنهج فيرث هذا مركزا على المقام والأشخاص الذين يستعملون النص أو الخطاب، فيرى أنّ "معرفة المحلل للباث في حدث كلامي معين يمكّنه من تصور ما يحتمل أن يقول مثل ذلك الشخص (في ذلك المقام)، وتحدد توقعات المحلل بصفة أكبر بمعرفته للمتلقي، وهكذا تختلف توقعاتك عن اللغة التي تستعمل شكلا ومضمونا باختلاف معرفتك بالمتكلم" ويزيد هذه المعرفة دقة معرفة الظرف، أي السياق الزماني والمكاني للحدث، ووضع الجسم

وهوية كل من الطرفين، وطبيعة الحدث، والشفرة المرسَلة، وصيغة الرسالة. ثم وضـع الفيلسـوف اللغوي لويس[58] تطويرا لهذا كلّه، مجموعة من المؤشرات الخاصة التي تمثل عنده مجموعة متكاملة من العوامل الهامة في تحديد السياق والمقـام للنص أو الخطاب، تعتمد على: المؤشر الزمني لتفسير الأزمنة اللغوية والظـروف في النص، والمؤشر المكاني للتفسير مثل: هناك، خذ هذا، ومؤشر الضـمير، ومؤشـر المسـتمعين، ومؤشـر المشار إليه، ومؤشر إمكان وجود موضـوع الحديـث في العالم، ومؤشر الخطاب السابق لتفسير ما ارتبط به من الخطاب موضوع التحليل، ومؤشر الإسناد، وغيرها. وكلها ذات أهمية في تحليل الخطاب وفهم ما فيه، أو استنتاج ما يمكن أن يترتب عليه من تصرف سلوكي، أو استنتاج معاني بعض العبارات فيه، أو معاني ارتباطها بغيرها من الجمل في النص.

3- المكنون المعرفي:

ونقصـد بالمكنون المعرفي أكثر من إطار مما له أهمية في فهم النص أو إعادة بـنائه، كمـا له أهمية في إبداع النص وإنتاجه. ومن هذه الأطر مخزون الفرد المـبدع أو المتلقي من المعلومات حول موضوع البناء النصي، فما أن يقرأ أو يسـمع شيئا عن هذا الموضوع حتى تبدأ هذه المعلومات بالتدخل لصنع صورة أو لوضـع بعد لفهم المتلقي. قال تعالى: ﴿يا أيها النبي لِمَ تحرِّمُ ما أحل الله لك، تبتغـي مرضاة أزواجك﴾ فمن يقرأ (تبتغي مرضاة أزواجك) دون أن يكون عنده مكنون معرفي عن المخاطب (وهو محمد صلى الله عليه وسلم) وأنه خير من لا يـتجاوزون حـدود الله ابتغاء مرضاة أزواجهم، يدرك أن الجملة (تبتغي) جملة خبرية مؤكدة مضمونها، فيقرأها بالاستفهام الإنكاري وليس بالإخبار. وكذا، فإن من يتصدى لفهم نص وعنده معلومات كافية عن الإشارات المعرفية والحضارية التـي فـيه، فإنـه سيجد إدراكه أكثر بكثير ممن يقل عنه في هذا، وإنْ تعادلت كفاءتهما اللغوية.

ومـن هذه الأطر ما ذهب إليه منسكي[59] في محاولته تأطير المعلومات المعرفية المخزنة في الذاكرة في شكل بنى مخصصة للبيانات يسميها (أطر معرفية) تمثل مواقف نموذجية، وهي عنده تستعمل كما يلي: عندما يعترضنا موقف جديد (وهو هنا نصّ لغوي) فإننا نحتاج مما هو متوفر في ذاكرتنا إلى بنية تسمى إطارا معرفيا، وهي عبارة عن إطار نتذكره، وبه يتم تكييف الموقف، وتحديد التفاصيل، وتوجيه النص. وهو إطار يزودنا، ولو جزئيا، بعملية التنسيق بين ما نسمعه والإطار الذي ثبتناه في معلوماتنا المخزونة: وهي التي يسميها شانك[60] (التبعية التصورية).

وعلى الرغم من الانتقادات التي وجهت إلى نظرية التبعية التصورية التي جاء بها شانك تطويرا لعمل منسكي، وبخاصة النقد الموجه إلى ما يراه شرطا لنحوية الصياغات التصورية، يقول[61]: (إن المخطط التصوري الذي لا يضم سوى المعلومات المنقولة عبر الجمل لا يعد نحويا من وجهة نظر تصورية، أي إن الصياغة التصورية لا تعد كاملة إلا إذا شرحت فيها كل الحالات التصورية التي يتطلبها فعل الخطاب أو النص) على الرغم من النقد الموجه لهذا، إلا أن مضمون هذه الأطر ووجودها يمثل شكلا هاما من المعلومات غير اللغوية لوصف العملية التي يتم بها فهم النص اللغوي بمواده وعناصره اللغوية، ولعل أهميتها (التبعية التصورية) تكمن في أنها تعد الركيزة التي قامت عليها نظرية المخططات الذهنية التي أوجدها سانفورد وجارود. [62]

4- التصور الذهني:

ولعل هذا البند بخاصة يعدّ من أهم البنود المساعدة في تأويل النصوص. يرى سانفورد وجارود[63] أن نجاح عملية الفهم القائمة على المخطط الذهني يعتمد على الدرجة التي يحققها صاحب النص (مبدعا أو محللا) في تنشيط المخططات الذهنية المناسبة، وهما يلاحظان أن قطعة من النص لابد أن تمثل وصفا جزئيا

محـــددا لعنصـــر من المخطط الذهني ذاته حتى يمكن لها أن تظهر تلك المخطط للعيان.

يمكـــن أن تُعـدّ فكرة التصورات الذهنية بمخططاتها واتساقها[64] بمثابة الخلفية المعرفـية المنظمة التي تقود إلى أن نستنتج، أو أن نتنبأ، أو أن نتوقع، مظاهر معينة في تأويل النص، ولكنها – كما تؤثر إيجابا – فقد تؤثر سلبا، فبدلا من أن يـــبدأ المتلقـــي أو المحلـــل باستيعاب النص، يقوم بإنشاء تصور ذهني يبدأ من خلاله بفهم النص، وقد يكون هذا التصور مخالفا لما هو في الواقع فما أن نقرأ شعر عنترة أو امريء القيس، أو نقرأ شعراً عن جبل بن خفاجة مثلا، حتى يبدأ التّصوّر الذهني يوازي النّص موجها أحيانا ومفسّرا أحيانا أخرى.

وقـــد يقـــود هـــذا التصور المتلقي إلى ما ليس في النّص ولا يتصل به بسبب، فيجـــنح به نحو ما لا يمكن الاتفاق معه عليه. وإن كان النّص يتحدث عن شيء معنوي مجرد، فإن المتلقي يأخذ بتكوين تصور ذهني له، وقد يختلف عن غيره فيه، فتكون عملية الاستنتاج أو الاستدلال مختلفة في جزئياتها وإن اتحدت معها في إطارها الكلي[65].

وبذا، يتبيّن أن النّص تتضافر عناصر متعددة ليتم الترابط فيه وصولا إلى الغاية الدلالـــية التـــي كانـــت من المبدع، أو تلك التي يكونها المتلقي. وهذه العناصر بعضـــها فـــي الـــنص ذاته وبعضها من خارج النص، ولكنها تتصل به بسبب. وهناك عناصر أخر من خارج النص، بعضها مما أشار إليه بتوفي S.J.Peyofi ممـــا يسميه المعاني الإضافية، والمعاني الإشارية، والمعاني الإحالية، والمعاني التداولـــية... وغيرها . وهي تحتاج إلى بحث مستقل هو عندنا قيد الإعداد في الوقـــت الحاضـــر، فقـــد أوضـــحنا فيه ما نراه موضحاً لما يرمي إليه الباحث، وسنوالي توضيح موضوعات أخر لها صلة بهذا.

الهوامش

1- ابن يعيش: شرح المفصل

2- عبد القاهر الجرجاني، دلائل الإعجاز ص30

3- المرجع السابق ص 31

4- المرجع السابق ص 32

5- محمد الحناش: المجلة الدولية للتواصل اللساني عدد ــــ12ــــ

6- خليل عمايره: وقفة مع "صلوات في هيكل الحب" للشابي، مجلة دراسات يمنية 9،1998.

7- الجرجاني: دلائل الإعجاز ص85.

8- انظر الجرجاني، دلائل الإعجاز ص363،410.

9- ليس من أهدافنا في هذا البحث استقصاء هذه الظاهرة ومواضع وجودها في أبواب النحو العربي، وحسبنا أن نشير إليها هنا ونلفت الانتباه إلى أنها تحتاج إلى مزيد من الدراسة، ولعل أستاذنا د. تمام حسان من أبرز العلماء الذين حاولوا وضع معايير لها.

10- انظر خليل عمايره العامل النحوي بين مؤيديه ومعارضيه، دار ثروت للطباعة والنشر جدة ط2، 1992.

11- طه 83

12- طه 85

13- طه72

14- تمام حسان البيان في روائع القرآن ص401.

15- وانظر: تمام حسان، الاتصال والكفاءة الإعلامية، محاضرة ضمن النشاط الثقافي لمعهد اللغة العربية، مكة المكرمة،1411هـ.

16- انظر السكاكي، مفتاح العلوم.

17- الجرجاني: دلائل الإعجاز

18- عبد القادر الجرجاني، دلائل الإعجاز، تحقيق محمود محمد شاكر، دار المدني بالقاهرة جدة 1992 ص75

19- المرجع السابق ص76 وانظر ص 294- 296

20- وهو بيت لسبيع بن الخطيم التميمي بقوله لزيد الفوارس الضبي وهو:

سالت عليه شعاب الحي حين دعـــا أنصاره، بوجــــوه كالدنانيـــــر

انظر دلائل الإعجاز ص74.

21- السيوطي، الاقتراح، تحقيق أحمد قاسم ص75.

22- محمد عيد، أصول النحو العربي، عالم الكتب- القاهرة 1978 ص185.

23- آل عمران 102 وانظر البقرة 132

24- البقرة 184.

25- الفرقان 20.

26- الفرقان 7

27- الفرقان 21.

28- الزمخشري، الكشاف، تعليق محمد عبد السلام شاهين مكتبة دار الباز، مكة، دار الكتب العلمية- بيروت- 1990 جـ3/ صفحة 264-265.

29- انظر: خليل عمايره، المعنى في ظاهرة تعدد وجوه الإعراب. مجلة الدراسات الإسلامية- الجامعة الإسلامية إسلام أباد، 1992.

30- انظر: خليل عمايره، في نحو اللغة وتراكيبها. (الفصل الثالث).

31- البقرة: 177.

32- النساء: 162.

33- انظر: محمود حمزة الكرماني، غرائب التفسير وعجائب التأويل، تحقيق شمران العجلي، جار القبلة جدة، ومؤسسة علوم القرآن بيروت 1988ط 312/1 وانظر معاني القراء 1/ 106 ومجمع البيان للطبرسي: 139/2.

34- السكاكي، مفتاح العلوم، تعليق نعيم زرزور، دار الكتب العلمية، لبنان، 1987 ص 586.

35- سيبويه، الكتاب، طبعة بولاق 246/1، 249، 288 وانظر فيه أيضا رواية أخرى (النازلون) 104/1.

36-

37- الشعراء: 119.

38- البقرة: 234.

39- البقرة: 228.

40- الزمخشري، الكشاف ط270/1.

41- يس:69.

42- سعيد حسن بحيري، علم لغة النص، مكتبة الانجلو المصرية -مصر،1993، ص104-105.

43- الجرجاني: دلائل الإعجاز ص176 -177.

44- أبو حيان، البحر المحيط 504/1.

45- ابن أبي الربيع: البسيط في شرح الجمل 553/1- 554.

46- أبو حيان، البحر المحيط 456/1.

47- عبد القاهر الجرجاني: دلائل الإعجاز تعليق محمود شاكر ص93.

48- السابق ص94.

49- المرجع السابق ص226.

50- المرجع السابق ص227.

51- المرجع السابق 231 وفي الوصل والفصل كلام نافع جدا وكثير في دلائل الإعجاز 222 - 249 وفي مفتاح العلوم للسكاكي ص248 فليرجع إليهما من شاء.

52- البقرة: 6- 7 وانظر دلائل الإعجاز ص232، 233.

53- انظر ص من هذا البحث.

54- الجرجاني، جلائل الإعجاز ص525.

55- وانظـر لاينز (1968) ص404، (1977) ص 177، 570، 574 ستروسن (1979) ص 155

كينان (1971) ص45

جرايس (1981) ص190

ستالنكر (1978) ص321.

56- فيرث (1957) ص226، 182.

57- هايمز (1964، 1962) ص وانظر سيدوك (1978) ص281، فلمور (1977) ص199، 119.

58- لويس (1972) ص173.

59- وانظـر منسكي (1975) ص569. وانظر فلمور (1975) دارشر وهورنشتاين (1976) ص 357/ وجانسلر (1977)

60- شانك (1972)، (1973) ص201.

61- منسكي (1972)، ص569.

62- انظر سانفورد وجارود (1981) ص110

63- المرجع السابق ص129.

64- وانظر عن الانساق الذهنية فان ديك (1981) ص141.

65- انظر هافيلد وكلارك (1978) ص313.

المراجع والمصادر

1- بحيري، سعيد حسن، علم لغة النص، مكتبة الانجلو المصرية –القاهرة- 1993.

2- الجرجاني، عبد القاهر، دلائل الإعجاز، ت محمود شاكر، دار المدني –القاهرة- جدة 1992.

3- حسّان، تمام: البيان في روائع القرآن،عالم الكتب- القاهرة 1993.

4- حسان، تمام الاتصال والكفاءة الإعلامية، ضمن النشاط الثقافي لمعهد اللغة العربية مكة المكرمة 1411هـ.

5- الحناش، محمد: مجلة التواصل اللساني، فاس- المغرب

6- أبو حيان الأندلسي، البحر المحيط. دار الفكر بيروت 1978، دار الباز مكة المكرمة.

7- ابن أبي الربيع، البسيط في شرح جمل الزجاجي، تحقيق عياد الثبيتي، دار الغرب الإسلامي 1986.

8- الزمخشري، جار الله: الكشاف، تعليق محمد عبد السلام شاهين مكتبة دار الباز، مكة 1995.

9- السكاكي، مفتاح العلوم، تعليق نعيم زرزور، دار الكتب العلمية، بيروت 1987.

10- سيبويه، الكتاب، طبعة بولاق، المطبعة الأميرية 1317هـ وت عبد السلام هارون دار الجيل بيروت 1991.

11- السيوطي، الاقتراح في علم أصول النحو، تحقيق أحمد الحمصي ومحمد أحمد قاسم، جروس برس 1988.

12- الطبرسي، مجمع دار البيان، دار المعرفة، بيروت 1986.

13- عمايره، خليل أحمد: وقفة مع 'صلوات في هيكل الحب' للشابي، دراسات يمنية مركز البحوث والدراسات اليمنية- صنعاء.

14- عمايـره، خلـيل أحمد: في نحو اللغة وتراكيبها، مؤسسة علوم القرآن- الشارقة ط2، 1989.
15- عمايـره، خليل أحمد: المعنى في ظاهرة تعدد وجوه الإعراب، مجلة البحوث والدراسات الإسلامية، إسلام أباد 1992.
16- عمايـره، خلـيل أحمـد: العامل النحوي بين مؤيديه ومعارضيه، ط2، دار ثروت للنشر والتوزيع- جدة 1992.
17- عيد، محمد: أصول النحو العربي، عالم الكتب- القاهرة 1978.
18- الفراء، أبو زكريا: معاني القرآن. عالم الكتب بيروت ط2 1980.
19- الكرمانـي: محمود حموة، غرائب التفسير وعجائب التأويل، تحقيق شمران العجلي، دار القبلة- جدة ومؤسسة علوم القرآن- بيروت 1988.
20- ابن يعيش: شرح المفصل، عالم الكتب -بيروت، مكتبة المتنبي- القاهرة.

21. Chafe, W. L. (1970) Meanging and the Structure of Language University of Chicageo Press.

22. Charniak, E. (1975) 'Organization and inference in a frame - laide system of common-sense knowledge' in (eds.) R. c. Schank & B.G Nash-Webber.

23. Dresher, B.E. & Hornstein, N.H. (1976) 'On some supposed contributions of artificial intelligence to the scienfific study of language' Conition 4:321-98.

24. Filmore, C.J. (1975) 'An alternative to checklist theories of meaning' Proceedings of the First Annual Meeting of the Berkeley Linguistics Society University of California.

25. Filmor, C.J. (1997) 'Topics in lexical semantics' in %ed.) R.W. Cole Current Issues in Linguistic Theory Bloomingtion: Indiana University Press.

26. Firth, J.R. (1957) Papers in Linguistics Oxford University Press.

27. Gensler, O. (1977) 'Non-syntactic anaphora and frame semantics' Proceedings of the Third Annual Meeting of the Berkeley Linguistics Society University of California.

28. Grice, H.P. (1957) 'Logic and conversation in (eds.) P. Cole & J. Morgan Syntax and Semantics 3: Speech Acts New York: Academic Press.

29. Grice, H.P. (1981) 'Presupposition and conversational implicature' in (ed.) p> Cole.

30. Haviland, S. & Clark, H.H. (1974) 'What's new? Acquiring new information as a process in comprehension' Journal of Verbal Learning and verbal Behavior 13:512-21.

31. Hymes, D. (1962) 'The ethonography of speaking' in (eds.) T. Gladwin & W.C. Sturtevant.

32. Hymes, D. (1964) 'Toward ethnographies of communicative events' in (ed.) P.P. Giglioli.

33. Katz, J.J. & Fodor, J.A. (1963) 'The structure of a semantic theory' Language 39: 170-210.

34. Keenan, E.L. (1971) 'Two kinds of presupposition in natural language' in (eds.) C.J.

35. Filmore & D.T. Langendoen Studies in Linguistic Semantics New York: Holt, Rinehart.

36. Lewis, D. (1972) 'General Semantics' in (eds.) D. Davidson & G.H. Harman Semantics of Natural Language Dordrechet; Reidel.

37. Lyons, J. (1968) Introduction to Theoretical Lingwstics Cmbridge University Press.

38. Lyons, J. (1977) Semantics Cambridge University Press.

39. Minsky, M. (1975) 'A framework for representing Knowledge' in (ed.) Winston, P.H. The Pevrlahwe of New York.

40. Petofi, J.S. (ed.) (1978) Texts by Sentence. Basic Questions of Text Linguistics Hamburg: Busks Verlag.

41. Sadock, J.M. (1978) 'On testing for conversational implicature' in (ed.) P.Cole.

42. Sanford, A.J. & Garrod, S.C. (1981) Understanding Wrintten Language Chichester: Wiley.

43. Schank, R.C. (1972) 'Conceptual dependency: a theory of natural language understanding 'Cognitive Psychology 3: 552-631.

44. Schank, R.C. (1977) 'Rules and topics in conversation' Gongitive Science 1: 421-42

45. Stalnaker R.C. (1978) 'Assertion' in %ed.) P. cole.

46. Sudnow, D. (ed.) (1972) Studies in Social in Social Interaction New York: The Free Press.

47. Van Dijk, T.A. (1981) 'Review of R.O. Freedle (ed.) 1979' Journal of Linguistic 17: 140-8.

في تحليل لغة الشعر

في تحليل لغة الشعر*

شغل البحث في المعنى عددا كبيرا من المفكرين والباحثين: الفلاسفة واللغويين وغـــيرهم، في مختلف العصور والأزمان وتوالي الحضارات، فقد احتل البحث في المعنى اللغــوي حــيزاً كبيراً في حضارة اليونان والرومان والهنود القدماء والفرس والعبريين، حــتى وصــل حداً ناضجا في جهود علماء العربية في القرون الخمسة الأول بعد إنشاء الدولة الإسلامية.

وفـــي العصر الحديث: أي في القرنين الأخيرين، احتلت الدراسات اللغوية مكانة مـــرموقة في الشرق والغرب، ولكنّها قطعت في الغرب شوطاً بعيداً، وأعطت نتائج بالغة الأهمـــية فـــي ميادين التقسيمات التي قسم الباحثون البحث الغوي إليها؛ وكانت أهم هذه الميادــن بــلا مــنازع، ميدان البحث في المعنى Semantics ، فكانت بقية الميادين في نـــتائجها رافــداً يرفد هذا الحقل في التحليل اللغوي، فالغاية الرئيسة للغة؛ أية لغة، التي يستعملها المتكلم والسامع، نقل الفكرة، أو كما يقول ابن جني في وضعه حدا للغة[1]: هي مجموعـــة من الأصوات يعبر بها كل قوم عن أغراضهم، وهذا تقريبا هو التعريف الذي يرتضيه، أو قل: توصل إليه معظم الباحثين السابقين أو اللاحقين لابن جني.

فقــد تفرعــت الدراســات اللغويـــة الحديثة إلى التحدث في المستويات اللغوية التالـــية[2]: الأصوات Phonetics ووظائف استعمالها Phonology والمباني الصرفية أو مبانـــي المفـــردات Morphology والتراكيـــب Syntax والبحث في المعاني المعجمية للألفاظ Lexical Semantics والدلالة Semantics.

وأصـــبح لكل من هذه الفروع جوانبه المخصصة له وميدانه الذي يدور الباحث فـــيه، ونتـــيجة لـــتحديد التخصصـــات في الحقب الأخيرة فقد استقطب كل ميدان باحثيه للتخصص فيه، والانصراف له لتحقيق الدرجات الجامعية العالية فيه.

---

* مجلة التواصل اللساني، المجلد السادس ــ العدد 1 ــ 2، 1415هــ ــ 1994م.

أمّا علم الدلالة Semantics فقد انصرف للإفادة من هذه الفروع كلها للوصول إلــى الــبعد الدلالــي أو المعنى الكامن في النص الأدبي، وكثيرا ما كان الباحث الدلالي يوظــف عددا من العناصر الأخر بالإضافة إلى المستويات السابقة في بحثه عن المعنى، كالــبعد الاجتماعي أو الثقافي أو المقام الذي أورد فيه القول أو النص هو ما يسمى لدى الباحث الإنجليزي J. Firth ، The context of Situation

وقــد تعــددت مناهج البحث في الوصول إلى المعنى الدلالي، واختلفت باختلاف وجهــات نظر الباحثين: من باحثين ولغويين أو علماء نفس، أو فلاسفة، أو مناطقة، أو علمــاء الاجــتماع، والانثروبولوجــيا، يحــاول كل منهم أن يصبغ البحث بصبغة تتسق وتخصصه أو معطيات علمه وما يصبو إلى الوصول إليه، فنتج من جرّاء ذلــــــك وجهــات نظر ومناهج ومصطلحات أدت في نهاية الأمر إلى تباين يجد الباحث المعاصر أنــه لــيس من اليسير عليه أن يحيط بها، أو حتى أن يتابع التحديد العلمي للمصطلحات العلمــية وتعــريفاتها في هذه المناهج، التي أصبحت فيما بعد ميادين علوم مستقلة، قد تلتقــي مــع بعضــها فــي حدود ضيقة يمكن للباحث في كل ميدان تجاوزها في الميدان الآخر،إلى الحد الذي أخذنا نجد أن كلمة المعنى ذاتها قد تشعبت حتى إنك لتجدها مختلفة الحــد بيــن علــم وآخر، مما جعل هذا المصطلح من أكثر المصطلحات تشعبا وغموضا وعســرا فــي البحث، وربما كان هذا من الأسباب التي أدت إلى تأخير استقلال هذا العلم عــن غــيره من العلوم في ميدان خاص به إلى فترة متأخرة من هذا القرن،، وإن يكن البحــث فيه قد امتزج بغيره من العلوم في الدراسات العربية والغربية القديمة والحديثة، إلــى أن جاء العالمان Richard and Ogden وبحثا في المعنى في كتابهما القيم The Meaning of Meaning، وبيــنا فيه بوضوح عسر البحث في المعنى، مع أنّهما وضعا معالم واضحة لمنهج البحث في المعنى اللغوي.

ولقــد أصبح من أولويات المعرفة اللغوية أن دي سوسير المتوفى سنة 1913م يعــد فــي كــتابه "دروس في الألسنية العامة" الأب الحقيقي للنهضة اللغوية المعاصرة، وصاحب النظرية أو الآراء التي أدت إلى تحول منهج التفكير اللغوي الذي كان يسود في القــرن الماضــي، حيث كانت اللسانيات تهتم اهتماما يكاد يكون كليا بالتفسير التاريخي

والمقارن للوقائع اللسانية والظواهر اللغوية؛ لتوفير القوانين التي تكشف عن الصلة بين اللغات المختلفة، أو حتى في إطار اللغة الواحدة سواء كانت هذه اللغة هي التي تعد الأم، أو في إطار اللهجات المتفرعة عن هذه اللغة، فاستقل علم اللغة، بأفكار وآراء دي سوسير؛ أي بمنهج التفكير الجديد، عن المنهج التاريخي القائم على الاختيار وعلم التاريخ ومعطيات الاكتشافات الأثرية في تفسير الظواهر اللسانية وعن فقه اللغة، فلفت سوسير الانتباه إلى كيفية دراسة اللغة دراسة تزامنية Synchronic ودراسة تعاقبية مكانية Diachronic . يتم البحث في التزامنية في ما له صلة بحالة لسان ما، واستخلاص النتائج المترتبة على تلك الدراسة. في حين يتم البحث في التعاقبية المكانية في ما له علاقة بتطور الظواهر اللسانية في حقبها المتتابعة، كما كانت جل الدراسات في القرن الماضي تعتمد على معطيات ما تجود به الدراسات التاريخية للربط بين ظواهر قد تنتمي إلى لسان معين، وغالبا ما تنتمي إلى عدد من الألسنة المختلفة. ولعل من أفضل ما ترتب على ذلك إعادة النظر في بناء أنظمة النحو التي كانت تعتمد على المنهج التاريخي المقارن في تفسير الظواهر اللسانية، إلى اعتماد العناصر اللسانية القائمة على العلاقة بين الدال والمدلول، صادرة عن الذات المتكلمة لغاية دلالية معينة، في نسق لغوي معين، له عناصره التي يتم الجمع بينها، وتنسيقها بكيفية معينة، واستخلاص النتائج اللغوية الدلالية في زمن ثابت، غير قائم على التطور أو النظرة التطورية؛ أي النظرة إلى العناصر اللسانية في توافق أو تعارض داخلي.

وقد ترتب على هذه النظرة والتقسيم الثنائي تقسيم ثنائي آخر عند دي سوسير، وهو التقسيم القائل بوجود: اللغة والكلام. فاللغة ميدان الدراسة التزامنية Synchronic ، والكلام بتطوراته ميدان الدراسة الدياكرونية Diachronic ، وقد ترتب على هذا أن ينظر إلى دراسة الأصوات على أنها ميدان رئيس للدراسة التعاقبية، حيث تدرس الظواهر الصوتية الكلامية وتحليلها تحليلا تاريخيا لرصد تطوراتها، وتحري ما يجري عليها ضمن الزمن، بصرف النظر عن فكرة الدال والمدلول، فهذه فكرة نحوية عليها تُبنى دراسة العوامل والعناصر الداخلية في اللغة دراسة تزامنية نحوية، وليس دراسة تاريخية للنحو، أي تقوم على ملاحظة حالة الظواهر وتسجيلها ثم تنظيمها

وتنسيقها ورصد اطرادها من غير اعتبارات معيارية قسرية، بل لوضع القانون الذي يتم علـــى ضـــوئه تفســـير العلاقات المنطقية والسيكولوجية الجماعية التي تتكرر في لسان معيـــن، مـــن غير ثبات أو قسرية معيارية، كما هو الحال في أبعاد الدراسة الدياكرونية. فنشـــأت بذلـــك فكـــرة كون النحو عند دي سوسير مهمته التعليل، فالتعليل عنده رديف للـــنحو، كما أن البحث في المعجمية عنده رديف للبحث في اعتباطية الارتباط بين الدال والمدلـــول. وعلـــيهما يقوم البناء اللساني في دراسته التزامنية في تداخل يجعل كل من هاتيـــن الدعامتيـــن تـــتفاعل مع الأخرى، مشتملة على عناصرها كلها، فتقوم العناصر النحوية بتوجيه الاعتباطية الموجودة في معجمية الألفاظ، وتعليلها تعليلا تركيبيا، يستند إلـــى ترابط الألفاظ في إطارها، وتعليلا سياقيا يستند إلى ربط الأطر في نظامها السياقي لتحديد قيمتها ووظيفتها تحديدا دلاليا يريده المتكلم، ويبحث عنه السامع.

فالـــنحو عـــند سوسير نحو تزامني وليس تاريخيا، يربط بين تراكيب المفردات، وتراكيـــب الجمـــل، في نسق تعبيري سياقي، لا يستقل أحدهما عن الآخر استقلالا مخلا، أي أن الـــتداخل بينهما تداخل وظيفي، وأن الحديث عن كل منهما منفصلا عن الآخر أمر وهمـــي، يكـــون أحيانا لتحقيق البحث في أشكال الكلمات قبل البحث في وظائفها، تمهيدا لوضـــعها فـــي وظـــيفة تركيبـــية وظيفـــية: (أسماء، أفعال، ضمائر، أسماء فاعلين أو مفعوليـــن..... الـــخ). وهـــذه أطر وتقسيمات تجريدية في وحدات ينظر إليها من زاوية تركيبـــية، ثـــم يعـــاد النظر إليها في الإطار الأهم، وهو الإطار الترابطي[3] الوظيفي الذي تـــتفاعل فـــيه الحـــركة الإعرابـــية والحالة الإعرابية بالمعنى السياقي بالمعنى المعجمي بـــاللواحق والســـوابق Sufexes and Prefexes، للوصـــول إلى المعنى الدلالي، فعندما نقـــول مـــثلا: زيـــد يـــنطلق، فإننا ننظر إليها على أنها مكونة من (زيد) التي هي اسم، واللاصـــقة (ي) التي تشير إلى أن الفعل المضارع بعدها مسند إلى غائب (هو). وهذا لا يخـــتلف مـــن وجهـــة نظـــر صرفية عن تحليلنا عندما نقول: ينطلق زيد، إلا أنّ النظرة الترابطية الوظيفية في النحو تبين أنّ اختلافا واضحا في المعنى الدلالي للجملتين، تحقق ذلـــك بفعل الرتبة والترتيب، لكل لغة منهجها في التعبير عن مثل هذه الظواهر التركيبية والترابطية.

وبهـذا التنسـيق، يتم اتحاد الأجزاء الرئيسية المكونة النحو عند سوسير، وقد كانـت تـدرس فـي فروع مستقلة في النحو، أو في الدراسات اللغوية السابقة عليه: الصـرف،والتركيب، والمعجـم. فالكلمـة لابـد أنهـا مكونة من مجموعة متناسقة من الأصـوات التي لها تحديد في الذهن، يتم إبرازه خطيا أو نطقا. والكلمة تتحد مع الكلمة فـي إطار معين، ووفق ترتيب مخصوص، يضم ترتيب الكلمة الداخلي، ويصبغها بصبغة يقتضيها التركيب ذاته، فلها دلالة منفردة، أو هي دوال المدلولات منفردة (معجميا) وهي دوال لمدلولات أخر تتصل بالمدلولات السابقة بسبب، وتضم جزءا من الفكرة التي أخذت الجملة في إطارها الجديد تشير إليها، ويمكن استبدال هذه المباني بمبان أخر في دراسة أخـرى تحـدد الطاقة الدلالية للفظة من جهة، وتحدد التعارضات الدلالية الممكنة للفظة التـي يمكـن أن تقع في هذا النسق الترابطي، فيحصل بذلك ضم التركيب والصرف في إطـار واحـد مـن أطر علم النحو في ما يسمى Morpho-Syntax الصرف- تركيبي؛ لبيان خصائص البنية الصرفية وقواعدها، ثم وصف قواعد اتحادها وترابطها بغيرها في نمـط جملـي، مـع مراعاة البعد المعجمي لكل لفظة تتكون منها الوحدات الجملية، في تداخل لا يسمح بوضع حدود فاصلة لهذه الفروع الثلاثة.

وقـد انبثقـت عن أفكار دي سوسير (هذه وغيرها) التي وردت في كتابه سابق الذكـر، مجموعـة كبـيرة من المدارس اللغوية، في أماكن مختلفة من العالم، حتى عد سوسـير بحـق أب الدراسات اللغوية المعاصرة، فهنالك مدرسة براغ التي كان من أبرز أعلامهـا رومـان ياكبسـون، ومدرسة كوبنهاجن التي لمع فيها هلمسليف، والمدرسة الوظيفـية ومـن أبرز أعلامها مارتيني، ثم البنيوية الأمريكية بزعامة بلومفيلد، وأخيرا المدرسـة التولـيدية التحويلية التي أسسها نعوم تشومسكي، وربما كانت هذه المدرسة الأخـيرة أكـثر المدارس اللغوية أثرا وتأثيرا في الدراسات اللغوية المعاصرة، لما تركته مـن تراث ضخم من إنتاج المؤيدين المتأثرين بها. وإنتاج المعارضين الناقدين، فأخذت هـذه المدرسـة تمـثل منطقا لغويا، أو اتجاها لغويا جديدا لا يقل عما وضعه سوسير نفسه[4].

إن أبرز العناصر التي يحتاج الباحث إلى إبرازها هنا، هي القول بأن معظم هذه المدارس (التي تأثرت بآراء سوسير تأثيرا مباشرا، أو بطريقة غير مباشرة كما في مدرسة فيرث السياقية الاجتماعية Context of Situation كانت مدارس بنيوية خلافاً لما جاء به تشومسكي في نقض هذه المدارس واعتماد المنهج العقلي النفسي لتحليل الوحدات الجملية فيما يسميه الكفاية والأداء Performance competance في ما يقابل اللغة والكلام عند سوسير، متأثرا في ذلك كلّه بما جاء في ديكارت وهمبولت Humboldt العقلية.

ونود هنا أن نتخذ من رأي رومان ياكبسون، وهو علَمٌ بارز في مدرستين على الأقل من المدارس اللغوية التي كان – وما يزال – لها تأثير واضح في الدراسات اللغوية العالمية: مدرسة براغ التي كان له دوره فيها مع نيكولاي تروبتسكوي، والمدرسة الوظيفية التي شاطره الدور فيها مارتيني، أن نتخذ من رأيه في موقفه من نقطتين رئيسيتين من آراء سوسير منطلقا للوقوف مع بعض الآراء المتعلقة ببناء لغة الشعر لتحقيق المعنى، فهو يرى أنّ اللغة ليست أكثر من مجموعة من القوانين، ولتصبح موضوع دراسة فلابد من أن تظهر في بناء نموذج لغوي، أي في قول أو عمل أدبي ذي دلالة، أو في القوانين، ولتصبح موضوع دراسة، فلابد من أن تظهر في بناء نموذج لغوي، أي في قول أو عمل أدبي ذي دلالة، أو في سلوك لفظي يعتمد على ركيزتين أساسهما: الاختيار Selection وبموجبه يتم اختيار المباني التي يصبو إليها المتكلم، ثم التأليف Conteinsetion ، ويتم بموجبه تأليف تلك المباني المختارة في وحدات لغوية على درجة رفيعة من التعقيد، ينتقل فيها المتكلم من اختيار المباني التي تمثل أبعادا معجمية، إلى تنسيق الجمل التي تمثل وحدات لسانية، إلى أقوال أدبية أو أعمال أدبية مكونة من عناصر مشتركة، في ثروة لغوية مشتركة بين المتكلم والسامع، فتكون تلك الوحدات في مجموعها مجموعة من الأبعاد السياقية التي تزداد تعقيدا في البناء الدلالي الكلي بازدياد عدد الوحدات تلك. ولعلّ أرفع مجال لاستخدام هذه الوحدات في عمل أدبي هو بناء الشعر؛ فالشعر استعمال خاص للغة ما، أو هو لقطة، وأن الاختيار، عند ياكبسون[5]، ناتج على أساس قاعدة التماثل، والمشابهة، والمغايرة،

والترادف، والطباق، بينما يعتمد التأليف وبناء المتواليات على المجاورة، وتسقط الوظيفة الشعرية مبدأ التماثل لمحور الاختيار على محور التأليف، ويرفع التماثل إلى مرتبة الوسيلة المكونة للمتوالية، ويوضع كل مقطع في الشعر في علاقة تماثل مع كل المقاطع الأخرى لنفس المتوالية". تعبيرية مختلفة لمشهد معين ثم التعبير عنه بطريقة أخرى[6]. ففيه تتجلى الكلمة بوصفها كلمة، وليست مجرد بديل عن الشيء المسمى، ولا كانبثاق للأفعال، وتتجلى في كون الكلمات وتركيبها ودلالتها وشكلها الخارجي والداخلي ليست مجرد إمارات مختلفة عن الواقع، بل لها وزنها الخاص وقيمتها الخاصة[7]. وبذا تتحقق الشعرية التي تجعل من أية رسالة لفظية "أثرا فنيا، فيرتبط الدال والمدلول، أو الشكل والمضمون، أو المحتوى، بعبارة لا يستقيم أحد ركنيها هذين من غير الآخر، فيحقق الشكل، أو يتحقق الدال بعدد من العلاقات الصرف – تركيبية، تسمح كل واحدة من هذه العلاقات بتطويل جانب وظيفي من الجوانب الصوتية أو المورفولوجية أو التركيبية، وهنا يبرز المضمون أو المدلول في كيفية تستند إلى معايير معينة، فتكون شعرا أو نثرا، قصة أو رواية. الخ.

وهنا لابد من الإشارة إلى أن المضمون قد كان في تراث كثير من الأمم موضوع النقد الأدبي في ما يتعلق بفكرة الصدق والكذب، وأن الناظر في التراث النقدي العربي ليجد الكثير في ما يتعلق بأعذب الشعر أكذبه، أو بما يماثل ذلك من الأحكام.

يقول رومان ياكبسون[8]: "إن قيم الصدق، مع ذلك، ما دامت عبارة عن كيانات خارج لسانية، بلغة المناطقة– لا تمت في الظاهر بصلة إلى الشعرية، كما لا تمت بصلة إلى اللسانيات عموما"، ولكن مع الأسف فإن الالتباس المصطلحي "للدراسات الأدبية" بـ "النقد" يدفع المختص في الأدب إلى تقمص شخصية الرقيب، وإلى استبدال وصف المحاسن الداخلية للأثر الأدبي بحكم ذاتي. إن تسمية "ناقد أدبي" في تطبيقها على عالم يدرس الأدب هي تسمية خاطئة أيضا، مثلما هي خاطئة تسمية "ناقد نحوي (أو معجمي)" في تطبيقها على اللساني، فالأبحاث التركيبية والصرفية لا يمكن أن يحل محلها نحو معياري. وعلى غرار ذلك، فإن أي بيان يفصل الأذواق والآراء الخاصة بناقد معين على الأدب الخلاق لا يمكنه أن يحل محل تحليل علمي موضوعي لفن اللغة[9]. فيكون المنهج

الذي يمكن أن يحقق بعده المتوخى منه أن ينظر في مادة الأدب في حدود معاييرها الشكلية الاستقرائية الوصفية، ثم تحديد موازين نقدها على ضوء تركيبها البنائي الذاتي، وليس وفقا لمعايير خارجة عنها: اجتماعية أو نفسية، الخ، وأن تكون لغوية لسانية. فالشعر مثلا -كما ذكرنا- هو استعمال خاص للغة له خواصه التي من أبرزها الوزن والقافية اللذان يحققان البعد الجمالي فيه، ويساعدان في إيجاد الموسيقى الخاصة بالألفاظ في داخل النص، فضلا عن تحقيق جمال الموسيقى العامة لهذا الاستعمال اللغوي الخاص. وربما كان هذا هو السر في انسجام العربي القديم مع ما يردده من شعره أو شعر غيره مع وقع خطوات راحلته، أو سرعة عدو حصانه، وهو السر أيضا في تعلق الناس بالشعر لحفظه حتى من لغة يجهلها الإنسان، أو يجهل معانيها، وإن كانت لغته الأم كما يفعل الأطفال. يقول رومان ياكبسون[10]: " ومن المفروض أن يكون نبر الكلمة مساويا لنبر كلمة أخرى، وعلى نفس المنوال، تساوي الكلمة غير المنبورة الكلمة غير المنبورة، والكلمة الطويلة (تطريزا) تساوي الكلمة الطويلة، والكلمة القصيرة تساوي الكلمة القصيرة، ويساوي حدّ الكلمة حدّ الكلمة، وغياب الحدّ يساوي غياب الحدّ، والوقفة التركيبية تساوي الوقفة التركيبية، وغياب الوقفة يساوي غياب الوقفة" ولنا فيما بعد تعليق على هذا الاقتباس في لغة الشعر الحديث عند التطبيق على ما نعتزم التطبيق عليه من أشعار.

ولكن الشعر، شأنه شأن غيره من فنون التعبير اللغوي، يجب البحث عن القيمة في تراكيبه، وهي المعنى الذي يثار بين المتكلم (الشاعر) والسامع (القارئ)، فتراكيب العمل الأدبي (الشعر هنا) تؤدي في مجملها وظيفة التعبير عن المعاني، والصور التي في ذهن المتكلم مرتبطة دلالتها بصورها في ذهن السامع (وقد لا تكون متطابقة)، مجسدة ما كان قد اختزنه ذهن كل منهما مرتبطا بشيء موجود عينا، أو رمزا معنويا له كيفية ذهنية، يقول حازم القرطاجني في حديثه عن المعاني[11]: "إنّها الصورة الحاصلة في الأذهان عن الأشياء الموجودة في الأعيان"، ويقول[12]: فكل شيء له وجود خارج الذهن، فإنه إذا أدرك حصلت له صورة في الذهن مطابقة لما أدرك منه، فإذا عبر عن تلك الصورة الذهنية الحاصلة عن الإدراك أقام اللفظ المعبر به هيئة تلك الصورة الذهنية

فـي أفهـام السـامعين وأذهانهم، فصار للمعنى وجود آخر من جهة دلالة الألفاظ، فإذا أحتـيج إلـى وضع رسوم من الخط تدل على الألفاظ من لم يتهيأ له سمعها من المتلفظ بهـا، صـارت رسـوم الخط تقيم في الإفهام هيأت الألفاظ، فتقوم بها في الأذهان صور المعاني، فيكون لها أيضا وجود من جهة دلالة الخط على الألفاظ الدالة عليها.

يقـول رومـان ياكبسون[13]: "إنّ المرسل يوجه رسالة إلى المرسل إليه، ولكي تكـون الرسـالة فاعلة، فإنها تقتضي، بادي ذي بدء، سياقا يحيل عليه، (وهو ما يدعى أيضـا "المرجع" باصطلاح غامض نسبيا)، سياقا قابلا لأن يدركه المرسل إليه، وهو إمّا أن يكـون لفظا أو قابلا لأن يكون كذلك، وتقتضي الرسالة، بعد ذلك، سننا مشتركا، كليا أو جزئـيا بيـن المرسـل والمرسل إليه؛ أو بعبارة أخرى بين الممسنن ومفكك الرسالة، وتقتضـي الرسـالة أخيرا اتصالا؛ أي قناة فيزيقية وربطا نفسيا بين المرسل والمرسل إلـيه، اتصالا يسمح لها بإقامة التواصل والحفاظ عليها". ويقول الغزالي بهذا الصدد[14]: "اعلـم أن المراتـب فـيما نقصد أربعة واللفظ في الرتبة الثالثة، فإن للشيء وجودا في الأعيان ثم في الأذهان ثم في الألفاظ، ثم في الكتابة، فالكتابة دالة على اللفظ، واللفظ دال على المعنى الذي في النفس، والذي في النفس هو مثال الموجود في الأعيان".

فـإذا مـا سـمع المخاطب أو السامع، وإذا ما قرأنا نصا مكتوبا، فإن مجموع المبانـي الصـرفية تسـتدعي صورة مجملة متكاملة، مكونة في مجملها من علاقة بين بعـض الصـور التـي تشير إليها كل جزئية، فيتم اختيار الصورة المتفقة مع الصورة المخـتارة للفظة المتعلقة بها، لتحقق الصورة الكلية، يرى فندريس[15] أن في الجملة (أو النص) نوعين من العناصر.

الأول: التعبـير عن عدد ما من المعاني التي تمثل أفكارا، والثاني: الإشارة إلى بعض العلاقات التي بين الأفكار" فيتم التعبير بالإطار التركيبي المتكامل عن الأشياء التي يستحضـر المـتكلم صـورها، ثم تصطبغ بما يكون عليه في حاله وإحساسه بموضوع كلامـه، مرتبطة بأطر كبرى وكليات اجتماعية، أو فكرية، أو سياسية، أو اقتصادية، أو نفسـية، أو انعكـاس تجربة شخصية، الخ. تثير السامع أو القارئ بمقدار انعكاس هذه الأطر الكبرى في نفسه، فتكون استجابته التي يتحدد بعدها وعمقها بمقدار المشاركة بين

المتكلم والسامع في حركة هذه الأطر أو الكليات، أو بحركة جزيئات فيها، أو بكيفية الخطاب لتحريكها. يقول حازم القرطاجني[16]: "...إنّ المعاني صنفان: وصف أحوال الأشياء التي فيها القول، ووصف أحوال القائلين أو المقول على ألسنتهم، وإن هذه المعاني تلتزم معاني أخر، تكون متعلقة بها وملتبسة بها، وهي كيفيات مآخذ المعاني ومواقعها من الوجود أو الفرض، أو غير ذلك، ونسب بعضها إلى بعض، ومعطيات تحديداتها تقديراتها، ومعطيات الأحكام والاعتقادات، ومعطيات كيفيات المخاطبة"، فتكون سلبية الاستجابة أو إيجابيتها مقرونة بمدى اللقاء عن صحة ما يعبر المتكلم عنه في استعداد المستمع، أو مقرونة بمدى عمق ما يتحرك بالخطاب من الأطر والكليات في نفس السامع، فيقف عند معنى ظاهر التركيب، أو يفضي به هذا إلى معنى آخر[17]، أو أن لا يكون التركيب سليما في مبناه، أو توظيف العلاقة ، بين صور جزيئاته المكونة له، فيحصل بذلك لبس يحتاج إلى تصحيح وتصويب أو إلى التصحيح والتصويب[18]، "..وذلك أن الرأي إنما نصححه عند أنفسنا بأن نفكر ونروي ونقيم في أنفسنا أمورا ومعقولات، شأنها أن تصحح ذلك الرأي، ونصححه عند غيرها بأن نخاطبه بأقاويل تفهمه بها الأمور والمعقولات التي من شأنها أن نصحح ذلك الرأي، وليس يمكن أن نصحح أي رأي اتفق بأي معقولات اتفقت، ولا أن توجد تلك المعقولات بأي عدد اتفق، ولا بأي أحوال وتركيب وترتيب اتفق، بل نحتاج في كل رأي نلتمس تصحيحه إلى أمور ومعقولات محددة، وإلى أن تكون بعدد معلوم، وعلى أحوال وتركيب وترتيب معلوم، وتلك ينبغي أن تكون حال ألفاظها التي بها تكون العبارة عنها عند تصحيحها لدى غيرها".

فالتركيب نظام لغوي منظوم طبقا لإطار من القواعد الخارجية، تجسيدا لما يناظره داخليا، فيكون الاتساق والانسجام بين الصورة الداخلية وثوبها المجسِّد الأساس الذي يعتمد للحكم بالفصاحة أو الإبانة أو الجودة أو الرداءة، وبه يتم نقل الرسالة بين طرفيها المتكلم والسامع، فهو نظام لغوي حسي منظوم في وجه، وهو صور متلاحقة من المعنى أو المعاني التي تنتظم، فتكون بعدا دلاليا كليا، غموضه يؤدي إلى تشويه في

الإطـــار الكلـــي، فيكون بين المتكلم والسامع ما يكون من انقطاع أو ما يترتب على هذا الانقطاع.

يعــرف الشريف الجرجاني المعاني[19]: "هي الصورة الذهنية من حيث إنه وضع بإزائهــا الألفــاظ والصور الحاصلة في العقل، فمن حيث إنها تقصد باللفظ سميت معنى، ومـــن حيـــث إنهـــا تحصل من اللفظ في العقل سميت مفهوما، ومن حيث إنه مقول في جـــواب مـــا هـــو؟ سميت ماهية، ومن حيث ثبوته في الخارج سميت حقيقة، ومن حيث امتيازه عن الأغيار سميت هوية"، ويقول جسبيرسن[20]: "جوهر اللغة نشاط إنساني يقوم بـــه الفرد ليفهم ما في نفسه الآخرون، وهو نشاط من الآخرين ليفهم الفرد ما يدور في أذهـــانهم". فالظاهرة اللغوية المنطوقة (أو المكتوبة) ذات وجهين، يمثل أحدهما التفكير الداخلي لدى الفرد، ويمثل الجانب الآخر الحدث الصوتي اللغوي المعبر عن تلك الأفكار، بصرف النظر عن الصراع الفلسفي بين أسبقية أحدهما على الآخر، وعن البحث في تأثر كـــل مـــنهما بالروابط الخارجية في عالم كل منهما، باستثناء مؤثر واحد نرى أن آخذه بالحسبان واجب في الحديث عن هذا النشاط، وهو العادة اللغوية للفئة التي ينتمي الفرد إلـــيها في تعبيره عما في أذهان أفرادها من أفكار: لما لهذه من أثر كبير في التدخل في اتـــباع الفرد عادة الجماعة اللغوية، من غير قدرة كبيرة عن الانزياح عنها: ولما له من أثـــر في وصف مباني اللغة، الوصف الذي يصاحبها زمنا طويلا، بل قد لا يكون الانفكاك منه ممكنا، كما في العربية على سبيل المثال.

قلـــنا: إن الظاهـــرة اللغويـــة ذات وجهين: حدث تفكير وحدث تعبير، ونرى أن القدرة تكمن في تحقيق المنهج السليم لدراسة كيفية الوصول من الثاني إلى الأول. ولعل هـــذا هـــو الـــذي ســـاهم في إيجاد المدارس اللغوية، أو طرائق التفكير في المعنى عند المفكرين باختلاف أزمانهم وأماكن حضارتهم، والفئات الفكرية أو المنهجية التي ينتمون إلـــيها؛ كالأصوليين، والنحاة، والفلاسفة، والبلاغيين، والنقاد، وعلماء اللغة المعاصرين، تاريخيين ووصفيين، أو سياقيين أو مقارنين أو تحويليين أو غيرهم.

فـــإذا كانـــت الظاهـــرة اللغوية ذات وجهين في المباني الجملية التي يعمد إليها الباحـــثون في التحليل اللغوي، فإن هذه السمة تبدو في الشعر أكثر شفافية وأكثر تعقيدا

فـــي الوصول من الوجه الأول إلى الثاني، ومن الثاني إلى الأول: فلتحقيق الوجه الأول وهـــو الأصـــل يقتضـــي تحقيق كفاءة معينة في المتكلم (الشاعر)[21]، فيكون قادرا على تحقـــيق توظيف العلاقات اللغوية توظيفا شعريا تتحول فيه العلاقة بين الصوت والمعنى مـــن علاقة خفية إلى علاقة جلية، وتتمظهر بالطريقة الملموسة جدا والأكثر قوة" تقول: وتتحول فيه العلاقة بين الصوت والمعنى من علاقة جلية إلى علاقة خفية أيضا، ويكون الشـــاعر قـــادرا علـــى تحريك كلماته لتؤدي دور[22] السحر الإيحائي الذي تمارسه اللغة عمومـــا واللغـــة الشـــعرية على وجه الخصوص" إن في الكلمة وفي الفعل شيئا مقدسا يمنعنا من أن نجعل منه لعبة الصدفة، وإن الاستخدام المتقن للغة ما، يعني ممارسة نوع مـــن الســـحر الإيحائي"، فتكون الكلمات في القصيدة تؤدي دورا دقيقا لا يخضع للوضع بالصـــدفة. يقـــول ياكبســـون: إن الشـــاعر برفضه المتعمد لكل لعبة صدفة، يضع حدا للتخميـــنات الســـخيفة لهـــؤلاء النقاد الذين يزعمون أن "القصيدة يمكن أن تحتوي على بعـــض البنـــيات التي لا تلعب أي دور في وظيفتها ولا في تأثيرها باعتبارها أثرا أدبيا"، فـــترتدي الأفكـــار التـــي في ذهن الشاعر ثوبا دقيقا من الكلمات التي تنسج لها قدا بقد، متميزا عن غيره من فنون الأدب النثرية.

يقول جان كوهن[23]: "إنّ طبيعة الفارق بين النثر والشعر لغوية ، أي شكلية، أي إنـــه لا يكمن في المادة الصوتية، ولا في المادة الأيدلوجية، بل يكمن في نمط خاص من العلاقـــات التـــي يقـــيمها الشعر بين الدال والمدلول من جهة، وبين المدلولات من جهة أخرى".

فتـــتم العلاقـــة في الشعر بين الدال والمدلول والدلالة في المبدع والمتلقي، في نسق وتتابع على درجة كبيرة من الغرابة في الاعتماد على تدرج الإثارة للصورة الكلية تجاوزا للآثار الجزئية المحدودة المحددة أو المقيدة بمعجم أو ببعد دلالي قريب في دائرة مـــن الدوائر الدلالية اللغوية. فما أن تنطلق الكلمة في عمل المبدع حتى تأخذ مكانها في بـــناء الصورة الذهنية الكلية في ذهنه. ولتؤدي دورها في نفس سامعها على اختلاف أو اتفـــاق بيـــنهما؛ فهي هنا عند المبدع لَبِنَةٌ في بناء أو خط في صورة، وهي هناك، عند المتلقـــي، مثـــير تجـــربة أو منشـــئ صورة، يكون التفاعل بين الدورين بمقدار تعرض

صـاحبي الحدثيـن لحـدث واحد، أو تجربة واحدة أو متماثلة، أو هما صاحبا حدث أو تجـربة واحـدة، فتتصـرف الكلمـة حرة طليقة من كل قيد من قيود المعجم أو الدلالة الإفرادية إلى سلسلة متلاحقة من الدوائر الدلالية، تتسع اتساع مطردا إلى أن تستقر في دائـرة معيـنة. وكلما اتسعت الدائرة زادت حرية الكلمة، فزادت قوتها في حفز الصور الذهنـية عـند المتلقـي، وزادت قدرتهـا على خلق الصور، وتعدد الاحتمالات وأوجه التصوير، أو الوقوف في زوايا الإسقاط على منظور كلي متكامل.

وربما كانت حرية حركة الكلمة في دوائرها الدلالية هي المسؤولة بشكل مباشر عـن الاخـتلاف في تحليل الصور الشعرية عند أصحاب المدارس اللغوية والنقدية فضلا عـن الأفراد، بل ربما كانت حرية الحركة هذه هي المسؤولة عن الخلاف والاختلاف، بل الصـراع أحـيانا بين النقاد العرب القدماء، كالجاحظ والعسكري وقدامة والجرجاني في فضل اللفظ على المعنى أو المعنى على اللفظ.

ومـن ثـمَّ نقول: كلّما قيدت حرية حركة اللفظة في إطارها الدلالي اقتربت من الدائـرة الأولى الباهتة، مثقلة بأغلال المدلول اللغوي المعجمي، ترصف بها وتئن فيها، فـلا يرى صاحبها –المتلقي– ما ذهب إليه المبدع، ولا ما يمكن أن يراه صاحب تجربة أوسـع، أو مـن أعطـى حرية الانطلاق للكلمة في الصورة. لذا تراه إذا ما عاد لقراءة الـنص مـرة أخرى في زمن آخر، اتسعت فيه تجاربه أو تحللت عنده فيه قيود الكلمة، فإنـه واجد فيه ما لم يجده سابقا: لأن الكلمة قد أدت دورا عند المتلقي كما كانت قد أدت دورا – ولا نقـول الـدور– عند المبـدع. يقول امبيرتوايكو[24] "إذا ما استطاع عمل أن يصبح معبرا في عيون متفرج، فذلك بفضل وجود دلالات وقيم صادرة عن تجارب سابقة وقابلة لأن تصهر مع الخصائص التي يقدمها العمل الفني".

ونـرى هنا أنه يجدر بنا قبل عقد فصل للحديث عن لغة الشعر والمنهج النحوي اللغوي في تحليل الشعر، أن نتحدث بمزيد من التفصيل عن المعنى.

ظلـت فكـرة المعنى من أكثر الموضوعات اللسانية تعقيدا، إن لم تكن أكثرها، حـتى إن بلومفيلد[25] Bloomfield كان يعد البحث في المعنى من أضعف مناطق البحث

اللساني؛ لأن البحث فيه يقتضي الخروج عما في العبارة أو النص إلى أشياء ذهنية مثلا، لا يملك الإنسان أدوات للبحث فيها. فيقتضي أن نعرف ما عند المتكلم من معرفة بلغته التي يتكلم بها، وما لكلمات هذه اللغة من ظلال نفسية في نفسه، وبخاصة إذا كانت هذه الكلمات من كلمات نقل المعنى غير العلمي الدقيق (كأسماء الحيوان أو النبات أو المعادن، الخ)؛ أي إذا كانت هذه الكلمات مما له علاقة باللغة الأدبية كالحب والكراهية... وغيرها من هذا الضرب.

فهذه وأمثالها، سيبقى أمرُ تحديدها ليس باليسير حتى لو حاولنا تحديدها بمصطلحات علمية معينة نتفق عليها. فإن اختلاف وجهات النظر إلى هذه المصطلحات والإحساس بها سيكون مختلفا من فرد إلى آخر، فضلا عن اختلاف حالات المزاج النفسي الذي ينطق المتكلم به ما ينطق، ويستقبل المخاطب أو السامع ما يسمع، بالإضافة إلى اختلاف وتعدد أوجه استعمال هذا المصطلح (أو الكلمة) من الأفراد الناطقين باللغة: من حيث الاستعمال الوظيفي للفظة، استعمالا وظيفيا حقيقيا، أو استعمالا مجازيا، مما دفع بلومفيلد أيضا إلى الاهتمام بموقف السامع، ومدى انعكاس الاستجابة في تصرفه، كما هو في القصة المعروفة عنه؛ قصة التفاحة بين جل وجاك.

فقد رأت جيل التفاحة، فرغبت في الحصول عليها، فحصلت استجابة لتلك الإثارة، ولما لم تكن جيل قادرة على الوصول إليها بنفسها، فإنها تصدر مجموعات من الأصوات التي تحمل معنى تمثل حافزا لآخر لمساعدتها في الحصول عليها بإصدار استجابة تبدو في تصرفه السلوكي. فتكون دورة الحافز والاستجابة كما يلي:

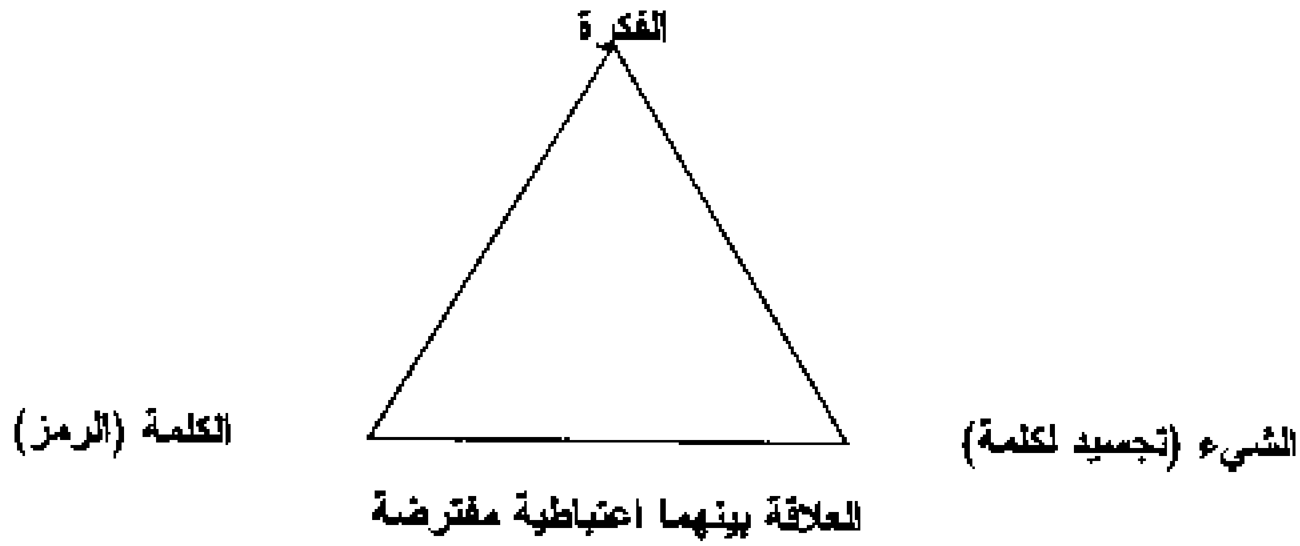
مثير داخلي أو عملي أحيانا ←رد فعل صوتي كلامي ← في المتكلم

في السامع ← مثير كلامي لغوي ← رد فعل عملي سلوكي.

ولعل مما يؤخذ على بلومفيلد في هذا كله، أنّه ركز اهتمامه على رد الفعل العملي السلوكي الصادر عن المثير الكلامي اللغوي، وهذا محوره السامع وليس المتكلم، فضلا عن الباحث اللساني اللغوي الذي يهمه الحدث الكلامي ببنائه التركيبي في ذاته ولذاته[26] بصرف النظر عما يعلق فيها أو يؤثر في فهمنا لها من معطيات علم النفس والاجتماع، أو تاريخ اللغات أو الفلسفة.

ولعل رأي بلومفيلد هذا، قد يكون ردة فعل لما كان سائدا في زمنه من آراء العالم الأمريكي الذهني E. Sapir [27]. الذي كانت عنايته للوصول إلى المعنى كبيرة جدا، بما في ذهن المتكلم، حافزا لقول ما قال، استجابة لذلك الحافز الذهني.

ما من ريب في أن الدراسة الجادة التي قدمها العالمان رتشارد وأوجدن، تعد ركنا رئيسا في دراسة المعنى عند من جاء بعدهما من الباحثين؛ لما اعتمدت عليه دراستهم من منهجية سليمة، وتحديد دقيق للمصطلحات، فقد اعتمدا المثلث المشهور باسميهما، والذي أسمياه المثلث الأساس (Basic triangle) . في ضبط العلاقة بين الفكرة والكلمة والشيء المشار إليه كما يلي:



فالفكرة في الذهن thought وهي مضمون عقلي يبرز في ذهن السامع لمجرد إثارته بالكلمة الرمز Symbol مشيرة إلى تجسيد حسي هو الشيء المقصود reference في علاقة بينهما (أي بين الرمز والشيء) اعتباطية الرمزية، ارتبطت فيها الكلمة بالمقصود (وهو الذي أخذت تطلق عليه بعض الدراسات اللاحقة (المرجع). وقد رفض عدد من اللسانيين، ومنهم أولمان، إدخال الشيء الذي تشير إليه الكلمة في البحث اللساني؛ لأن اللساني يهتم بالكلمة لا بما ترتبط به[28]، فأخذ أولمان يركز اهتمامه على الرمز، الذي أخذ يسميه "اللفظة"، والفكرة التي في الذهن والتي يستدعيها الرمز، ويسميها "المدلول"، فيرى أن العلاقة بينهما علاقة اقتضاء، أي أن أحدهما يستدعي الآخر، فمجرد التفكير في شيء فإن اللفظة التي تجسده تحضر إلى الذهن، وكذلك لمجرد

ذكــر اللفظة فإن الصورة الذهنية تستدعي إلى الذهن، وهذه العلاقة بين الرمز والصورة الذهنية، أو بين اللفظة والمدلول هي المعنى – فيما يرى ستيفن أولمان.

يقــول أولمــان[29]: ولا شــك أنّ القــدر الأعظم من تفكيرنا مرتبط ارتباطا وثيقا بالكلمــات، ولكنه من المبالغة أن ندعي استحالة وجود الأفكار دون الاعتماد على اللغة؛ لأننا مثلا، عندما ندرك مغزى الأضواء في إشارات المرور، أو العلامات التي توضع في الطــريق لإرشــاد المــارة، أو عندما ندرك في لمحة مفاجئة من الإشعاع الذهني علاقة رياضية أو حسابية، أو أي نوع من الحقائق البديهية التي يتم تصورها تلقائيا" ثم يقول: "وبالجملة، يمكن القول إن أحدا لا يستطيع أن ينكر الأهمية العظمى للكلمات في أي نوع مــن أنواع التفكير، وتلك التفكير الذي يطلق عليه اسم "الكلام الداخلي" **inter-speech**. ويــتابع قولــه: "ومــا دامت الكلمات تتداخل هكذا مع الأفكار، وترتبط بها ارتباطا وثيقا بحيث يتعسر عزل أحدهما عن الآخر، فلا مناص من أن تؤثر الكلمات في الأفكار إلى حد بعــيد، ولكــن لــيس مــن الســهل تحديد مدى هذا التأثير؛ نظرا لأنّه عملية ليس من "المفــروض" أن تقوم بها الكلمات، والواقع أن الكلمات حين تقوم بهذه العملية تكون قد جاوزت وظيفتها الأساسية المرسومة لها."

وربمــا كانــت فكرة أصحاب المدرسة السياقية (**context of situation**) وعلى رأســهم فيرث[30] **Firth** أكثر شمولية في دراسة مشكلة المعنى في البحث اللساني. فهم يــرون أنّ المعــنى اللغوي مجموعة الخصائص والمميزات التي تأخذها الوحدة اللغوية (الكلمة أو الجملة) في إطارها الصوتي المكون على ضوء "المميزات الصوتية" التي بها يمكــن أن تــتحول اللفظة من معنى إلى معنى، ومن مبنى إلى آخر بالتحولات الصوتية التــي تتم فيها، وفي إطارها الصرفي: الاشتقاقي، والإفراد، والتثنية، والجمع، والاسمية، والفعلية أو الأداة، الخ.

وفــي إطارها التركيبي النحوي تحدد خصائص الكلمة من خلال وظيفتها النحوية فــي التركيــب الجملي الذي وردت فيه، وارتباطها بغيرها من المباني الصرفية في ذلك التركيــب، مــع الأخــذ في الحسبان معناها المعجمي الذي تؤديه في معزل عن الظرف اللغوي الذي وضعت فيه في هذا التركيب أو ذاك.

ثـم يأتـي الـدور الاجتماعـي لمعـنى الكلمـة، وفيه يتحدد المقام أو السياق الاجتماعي، أو الاجتماعي اللغوي في البيئة الاجتماعية التي تكتسب فيه لفظة بعدها في المعـنى، تكتسب غيره في بيئة اجتماعية أخرى، مع مراعاة كل ما يمكن أنه يتدخل في هذا المعنى السياقي بين طرفي الخطاب؛ المتكلم والسامع أو المخاطب، كالنبر، والتنغيم، والإشـارات والارتفـاع فـي الصوت والانخفاض، وتقطيب الحاجبين أو هز الرأس أو الكتفين، الخ.

فـبهذه الأطـر تكتسـب اللفظة بعدها في المعنى، وبها يمكن تحديد الخصائص والمميزات اللغوية لها.

أما جان كوهن فيرى[31] أنّ كلمة معنى تشير إلى عنصرين مختلفين:

المرجع، أي المشار إليه، الشيء الواقعي كما هو في حد ذاته.

الإحالـة، أي المقابل النفسي للشيء، أو الظاهرة الذهنية التي يدور من خلالها المرجع.

ونحـن نميل إلى ما يذهب إليه معظم اللسانيين من أن المعنى يكمن في "الإحالة" التـي جـاء تعـريفها في البند الثاني السابق، ولعل هذا التفريق بين هذين المعنيين هو الذي ساعد في إيجاد الفرق بين المعنيين الشعري والنثري لاستعمال اللفظة من التركيب الجملـي. يقـول كوهن[32]: "والواقع أن حضوره وحده (المعنى كما جاء في البند الثاني السـابق هـو الـذي يجعلنا نفهم أن المعنى بين النثر هو نفسه الآن متماثل، ومختلف مـتماثل فيما يتعلق بالمرجع، أنّ لـ"كوكب الأرض" ولـ "هذا المنجل الذهبي" المشار إليه نفسـه، إذ تحـيلان إلـى الشيء ذاته الذي هو الكوكب عينه، وهو مختلف فيما يتعلق بالإحالـة. إن نمطـي التعبـير السـابقين يحيلان على الشيء نفسه إلا أنهما يوفران طريقتيـن مختلفتيـن لإدراكـه،أي حالتين مختلفتين لـ"الوعي بـ"، فإذا كان المفهوم من وراء معـنى هو الشيء، فإنّ "كوكب الأرض" لـ" هذا المنجل الذهبي" نفس المعنى، وإذا كـان المفهـوم، عكـس ذلك، هو الطريقة الذاتية لإدراك الشيء، فإن للعبارتين معنيين مختلفين، يمكن تسميتهما "معنى نثري"ومعنى شعري". ويربط من موضع آخر بين هذين المصطلحين ومصطلحين آخريين هما: دلالة المطابقة ودلالة الإيحاء، يقول[33]: "ومستعمل

لأجل تسمية نمطي المعنى هذين مصطلحين ملائمين هما: دلالة المطابقة ودلالة الإيحاء، ينبغـي أن يفهم بوضوح أن لدلالة المطابقة ولدلالة الإيحاء نفس المرجع، لا تتعارضان إلا علـى المستوى النفسي، فدلالة المطابقة تشير إلى الاستجابة العقلية، ودلالة الإيحاء تشـير إلـى الاستجابة العاطفية، مصاغتين في عبارتين مختلفين عن الشيء ذاته، وإن وظيفة النثر هي المطابقة، ووظيفة الشعر هي الإيحاء".

ويسـلمنا حديـث كوهـن هذا إلى الحديث عن لغة الشعر، وتسلمنا المناقشات السـابقة للمعـنى والبحث فيها وعنها، ووجهات النظر التي كان قسم منها يمثل مدرسة لسانية في البحث اللغوي، وآخر يمثل مجموعة من الآراء التي طرحها أصحابها معقبين علـى غيرهم أو معدلين أو موجهين ما جاء في مدارس لغوية سادت ردحا من الزمن. تسـلمنا هذه المناقشات إلى الحديث عن اللغة التي تتضمن المعنى، ولكننا ننص بوضوح على أننا لسنا معنيين هنا بالحديث بالتفصيل عن التعريفات المتعددة للغة ووظائفها، ولا عـن الكلام أو القول أو الفرق بينها، ولسنا معنيين أيضا بالحديث عن الجوانب التقليدية فـي تعـريف الأدب أو الشعر أو القصيدة من وجهة نظر تقليدية في بنائها، أو صورها، وموسـيقاها، وخيالها، وأوزانها، الخ عند العرب أو غير العرب من أصحاب الحضارات المختلفة.

وإن الذي نريد في هذه الصفحات هو الوقوف القصير عند لغة القصيدة وبخاصة الحديـثة، وتحديد قيمة بعض المصطلحات التي يمكن الاعتماد عليها للوصول إلى غايتنا من هذا البحث، وهي إلقاء الضوء على أهمية اللسانيات في دراسة الشعر وتحليله، من خـلال منهج لغوي نحوي في غير ما ألفه الباحثون في تعريفهم النحو، وما يندرج تحته من بحث في الحركات الإعرابية على ضوء العمل والعامل، وأثر كل في الآخر.

إذا كان الأدب في تعريف كثير من الباحثين[34] فن المحاكاة بواسطة اللغة معتمدة علـى التخيـيل، فإنـنا نرى أن من اللائق أن نعرض رأي تودوروف، أنه "سيكون من الصـعب بـل مـن المستحيل أن نطبق هذا على أجزائه الأخرى كالشعر (فهو يرى أنه تعـريف ينطبق على الرواية والقصة والمسرحية)؛ لأن الشعر لا يحكي شيئا، ولا يشير إلـى أي حادثة، بل يكتفي الشعر في معظم الأحيان بتشكيل تأمل أو انطباع؛ ولأن الشعر

لا يستدعي في معظم الأحيان أي واقع خارجي؛ لأنه يكتفي بنفسه، فهو ليس أداة، بل هو لغة منظمة، تجذب الانتباه إليها قيمتها في ذاتها.

وبتعبير رومان ياكبسون[35]، في حديثه عن الشاعرية: "إنّها تتجلى في كون الكلمة تدرك بوصفها كلمة، وليست مجرد بديل عن الشيء المسمى، ولا كانبثاق للانفعال، وتتجلى في كون الكلمات وتركيبها ودلالتها وشكلها الخارجي والداخلي ليست مجرد إمارات مختلفة عن الواقع، بل لها وزنها الخاص وقيمتها الخاصة".

وتقود هذه الآراء إلى آراء العرب القدماء في البحث في قضية الشكل والمضمون في الشعر العربي، والمعاني والألفاظ وأيهما صاحب الفضل في الحكم عند نقد الشعر، وقضية الصدق والكذب في الشعر. ولكن هذه موضوعات قد بحثها كثير من الباحثين في القديم والحديث، ونرى أن إعادة الحديث فيها سيكون مكررا لا حاجة إليه في هذا المقام، ويكفي أن نضع عددا من الاقتباسات التي تبين وجهة نظر بعض أبرز الأعلام العرب القدماء فيها. يرى ابن قتيبة[36] أن نقد الشعر ينحصر في أربعة أوجه: لفظ تافه فيه معنى تافه، لفظ جيد فيه معنى جيد، ولفظ قاصر فيه معنى جيد. وهذا يذكر بموقف الجاحظ من قضية اللفظ والمعنى من "أن المعاني مطروحة في الطريق، يعرفها العجمي والعربي، والقروي والبدوي، وإنما الشأن في إقامة الوزن، وتخير اللفظ وسهولته، وسهولة المخرج، وفي صحة الطبع وجودة السبك. فالشعر صياغة ولا فضل هناك للمعاني[37]. وهذا ما ذهب إليه أبو هلال العسكري في قوله: وليس الشأن في إيراد المعاني، لأن المعاني يعرفها العربي والعجمي، والقروي والبدوي، وإنما هو في جودة اللفظ وصفاته، وحسنه وبهائه، ونزاهته ونقائه[38] ، وكثرة طلاوته ومائه، مع صحة السبك والتركيب، وليس يطلب من المعنى إلا أن يكون صوابا" ويقول قدامة بن جعفر[39]: "إن الشعر شأنه شأن الصياغة والتصوير والنقش". وللجرجاني في ذلك قولان، أحدهما أدبي إنشائي يتسق مع هذه القضية، والآخر علمي جاد يتسق مع معطيات الألسنية الحديثة وضرورة إسناد أمر نقد الشعر إلى النظم وأسسه، وذلك بقوله: "وما النظم إلا أن تضع كلماتك الموضع الذي يرتضيه علم النحو[40]" وندع الحديث عن هذا القول إلى حينه في أهمية النحو في تحليل لغة الشعر. أما الرأي الأول فيقول فيه[41]: "إن سبيل المعنى

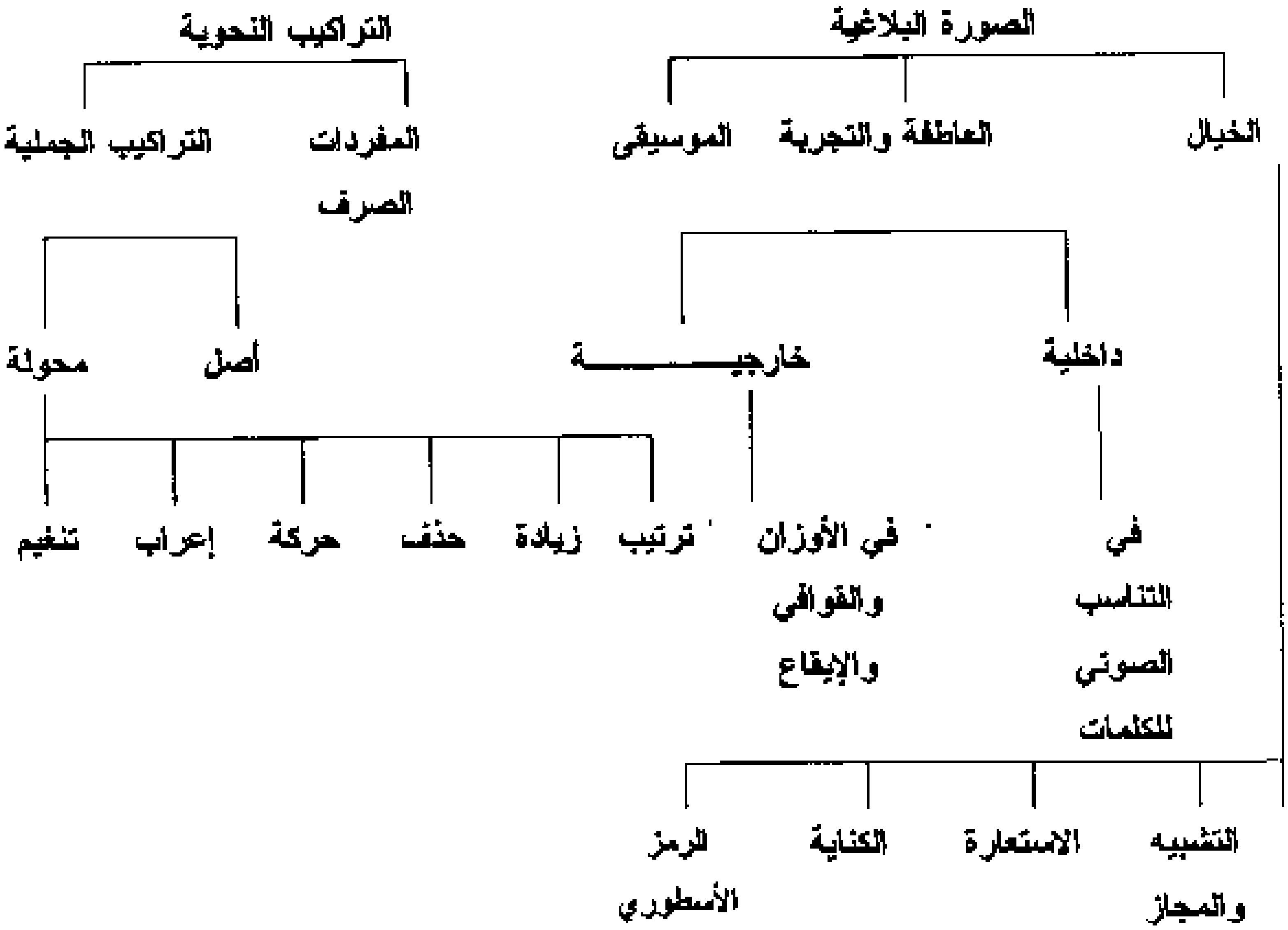
الذي يعبر عنه سبيل الشيء الذي يقع التصوير والصوغ فيه، وأن الصياغة متوحدة مع المعـــنى، فالشعر نظير الصياغة والتحبير وكل ما يقصد به التصوير" وليس الفرق كبيرا بيـــن هـــذا القول وقول الجاحظ[42]: بأن الشعر "صياغة وضرب من النسيج، وجنس من التصوير".

فـــإذا نظـــرنا إلى الشعر على أنه تجربة فنية صادرة كاستجابة لعدد من الدوافع الذاتـــية فـــي تركيب لغوي في بناء على نسق معين، فإن الأمر يقتضي الوقوف مع أهم الخصـــائص التي تقوم عليها هذه التراكيب، وهذا البناء. ونرى أن ذلك يقتضي تحديد ما يجب تحديده في ما نرى، قبل معالجة النص الشعري؛ لتحليله، ومحاولة الوصول إلى ما فيه من مثيرات ودلالات.

نرى أن المحلل يحتاج إلى الإحاطة بركيزتين هامتين، كانتا تدرسان في شعبتين مســـتقلتين مـــن شـــعب وميادين الدراسات اللغوية، هما: البلاغة والنحو، ويحتاج إلى ضـــمهما وتوظـــيفهما فـــي إطـــار لغـــوي واحد، ربما هو الذي هدف إليه عبد القاهر الجرجانـــي، ولـــم يتمكن من اتمامه، بمصطلح النظم، الذي هو عنده: "وما النظم إلا أن تضع كلماتك الموضع الذي يرتضيه علم النحو".

والغايـــة مـــن ذلك كله، الوصول إلى المعنى الدلالي، ونقصد بالمعنى الدلالي ما يذهب إليه O. Durcrot & Tzevetan Todorov [43] عن القديس أوغستين "إن الدلالة هي عبارة عن شيء، زيادة على كونه حاملا للمعاني، يثير بذاته في الفكر أشياء أخرى" وذلـــك بالمعنيـــن: إنه يجيء بالمعنى أولا، وأنه يذكر بشيء آخر فيثيره فيلزم عنه أن يكون الشيئان يتنزلان منزلة واحدة، وقد يقعان على مستوى واحد.

ونفصل القول في هاتين الركيزتين كما يلي:



فهـذه هي الأدوات التي يستعملها الشاعر للتعبير عن تجربته الذاتية، مبرزا بها الصورة الداخلية في نفسه، حتى تكتسب كل لفظة، وكل جملة، وكل تشبيه، أو استعارة، أو كـناية، شحنة عاطفية تصبح في سياقها رمزا لها، خارجة عن إطارها اللغوي الذي كانت له وكان لها في المعجم، أو في الدراسة التشريحية البلاغية أو النحوية التي تركز اهـتمامها على معرفة أركان التشبيه، وعلى المشاركة بين المشبه والمشبه به، أو على انـتقال اللفظة من معناها الأصل إلى معنى جديد مرتبط بالأول في ما يسمى بالاستعارة، أو على الدلالة على معنى معين بكناية عنه بلازم من لوازمه، من غير اهتمام كبير على أبعاد انصهار هذه التشبيهات، أو الكنايات، أو الاستعارات في النص، لنقل صورة تتفاعل

فـيها الألفـاظ بـالعواطف، حـتى تتحول إلى تجربة عاطفية داخلية، بارزة في كلمات منطوقة.

ولما كان الشاعر يستخدم لإبراز هذه التجربة كلمات، فإن هذه الكلمات تسير في خطهـا الـنحوي سيرا تلقائيا، يحتاج القارئ أو المحلل إلى الوقوف معها وإبرازها في أطـرها الـنحوية المتفاعلة مع العناصر البلاغية السابقة، بل المنصهرة معها في إطار صـورة واحـدة، أو لتحقـيق صـورة واحدة، بحيث لا يكون الوقوف مع هذه الجوانب النحوية وقوفا تشريحيا يكتفي فيه بمعرفة اللفظة (تصريفا) أنها تنتمي إلى هذا الباب أو ذاك الـباب من أبواب الصرف: كاسم الفاعل، أو المفعول، أو الصفة المشبهة، أو الإفراد أو التثنـية أو...الـخ، ولا بمعرفة الحركة الإعرابية في التركيب الجملي بأثر من عامل معين يمتنع أن يكون معه آخر، أو برتبة لازمة أو غير لازمة، الخ.

فهـذه جميعا، على الرغم من أنها لازمة، ويجب على المحلل اللغوي أن يتقنها، إلا أنّها يجب – كذلك – أن تنصهر في ذهنه -كما ذكرنا- حتى لا يميز حدود نقطة على حـدة. فهـو بحاجـة إليها لإتقانها كما يعطاها طلاب المرحلتين الإعدادية والثانوية في مدارس البلاد العربية، ولكنه يحتاجها -محللا- متداخلة متفاعلة، كتداخلها وتفاعلها في صـور وتعبـير الشـاعر فـي تجربته، فتحصل الصلة والالتحام الجوهري بين الشاعر والقارئ المحلل.

بـل بيـن المبدع والمتلقي، أو بين النص وما يثيره من تجارب المتلقي ودوائر صـوره الذهنية من جهة، والمتلقي ذاته، فتجد أنّ المتلقي يقف مع صورة في دائرة، إلا أن خياله يكون قد انتقل إلى الصورة في الدائرة الثانية أو الثالثة.... الخ وما أن يستيقظ مـن هذه الغفوة أو الغفلة، حتى يرى أنه يشد شكيمة الخيال ليعيده إلى نقطة الانطلاق، أو إلـى نقطـة قريبة منها، فيأخذ بتحديد الكلمات في حدود التراكيب بحثا عن الوظائف اللغويـة الدلالـية، وليس عن المعاني اللغوية المعجمية، باستكشاف أبعاد العلاقات بين الكلمات، ليس فقط في التراكيب، بل في الصورة التي هي جزء منها: جزء وظيفي يحدد معـناها. يقـول تزفتان تودوروف[44]: "إن معنى كلمة يتحدد بالتركيبات التي يستطيع بها إكمال وظيفته اللغوية؛ معنى كلمة هو مجموعة علاقاتها الممكنة مع كلمات أخرى" وهذا

التفاعل بين هذه الفنون المختلفة في الذهن (ذهن كل من المتلقي والمبدع) تكون القاعدة الرئيسية التي تبنى عليها تقنية الدلالة، أو إنتاجية المعنى وصوره، أو تحقيق الأدب وبنائه.

"وعلى الجملة فإن الأدب ليس شيئا آخر سوى تقنية الدلالة: إن وجوده كائن في شكله وليس في المحتوى أو الرسالة الإيجابية للخطاب في إنتاجية للمعنى، وليس في المعنى المنتج[45]" فتتضافر هذه العناصر: الصرفية والصوتية والتركيبية والبلاغية والنحوية، في تكوين قاعدة انطلاق البحث عن المعنى. يقول أمبرتوإيكو[46]: "إن ما يربط العلاقات في 'المعنى المحفز' الجمالي هي العادات المتجذرة عند المتلقي، التي تشكل ما نسميه ذوقه: القافية والوزن والتناسبات الاتفاقية والإحالات إلى الواقع أو إلى المحتمل، والعادات الأسلوبية.." وبهذا التضافر بين العناصر تكمل صورة المعنى، أو كما يرى سارتر يكمل المعنى إفراغ شحناته في الكلمات" فالمعنى (عنده) لا تحتويه الكلمات، بل هو الذي يعطي الكلمات مغزاها".

وسنتحدث عن كل من هذه العناصر – بإيجاز– ليكون حديثنا هذا مقدمة لما نعتزمه من تطبيق على شعر شاعرة آثارنا أن نختارها من الشاعرات غير المعروفات، ولكن تجربتها غنية بأضرب التعبير، وتعدد الصور التي يمكن أن تكون ميدانا جيدا للدراسة.

يُعَدُّ الخيال من أبرز الأدوات التي ترجع إليها القدرة على بناء الصورة في التجربة الشعرية، وإليه يرجع السر في انفعال السامع أو القارئ انفعالا نفسيا من غير كد الذهن أو إعمال العقل في صدق ما يسمع أو كذبه[47]، ذلك على الرغم من أن عددا ليس بالقليل من نقاد العرب القدماء عابوا كثيرا من الشعر للمغالاة في الخيال الموجود في صوره، وعابه كذلك بعض النقاد الغربيين. يقول لابروبير[48]: "يجب ألا تحتوي أحاديثنا أو كتبنا على كثير من الخيال؛ لأنه لا ينتج غالبا إلا أفكارا باطلة صبيانية، لا تصلح من شأننا، ولا جدوى منها في صواب الرأي أو قوة التمييز أو في السمو بحالتنا، فيجب أن تصدر أفكارنا عن الذوق السليم والعقل الراجح، وأن تكون أثرا لنفوذ بصيرتنا". في حين يرى كانت[49]" أن الخيال أجمل قوى الإنسان، وأنه لا غنى لأية قوة

أخـــرى مـــن قوة الإنسان عن الخيال، وقلما وعى الناس قدر الخيال وخطره" فالخيال – وإن رفضـــه بعضـــهم – يمثل الروح التي تدخل في الصورة الشعرية، فتمكن الشاعر من تعبـــيره عن عواطفه ومشاعره وآماله، في تعبير أدبي شاعري، بعيدا عن لغة الحقائق والـــتعقل. وهـــو عند كولدرج[50] القوة السحرية التركيبية التي تعمل مع الإرادة الواعية، وبه يتم الاندماج بين الفنان وما يحيط به خارجا عنه في محيطه وبيئته. وعنده أيضا[51] عـــن "طـــريق الخيال يتمكن الشاعر أو الفنان من خلق كل عضوي حي، ومعنى هذا أنه حيـــث يوجـــد الخيال تتحقق الوحدة العضوية، ويصبح لكل عمل فني شكله الخاص الذي يميزه".

ويكـــون الخـــيال بصريا قريبا يعتمد على الحواس، وبخاصة البصر، كما هو في معظم الشعر العربي القديم التقليدي، أو ذهنيا مجردا صوره معقدة إلى حد الغموض، أو الـــتعدد غـــير المألوف في وجهات النظر في تحليل النص الواحد، كما في صورة الشعر العربـــي المعاصـــر، الرومانســـي بخاصـــة. وربمـــا كان ذلك بسبب الجوانب الحضارية ومكتســـباتها الاجتماعـــية، والفكـــرية، والسياسية، والاقتصادية[52]، الخ، واتساع وظيفة الشـــعر ومجالات انعكاسه بعد أن كان مقتصرا –تقريبا– على البعد الاجتماعي للفرد في المجتمع، أو الفرد في ذاته مع إحساسه الشديد، بالارتباط بالمجتمع.

ويـــبدو لنا بوضوح من قراءة متأنية في دواوين بعض الشعراء العرب القدماء: امـــرئ القـــيس وطـــرفة وزهير.. وغيرهم، وبعض دواوين الشعراء المحدثين: محمود درويش، أمل دنقل، البياتي وغيرهم، أن التشبيه بأركانه المعروفة يؤدي دورا بارزا في تحديـــد معالم الخيال في الصورة الشعرية عند القدماء، في حين تغلب الكناية والرمز في رســـم الخـــيال الشعري عند الشعراء المحدثين، فالكناية والمجاز والرمز أدوات تساعد علـــى رســـم صورة معقدة تناسب تعقيد الحياة المعاصرة في جوانبها العاطفية والفكرية والسياســـية، لـــم تقتصـــر على معطيات البيئة الاجتماعية، بل تستمد تعقيدها وصورها المعقـــدة من التفاعل العجيب بين أبناء المجتمعات العربية، ومنهم الشعراء، مع غيرهم مـــن أبـــناء المجـــتمعات التـــي تنتمي إلى حضارات مختلفة، ذات خيال وصور مختلفة، وعواطـــف مختلفة، حتى أصبح من "أهم ما يميز الصورة الشعرية الجديدة اتجاهها إلى

الاستغناء عن المعالم الحسية المحدودة، والانشغال ببناء وجود فني مستقل، يستمد وجوده من عناصر الصورة الشعرية نفسها، لا من عناصر الواقع الحسية". فأخذ الشاعر[53] في تكوين صوره وخياله يعتمد على ما يطلع عليه، أو يتصوره في خضم هذه الحياة المملوءة بإمكانات الخيال والتصور، التي ليس من الضروري، بل غالبا لا يكون الشاعر قد عاش شيئا منها، خلافا لما كان عليه الشاعر القديم من التعبير بصورة تقوم على خيال له جذوره وأصوله في تجربة الشاعر الذاتية.

فالليل كموج البحر، وثقل الليل كأنه شد بأمراس كتان إلى صم جندل، وأطلال المحبوبة كباقي الوشم في ظاهر اليد، وهودج المالكية خلايا سفين، وشق السفين حباب الماء كما يقسم المفايل الترب باليد، فأصبح الشاعر كما يقول اليوت في ظل حضارة كحضارتنا يميل إلى الصعوبة والتعقيد، فحضارتنا تتسع لتضم تنوعا وتركيبا، وهذا التنوع والتركيب لابد أن يفرز نتائج متنوعة ومعقدة إذا ما تأثرت به حساسية رقيقة، فلا بد للشعر أن يصبح أكثر شمولا وإيحاء، وأكثر ميلا إلى عدم المباشرة، حتى يتمكن من الخروج من اللغة بالمعنى، ولو اضطر في سبيل ذلك إلى انتزاع المعاني انتزاعا إلى تغيير إطاراتها[54]، ومغامرة الشاعر مع اللغة (بمفرداتها ومدلولها اللغوي، والسياقي، والمعجمي، واستعاراتها، وكناياتها، وما تثيره من خيالات وتجارب عجيبة في تركيبها) ورغبة في أن يصبح شعره أكثر شمولا وإيحاء، وأكثر ميلا إلى عدم المباشرة، هي التي تدفعه إلى استخدام ما يسميه جون كرورانسوم باللغة البدائية[55]" وهي اللغة التي إذا حاول الكلام فيها أن يكون قريبا أو عقلانيا فاضطر أن يكون صوريا أو محسوسا، تميل فيها الكلمات إلى أن تكون جذرية، بمعنى أن كلا منها عنى شيئا كاملا أو حدثا كاملا". فكل ذلك في إطار ضرورات، ذات طابع تاريخي وفني حضاري" بكل ثقل الكلمة السياسي والاجتماعي والاقتصادي والفكري، الخ. ومن هنا فإن هذه الضرورة (استشراف آفاق جديدة في الشعر) ظلت كامنة، تطل برأسها على استحياء لحظة وتختفي لحظات، في ميل القصيدة نحو التراكيب، وفي استيعابها للحساسية الجديدة وملاحقتها لتفتتها وتغيرها، وفي غموض القصيدة الجديدة[56].

ذكرنا أنّ استعمال الاستعارة والكناية، والاستعمال المجازي للغة، سمة بارزة في خيال الصورة الشعرية الحديثة، فالكلمات في الاستعارات تعطي أثرا واضحا في تعقيد الخيال الذي ينعكس في تعقيد الصورة التي يحاول الشاعر رسمها. يقول هدفيغ كونراد[57]: "تسمى الكلمات التي تحدث هذا الأثر الغريب مصطلحات منقولة، ونتكلم في هذه الحالة عن تغير المعنى، فالاستعارات، إذاً عبارة عن أشكال خاصة لتغيرات المعنى". ويعقب تزيفان على ذلك بقوله[58]: "ومن هنا نرى في كتب البلاغة التقليدية أن ترجمة استعمالات الاستعارات إلى مصطلحات "خاصة" إنما تدرك كإقامة كلمة خاصة مكان الاستعارة.. لم يشأ الشاعر أن يقول غير ما قاله، ولكن الكلمات تقول في الاستعارات شيئا آخر لا تعنيه عادة"

ومن هنا فإن التفريق بينهما تفريق حيوي كما جاء في قول فونتانيي[59] بأن: "المجاز اللفظي مدلول بديل لمدلول آخر يبقى الدال فيه هو نفسه" وهذا ما دفع أحد كبار علماء ما بعد البنيوية، وأحد علماء المعنى الجدلي في الأدب، بول دي مان، إلى أن يعد البلاغة، وبخاصة الجانب المجازي فيها، بأنه الأدب نفسه، فيه يتم فتح الباب أمام الإشارات اللغوية؛ أو ما يسميه رولان بارت "الشيفرة" لاحتمالات المعنى بصورة أو بتعدد صوره. يقول دي مان[60]: "البلاغة تؤجل المنطق وتفتح احتمالات عديدة جدا لانحراف الإشارة، فلا أتردد أبدا في القول بأن الإمكانية البلاغية المجازية للغة إنما هي الأدب نفسه، مع أن هذا الكلام بعيد عن الشيء المعتاد، فأنا أستطيع أن أشير إلى عدد كبير من الأمثلة لمسألة أن الأدب هو صورة. فاستنطق وليم رأي هذا النص ليخرج بالمعادلتين: البلاغي=المجازي، والمجازي = الأدبي، فيتم بالانحراف الذي عبر عنه دي مان التفاعل الحقيقي ليكون شكل الأدب أو صوره "هي التفاعل الجدلي بين البنية المجازية السابقة للمعرفة (المسبقة لدى صاحب التأويل أو القارئ الذي يقوم بالتأويل) والكلية المقصودة لعملية التفسير" وربما كانت شدة التفاعل هذه التي تحدث عنها ديمان هي المسؤولة عن إيجاد "اللذة" بعد "المتعة" التي تلي "الإدراك والمعرفة" عند بارت[61] التفاعل القائم على استمرار الجدلية، أو الجدلية المستمرة بين الطي والقوة المعاكسة "بسط"، فيتكون معنى النص بتعدد الأنظمة فيه وبقدرته غير المحدودة على فتح الأبواب

فـــي صورة دائرية غير محدودة للشيفرة أو الإشارة اللغوية. إنّ معنى النص لا يمكن أن يكون سوى تعدد أنظمة ذلك النص، أي قدرته غير المحدودة الدائرية على الاستنتاج.

ومـــن الباحثيـــن مـــن يرى أن الاستعارة ليست استثناء، أي أن الاستعارة هي القاعدة، وليس هذا في ما نرى إلا عكس الذي عليه طبيعة اللغة، فاللغة يفترض أنها في بنيـــتها البســيطة تمـيل نحو التعبير المباشر في استخدام الدال والمدلول، والمرجع أو الشـــيء، ولكـــنها فـــي مرحلة من مراحل التعقيد تميل نحو استخدام الاستعارة والمجاز والكـــناية؛ لأنهـــا أضرب تركيبات لغوية معقدة، أو على الأقل ليست مباشرة، خلافا لما يذهب إليه تزيفتان تودروف في قوله: "ولقد كانت هذه المجازات اللفظية، إبان فجر اللغة الطريقة الوحيدة للتعبير، والطريقة البسيطة والمشتركة. كما كانت في التعبير الخاص".

ونرى أنّ الاستعمال المجازي، أو استعمال الاستعارة، ترجع إلى أن المعنى يكمن فـــي التعبـــير على شكل حقيقة ومجاز، فيختفي المعنى الحقيقي عند الاستعمال المجازي خلـــف المعـــنى الحقيقـــي، وقل أن يتذكره ومستعمل اللغة، وإن تذكره فإنّه يفقد عنصرا رئيسا من عناصر الصورة الشعرية أو الأدبية، بل يفقد عنصرا رئيسا من عناصر بناء إثـــارة العاطفـــة فـــي القصيدة، وهي تمثل القيمة الحقيقية الجوهرية في الفن ذاته عند مكلـــيش: "ولديـــنا دعامة ينهض عليها الأسلوب، وهي الاستعارة، فالاستعارة كالصور تســـاعد علـــى إثارة العاطفة، غير أن إثارة العاطفة لا تكون غاية، بل وسيلة إلى شيء تعرفه العاطفة، شيء أقرب من المعرفة وأكثر مباشرة منها، شيء ملموس ومحسوس، شـــيء ملموس كالتجربة نفسها، يحس به مثلها مباشرة، ولكن ما هو هذا الشيء؟ هذا المعنى الذي يعجز العلم والفلسفة عن إدراكه بوسائلهما؟ إنّه ينبع كما يجيب مكليش نقلا عـــن س.د. لويس، من إدراك الشاعر وجود علاقة عامة تكمن تحت الظواهر وتنتظمها جمـــيعا"[62]. "وقـــد كان كلوديل يقابل بين الشعر والنثر، باعتبار الأول منطق الاستعارة، والثاني منطق القياس، وفي دراسة مكرسة لهذه الصور عرف الشعر بأنه استعارة ثابتة معممة"[63].

أمـــا الكناية فإنها تزيد على الاستعارة والاستعمال المجازي في أنّها ارتباط بين دال ومدلـــول يختفـــي مرجعه الأصل، ويبرز له مرجع جديد، سرعان ما يتحول عنه إلى

مـرجع اجتماعـي، مـع احتمال ورود أي من البعدين السابقين، وبمقدار اختفاء هذين البعديـن، وبروز البعد الاجتماعي الجديد تكون الصورة الأدبية، والشعرية بخاصة، على درجة من النجاح في التصوير وخدمة الخيال.

ولا نرى ضيرا في استعمال المثل الذي ضربه تودوروف[64]، حيث يرى أن كلمة "لهـب" في الاستعمال المجازي تشير إلى معنى كلمة "حب" ولكن استعمال لهب له دلالة ليسـت لكلمة حب، وإن كنتا ترجعان إلى مرجع أو مدلول واحد، والمعنى الثالث الذي لا تحققه كلمة "حب" وترمز إليه كلمة "لهب" هو البعد الدلالي الذي يفيد بروزه على حساب المعنييـن الآخرين في تكوين الخيال الذي تعتمد عليه الصورة التي يصبو إليها المتكلم، وبمقـدار إثـارة ما يقابلها في ذهن السامع، يتم التطابق بينهما، ومن ثم يكون التفاعل والـتذوق، التفاعل مع تجربة في صورة أو صورة في تجربة، معتمدة على طرفي قدرة، أحدهمـا مخـتزن داخلـي ذهني تتفاعل فيه اللفظة في استعمالها المجازي مع موقعها الـنحوي، مـع وظيفـتها البلاغـية في دائرتها الدلالية، وكأنها عندما تقفز من مخبئها المعجمـي الذهني لتقع في وعاء فيه الأطر النحوية والبلاغية، كما تقع المادة الكيماوية فـي إناء فيه ما يلائمها من المواد الكيماوية الأخر، فتتفاعل معها لتعطي مادة جديدة في صـورة جديدة، صلتها بالأصول موجودة كامنة، ولكن الوقوف مع تذكر هذه الأصول لا يعطـي فرصـة للتصرف بهذه المادة الحادثة الجديدة، بل يفسد على من يعتزم التصرف بهـا تصور ما تحققه من فوائد جديدة مختلفة عن فوائد المواد الأصل، وقد لا تناقضها "إن المفـردة لا تأتي هنا بمدلولها القاموسي، ولذا يجب أن تقرأ بغير معناها القاموسي، ذلك لا يعني أن نفكر في ضدها مثلا، ولكن علينا أن نتوقع لها ظلالا ونوايا ومعاني أبعد مـا تركته في ذاكرتنا[65]" و"دور الشاعر (بخاصة) يتلخص في قدرته على إيجاد التواصل مـع فكـرته، ومـن هنا تتفاوت درجات انفعال القارىء مع الشاعر، تبعا لتفاوت قدرة التوصيل" وتتفاوت تفسيرات القراء والمتلقين بحسب قدرتهم على الانتقال من مدلول إلى آخر ناتج، أي تفريغ الاستدلال من شكل مرتبط بدلالة إلى دلالة مرتبطة بشكل.

يقول بارت: "ويشتق المرء ظل المعنى عن طريق إيجاد علاقة متبادلة بين معنى مدلول جديد، وشكل ناتج من تفريغ دلالة سابقة". والثاني بارز ظاهر في صورة مركزية

في النص الشعري بخاصة، تدور حولها صور أضعف منها وفروع عليها، تتشابك معها فـــي بعــض حلقـــات انتشـــارها، أو دوائر قوتها، فتكون ظلال معناها في نفس القارئ، ويكون تفاعله هو معها بمقدار سطوع الضوء –ضوء وضوح الصورة فيها، وبمقدار ما فـــي الصور المحيطة من حياة في ذهنه، وبمقدار قدرته على إيجاد التشابك بين الصور الجزئية من جهة وبينها مجتمعة وبين الصور المحور أو المركزية التي يمكن أن تسمى Theme Topic، ولعل من المفيد القول هنا أن الطرف الثاني للقدرة، هذا، يعتمد بشكل رئيس على قدرة المتلقي على بناء الصور البيانية في ذهنه موظفا فنون البلاغة، أو ما عـــرف فـــيها، في انسجام وتراسل بحيث يؤدي كل دوره، فيتم بذلك تكوين الصورة أو الصـــور، وتلوينها بالألوان المناسبة، فتكسب قدرتها على الحركة، أو أنّها تتحرك باهتة أو ناصـــعة بمقدار حركة ما فيها من استعارات وكنايات وتشبيهات، وأن الانصراف إلى المعانـــي المجازيـــة، أو الاســـتعارة، أو الكناية تمثل ركنا رئيسا في تحليل الرسالة؛ لأن الانصــــراف إلـــى المعنى المعجمي الأول يبدو في كثير من الأحيان منفردا، بينما تتحقق الملاءمـــــة فـــي المعنى الثاني، وبين هذه المعاني علاقة قوية كما بينها كوهن[66] "وليس تغيـــير المعنى ، بالطبع عملا مجانيا، إذ يوجد بين المدلول الأول والثاني علاقة متغيرة، ونحـــن بهـــذا التغيير ننتج أنواعا مختلفة من المجازات: إذا كانت العلاقة هي المشابهة فنكون بصدد الاستعارة، وإذا كانت العلاقة هي المجاورة فنكون بصدد الكناية، وإذا كانت العلاقة هي الجزئية والكلية فنكون بصدد المجاز المرسل".

وهـــذه التجربة، (تجربة التفاعل والتذوق، أو تجربة إقامة بنية الصورة الدلالية، هـــي عملـــية متشـــابكة، وعلـــى درجـــة عالـــية مـــن التعقيد، والتشابك الفسيولوجي والســـيكولوجي، تـــتفاعل فيه معطيات وظائف الحس البصري أو السمعي، مع معطيات القـــدرة الذهنية أو العقلية في اختزان المفردات ودوائرها الدلالية، فضلا عن المعجمية، وســـرعة اســـتدعاء هذه الدوائر، وتأثرها باللغة الأم أو بمعطيات اللغات الأخر المختزنة أيضـــا فـــي الذهـــن، والقدرة على السيطرة والتحكم في قواعد ضبط اللغة أو اللغات في الذهـــن، وعند اللقاء بالنص، وهذا ما يطلق عليه إيكو[67] "الشفرة الفرعية للنص، وتضم هـــذه الفكرة قواعد اللغة الأم التي يعتمد عليها النص، والقدرة الأدبية الخاصة التي يأتي

بهـا القـارئ إلى القراءة، فضلا عن القواعد التي تتحكم في التفاعل الخاص بين شفرة القـارئ وشـفرة الـنص الذي يحدث أثناء قراءة ذلك النص. وبعبارة أخرى: إن القدرة الضرورية على قراءة نص معين ليست مجرد مجموع شفرتين خارجتين، بل هي نتيجة عملـية إنشاء بنية أثناء فعل القراءة تكون هذه البنية حصيلة تفاعل القارئ أو المتلقي مـع العناصـر السـابقة، متشابكة بنظائرها في النص، متخذة منه معيارا للالتحام بتلك التـي تكمـن فـي ذهن صاحب النص أو مبدعه من جهة، وبالإطار العام الذي يرد فيه المعـنى، أو يمكـن أن يدور فيه، وكما عبر عنه إيكور وليم راي[68] ليس النص سوى النتاج الدلالي (أي المعنى في السياق اللغوي) والبراغماتي (أي المعنى في السياق العام للحياة عدا السياق اللغوي) للقارئ المثالي الخاص به". وهذا السياق لا ينحصر كما يرى جونـثان كلـر[69] فـي جمـل النص الأخرى، بل إنه تركيب معقد من المعرفة والتأملات بدرجـات مخـتلفة من التحديد، وذلك في تماس أو تداخل مع المنهج البنيوي؛ فهي "لا تحـاول أن توضـح لماذا نطق فرد معين بسلسلة من الكلمات في لحظة معينة، ولكنها تبين لماذا تملك هذه السلسلة الشكل والمعنى اللذين نجدهما فيها؛ وذلك عن طريق إيجاد علاقـة بيـن هذه السلسلة ونظام اللغة.. فيحاول المرء أن يبين لماذا يملك حدث معين، عـنده مغزى معين عن طريق ربطه بنظام الوظائف، والمعاييـر والأصناف التي يعتمد عليها الحدث، وتجعله ممكنا".

قلـنا إن مهمـة الوصول إلى معنى النص الشعري مهمة على درجة عالية من التعقـيد والتشـابك بين تجربتين وانعكاس نصي، الأولى تجربة الشاعر أو المبدع، بما فيها من صور وظلال لهذه الصور، يقذف بها متلاحقة متتابعة، تحكمه في إلصاق الكلمة بـأحد معانيها المعجمية، أو في إحدى دوائرها الدلالية، ظروف نفسية تاريخية قديمة أو آنية، بكل أبعادها الاجتماعية، أو السياسية، أو العاطفية، الخ، أو يوجهها سطوع الخيط الضوئي الصادر.

قلـنا: وربمـا تعددت الصور والتفسيرات الدلالية عند القارئ الواحد، بسبب ما يـريد القارئ توجيه النص له، فتراه، ما إن يقف مع الخط الأول في الصورة المرسومة حـتى تـتكامل الخطوط عنده، ولكنها في هذه المرة من واقع تجربته، أو لنقل حقا: من

وقـائع قصيدة، فتكون خطوط الرسم وألوان الصورة منه ذاته، ولكنها تلبس ثوب قصد المـبدع، فتـتعدد بذلك الصور وتغيرات الصور بتجدد، ولا نقول بتعدد، نظرة القصد أو قصـد الـنظرة "....فإنّ معنى أي نص أقوم بقراءته إنما هو في الحقيقة المعنى الذي أقصـده لذلـك النص"[70]. وكما يقول بلانشو: "كلما زاد قصد القراءة عندنا تعقيدا زاد ما نعـتقد أنـه شدة الفصل من جانب المؤلف، وكلما كانت قراءتنا العمل دقيقة واسعة زاد مجـال قصد المؤلف"[71]. وربما كان لتناوب الصور وارتباطها بقصد المؤلف عند القارئ أثر واضح في سطوع صوره، ثم دخولها في الظل بعد قليل، فهو يقرأ وتلتحم صورة مع صورة، وثالثة ورابعة، ولكنه قد يقف ذهنه أو خياله عند متابعة ما تقرأه عيناه ظنا منه أن هـذه الصـورة، أو الجزئية من الصورة، تحقق ربط النص بما ذهب إليه من قصده، فـتكون عيـناه قد انتقلتا إلى صور يبقى جزء داخلي خفي من الذهن أو الخيال، يتابعها ولكنه بشيء من الضعف أو عدم الوضوح، وهذا ما يعالجه آخر بطريقة جميلة أنيقة بما يسـميه (الجشـتالت) ويـأخذ به أصحاب المذاهب النظرية الفرنسية، فيرى آير في هذا الجشتالت وسيلة غلق للفراغ الذي يتكون أثناء القراءة:".

بيد أن تلاحم القارئ لا يمكن أن يكون كاملا أبدا، لأنه خاضع للتنقيح حين تعود إلـى الظهـور الاحتمالات التي نبذت وتبدو وكأنها اختيارات صالحة، فتبقى الجشتالتات، فـي الأقـل ضمنا، عرضه لهجوم الاحتمالات التي اشتقتها وسحبتها وراءها[72]. وينبغي للقارئ أن يتخذ قرارات مستمرة لتحقيق الغلق "فحين يظهر فراغ بين جزأين في النص، فـإن علـيه أن يوضـح الجزأيـن في علاقة غير محددة، فهما متجاوران ولكنهما غير متصلين، ويحاول القارئ حل هذا التوتر، فيضعها في إطار مشترك للإشارة Reference = اجشـتالت علـى مسـتوى أعلـى = يسـمح للقارئ بإيجاد الصلة بين أوجه الشبه والاخـتلافات، وبذا يساعده في فهم النمط الذي تستند إليه هذه العلاقة". "وما أن تستمر العيـن القارئـة في طريقها حتى تنتقل المتطورات التي كانت في الأرضية الأمامية إلى الأرضية الخلفية ثانية، فتؤلف نمطا ثالثا من الفراغ ينتظر دوره لكي يُملأ".

قلنا قبل قليل" ربما كانت الصورة هي الساطعة عند المبدع، وربما لم تكن كذلك، ثـم بيـنا كيف يكون الأمر عندما تكون، وهنا نقول إنها لم تكن كذلك، فإن تلك الصورة

التـــي هي في المقدمة عند المبدع، تذهب لتكون في ظل غيرها عند القارئ أو المتلقي، لتســطع غــيرها، وربمـــا بهتت هذه لتسطع غيرها بحسب تفاعل القارئ مع النص، أو "بحســب الــتفاعل بيـن موضــوع الــنص (أو جزئيات موضوع صور النص) والوعي الفــردي[73]" عند القارئ، يولده الاندماج النفسي، أو التأمل الداخلي للقارئ، وإدراك مادة النص الخيالية معا، كما يصوغه شكل النص.

وينـــتج مـــن ذلــك تفــاعل معقــد للقارئ والنص، تتحول من خلاله "الرغائب والمخاوف الأثلة" إلى "المغزى والتماسك" وبذلك توفر للقارئ "اللذة" يقول هولاند[74]: "إن الدمـــج النفسي هذا يسمح للمرء بأن يشعر بخيال النص كأنه خياله[75]"، وهذا ينسجم مع ما يذهب إليه سارتر الذي يرى أنه "حين يندمج القارئ نفسيا بالعمل الأدبي لا يشعر بأن الــذي يحدث"داخل" العمل كأنه يحدث في "داخله" فحسب، بل يرى أيضا خيالاته ومخاوفه اللاوعية من هيئة رؤيته لخبرات "الآخر" ويعد تبادل الاندماج النفسي الداخلي– الخارجي بهــذا المفهــوم، تكون صورة تمهيدية لتبادل أكثر أهمية أو نواة اللاوعي البدائية فينا، ووظــائف الأنـــا العليا، عندنا ومع إبداء التحفظ على نواة اللاوعي البدائية والأنا العليا والتــبادل أو الــتفاعل بيــنها فإن النص بما فيه من صور وتجارب وأفكار هو موضوع التأمل الفكري، أو موضوع الفكر التأملي لدى القارئ، يقلبه ليصل فيه إلى إندماج فكري أو ذهني أو خيالي، محققا بذلك ما يمكنه أنه يسمى عند رولان بارت "باللذة" أو "المتعة" مرورا "بالمعرفة أو الإدراك" بصرف النظر ما إن كان ذلك عن طريق الطي والبسط عند بــارت أو الترمــيز وإعادة الترميز عند ديفيد بلايش، أو طبقة الأوجه المخططة وطبقة الشيئيات الممثلة في نظرية رومان انكارون.

وقــد يدفــع هــذا التأمل القارئ إلى أبعاد يراها في النص من واقع تجربته أو ثقافــته، أو الخــط الــنقدي أو التفسيري الذي ينتهجه، أو يسير عليه، فيرى في كلمات الــنص وحــركة هذه الكلمات مالا يراه غيره بصرف النظر عن التقائه بمبدع النص أو عدم التقائه به عند قصد معين، فهذا عنده أمر لا يعنيه بعد أن كان النص قد صدر عنه. وقــد يعنــيه فيصــرف كل وقته باحثا عنه، مخمنا يصنع الاحتمال، فيعرض عنه ليصنع

غيره، وهكذا دواليك، وبخاصة إذا كان الشاعر من أصحاب قصيدة القناع الذين يجعلون القصيدة وحدة مستقلة عنه، يتخلص بها من مشكلة الذاتية في التعبير، لأسباب متعددة.

ذكـــرنا سابقا أن القصيدة المعاصرة تتسم بدرجة عالية من الغموض، وقلنا بأن هـــذا ربمـــا كان من أسبابه معطيات الحضارة المعاصرة المنعكسة في ثقافة الشاعر في عصـــر ذابـــت فـــيه الحدود بين الحضارات، أمام وسائل نقل الفكر المعاصرة المتقدمة. ونقـــول إنّ مـــن أبـــرز أسباب هذا الغموض في الصورة الشعرية هو الرمز الأسطوري المستخدم فيها كعنصر من عناصر الخيال، والرمز في استخدام الشعراء رمزان، أحدهما يرمـــز فـــيه الشـــاعر إلـــى معـــنى أســـطوري استقر، وعرف الرمز به أو عرف هو بالرمز،فيبقـــي أمر الوصول إلى ما فيه من معني دلالي مقصود أمرا ميسورا، فالشاعر يســـتخدم الرمـــز التاريخي بكل أبعاده التاريخية، وما يحيط به من دوائر دلالية أصبحت موروثـــا إنســـانيا، له ظلاله الانفعالية التجريدية في ذهن كل فرد، مما ساعد في تكوين الـــتعدد فـــي وجهـــات النظر، وتحليل النصوص بما فيها من إيحاء وغموض، ونحن لا نقصـــد بالرمز هنا ما يختلط عند كثير من المحللين، أو حتى الشعراء، بالعلامة. فالكلمة يمكـــن أن تكـــون علامة على ما تشير إليه، متضمنة إياه عن طريق الإشارة والاقتران المباشـــر، كالسحاب والمطر، أو عن طريق الاتفاق العرفي الاجتماعي، وهذا ما يمكن أن تـــدرج فـــيه اللغـــة كإشارات سيميائية، وإنما نقصد الرمز الذي يمكن أن يسمى الرمز الأســـطوري، وهـــو ميدان الغموض وعنصر هام من عناصر تكوينه؛ لما عليه من قيود تاريخـــية أو فكـــرية أو اجتماعية، الخ، على غير ما عليه الرمز العلاقة الذي يمكن أن يكـــون ابـــتكاريا مطلق الدلالة، لا يقيده إلا السياق الوارد فيه، ويمكن أن يكون تجريديا فكـــريا لا يحـــده إلا ما يربطه به الشاعر، فينصرف الرمز، أو قل، فينصرف الذهن إلى معنيـــين، فـــي ازدواجية دلالية يقوم في إحداها مقام ما يرمز إليه أصالة، وينصرف إلى المعـــنى الدلالـــي الآخـــر انصرافا وظيفيا يغذي الخيال، ويغذيه الخيال، في تبادل ذهني يساهم في إيجاد جمال الشعر أو الفن الشعري، مستمدا قوته واتساع دائرته الدلالية من رســـوخ علاقـــته بما يشير إليه، ومن خبرات المحلل وتجاربه، ليحصل بذلك التعادل بين

موقعـــي الشاعر والمحلل، فيغذي كل منهما تجربة الآخر، بتفاعل لغوي بلاغي، عاطفي فكري.

أمـــا الرمـــز الأســـطوري – ولا نقصـــد الخرافي- فهو انعكاس لالتقاء الأجيال الإنســـانية، وحلقـــات الحضـــارة المتتالية المتباعدة، ينطق بتجارب الإنسان في مختلف عصـــوره، فهـــو نسق لا زماني، وهو زماني في كونه حاضرا أبدا، كتذكير دائم بالقدر الأبـــدي للشـــيء نفسه.... وكأنهم في حضور دائم، نماذج لا زمانية للوجود الإنساني، كـــرموز تقترح التكرار الدائري للشيء نفسه، أو لوضع إنساني متشابه" ومهارة الشاعر هـــي الأس الرئـــيس في إضفاء البعد الحقيقي لاستعمال هذا الرمز، فينقله من المستوى الفـــردي الشخصـــي الذاتي، إلى مستوى إنساني كبير متسع، فيتم به إثراء النص بأفكار ذات عمـــق في التاريخ، واتساع في دائرة الدلالة، ودقة في التعبير، "وليس حلية جمالية تضـــاف إلـــى العمـــل الشعري بقدر ما هي عامل أساسي يساعد الإنسان المعاصر على اكتشـــاف ذاتـــه، وتعمـــيق تجربته، ومنحها بعدا شموليا، وضرورة موضوعية تستطيع النهوض – بما تمتلك من طاقات متجددة- بعبء الهواجس والرؤى والأفكار المعاصرة، وتعكس ثقافة الشاعر وتفاعله مع حضارته وحضارات غيره من الأمم. من أجل ذلك كله كـــان الرمـــز الأســـطوري – إذا أحسن الشاعر استخدامه وتوظيفه- مصدر إثراء هائل للصـــور الفنية في شعره، بل من أهم خيوط نسيج تلك الصورة في بيئة يصنعها الشاعر بمهارة الرسام الواعي، ليضع فيها اللفظة، فتتفاعل مع بيئتها وكأنها قد نهضت من بطن الـــتاريخ لـــتجد نفسها في أجوائها وبيئتها، وليس في بيئة غريبة عنها أو عليها، فتبدو باهتة غريبة، فلا تؤدي أي دور فاعل في نسيج القصيدة.

ولكـــن الـــذي يـــزيد الصـــورة تعقيدا هو استخدام الرمز التاريخي، إذ إنّ بعض الشـــعراء يســـتخدمه استخداما لا يتصل بالأصل التاريخي الذي ينبثق منه اتصالا وثيقا، مما يجعل درجة الغموض في الرسالة عالية جدا. هذا فضلا عن أن بعض الشعراء يبتكر بعض الرموز التي توحي ببعد تاريخي، وقصة ذات إيحاء معين، فإذا ما نَقَّبْتَ في بطون كتـــب التراث الإنساني، لم تعثر لهذا الرمز على وجود، لا لغوي ولا تاريخي، وإنما هو كلمـــة ابتكرها الشاعر ليلقي عليها همومه النفسية ومتاعبه الشخصية، أو ليوهم أنه قد

عـبر برمــز قــد اتضــح القصد منه بسياق استعماله، وهو ما يسمى بالرمز الشخصي المطلق، أو هو كلمة ابتكرها الشاعر ليلقي برمز قد اتضح القصد منه بسياق استعماله، وهو ما يسمى بالرمز الشخصي المغلق[76] ، يظل المعنى فيه بين الشاعر وتجربته.

وهــناك نوع آخر من الرموز التي يستخدمها الشاعر المعاصر فتزيد من خيوط الغمــوض وزوايــاه في القصيدة المعاصرة، وتضاعف مما تعطيه من إيحاءات متعددة، يقــف أمامهــا القــارئ أو المحلل. وهذا النوع إما أن يكون مجموعة من الألفاظ التي يســتخدمها الشاعر بطريقة تركيبية معينة، ثم يضعها في بيئة لغوية أو في سياق نفسي عاطفي، يتلوها بتركيب آخر يضعه في سياق آخر، فتختلط الأضواء الصادرة من الصور المــتلاحقة، وتتشابك الخيوط، بل تتعقد، حتى لو أمسكت بطرف واحد منها بقصد تتبعه للوصــول إلــى مصــدره، فإنك ستجد عنتا شديدا ولا تصل في نهاية الأمر إلى ما تريد، فكــيف يكــون الأمر إذا وجدت بين هذه الرموز رمزا تاريخيا، ذا بعد دلالي معروف، قد اســتخدمه الشــاعر ليوحي بنقيض ما هو له أصلا، أو ما هو متعارف عليه. فهنا تتسع الدوائــر الدلالــية وتتشــابك، وتتعدد وجهات النظر في التحليل وتتعارض،وقد يفقد جل المحللين خيط الوصل بالنسيج الأصل، أو قل يفلت الخيط منه، فيتوهم أنه ما يزال يمسك به، فيرى ما يرى متوهما أنه قد أدرك بعدا من أبعاد ما في النص من تجارب داخلية في ذات الشــاعر، يتحسسها السامع من غير أن يجد إليها طريقا بأثر من العالم الخارجي أو الواقــع المشــترك فــي هــذا العالم الذي يعيش فيه الاثنان. فالتجربة في الشعر متعددة الاتجاهــات، والمشارب، والروافد، في عصر تعددت فيه المواقف التي يعيش فيها الناس فــي هذا العصر، ومنهم الشاعر، فتنعكس في شعره مطالبة بمواقف اجتماعية أو حلول لقضايا سياسية أو اقتصادية أو فكرية، ولكنها في كثير من الأحيان تكون عرضة للرد أو الصــد أو الكبــت، إن لــم يكن القمع، فتنعطف إلى ذات الشاعر، يبحث لها في ذاته عن حلــول، وكلــه خيــبة أمل في مجتمع مهتز في قيمه وتقاليده، فتراه يكبت، إما بعاطفة وتجــربة حزيــنة مــتألمة. يــنظر مــن خلال هذه التجربة إلى واقع قد مزقته الويلات الاجتماعــية أو السياســية أو الاقتصــادية المنعكسة في نفسيته الحزينة التائهة، وكأن عينــيه تنظران إلى واقع ترى عيونه: كلها أو جلها ولكنها لا تملك له تغييرا في الواقع

المحسوس، فتنكفئ على ذاتها لتعيش أحزانها في ذاتها. لا تعرف أحيانا ما الذي تريده، أو كما تقول سوزان برنارد[77]: "إنّ مؤلف الشعر النثري يبتغي كمالاً سكونيا، وحالة من النظام والتوازن، أو هو يريد فسادا فوضويا لنظام الكون الذي يستطيع أن يخرج منه كونا آخر، وأن يعيد منه خلق العالم" وبذا يصبح دور الرمز الأسطوري في القصيدة دور فوضوي، وعدم اتساق، فيلحق الضرر بالشعر ولا يثريه، في حين يفترض أن يكون دوره دور المنظم لمحاولات الشاعر المثري لصوره الفنية، المرتب الضابط لتتابع حلقات التاريخ في صور شعره. نذكر أننا قد استمعنا ذات مرة إلى أحد الشعراء في حديث شخصي خاص، وهو من أصحاب الدواوين الحزينة، واستمر الحديث ما يزيد على ساعتين، ولم نفهم مما قاله شاعرنا شيئا مما يريد أن يبينه لنا، ثم التقينا به مرات ومرات، ويستمر الحديث في كل مرة زمنا ليس بالقصير، ونزداد في كل مرة بعدا عما في نفس الشاعر من بواعث الحزن المر والتجربة الذاتية الداخلية التي ضيق صاحبنا دائرتها حتى غدت في ذاته ولذته، يستمتع بها، وينفث عاطفته فيها، فيرى مشاكله تحل أو يتوهم، فيرتاح أو يتوهم، رغم ما قد تراه في بعض أشعاره من قلق ويأس وكآبة حتى إنك لتراه يرثي نفسه في كثير من أشعاره، حتى تلك التي قالها في مناسبة يفرح فيها بمولود جديد له. أو تراه وقد انقلب فانقلبت عنده الموازين والقيم المهتزة، حتى توهم أنها قد أصبحت عنده ثابتة في قيمه التي أخذ يجسدها في نفسه فيرى فيها حلا لما كان يبحث عنه، حتى إن كانت هذه لذة جنس، أو لحظة متعة، أو تبني ايدولوجية (ثورية أو تقليدية كما يقولون)، إنه يمد خيوطا، أو حتى حبالا، بينه وبين المجتمع يدعو لها فيكون فيها أنصار وأتباع.

ومنهم من ترى في شعره تجربة وعاطفة؛ تجربة إنسانية بعاطفة إنسانية، تراه فيها يهتز لموقف لا تملك إلا أن تهتز معه لذلك الموقف، سواء أكانت هذه تجربة ذاتية داخلية وجد الشاعر طريقة لإبرازها خارج نفسه، أو أنها تجربة اجتماعية أو فكرية أو، الخ. ألبس عاطفته نحوها ثوبا لغويا بصور وخيالات داعبت ما في النفس الإنسانية من العناصر المشتركة من العواطف والانفعالات. العواطف التي تعد ركنا رئيسا في القصيدة، تهدف الصور في القصيدة وإثارتها، يقول مكليش: "لا تهدف الصور في القصائد إلى أن

تكون جميلة، ذلك لأن عملها هو أن تكون صوراً في قصائد، وأن تؤدي ما تؤديه الصور في القصائد، ومهمة الصور في القصائد هي أن تثير العاطفة، وهي أكثر ما تثير العاطفة بالعلاقة القائمة فيما بينها في القصيدة الواحدة.... ومعنى الفن الجوهري هو تلك العلاقة"[78].

ومن الواضح أننا لا نقصد هنا تعدد الاستجابة فيما يسمى "التمثل[79]" المرتبط بالرمز اللغوي في النص الشعري عند مختلف القراء أو المتذوقين ما بصرف النظر عن قيمة الصدق أو الكذب، فتلك قضية أخرى. ويجب هنا التفريق بين الرمز والمعنى ذاته، المعنى الذي يعود إلى مرجع بعينه، حتى إن كان المرجع هذا تضمينا جاء في كلام نطق به أحدهم، فأخذ بعداً دلاليا أخذ يسد فيه مسد المرجع الذي انبثق عنه ليصبح هو في حد ذاته مرجعا، فالتمثل للرمز، وحتى للنص اللغوي ذاته أمر طبيعي أن يختلف من فرد إلى فرد، بل حتى في الفرد الواحد. فقد تجد التمثل مختلفا بحسب عوامل داخلية أو خارجية، وأحيانا داخلية وخارجية، في الفرد ذاته أو في البيئة المحيطة به" وقد يعترض علينا بالقول بأنه لما كان كل واحد يستطيع أن يربط بلفظ واحد ما شاء من التمثلات، كان بإمكانه أيضا أن يسند ما شاء من المعاني إلى ذلك اللفظ، وأن يحمله عليه كيف شاء، إلا أن الفارق، بالرغم من ذلك، يظل موجودا بين التمثل والمعنى حتى لو لم يمنع من أن يدرك أفراد عديدون نفس المعنى، غير أنّه لن يكون لهم جميعا نفس التصور والتمثل. وعندما يتمثل شخصان أمرا واحدا، يكون كل واحد منهما حاصلا على تمثله الخاص به، ومن الممكن أحيانا أن نكشف عن الفروق بين التمثلات، أو بين إحساسات أفراد عديدين، غير أنه يتعذر إجراء مقارنة دقيقة بينها، ذلك أنه من المحال أن نجمع في ذهن واحد مثل هذه التمثلات[80]".

وهذا لا يوجد اضطرابا في فهم النص، بل يساعد في إثراء النص بتعدد وجوه تحليله، وبتعدد تمثله عند الأفراد، أو حتى عند الفرد الواحد، وإنما نقصد تعدد المعنى للمرجع الواحد، سواء كان المرجع تاريخيا أو مثلا شعبيا، أو تضمينا من موضوع سابق، أو رمزا اجتماعيا، الخ، فتعدد المعنى هنا يساهم مساهمة واضحة في درجات الغموض التي تعتري النص الشعري في معناه، وليس في تمثله. وتلك قضية هامة يجب

إدراكها، ويجب – أيضا– إدراك أن أي خطأ في استعمال الرمز (الدال) المرتبط بالمرجع (التاريخـــي أو الاجتماعـــي..الخ) هو خطأ لا يجعل منه رمزا يوحي بتمثل جديد، وعلى القـــارئ أن يدركه؛ لأن هذا أمر يعود إلى الخطأ في المعلومات أو في توظيفها،'... فإن جهـــل أحـــد الناس بأن نجم المساء هو عينه نجم الصباح (نجم الجوزاء) أمكن أن يحكم بـــأن إحدى صورتي الاعتقاد مرجعا للقضية، وبالأولى وجب أن يكون معناها. وحينئذ ما مصـــير المرجع؟' إلا إذا تم الانزياح في الاستعمال الاجتماعي عن المعنى الأصل المرتبط بمـــرجع الرمـــز إلى معنى جديد، واستوعبه المجتمع، وأخذ يستعمل المعنى الجديد، فإن ذلك يعني قضية أخرى، يصبح فيها الانزياح هو المرجع الذي يرتبط به المعنى، ويصبح مـــرد الغموض حينئذ إلى تعدد معاني المرجع، وهو أمر قليل الحدوث. ولعل هذا العسر في استعمال الرمز الأسطوري هو الذي جعل الشعراء ينصرفون عنه إلى غيره.

ولعـــلّ الجـــيل الجديـــد ســـيؤكد لنا يوماً بعد الآخر، غياب قضية اسمها الرمز الشـــعري، لـــتحل بدلهـــا تماما الصورة الشعرية التي عمادها المجاز والاستعارة، وذلك لسبب بسيط هو أن الشاعر بدأ يؤمن أن القصيدة تخلق رمزها الخاص بها. والذي ليس ضـــروريا أن يكون واضح الدلالة، كما أنه يتغير باستمرار؛ لأن الحياة متغيرة، والواقع يتغـــير، ولا شيء مستقر أبدا، أو هو جامد، بل إن الدلالة الرمزية لأية لفظة تأتي لتخدم غرضا مؤقتا، ومضة من ومضات الإشراق، وستكون متغيرة، وعلى القارئ أو الناقد أن يكون حذرا وواعيا لتغيرات الدلالة الرمزية للمفردة"[81].

أما الموسيقى فعند الحديث عنها نتحدث عن عدد من النقاط التي يمكن أن تدرج تحتها، موسيقى الصوت في الكلمة، وموسيقى الكلمة في التركيب الجملي، وملاءمة هذه الموســـيقى للانفعال الذي يصاحبها فتهيئ بذلك إيحاء انفعاليا بجانب تعبيرها عن تجربة وانفعال، ونسمي هذا النوع من الموسيقى بالموسيقى الداخلية، أو موسيقى المعنى.

وأمـــا الموســـيقى الخارجية أو موسيقى الشكل، فتضم موسيقى الوزن والقافية، والوصـــل المقطعي والفصل، فيتم بها رسم المعالم الرئيسة للقصيدة، وتكمل بها الصورة الموســـيقية الداخلية، وبخاصة في القصيدة العربية الحديثة، التي تتناوب فيها التفعيلات

وتتعدد القوافي، من غير اهتمام بما كانت عليه في القصيدة العربية[82] القديمة من التزام دقيق بالبحر وتفعيلاته، والقافية وقيودها.

فعلـى الـرغم مـن أن الوزن والقافية في القصيدة مظهران من أبرز مظاهرها الشكلية، إلا أنهما يؤديان دورا دلاليا، أو نفسيا واضحا، فهما كما يقول كولردج[83]: 'أمر ينزع إلى زيادة الحيوية والحساسية في المشاعر العامة وفي الانتباه، ويحدث الوزن هذا الأثـر عن طريق إثارة الدهشة من وقت لآخر، وعن طريق إشباع رغبة الاستطلاع تارة وإثارتهـا تـارة أخـرى'. وعلى الرغم من أنّ الوزن والقافية لا يشدان الانتباه إلا في اللحظـة الأولـى لـبداية الاطـلاع على النص، إلا أنهما يؤثران في البعد العاطفي أو الانفعالـي الذي كانا قد اصطبغا به، ويحاولان الإيحاء به. ويبقيان كامنين في ذهنه من غـير أن يُعمل العقل فيهما، أو من غير أن يفكر فيهما تفكيرا واعيا، بل يبقى إيحاؤهما فـي الـنفس، وهنا يكمن جانب من جوانب عظمة الشاعر؛ أي في قدرته على التوجيه بـالعمل إلـى بصـيرة المتلقي وخياله، وليس إلى عينه أو إلى أذنه كما يقول ديدرو[84]، وبالإيحـاء تستطيع أن تعالج ما تريد من العواطف والانفعالات والأحاسيس، معالجة غير مباشرة كما يرى روسو[85].

يؤدي الوزن والقافية والإيقاع في القصيدة دورا ترتبط بموجبه الكلمة بالكلمات، لتعـبر عـن داخل النفس الإنسانية وما فيها. ويرى هازلت[86] "أن الشعر موسيقى اللغة، وإن ثمة علاقة وثيقة بين الموسيقى والجذر العميق للشعر" فالشعر موسيقى علاوة على أنـه رسـم، فهو رسم بما فيه من خيالات قائمة على الاستعارات والكنايات والمجازات، وهـو موسـيقى بمادتـه اللفظية من ارتفاع وانخفاض والمحافظة على إيقاعات محددة ثابـتة، محملة بالمعنى الذي حملها الشاعر في استعماله، وهذه سمة موجودة في الشعر ولا توجد في غيره'. يقول رومان ياكبسون[87]: 'إن وزن المتواليات عبارة عن وسيلة لا نجـد تطبـيقا لهـا في اللغة خارج الوظيفة الشعرية، وقد أعطيت في الشعر ليس غير تجـربة قابلة للمقارنة مع تكرار الزمن الموسيقي، اعتمادا على نمق سيميوطيقي آخر، وذلك بواسطة التكرار المطرد للوحدات المتماثلة لزمن المسلسلة الكلامية'.

فأصــبحت القصــيدة تهتم إلى جانب الشكل الموسيقي التقليدي، بأن تتكون من وحــدات نغمــية، وأحــيانا من واحدة تكون دورة الفعالية، تبدأ ولا تنتهي بانتهاء البيت الشــعري، وإنما تستمر حتى تحقق الاكتمال في نهاية هذه الوحدة"[88] وهذا بارز بين في القصيدة الحديثة.

وقــد كانــت القافية بالذات في القصيدة العربية القديمة بخاصة، أهم معلم وأبرز خصائص القصيدة، مع أن بعض الباحثين كان يرى فيها عنصرا مساعدا للوزن[89]، يوكل إلــيها تحديد نهاية البيت. ولكن هذا القول يسلمنا إلى الحديث الطويل عند بعض العلماء حــول مــا إن كانــت القافية التي تملي نهاية البيت، أو أن نهاية البيت هي التي تفرض القافــية. وإلى قضية أخرى بارزة في الشعر الحديث بخاصة، وهي الوقفة التي هي في الأصــل حبس ضروري للصوت حتى يسترجع المتكلم النفس، ولكنها أصبحت في الشعر الحديــث ظاهــرة محملة بالدلالة اللغوية، مع أنها في الأصل ظاهرة فيزيولوجية خارجة عــن الــنص، فــأخذ المــتكلم يجــد من الطبيعي أن يوقع الوقفة الصوتية على الوقفة المعــنوية، فــتأخذ الوقفــة في هذه الحالة معنى محددا، "فهي تسجيل الاستقلال الدلالي للوحدات التي تفصل بينها"[90].

ونقول: هناك وقفة دلالية وأخرى عروضية إيقاعية، فالدلالة تحدد إطار الجملة، وترســم حــدود مكوناتهــا، والعروضية الإيقاعية تحدد نهاية البيت أو نهاية الشطر أو نهايــة التفعــيلة، والوقفة السليمة هي التي تحقق الانسجام العروضي التركيبي من غير اصــطدام بينهما، أما إذا حصل بين العروض والتركيب، فيرى كرامون[91] أن الفوز يجب أن يكون دائما للعروض، ويجب على الجملة أن تخضع لمقتضياته.

ويــبدو أن مــن المفيد عند تحليل الخطاب الشعري النظر إلى الباب الصرفي أو الاشــتقاق الصــرفي الــذي تعود إليه كلمات القافية، أو يتم التبادل بينهما، كالاسمية أو الفعلــية، الماضية أو المضارعة، أو الطلبية، وما يرتبط بها من أدوات تنقلها إلى معنى أو دلالــة جديدة، كالتوكيد أو الاستقبال أو النفي، الخ. وإن كانت اسمية فينظر إلى نوع التبادل بينها في اشتقاقاتها: أسماء فاعلين أو مفعولين أو مصادر، الخ، أو ألفاظ متماثلة إلا فــي مقطــع منها، فينقلها إلى معنى جديد (المميز الصوتي) والجناس والطباق التام

والــناقص، كــل ذلك يحمل قيمة دلالية ووظيفية تعبيرية، بالإضافة إلى الوظيفة الشكلية والموسيقية.

ومــن المفيد أيضا الوقوف مع موسيقى الحروف المكونة لألفاظ القافية والتبادل بيــنها، من حيث المجهور والمهموس، والانفجاري، والمرقق، والمفخــــم، الخ؛ لرصد الشــحنة الانفعالــية التــي اصــطبغت بها الكلمات، بأثر من هذه الحروف، في سياقها التركيبــي، وموسيقاها العروضية. يقول شوبنهور عن القافية: يشترط أن تتوثق العلاقة بيــن الفكرة والقافية، وإن تربطنا باطنيا، أما إذا بحثنا عن الأفكار من أجل القوافي، فإنه ينشأ عن ذلك شعر أجوف الرنين. وإذا بحثنا بعناء ومشقة عن القوافي من أجل الأفكار، فإنــه ينشأ عن ذلك شعر متكلف مغتصب، لا تطرب له الأذن. أما إذا تتابعت الأفكار في تسلسل طبيعي مسترسل على إيقاع الكلمات وتناغم القوافي فإنه يكون للغة الشعر تأثير الســحر، ومجيء القوافي بلا تكلف، يكفل السلامة التامة، والتوازن الباطني في الأفكار، وهــذا مــن شــأنه أن يعطي القصيدة قدرة فائقة على التأثير في الخيال[92]. هذا مع أن القافــية ذاتهــا لم يعد لها أثر كبير في الشعر الحر منذ 1949م تقريبا، عندما أخذت به نازك الملائكة[93] ومن جاء بعدها كيوسف الخال[94] ونزار قباني[95] وغيرهما.

فتعالت الأصوات للتخلص منها، وضرورة القضاء عليها. فهذا نزار قباني ينادي بعــبارات حــادة انفعالية للقضاء على القافية التي هي[96] "برغم كل سحرها وإثارتها في نهايــة يقف عندها خيال الشاعر لاهثا، إنها اللافتة الحمراء التي تصرخ بالشاعر (قف) حيــن يكــون فــي ذروة اندفاعــه وانســيابه، فتقطع أنفاسه وتسكب الثلج على وقوده المشتعل، وتضطره إلى بدء الشوط من جديد. والبدء من جديد معناه الدخول بعد الصدمة فــي مــرحلة الــيقظة، أي مرحلة النثر. وبتكرار الصدمات تصبح أبيات القصيدة عوالم ذاتــية، وطوابق مستقلة في بناية شاهقة". وهذا رأي ربما جانبه الصواب –فيما نرى– فهو يرفض القافية مع أنه يرى أن لها سحرا وفيها إثارة، وربما كان قول يوسف الخال أقرب إلى الواقع اللغوي في بناء القصيدة، يقول: "القافية جزء من الإيقاع، وإن الشاعر الحديــث فــي اســتعماله لها إنما يستعملها بملء حريته، فإذا كان صادقا موهوبا جاء استعماله لها حسنا".

فالقافـية موجـودة في الشعر الحديث، مع أنّها تغيرت في شكلها والالتزام بها، وبحروف الروي فيها بخاصة. "على أن هذا لا يعني أن الشاعر الحديث قد تخلص نهائيا من القافية، فالقافية ما تزال قائمة في هذا الشعر، ولكن بمفهوم آخر غير المفهوم الذي عرفـت بـه في إطار الموسيقى التقليدية. لقد استخدم الشاعر الحديث نوعا من التقفية لتنسـيق موسـيقى جاءت في نهاية الشطر الشعري، وفي نهاية الوقفة النفسية الكاملة وأجـزائها في القصائد التي تعتمد على الدورات النغمية والموجات الشعرية، ولهذا كان لـزاما على القافية بعد أن أصبحت أنسب صوت يمكن أن تنتهي عندها الوقفة الانفعالية، والانتقال منها إلى دفعة جديدة، أن تتخلص من مشكلة حروف الروي الذي تحول بدوره إلى أن يكون صوتا متنقلا متغيرا أو متفقا، لكنه لا يخضع لتنظيم خارجي مفروض"[97].

أمـا الـوزن والتفعـيلات والـبحور في الشعر العربي القديم، وفي الشعر الحر الحديـث، فلا نرى أن المقام هنا مقام الحديث عن الانتقال من بحور الخليل بن أحمد إلى وزن التفعـيلة الواحـدة، أو حـتى إلـى نسيج يخلو من كل وزن عروضي معتمدا على الإيقــاع التنغيمــي ليس غير، فليس هذا من مجالات هذا البحث، فضلا عن أن البحوث والكتب في هذا كثيرة، يمكن الرجوع إليها.

"..ولكـن هـل تسـتطيع الأفكار أيا كان نوعها أن توجد بمعزل عن المدلولات (يقصد الدوال)، أو هل يمكن للأصوات أن توجد مستقلة عما تحمله من معنى مهما كان لونه؟ في الواقع أن الأوجه المختلفة لمعنى الكلمة حلقات متداخلة ومتشابكة، وليس من السهولة فصمها بعضها عن بعض"[98]. والشعر ميدان ليس بالعادي لتداخل حلقات المعنى وتشابكها لتحقيق بث تجربة داخلية، يجري التعبير عنها باتحاد غير عادي بين مستويين مـن مستويات اللغة: المستوى الصوتي والمستوى الدلالي[99]. ومع أنّ الخطوة كما يقول جـان كوهـن تكـون- "لا ريب- للمستوى الدلالي[100]"، إلا أن المستوى الصوتي جزء أسـاس لتحقيق النظم في الشعر، فالنظم لا يوجد إلا كعلاقة بين الصوت والمعنى[101]، ولا نقصـد هـنا بالصـوت القالب الصوتي اللغوي التعبيري، ولا ما يتعلق بالوزن والقافية، فالحديـث عـنهما قـد سـبق، ولكن نقصد ما ذكرنا سابق بأنه الموسيقى الداخلية، أو موسـيقى المعنى، حيث تأتي كلمات الشاعر في إطار موسيقي، تتحد أصوات الكلمة فيه

فـي إطار يتسق ويتناغم مع اتحاد الكلمة ذاتها مع غيرها، في إطار جملي يرتبط بالحالة النفسية التي تحفز الشاعر لبث تجربته، متصلة بأحاسيسه الداخلة وانفعالاته، مهيأة جوا مـن الموسـيقى التعبـيرية المصاحبة لهذه الانفعالات، فتؤدي دورها في الإيحاء بإثارة جوانـب انفعالـية مماثلـة أو غـير مماثلة في من يسمع أو يقرأ هذه التجربة، فتكون الاسـتجابة بمقـدار مساحة التطابق بين صاحب التجربة ومن نقلت إليه التجربة[102] في تفـاعل تـام بيـن الخصـائص الصـوتية للألفاظ بحروفها وحسن اختيار هذه الألفاظ، وتشكيلها التنغيمي في تراكيبها وحسن استخدام الأبواب النحوية فيها، والشحنة النفسية الانفعالـية التـي توحـي بهـا الكلمات في التجربة، فيحدث تفريغ الشحنة من الشاعر، وانتشـارها فـي السـامع أو القـارئ. يقول رجاء عيد[103] في تعريف الشعر: "محاولة للـتخلص مـن الانفعـال، وذلـك بواسطة الخلق التصويري الذي يكون معادلا لانفعال الشـاعر، هـذا الانفعال هو الذي يحث الخيال على إعادة تحليل وتركيب البناء اللغوي، وذلـك ببـث حـيوية مخصبة في أعراق تلك العلاقات التي يزيل الشاعر عنها رتابتها، ويـنقض نمطيـتها، بعد أن فقدت اللغة مجازها اللصيق بها في نشأتها الأولى". فتكون اللفظـة في دائرة يحس فيها القارئ أنها قد فقدت علاقتها بدائرتها الدلالية الأصل، لتثير فـي النفس أبعادا دلالية متعددة الوجوه والاحتمالات: "العمل الفني الجيد خلاق لمعانيه. والشـعر... جمـال ذو وجـوه، ونعنـي بذلك أن القصيدة الجيدة إذا رزقت قارئا جيدا، تستطيع أن تفجر أمامه قنوات وجدانية ومشاعر ثرية من أحاسيس مختلفة"[104].

وسـنرى عند التطبيق في القسم الثاني من هذه الدراسة[105] أن الألفاظ التي أخذ يسـتعملها الشعراء المحدثون ألفاظ قريبة التناول في الاشتقاق، كثيرة الاستعمال، شائعة فـي العصـر الحاضر، بعيدة عن الوعورة، متعددة احتمالات التوجيه الرمزي، بالإضافة إلى عدد من الألفاظ التي دخلت العربية عن طريق ثقافة الشاعر من لغات أجنبية، بجانب التراكيـب المسـتعارة مـن حضارات مختلفة، ليست هي حضارة الشاعر العربي، ذلك بالإضـافة إلى عدد كبير من الكلمات التي تعبر عن معاني القلق الشديد، وتعكس الانفعال الحاد الصاخب صخب حياة هذا العصر، والقلق الشديد الذي يعيشه الإنسان أمام التيارات التي أخذت تتصارع في ساحته، فتمزق عاداته وتقاليده، فكثرت في شعره كلمات التمزق

والضياع، والسدى والخواء والعبث والموت، والسفر والفرار، والهروب والفشل، والرقض والتحدي، والهجر والوصال، والثلج الأسود، وضوء الليل الحالك.[106]

ولعل من نافلة القول أن نذكر هنا أن هذا البحث ليس معنيا بتتبع التطور الذي طرأ على لغة القصيدة في الشعر الحديث، ولا الدعوات أو المناهج الفكرية التي صدرت عنها كما جاء في بيان يوسف الخال في مجلة (شعر) اللبنانية سنة 1957م أو كما جاء في دراسات نازك الملائكة في عدد من بحوثها التي جمعت في كتابها (قضايا الشعر المعاصر) التي رد عليها يوسف الخال متهما إياها بالارتداد وخيانة حركة تجديد الشعر،ولا ما جاء في دعوات عبد العزيز فهمي لتجديد اللغة، أو ما جاء أو يجيء في كتابات سعيد عقل، ومنشورات دار نشره التي أسسها لخدمة هذا الاتجاه وأسماها (يارا)، والكتابة العربية باللاتينية، ولا ما حاول أدونيس[107] أن يظهر فيه مظهر المتعقل المتزن في دعوته لهدم العربية، وإدخال ما يسمى باللغة الدارجة، التي هي تعبير اجتماعي لحقبة معينة، تتحول وتتطور بل تموت ويحيا غيرها، فهذه دعوات ودراسات يمكن أن تكون بالإضافة إلى ما صدر فيها- موضوعا لعدد من الدراسات والبحوث.

قلنا، تؤدي الكلمات في انتظامها بطريقة معينة وتشابكها غير العادي في علاقات نحوية بلاغية، تؤدي معنى معينا، يقول مكليش: "فالشاعر يتوجه نحو "أشياء" العالم ليكون أفكارا عنها، بل ليكتشفها فيكتشف نفسه وهو ينظر إليها، وهو يتوسل إلى ذلك بالكلمات التي هي "أصوات تعد رموزا للمعاني، وهي أيضا رموز للمعاني تعد أصواتا، ولا يمكن استعمالها بإحدى الصفتين دون استعمالها بالصفة الأخرى، أي لا يمكن استعمال الكلمات كصوت أو كجرس من دون المعنى، كما لا يمكن الإبقاء على هذا المعنى بالضبط بتغيير الصوت أو الجرس".[108]

ويقول أيضا فغير صحيح تمام الصحة قول (مالارميه) وأتباعه، بأن معنى القصيدة يثيره بناء الكلمات كأصوات أكثر مما يثيره بناء الكلمات كمعان. وغير صحيح أيضا قول الأكاديميين بعكس ذلك، أي بأن معنى القصيدة يثيره بناء الكلمات كمعان أكثر مما يثيره بناء الكلمات كأصوات، لكن الصحيح في نظر مكليش هو أن معنى القصيدة

تثـــيره فـــي جملة ما تثيره العلاقة بين التصرف بالكلمات كأصوات، والتصرف بالكلمات كمعان لا انتزاع لها منها".[109]

"... فالشـــاعر ينـــتزع الكلمات من محدودية معانيها القاموسية ويغامر بها في بقـــاع جديـــدة، حـــتى ردت لها المغامرة بعض بقلتها، وبدايتها، وسحرها... فهو يثري الكلمـــة بهـــذه الإضافات الجديدة. ويعقد علاقة وثيقة بين جرسها ومعناها، سواء كانت هـــذه العلاقة تجاوبا أو تنافرا، مرافقة، أم مفارقة؛ لأنه يشد الانتباه من جديد إلى الكلمة كصوت بدلا من الكلمة كمعنى فحسب"[110]. فالكلمات مستودع عجيب، تتفاعل فيه المعاني بـــالعواطف، وتحفـــز الخـــيال لتثير في النفس ترجمة لما في النفس. يقول ماكليش[111]: "فالكلمـــات (فـــي تجربة الشاعر) تصبح مشحونة بالمعنى داخل القصيدة، ولكنها ليست مشـــحونة بالمعنى خارج القصيدة، أو بالأحرى: إنها مشحونة في القصيدة بنوع خاص مـــن المعنى: معنى يشق طريقه مباشرة إلى ما نسميه القلب، ونعني بهذا عضو المعرفة الـــذي أخـــذ المعاني حية كاملة، لا مقضومة مقسمة إلى تجريدات ممضوغة". "فالوسيلة التـــي يســـتخدمها الشـــاعر، نغمات صوتية والإيقاع الشعري يؤثر في نزعاتنا ويجعلها تصـــطفي الأفكـــار المعنية التي نحتاج إليها من بين ذلك العدد المائج المبهم من المعاني الممكنة.

والأفكـــار هي التي يذهب إليها المعنى[112] "فالكلمات نفسها مبنية بناء مزدوجا، إنهـــا أصـــوات تعتبر رموزا للمعاني، وهي أيضا رموز للمعاني تعتبر أصواتا، وأنت لا تســـتطيع أن تستعملها بإحدى الصفتين دون أن تستعملها بالصفة الثانية[113] فتقع الكلمة فـــي وســـط أو في مناخ تكتسب فيه قدرة متميزة على التشكل والتشعب، لتكوين نسيج يـــنظر إلـــيه من يعرفها في ثوبها المعجمي، فيرى أنها اكتسبت ثوبا يجعله يفقد طريقه إلـــيها، إن لـــم تتعدد زوايا الرؤية عنده، فالكلمات رموز يستخدمها الشاعر إحساسا منه بطاقاتهـــا وقدراتهـــا على العطاء في هذا الوضع أو ذاك، من غير اختيار متعمد لها[114]. ولعـــل الأساس الوحيد في وعيه لتأكده من أنه أتى بالألفاظ المناسبة هو مجرد إحساسه بصلاحيتها، وحتمية ورودها على هذا النحو، دون غيره. ولنفرض في أسوأ الأحوال أن الشـــاعر جعل همه هذه الألفاظ، يجمعها وينثرها كحبات اللؤلؤ، فهل من الممكن ألا يؤثر

المصـقول اللفظي وارتباطات الكلمات في إطاريها الموسيقيين، الوزن والإيقاع في معنى العمل؟ نجيب بالنفي، ونحن مدركون تمام الإدراك أن التنمية الموسيقية المعقدة يصحبها نقـص فـي المعـنى، وربما جعلته يسترخي ويتفكك، أن المعنى الذي ننسبه إلى الألفاظ لـيس واحدا، فهناك على الأقل معنيان: المعنى المباشر من الألفاظ، والمعنى الموحي به عـن طريق ارتباطاتها والعلاقات بينها" وهنا نُذكّر بالسؤال الهام الذي تقوم عليه نظرية سـتانلي فـيش، علمـا مـن أبرز أعلام التفكيكية، "لا تسأل ماذا تعني هذه الجملة (في الـنص)، بل تسأل ماذا تفعل هذه الجملة (في المتلقي؟) وعلى ذلك يقترح أن تكون غاية النقد" تحليل الاستجابات المتطورة من استجابات القارئ إزاء الكلمات التي يعقب بعضها بعضا".[115]

قلـنا سـابقا إن عمـل المحلل اللغوي للنص الشعري يجب أن تتحد في البلاغة بالـنحو اتحادا وظيفيا، تتشابك في البحث أهمية الحدود؛ بلاغية ونحوية، كتشابكها غير الواعـي فـي نفس الشاعر أو في ذهنه أثناء تجربته الشعرية، يجب أن تتحد فيه اتحادا يعمـل بـالقوة الكامـنة للمعـرفة العمـيقة الدقيقة بأجزاء هذه الحقول، ولكن من غير تشـريحها تشـريحا ينصب فيه المحلل على موطن اهتمامه (نحوي أو بلاغي)، وإهمال الجوانب الأخر، فالنظم لا يتحقق إلا بهما، وكذا الوصول إلى عمق تجربة الناظم لا تكون إلا بهمـا، خلافـا لما كانت عليه الدراساتُ اللغوية التي كانت تسير في عدة مسارب، لا يجمع شتاتها عقد أو حتى خيط، فقد كانت الدراسات الأدبية بخاصة تعتمد في فهم معنى القصـيدة وفي تحليلها على وحدة الكلمة ذات الإشارة الدلالية لموضوع أو مدلول معين، وتسـتخدم بعـض فـنون البلاغة كحلية أو زينة، مساهمتها لا تزيد كثيرا على توضيح العلاقـة أو الفكـرة القائمـة بيـن ركني التشبيه ووجه الشبه، أو ما هو محذوف من الاسـتعارة، أو الـبعد القريب للكناية أو المجاز، فقد كانت المدارس تعلم طلابها طريقة التحلـيل بوضع نقاط معينة، يعمد إليها المعلم والطالب، بعد أن يكون قد شرح القصيدة، أو قـل: شرح القصيدة ليقول: البلاغة: التشبيه هنا هو، والاستعارة هناك تصريحية أو مكنـية؛ لأنهـا كـذا وعلاقتها كذا. الخيال: مجنح، محلـق، بعيـد أو قريب. والعاطفة: جياشة، قوية، ضعيفة، حزينة، أو...

ظـل هـذا المـنهج يعمـل به بقوة، على الرغم من تفاعل ثقافة الناقد العربي بمعطيات كثيرة من المناهج الحديثة، وبخاصة المنهج الرومانسي، الذي أخذ يربط الكلمة ومـا تفـيده، والصورة وما تعطيه، بالذهن وطاقاته الفعالة النشيطة القادرة على تكوين الصـلة بيـن الكلمـة فـي ظاهـرها، أو معناها المعجمي وطاقاتها الكامنة الخلاقة في اسـتعمالها في التجربة الشعرية. فقوي بذلك البحث في جانب الصورة "بحيث تمكننا من أن نـزعم بأن معلما هاما من معالم الاتجاه الرومانسي، يكمن أصلا في التغيير الجذري الذي وضعه -نظريا على الأقل- للصورة، وإن أي حديث عن نظريته الشعرية لا يتضمن الإشـارة الكافية إلى هذا التغيير يعد حديثا ناقصا، بل عديم الفائدة"[416]. وربما كان النص التالـي ممـا قالـه العقـاد يعطي صورة جيدة عما يريده أصحاب هذه المدرسة: "ولكن التشـبيه أن تطبع في وجدان سامعك، وفكرة سامعك وفكره، صورة واضحة مما انطبع فـي ذات نفسـك، ومـا ابتدع التشبيه لرسم الأشكال والألوان، فإن الناس جميعا يرون الأشـكال والألـوان محسوسة بذاتها كما تراها، وإنما ابتدع لنقل الشعور بهذه الأشكال والألـوان مـن نفس إلى نفس، وبقوة الشعور وتيقظه وعمقه واتساع مداه، ونفاذه إلى صميم الأشياء يمتاز الشاعر على سواه، ولهذا لا لغيره كان كلامه مطربا مؤثرا، وكانت الـنفوس تواقـة إلى سماعه واستيعابه؛ لأنه يزيد الحياة، كما تزيد المرآة النور نورا، فالمـرآة تعكـس على البصر ما يضيء عليها من الشعاع، فتضاعف سطوعه، والشعر يعكـس علـى الوجـدان ما يصفه فيزيد الموصوف وجودا إن صح هذا التعبير، ويزيد الوجدان إحساسا بوجوده". فأصبح التنافس في الصورة البلاغية على أشده، بل أصبحت التشابيه والاستعارات وغيرها وسيلة هامة لشرح العاطفة، أو توضيح الحالة، فأصبحت -فـي حقـيقة أمرها- غاية في ذاتها، فكلما كانت التشبيهات والاستعارات في القصيدة أكثر، كانت القصيدة أجمل وأروع وأعظم.

فالـبلاغة هي القدرة على التعبير الصادق؛ أي إنها الإحساس نفسه، ثم أصبحت عـند أصـحاب المذهـب الحديث في النقد الأدبي، القدرة على الخلق والإبداع في إمكان بلوغ أقصى درجات القدرة على ترجمة إحساس الشاعر وخبرته بطريقة فنية خلاقة في تجربـته الشـعرية، فيتمكـن بذلك من "خلق كيان جديد متفرد يجسّم الإحساس ويعادله

معادلة كاملة دون زيادة ولا نقصان، أو نقول إنها (البلاغة) الشكل، شريطة أن تبعد عن أذهانـنا المفهومـات الخطيرة التي أحاطت هذا المصطلح بدلالته التقليدية، ونحصره في تحقـيق الحتمية الفنية، حيث يمهد كل جزء من العمل الفني للجزء الذي يليه، ويثير في نفـس المتلقي رغبات طبيعية ثم يعمل على إرضائها"[117]. ولعل من المفيد أن نورد رأي جنيت من البنيويين: "البلاغة تبدأ عند النقطة التي أستطيع فيها أن أقارن هذه الكلمة أو تلـك الجملـة بكلمـة أخـرى، أو جملة أخرى، استخدمت في مكانها أو لم تستخدم في مكانها"[118] ويقول[119]: "ليس الشكل أكثر من إحساس بالتشكل، ووجوده يقوم بشكل عام علـى الوعـي الذي يطوره القارئ، أو يفشل في تطويره، ليس أكثر من غموض الكلام الذي يقدمه".

فالانصـراف إلـى تجـزئة أقسـام البلاغة وفنونها يؤدي إلى تشتيت الصورة الشعرية، بل هدمها من أساسها، فعلى الشاعر كما على المحلل، أو عليهما أن لا يلتفت طويـلا إلى قضايا البلاغة مجزأة ليوضح وجه الشبه أو نوعه، الخ. ويجب أن ينصرف همـه إلـى الصـورة البيانية المرتبطة بموقف، أو حالة. أو تصور. أو تتبع نفسي، أو فكـري، أو عاطفي، ليعيش كل منهما فيها كما عاش فيها الآخر، في جو عام ينسى فيه كـل واقعـة، ومـا حوله، وينصهر في ما هو فيه، أو في ما نقل إليه بإيحاءات خلاقة" لـتؤدي إلى إنشاء علاقات بلاغية توحي بالمناخ العام للقصيدة، أو الحالة العاطفية التي يريد الشاعر تقديمها".[120]

وهـنا يأتـي دور الحديث عن جانب التراكيب وما تؤديه في الصورة الأدبية في تجـربة الشـاعر وفـي تحليل المحلل المتذوق، فالنحو – في ما نرى– يُعَدُّ أهم الأسس والركائـز التي يجب أن تخضع لها لغة التجربة الشعرية. وحتى في انزياح (كما يسميه كوهـن) الشـاعر في لغة تجربته الشعرية عن قواعد اللغة النحوية، فإن عليه أن يجعل هذا الانزياح في حدود إمكان تسويغ اللغة على ضوء القاعدة، أو إمكان جعل قاعدة على ضـوء استعمال اللغة. "إن النحو هو الركيزة التي تستند إليها الدلالة. فبمجرد ما يتحقق الانزياح بدرجة معينة عن قواعد ترتيب وتطابق الكلمات، تذوب الجملة، وتتلاشى قابلية الفهـم".[121] فاللغـة لهـا قواعدها في إسناد كلماتها بعضها إلى بعض، وفي ترتيب هذا

الإسناد، وفي حدود الجملة، وفي الارتباط بها على سبيل التفسير أو مشاركة الإسناد أو الحشــو أو التقيــيد أو الإطلاق أو الاستدراك والانعطاف، الخ. وإن أي خروج على هذه القواعــد وتجاوزهــا كما فعل عدد من السورياليين في مناوراتهم بالتحرر من الخضوع لمتطلبات النحو[122]، تصبح كلمات الجملة فاقدة علامات الارتباط، يصفها روما ياكبسون "بالكلمــات المتحررة"[123]. ويسميها كمال خير بك[124] "الفوضى التركيبية" – كما نرى في كثير من الشعر المعاصر – في الارتباط المعجمي للألفاظ محققا للتنافر المنطقي. وكذا في الفوضى النحوية، فإن الفهم يصبح متعذرا أو معدوما، يقول كوهن: "إذ بتجاوز (الترابط التركيبــي الــنحوي) تكــف القصيدة عن إنجاز وظيفتها باعتبارها لغة دالة، وربما كان الطــلاق الحاصــل بين الشعر المعاصر والجمهور قد حصل بسبب تجاوز الشعر بسهولة لهــذه العتبة، ذلك الطلاق الذي يشكو منه الشعراء الشباب المعاصرون"[125]. وكما ذكرنا ســابقا لابــد أن يعي المحلل جوانب النحو كوعيه جوانب البلاغة، وأن تتشابك في ذهنه مكونــة طاقــة كامــنة قوية، يستطيع بها إدراك الترابط العميق، والتفاعل الدقيق لهذه العناصــر فــي صور الشاعر في تجربته الشعرية، وفي ذهنه، سواء أكان بوعي منه أم بغــير وعــي"، إن عــالم اللغة شأنه شأن الشاعر، قد أدركا معا طاقة النحو المشعرنة. وهكــذا، فقــد كتــب ياكبسون: نادرا ما تعرف النقاد على المنابع الشعرية المستترة في البنــية الصرفية والتركيبية للغة، أو باختصار على شعر النحو ومنتوجه الأدبي؛ أي نحو الشــعر، كما أن علماء اللغة كادوا يهملونه نهائيا، أما الكتاب المبدعون فعلى العكس من ذلــك، تمكنوا في الغالب من أن يستخلصوا منها فوائد جمة[126]. وللحق فإنه "لا يتحقق الشعر إلا بقدر من تأمل اللغة، ومع كل خطوة"[127].

فالنحو، يستطيع من خلاله الشاعر والمحلل والقارئ والمتذوق، تحديد التجانس والــتوافق، أو التــنافر وعــدم الاتســاق، في السلسلة الكلامية التي تم بها التعبير عن الــتجربة الشــعرية. يقول كوهن[128]: "فمن الوظائف الأساسية للنحو تعيين الكلمة التي تتعلق بأخرى ضمن السلسلة الخطية للرسالة"؛ لأنه من قبيل المحال صياغة جملة مفيدة اعــتمادا علــى رصف الكلمات المأخوذة من المعجم مباشرة، وإن احتمال تركيب جملة بــأخذ الكلمات صدفة من المعجم، ووضع بعضها إلى جانب بعض هو احتمال متعذر[129].

فهــذه الكلمـــات التي تتكون منها الجملة هي وحدات صرفية حسية، جاءت لتمثل أبوابا نحوية مجردة في الذهن، تخضع لقوانين هذه الأبواب في حركتها الإعرابية، وفي ترتيب المبانـــي وفي قواعد الزيادة والحذف، وفي كيفية الأداء بتنغيم معين لتؤدي دورا دلاليا، بـــه يتم التواصل بين طرفي الخطاب. يقول كوهن[130]: " إن كل جملة تتكون من كلمات، أي من وحدات معجمية يعهد إليها القيام بوظيفة نحوية محددة، فالقاعدة هنا تستلزم من كـــل وحـــدة معجمـــية داخل الجملة القدرة الدلالية على الاضطلاع بهذه الوظيفة". وبهذا تـــتحقق ســـلامة وسيلة التواصل كما ذكرنا. ويقول جان كوهن أيضا: "إن اللغة تواصل، ويســـتحيل أن توصـــل شيئا إذا لم يكن الخطاب مفهوما، فينبغي للخطاب؛ أي خطاب، أن يكـــون قـــابلا للفهم، تلك هي البديهية الأساسية لقواعد الكلام، والقواعد بإتمامها ليست سوى مظاهر لتحقيقها، وقابلية الفهم هنا ينبغي أخذها بمعنى توفر المعنى القابل للإدراك مـــن طـــرف المتلقي، ولذلك لا يكفي احترام قواعد اللغة، بل ينبغي فوق ذلك، أن يكون تفكـــيك الرســـالة ممكنا، وهذا بالذات ما يجعل حرية الكلام خاضعة لمجموعة من القيود التي تتجسد في مجموعة من القوانين".

وإنـــه لممـــا يترك في النفس غصّة بالغة العمق، أن الشعراء المعاصرين جلهم، أخـــذوا يهـــتمون بالانفعـــال والعاطفـــة (في نقل التجربة الشعرية) وليس بالنحو. يقول أدونـــيس" جمـــال الشعر إنما يعود إلى نظام المفردات وعلاقاتها بعضها بالبعض الآخر، وهـــو نظـــام لا يـــتحكم فـــيه النحو بل الانفعال والتجربة: وقد ساعد على انتشار خرق القواعـــد النحوية والرغبة في هدمها" لدى بعض هؤلاء الشعراء انعدام المعرفة الكافية بالـــنحو أو عـــدم المبالاة بسلطة القواعد المكتوبة، بل إنّ هذه اللامبالاة تتخذ لدى بعض الشـــعراء صـــيغة فعل إرادي أو عمدي، يبدو كما لو كان يشكل جانبا من هذا الديالكتيك الإبداعـــي القـــائم علـــى الهدم وإعادة البناء، الذي يطمع الشاعر الحديث إلى تحريه في اللغـــة العربية". وإنه لمن الواضح الجلي أن كثيرا من الشعراء المحدثين قد اقتاد الجملة الشـــعرية إلـــى ما يقرب من الجملة النثرية، بل من نثر الجملة الصحفية، ليس فقط من حيـــث المفـــردات وإهمـــال الـــنحو، وإنهـــا أيضا من حيث البنية المنطقية والأسلوبية، فانتشـــرت الجملـــة التـــي لا معـــنى لها، وانتشرت التعبيرات العامية والأقوال الشعبية

المتداولة في الحياة اليومية. وقد رصد كمال خير بك عددا من أوجه الانحراف في ما يسميه "الفوضى التركيبية" يذكر منها إذابة النقط والتوزيع، أو فوضى الوقف كما ذكرنا سابقا، وإدخال اللهجات المحلية في التركيب اللغوي، وتراجع الفعل وسيادة الجملة الاسمية، واستخدام شبه الجملة التي تفتقر إلى فعلها الرئيس، واستخدام الجملة غير التامة في مبناها.

يقول[131]: "ينبع عدم اكتمال المعنى من غياب المفعول به، وفي حالات أخرى نجد جملا فعلية وقد غاب فعلها الرئيسي، وهذا ما يشكل جانبا من هذه النزعة القائمة على تكسير العبارة، وبعثرة عناصرها عبر النص بإحالتها إلى مجرد صيغ، أو حتى كلمات متتابعة، مكررة، أو متجاورة دونما نظام أو منطق خارجيين، وسواء في هذه الحالة أو تلك، فإننا نشهد في الشعر العربي ولادة الجملة الفوضوية بامتياز".

ذكرنا سابقا أن الكلمة في الجملة ممثل صرفي حسي لباب نحوي مجرد موجود في الذهن، ونقول بأن المتكلم العادي أو الشاعر، يفكر بأبواب نحوية ثم يجسد هذه الأبواب بكلمات منطوقة لها مزايا الباب النحوي وخصائصه، في ترابط نبينه بالرسم التوضيحي[132] الذي سنثبت عند الحديث عن "الزيادة" لاحقا. ففي الجملة: يكرم علي خالداً عصر الجمعة احتراماً لأبيه. جسدت كلمة (يكرم) باب الفعل المضارع. وأخذت حركة حالته التي هي الضمة هنا علامة الرفع، وجسدت كلمة (علي) باب الفاعل، وأخذت حركة حالته هنا، وهي الضمة علامة الرفع، وارتبطت ببؤرة الجملة (الفعل في الجملة الفعلية، والمبتدأ في الجملة الاسمية) برباط الفاعلية ارتباطا دلاليا. وجسدت كلمة (خالدا باب المفعول به، وأخذت حركة حالته وهي الفتحة هنا، وارتبطت دلاليا بالبؤرة برباط المفعولية. وارتبطت عصر بالجمعة برباط التلازم، وأخذت الأولى (عصر) علامة حالة النصب علامة باب المفعول فيه، وأخذت (الجمعة) حركة حالة الجر علامة لباب المضاف إليه، وارتبط المتلازمان ببؤرة الجملة برباط التحديد المكاني. ثم جاءت كلمة (احتراما) تجسيدا لباب المفعول من أجله، فأخذت حركة الباب، وهي الفتحة هنا، ثم ارتبطت بالبؤرة برباط السببية، ثم ارتبطت اللام، وهي حرف مبني، بالاسم بعدها برباط التلازم، وارتبط الاسم بالضمير برباط التلازم، تلازم الإضافة. وأخذت كلمة (أب) حركة

حالـــة الـــباب، وهـــي الـــياء هنا؛ لأنها من الأسماء الخمسة في عرف نحاة العربية، ثم ارتبطت المتلازمات بالبؤرة برباط القيد المحدد أو المخصص.

وبهـــذا يـــتم خـــط سلامة المبنى، فيسعى المتكلم لتحقيق عناصر المعنى، وهذا يقتضـــي تكويـــن عـــدد من الجمل البسيطة التي نرى أنها تمثل انطلاقاً افتراضياً، ولكنه يحمل قوة واضحة من المنطق اللغوي في الاستعمال اللغوي القديم والحديث. يقول جان كوهـــن[133]: "مـــن حقنا أن نفترض وجود سجل لجمل بسيطة ممكنة تكون بالفعل جدول ملاءمة صالح على الأقل بالنسبة لثقافة معينة، إن قانونا من هذا القبيل، إذ تحقق، يمكن أن يزودنا بمعيار موضوعي لأجل الكشف عن الانحرافات التي يقترفها أو يحققها الشعر" ونقـــول: يـــزودنا بمعيار لمعرفة الأبعاد الدلالية لكل ما يجري في حدود الجملة العربية وارتـــباطها بغيرها. لذا فإننا نرى أن الجملة العربية في الأصل تقع في أحد الأطر الستة التالية، وتفيد عندئذ معنى الإخبار المحايد.

1- فعل + فاعل (الفعل لازم).
2- فعل + فاعل + مفعول به 1. 2. 3 (أول –ثان –ثالث).
3- فعل + مفعول به ضمير +فاعل.
4- مبتدأ معرفة + خبر نكرة.
5- مبتدأ معرفة + خبر معرفة هو ذاته المبتدأ.
6- شبه جملة + مبتدأ نكرة.

فإذا ما جرى على الجملة في أي من هذه الأطر أي تغيير، فإن الجملة تنتقل من بعدها الدلالي الأول، وهو الأخبار المحايد كما ذكرنا، إلى بعد دلالي آخر. ويتم هذا التحول أو الانتقال بعنصر أو أكثر من العناصر التالية، ومن المعلوم أن كل عنصر له بعده الدلالي في الجملة، فإذا اجتمع أكثر من عنصر في الجملة كان لكل عنصر بعده في الدلالة ودوره في نقل الجملة إلى معنى يقصده المتكلم ويدركه السامع، ولابد أن يخضع كل عنصر إلى قوانين اللغة وقواعد النحو في علاقات البنية المورفولوجية، وفي علاقاته بغيره، أي العلاقات التركيبية، ثم العلاقات الدلالية، وهذه العناصر هي:

الترتيب، والزيادة، والحذف، وتغير الحركة الإعرابية، والتنغيم. وإليك نبذة عن كل (نقتبسها مما كتبه الباحث الجاد د. فارس عيسى، في تحليل هذه النظرية وتقويمها أمام مجموعة كبيرة من النظريات التي تهتم بالتحليل اللغوي، ويمكن الرجوع في تفصيل هذه النقاط إلى كتاب خليل عمايره: في نحو اللغة وتراكيبها).

يعد الدكتور خليل عمايره أحد الذين تأثروا بمنهج القواعد التوليدية التحويلية وتعمقوا فهمه ودراسته، وكون لنفسه وجهة نظر في دراسة الأساليب اللغوية في اللغة العربية على ضوء نتائج علم اللغة المعاصر ومعطياته"[134].

وقد حدد الجملة المنتجة أو التوليدية بأنها الحد الأدنى من الكلمات التي تحمل معنى يحسن السكوت عليه، بشرط أن تندرج في نمط من أنماط البناء الجملي في اللغة العربية[135]. فالجملة عنده تقسم إلى قسمين؛ توليدية وتحويلية.

وبناء على هذا فقد قسم الجملة التوليدية في إطارين:

الأول: الجملة التوليدية الاسمية وتتفرع إلى:

أ- اسم معرفة (أو ما يسد مسده) + اسم نكرة.

ب- شبه جملة + اسم نكرة.

والثاني: الجملة التوليدية الفعلية وتتفرع إلى:

أ- فعل + اسم مرفوع (أو ما يسد مسده)

ب- فعل + اسم مرفوع + اسم(1) + اسم(2) + اسم(3)

ج- فعل + ضمير (مفعول به) + فاعل.

وهذه الفروع الخمسة، في مجموعها، يسميها قواعد النحو التوليدي، لأنها تقوم بضبط الجملة التوليدية وترتيبها، ولذا فإنه يعد أية قاعدة تقع في هذه الأطر شعبة من قواعد النحو التوليدي.

وقد قامت هذه الفرضية على ركيزتين أساسيتين هما:

1- أن هناك جملا نواة تتحول إلى صور الكلام المعروف، ويتم وصفها وصفا ظاهرا، يتتبع انتقال الجملة من بنى عميقة (تحتية) إلى بنية أخرى سطحية، يريدها المتكلم ويعرفها السامع لمعنى خاص.

2- أن للعربية كيانا تركيبيا مميزا يتشقق إلى مسارين:

أحدهما: مسار يتفق وعلم اللغة العام، وهو ما ينسجم مع القواعد اللغوية العالمية (Universal rules).

وثانيهما: مسار خاص يقتضيه منطق العربية الذي لا يجاريه منطق آخر في غيرها[136].

وأما الجملة التحويلية، فهي الجملة التي جرى فيها شيء من التغيير في إطارها التوليدي الأصل، أي أن الجملة التحويلية= جملة توليدية + عنصر أو أكثر من عناصر التحويل.

أما عناصر التحويل التي تدخل الجملة ويسميها (قواعد النحو التحويلي) فهي:

1- الترتيب، وهو من أبرز عناصر التحويل، ويتبعه نظم الكلام في الجملة من تقديم أو تأخير طلبا لإظهار ترتيب المعاني في النفس، وهو أمر أشار إليه كثير من النحويين والبلاغيين، ومثلوا لجريانه في العربية، وبينوا "أن الترتيب أمر يراد به سر من أسرار العربية، ووسيلة يقرب بها المعنى العميق والدلالة البعيدة".[137]

والترتيب الذي عناه الدكتور عمايره في منهجه نقل مورفيم من موقع أصل، إلى موقع جديد مغيرا بذلك نمط الجملة، وناقلا معناها إلى معنى جديد تربطه بالمعنى الأول رابطة.

فالجملة: أكرمَ خالدٌ عليا، جملة توليدية على الأصل، لا تركيز فيها على معنى غير المعنى الأولي الذي هو فيها للإخبار، فهي تركيب أساسي هدفه الإخبار ليس غيره. أما إذا تغير مبنى الجملة وأصبح: خالدٌ أكرم عليا، و عليا أكرم خالدٌ، صار له معنى آخر غير الأول.

لأن القصد من تقديم (خالد) هو التركيز على محدث الحدث، والقصد من تقديم (علي) هو التركيز على من وقع له الحدث، فكان فرض التقديم هنا هو التحويل المؤكد مرة للفاعل، وأخرى للمفعول به، مستندا في ذلك على قول علماء العربية: "والعرب إن أرادت العناية بشيء قدمته".

وبالطريقة نفسها يجري الترتيب في الجملة الاسمية، ففي جملة (الرسول محمد) مثلا تحويل من الجملة التوليدية الأصل: (محمد رسول)، تقدم فيها الخبر (الرسول) بعد أن أضيف لها عنصر التعريف (أل) لتجري على قواعد العربية في تسويغ التقديم، لأن القول: (رسول محمد) لا تسوغه اللغة، ولا يجري على أصولها، كما أن (ال) أكسبت الاسم (رسول) مزيدا من التخصيص للتعظيم[138].

وعلى أية حال، فإن التراكيب المسوغة في العربية ينحصر أغلبها فيما يلي:

فعل + فاعل

فعل + فاعل + مفعول

فاعل + فعل

مفعول + فعل + فاعل

فاعل + فعل + مفعول

فعل + مفعول + فاعل

ولا ترتضي العربية الترتيب:

فاعل + مفعول + فعل، أو: مفعول + فاعل + فعل.

وفي الجملة الاسمية:

مبتدأ (معرفة) + خبر (نكرة) = توليدية

شبه جملة + مبتدأ (نكرة) = توليدية

مبتدأ معرفة + خبر (معرفة) = تحويلية

خبر (معرفة) + مبتدأ (معرفة) = تحويلية

(كان) + اسمية = تحويلية

(كاد)

(إن)

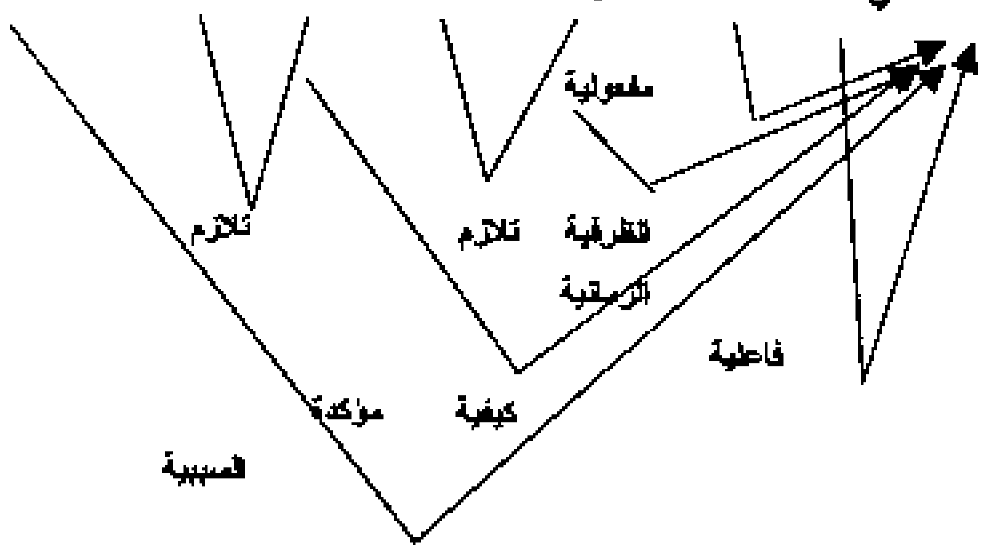
... الخ

2- الزيادة:

ونحن نرى هنا ما يراه علماء اللغة العرب القدماء، أن كل زيادة في المبنى تؤدي إلى زيادة في المعنى، فكل كلمة تزاد في الجملة إضافة إلى أنها تؤدي دورها في المعنى، فإنها تحمل حركة إعرابية هي حركة الباب النحوي الذي جاءت ممثلا صرفيا له. فهو يرى أن الإنسان يفكر بمجموعة من الأبواب النحوية التي تكون مجردة ذهنية، تجسد بكلمات صرفية تكون ممثلا صرفيا لها، فتأخذ كل كلمة الحركة الإعرابية المخصصة للباب النحوي، وترتبط ببؤرة الجملة لتؤدي دورها الدلالي في الجملة، هكذا:

1 حركة إعرابية	الرفع	الرفع	النصب	النصب	الجر	النصب	كالسابق	النصب
2 باب نحوي	فعل مضارع	فاعل	مفعول به	مفعول فيه	مضاف إليه	مفعول مطلق	نعت	مفعول له
3 ممثل صرفي	يكرم	علي	خالدا	عمر	الجمعة	إكراما	جيداً	احتراما

4 المعنى الدلالي



ويرى أن البحث في النحو العربي قديما قد اهتم بالبندين الأول والثالث، وخلط البندين الثاني والثالث، وأهمل البند الرابع إهمالا واضحا، فحدث بذلك خلط في البحث بين المستويين التركيبي والدلالي.

ومن هنا كان شرطه أن تسير الزيادة في ركاب المبنى من نواح ثلاث:

أ- أن تساير النظم أو الترتيب الذي يقتضيه التركيب الأساسي أو المحول.

ب- أن تحمل الحركة الإعرابية التي تسم الباب النحوي الذي تمثله إن كانت معربة، أما إذا كانت مبنية فيكتفي بذكر بابها النحوي، ولا داعي لتقدير حركات إعرابية لا مبرر لها من معنى أو وظيفة[139].

ج- أن ترتبط من حيث المعنى بمركز الجملة؛ وهو بؤرة الجملة (الفعل في الجملة الفعلية، والمبتدأ في الجملة الاسمية).

وهناك عناصر تدخل على الجملة التوليدية، وأخرى تدخل على الجملة التوليدية الاسمية، وتضيف كلها إلى ما تدخل عليه معاني جديدة. وقد يقتضي دخولها خاصة على أواخر بعض عناصر الجملة، وحينها لا يكون لهذه الحركة دوراً في المعنى؛ لأن المعنى قد عرف في العنصر قبل دخولها من ناحية، ولأن المعنى يكمن في عنصر الزيادة ذاته من ناحية أخرى، فعندما نقول: علي مجتهد، نعرف أن عليا مخبر عنه، و(مجتهد) خبر عن علي، فعلي مسند إليه، ومجتهد مسند. وعند دخول عنصر الزيادة (كان) على سبيل المثال، تصبح الجملة: كان علي مجتهدا. فالنصب في (مجتهد) هو اقتضاء لكان، ولم يضف إليها معنى آخر غير الذي عرفناه من الإخبار عن (علي)، ولكن زيادة (كان) وما تحمله من سمة (الدلالة على الماضي) يعد تحويلا في الجملة (المسند إليه + المسند) إلى الزمن الماضي.

وقد ناقش الدكتور عمايره ما يسميه النحاة حرف جر زائد[140]، وما يراه النحاة في حدها وإعرابها، وخلص إلى أنها في تقدير النحاة متعلقة بمحذوف مفرد أو جملة. ولكنها في إطار التحليل اللغوي تكون عنصرا من عناصر التحويل بالزيادة في نحو قوله تعالى ﴿وما تسقط من ورقة إلا يعلمها﴾[141]، وقوله تعالـــى ﴿ألست بربكم﴾[142] تفيد توكيد الأسماء بعدها، وتكون هذه الأسماء قد أخذت الكسرة اقتضاء لمن أو الباء[143]. أما شبه الجملة التي يعد حرف الجر فيها أصلا (ليس دخوله كخروجه)، فهي في إطار الجملة التوليدية إذا جاءت على نحو: زيد في الدار، وفي الدار رجل، وفي إطار الجملة التحويلية إن جاءت على نحو: أفي الدار زيد، وأعندك زيد، تقدم الظرف أو الجار والمجرور في كلتا الجملتين لمعنى.

2- الحذف: وهو يمثل أي نقص في الجملة التوليدية، الاسمية أو الفعلية، لغرض في المعنى، حيث يحمل جزؤها المتبقي معنى يحسن السكوت عليه، وتحمل اسمها الذي كان لها في التركيب الأساسي قبل التحويل. فعندما يطرح السؤال، من القادم؟ مثلا، فإن الإجابة قد تكون (خالد)، أي (خالد القادم) أو (القادم خالد)، وفي كلتا الجملتين إيجاز حذف على النحو التالي: مسند إليه، أو: مسند.

ومن حذف المسند أيضا قول الأعشى (من المنسرح):

إنّ محـــــــلا وإنّ مرتحـــــــلا وإنّ في السفر إذ مضـــوا مهـــلا[144]

وقد عرف حذف كثير في آيات الله البينات وكانت في كل حال عنوان البلاغة والفصاحة. ومنه في كلام العرب شواهد جمة، ذكر منها الجرجاني قول عمر بن أبي ربيعة (من البسيط):

اعتاد قلبك من ليـــلى عوائـــــده وهاج أحزانك المكنونـــة الطـــلل

ربع قواء أذاع المعصـــرات بـــه وكل حيران سار مـــاؤه خضـــل[145]

أي (هو ربع) ولم يحمل على أن الربع بدل من الطلل، لأن الربع أكثر. وكذلك في قول عمر بن أبي ربيعة أيضا (من البسيط):

هل تعرف اليوم رسم الدار والطللا كما عرفت بجفن الصيقل الخـــللا

دار لمروة إذ أهلـــــي وأهلـــــهم بالكانسية نرعى اللهو والغـــزلا[146]

أي (تلك دار)، وكما تضمر العرب المبتدأ تضمر الفعل، كما في قوله تعالى: ﴿ولئن سألتهم من خلق السموات الأرض، وسخر الشمس والقمر، ليقولن الله﴾[147]، أي خلقهن الله.

ولعل السياق والمقام الذي يكتنف القول أبرز العناصر الهادية إلى تحديد العنصر المحذوف، إذ لا يكون الحذف إلا بوجود دليل عليه، وإلا كان فيه ضرب من تكلف الغيب في معرفته كما قال ابن جني[148].

وفي الأمثال العربية التي تبدأ بوزن (أفعل من) حذف المبتدأ في أغلب الأحيان. وفي الجملة الفعلية قد يحذف الفاعل أو نائبه، على رأي، وقد ورد من ذلك كثير في آيات القرآن الكريم وأشعار العرب، كما قد يحذف المفعول وتتحول الجملة التوليدية بهذا

الحذف إلى جملة تحويلية. وتختلف الأغراض من حذف المفعول، وأكثرها قصدا هو إثبات المعنى للفعل المتعدي وليس لمن يقع عليه الحدث، كقولنا: فلان يحل ويعقد، فليس الغرض معرفة ماذا يحل وماذا يعقد، وإنما الغرض إثبات حدثي الحل والعقد لفلان، ويكون بذلك تحويل على النحو التالي:

فلان يحل ويعقد، وأصلها يحل فلان كذا، ويعقد فلان كذا

⟵ يحل فلان ∅ ويعقد ⟵ فلان يحل ويعقد ∅ ∅

(حذف المفعول) (حذف الفاعل) (تقديم الفاعل)

(والمفعول)

كما قد يحذف المفعول أيضا لدلالة الحال عليه، حيث لا يحدث لبس في المعنى، وقد وضع النحاة لامتناع حذفه شروطا وأحوالا، كي لا يؤدي إلى غموض المعنى وإبهامه.

ويحقق حذف المفعول في كل حال معنى يعرفه المتكلم والسامع، ومن المعاني التي يقصد إظهارها من حذف المفعول به الإيجاز، والاحتقار، والازدراء، والاستهجان. ولعلّ أبلغ ما كان من الحذف ما جاء في قوله تعالى[149]: ﴿ولما ورد ماء مدين وجد عليه أمة من الناس يسقون ووجد من دونهم امرأتين تذودان، وقال ما خطبكما، قالتا لا نسقي حتى يصدر الرعاء وأبونا شيخ كبير، فسقى لهما ثم تولى إلى الظل﴾ فهنا حذف في أربعة مواضع: يسقون أغنامهم، تذودان غنمهما، لا نسقي غنمنا، فسقى لهما غنمهما، وجاء الحذف هنا مبينا أنه كان من الناس سقي ومن المرأتين ذود.

4- علامات الإعراب:

وهي حركات تظهر على أواخر الكلمات، كانت لها معان في نفس العربي الذي تحدث باللغة على سجيته وطبيعته، فلم يعلل الأسباب أو يقدر العوامل، إذ كانت الحركات تساعد متكلم اللغة على الاتساع في الكلام والتعبير عن المعاني المتغيرة في نفسه، فلم يكن النحاة على حق حينما بحثوا بعد ذلك عن علل لهذه الحركات، لأنها فونيمات أو شارات إعرابية تدل على الفاعلية أو المفعولية أو الإضافة، ولها أثر في الإفصاح والإبانة عما في النفس من معنى، وإن تغيرت الإشارة فإن ذلك يؤدي إلى تغير في

الصورة الذهنية القديمة، وتتحول إلى صورة ذهنية جديدة لها صلة وثيقة بالصورة الأولى، أو بمعنى آخر، ما كان التغيير في في الحركة إلا للتغيير في المعنى.[150] كما قال ابن مضاء: "إن حركات الإعراب لم توجد لتدل على عوامل معينة، وإنما جاءت لتدل على معان في نفس المتكلم".

والحركات التي عدها الدكتور عمايره من فونيمات التحويل هي الحركات التي لا تأتي اقتضاء لعنصر تحويل جديد، أو اقتضاء قياسيا. ومن الحركات التي عدها عناصر تحويل في الجملة هي الحركات التي تدل على الأبواب النحوية التالية: الإغراء، والتحذير، والاختصاص، وأسماء الأفعال، وكم الاستفهامية والخبرية، والاسم المنصوب بعد واو المعية، والفعل المضارع المنصوب بعد الواو بمعنى مع[151] والاسم المنصوب في التعجب. ومن أمثلة ذلك ما سنذكره هنا موجزا في إطار هذا المنهج:

+ فجملة: هذا الأسدُ ⟵ ∅ الأسد (بالحذف) ⟵ الأسد (للتحذير) (بتغيير الحركة)

+ وجملة: هذا أنت والمراءُ ⟵ ∅ أنت والمراءَ إياك (النصب) ⟵ والمراءَ (الإغراء والتحذير) (النصب)

+ وجملة: نحن العربُ ⟵ نحن، العربَ، نكرم الضيف (الفخر والتعظيم) (الحركة) (اقتضاء للتحويل)

+وجملة: إليك الكتابُ ⟵ إليك الكتابَ (الحث على أمر معين). (الحركة)

+وجملة: استوى الماءُ والخشبةُ ⟵ استوى الماء والخشبةَ (المعية) (الحركة)

+وجملة: لا تأكلْ سمكا وتشربْ لبنا ⟵ لا تأكل سمكا وتشربَ لبنا (المعية) (الحركة)

+ وجملة: قرأت كتابا ⟵ كم كتابا قرأت؟ (استفهام) (زيادة) (ترتيب)

- قرأت كتابا ⟵ كم كتابِ قرأت (تكثير) زيادة (ترتيب) (حركة)

هـ - التنغيم:

وهو ظاهرة موسيقية أدائية، تظهر عند نطق الجمل لمعنى خاص يريده المتكلم، وهو نوع من النبر الذي ينقل باباً لغوياً إلى باب لغوي آخر. وقد حدد العلماء نغمة صوتية خاصة (صاعدة وهابطة ومستوية) لكل مستوى من مستويات الجمل (التقريرية والخبرية والاستفهامية والتعجبية).

وسنقوم بتطبيق هذا المنهج على عدد من نماذج الشعر القديم والحديث لنبين إمكان تطبيقه والأخذ به.

الهوامش

1 وانظر ابن جني: الخصائص 1: 33.

2 وانظر خليل عمايره: في نحو اللغة وتراكيبها ص 26 ط. 2.

3 وانظر 189 ــ 191. وهذا ما ذهب إليه أهل الكوفة في النحو العربي، ينظر لمناقشة هذه الآراء: خليل عمايره: أساليب التوكيد في اللغة العربية.

4 لسنا هنا بصدد توسيع القول في هذه المدارس، فهذا أمر لا يحتاجه عملنا في هذا الكتاب، وهناك أعمال كثيرة بحثت في هذه المدارس مجتمعة أو منفردة ولكنا سنكتفي بما يحتاجه بحثنا من إبراز عناصر المعنى ليس غير.

5 وانظر: رومان ياكبسون: قضايا الشعرية، ترجمة عن الفرنسية محمد الولي ومبارك حنوز دار توبقال للنشر، المغرب، الدار البيضاء 1988 ص 33.

6 السابق ص 13.

7 ص 19.

8 قضايا الشعرية ص 25.

9 السابق.

10 رومان ياكبسون: قضايا الشعرية ص33.

11 منهاج البلغاء وسراج الأدباء، ت محمد الحبيب بن خوجه، دار الكتب الشرقية، تونس 1966 ص 8.

12 السابق 19.

13 رومان ياكبسون قضايا الشعرية ص 27.

14 الغزالي: معيار العلوم (منطق تهافت الفلاسفة) ت: سليمان دنيا، القاهرة 1979، ص 75، 76.

15 فندريس، اللغة ص 43.

16 حازم القرطاجني، منهاج البلغاء ص 19.

17 ترى أن من المفيد هنا أن ينظر إلى:أسرار البلاغة ــ للجرجاني ص 4-5، وإرشاد الفحول إلى تحقيق الحق من علم الأصول ــ للشوكاني، المطبعة الحلبية ــ القاهرة 1937م ص 26 والكليات، لأبي البقاء الكفوي، وزارة الثقافة والإرشاد القومي، دمشق 1982، 251/4.

18 أبو نصر محمد بن طرخان الفارابي، إحصاء العلوم، ت: عثمان أمين، مكتبة الأنجلو القاهرة 1968، ص 74ــ 57.

19 الشـريف علي بن محمد الجرجاني، كتاب التعريفات، دار الكتب العلمية، بيروت 1983 ص 22.

20 Jspersan, The Pilosophy of Grammar, London, 1924 وانظر ابن جني: الخصائص 33/1.

21 ياكبسون، قضايا الشعرية 54.

22 السابق 81.

23 جـان كوهـن، بنية اللغة الشعرية، ت محمد الوالي ومحمد العمري، دار توبقال – الدار البيضاء المغرب ص 191.

24 امـبرتو إيكـو: تحليل اللغة الشعرية، في "أصول الخطاب النقدي الجديد"، ترجمة أحمد المديني ص 8.

25 L. Bloomfield, Language, P. 139.

26 وانظر التعريف بعلم اللغة، ت: حلمي خليل.

27 وانظـر، E. Sapir, Language ، وانظر: خليل عمايرة، في نحو اللغة وتراكيبها، الفصل الثاني

28 وانظر، S. Ullman, The Principles of semantics

29 دور الكلمة في اللغة ص 62 وما بعدها Words and their use دور الكلمة في اللغة ت: كمال، بشر، مكتبة الشباب - القاهرة 1975م ص: 195 - 196.

30 وانظـر، J. Firth, Papers in lingnistics 1934-1951, oxford uni: Press, 1964

31 جان كوهن، بنية اللغة الشعرية، ص 194.

32 السابق ص 195.

33 السابق 196، وانظر: تزيفتان تودوروف، مفهوم الأدب ص ص 23.

34 وانظر تزيفتان تودوروف، مفهوم الأدب، ص 39 – 45.

35 رومان ياكبسون، قضايا الشعرية ص 9.

36 الشعر والشعراء ص 3 – 4.

37 البيان والتبيين.

38 الصناعتين ص 15.

39 نقد الشعر ص 101.

40 دلائل الإعجاز.

41 السابق ص 196.

42 الحيوان 132/3.

43 تزيفتان: الدلالة والمرجع، في : المرجع والدلالة في الفكر اللساني الحديث، ص 16.

44 تزفـــتان تودوروف "علاقة الكلام بالأدب" في أصول الخطاب النقدي الجديد" ترجمة أحمد المديني دار الشؤون الثقافية العامة ــ بغداد ــ 1987 ص 38.

45 ستيفن نوردايل لان "مغامرة الدال ــ قراءة لرولان بارت في السابق ص 51.

46 أمـــبرتو ايكو: تحلـــيل لغـــة الشـــعر، في السابق ص 93. وليم راي: المعنى الأول من الظاهراتية إلى التفكيكية، ت: يوئيل عزيز، دار المأمون ــ بغداد 1987 ص 29.

47 وانظر حازم القرطاجني، منهاج البلغاء ص 89، وعبد القاهر الجرجاني، أسرار البلاغة ص 311.

48 غنيمي هلال: النقد الأدبي الحديث، القاهرة 1964 ص 417.

49 السابق 417.

50 الســـابق 42، وانظر كولدرج دار المعارف ــ القاهرة ص 159، ترجمة محمد مصطفى بدوي، دار المعارف ص 159.

51 السابق 104.

52 لمـــزيد من التفصيل انظر أحمد يوسف داود، لغة الشعر، دمشق، مركز الثقافة والإرشاد القومي 1985 ص ص 105 ــ 145.

53 ســـعيد الورقي، لغة الشعر العربي الحديث، الهيئة المصرية العامة للكتاب ــ الاسكندرية 1979 ص 123.

54 وانظـــر صـــبري حافظ: استشراق الشعر، دراسات أولى في نقد الشعر العربي الحديث، الهيئة المصرية العامة للكتاب 1985م ص 16.

55 السابق عن: الشعر كلغة بدائية: ضمن كتاب: الأديب وصناعته، ترجمة جبرا، منشورات مكتبة منيمنة ــ بيروت ص 99 ــ 105.

56 السابق ص 29.

57 تزيفان تودوروف، مفهوم الأدب ، ص 65.

58 السابق.

59 السابق ص 66.

60 وليم راي، المعنى الأدبي ص 217.

61 السابق 201.

62 يوسف الخال، الحداثة في الشعر، ص 77.

63 جان كوهن، بينة اللغة الشعرية ص 108.

64 السابق 75 ــ 67.

65 حاتم الصكر، الأصابع في موقد الشعر، مقدمات مقترحة لقراءة القصيدة، وزارة الثقافة والإعلام بغداد، 1986، ص 21.

66 جان كوهن: بنية اللغة الشعرية ص 109 وانظر إبراهيم أنيس: دلالة الألفاظ، مكتبة الأنجلو المصرية 1963 ص 127 ـ 133.

67 وليم راي: المعنى الأدبي من الظاهراتية إلى التفكيكية، ص: 151.

68 السابق ص 151.

69 وليم راي: المعنى الأدبي ص 129.

70 وليم راي: المعنى الأدبي ص 18.

71 السابق 22.

72 السابق 45.

73 السابق 73.

74 السابق 75.

75 السابق.

76 وانظر: نعيم اليافي: تطور الصورة الفنية في الشعر الحديث، ص 284.

77 تزيفان تودوروف، مفهوم الأدب ص 87.

78 يوسف الخال، الحداثة في الشعر ص 77.

79 انظر، جون تلوب فريجيه، المعنى والمرجع، في المرجع والدلالة في الفكر اللساني الحديث، ترجمة عبد القادر قنيني، الناشر، أفريقيا الشرق، ص 85 ـ 111.

80 السابق ص 89.

81 محسن أطميش: دير الملاك، ص 16.

82 لسنا بصدد الحديث عن تطور القصيدة العربية من القديم إلى إطارها الحديث من حيث الوزن والقافية، فهذا موضوع الأبحاث فيه كثيرة جداً، ويخرج عن إطار بحثنا هذا.

83 مصطفى بدوي، كولردج، دار المعارف ـ القاهرة ص 176.

84 نعيم حسن الباقي، الشعر بين الفنون الجميلة، وزارة الثقافة، دار الكاتب العربي ـ القاهرة، المكتبة الثقافية 1968، ص 29.

85 السابق ص 30.

86 السابق ص 38.

87 رومان ياكبسون، قضايا الشعرية ص 34.

88 سعيد الورقي، لغة الشعر العربي الحديث، ص 225، وانظر س. موريه، حركات التجديد في موسيقى الشعر العربي الحديث، ت: سعد مصلوح عالم الكتب 1969 ص 17 وما بعدها، ص 81 وما بعدها، ص 132.

89 جان كوهن، بنية اللغة الشعرية ص 73.

90 وانظر السابق ص 55.

91 السابق 58، وانظر س موريه، الشعرالعربي الحديث 1800، 1970 تطوره وأشكاله وموضوعاته بتأثير الأدب الغربي، ت: شفيع السيد وسعد مصلوح دار الفكر العربي – القاهرة.

92 عبد الرحمن بدوي، في الشعر الأوروبي المعاصر، مكتبة الأنجلو المصرية 1965 ص 128.

93 نازك الملائكة، شظايا ورماد، انظر المقدمة، وانظر يوسف سامي اليوسف، الشعر العربي المعاصر، دراسة، منشورات اتحاد الكتاب العرب، دمشق، 198 ص 32، وصبري استشراق الشعر.

94 انظر سلمى الجيوشي: الشعر العربي المعاصر، تطوره ومستقبله ص 38 – 39، مقالة في عالم الفكر المجلد الرابع العدد الثاني الكويت 1973، ص 11 – 54.

95 نزار قباني، الشعر قنديل أخضر ص 40 وما بعدها.

96 السابق ص 37.

97 سعيد الورقي، لغة الشعر العربي الحديث ص 261.

98 نعيم اليافي: الشعر بين الفنون الجميلة، ص 86.

99 وانظر جان كوهن: بنية اللغة الشعرية ص 51 – 52.

100 السابق.

101 السابق.

102 أذكر أنني قرأت عدداً من القصائد لأحد الشعراء المحدثين، وكنت قد قرأت عدداً من الدواوين لغيره، فوجدت في نفسي نحوه ما لم أجده فيها لغيره، وجدت أن التطابق تام في مساحة التجربة، صغرت تلك المساحة أم كبرت، فوجدت أنه يتحدث عن طفولته بلسانه، وعن تجاربي بوعي كما لو كان قد عاشها معي، مع أنه من بيئة اجتماعية وإقليمية بعيدة، ولم أكن قد التقيت به من قبل، وعندما تم اللقاء وجدت أنني أتحدث إليه وأتفاعل معه كما لو كنا نعرف أحدنا الآخر بل تربطنا صداقة حميمة، فتجاوزنا كل ما يمكن أن يكون عائقا بين من يلتقون للوهلة الأولى، ونشأت صداقة ومودة يحس فيها كل منا أنه يعرف صديقه منذ عشرين سنة في أقل تقدير.

103 لغة الشعر: قراءة في الشعر العربي الحديث، منشأة المعارف، الإسكندرية 1985، ص 114.

104 السابق ص 125.

105 سيتبع في مقالة لاحقة.

106 لمزيد من التفصيل في هذا انظر كمال خير بك، حركة الحداثة في الشعر العربي المعاصر، دراسة حول الإطار الاجتماعي الثقافي للاتجاهات والبنى الأدبية، دار الفكر ـ بيروت 1986 ص 134 ـ 1465 وانظر: يوسف الخال: الحداثة في الشعر، دار الطليعة بيروت 1978، ونازك الملائكة ، قضايا الشعر المعاصر ومحمد النويهي: قضية الشعر الجديد.

107 وانظر: يوسف سامي اليوسف، الشعر العربي المعاصر ص 185 ـ 236.

108 يوسف الخال، الحداثة في الشعر، ص 75.

109 السابق.

110 صبري حافظ، استشراق الشعر ص 38.

111 أرشيبالد ماكليش: الشعر والتجربة، ت: سلمى الجيوشي، منشورات دار اليقظة العربية ـ دمشق ص 22.

112 أ. أ. ريتشارد، العلم والشعر، ت: محمد مصطفى بدوي، مكتبة الأنجلو المصرية، ص 44.

113 أرشيبالد ماكليش، الشعر والتجربة، ص38.

114 نعيم اليافي: تطور الصورة الفنية في الشعر العربي الحديث، منشورات اتحاد الكتابالعرب، ص 183.

115 وليم راي: المعنى الأدبي ص 174.

116 نعيم اليافي: الشعر العربي الحديث، دراسة نظرية في تأصيل تياراته الفنية، وزارة الثقافة والإرشاد القومي، دمشق 1981، ص 121.

117 السابق.

118 روبرت شولز: البنيوية في الأدب، ت: حنا عبود، اتحاد الكتاب العرب 1984، ص 182.

119 السابق.

120 محسن أطميش، دير الملاك، ص 273.

121 جان كوهن، بنية اللغة الشعرية ص 178.

122 انظر السابق ص 177.

123 السابق 178.

124 خير بك، حركة الحداثة في الشعر العربي المعاصر، دار الفكر بيروت، 1986 ص 171.

125 السابق 179.

126 السابق 175.

127 السابق 176.

128 السابق 177.

129 السابق 102.

130 السابق ص 105.

131 السابق ص158.

132 لمزيد من التفصيل انظر: خليل عمايرة، العامل النحوي بين مؤيديه ومعارضيه، وانظر أيضاً له: في نحو اللغة وتراكيبها، الفصل الثالث.

133 جان كوهن، بنية اللغة الشعرية ص107.

134 في نحو اللغة وتراكيبها ص8.

135 السابق ص 87.

136 انظر "رأي في بعض أنماط التركيب الجملي للغة العربية" مقالة للدكتور خليل عمايرة في المجلة العربية للعلوم الإنسانية، جامعة الكويت العدد 8 المجلد 2، 1982 ص61.

137 في نحو اللغة وتراكيبها ص 92.

138 السابق ص 112.

139 السابق ص 97.

140 فرق النحاة بين الجار والمجرور الذي دخول الجار فيه كخروجه (شبه الجملة) والجار والمجرور الذي دخول الجار كخروجه (حرف الجر الزائد).

141 الأنعام 59/1.

142 الأعراف 172/7.

143 في نحو اللغة وتراكيبها 124.

144 ذكره ابن هشام في مغني اللبيب82/1، والبغدادي في خزانة الأدب 41/4.

145 دلائل الإعجاز 112، الكتاب 281/1.

146 السابق.

147 العنكبوت 61.

148 وانظر الخصائص 360/2.

149 القصص 23 ـ 24، وقد مثل بها الجرجاني لبلاغة الحذف وتوفر العناية على إثبات الفعل لفاعله انظر: دلائل الإعجاز ص 142.

150 خليل عمايرة: في التحليل اللغوي ص 94.

151 في نحو اللغة وتراكيبها ص 161.

وقفة مع
(صلوات في هيكل الحب) للشابي

وقْفَةٌ مع
(صلوات في هيكل الحب)
للشابي

لعل من أوليات القول إنه ليس من الإنصاف الحكم على فلسفة كاتب أو فيلسوف أو شــاعر بدون التحليل السليم للغة كتابته (1)،ذلك أن لكل أديب فلسفة معينة ،يستعين للتعبــير عــنها بأسلوب لغوي معين، فيستعمل ملامح صوتية ونحوية ،ومباني صرفية ،وتراكيــب معيــنة. قد تتغير هذه التراكيب والملامح اللغوية بحسب الغرض الذي يكتب فــيه، ولكــنها تبقى مرتبطة بمنبع واحد هو الأديب وفكره. فتأتي اللغة نظاما تتابع فيه لبــناته بطــريقة لا شعورية ،لتبرز ما في ذهن الأديب. وإن عمد هذا إلي صرف مبانيه بطريقة واعية شعورية فانه يرسم صورة جلية تكون في كثير من الأحيان ليست جذابة، أقــرب إلــي أســلوب إعطــاء الحقائق العلمية أو التعليمية، أو حتى الإخبار بالوقائع التاريخية، فلا يعمد فيه إلي الصور الفنية ولا إلي جمال السبك في الأسلوب .

فــإذا مــا كانت وقفتنا مع أكثر فنون الأدب شفافية، مع الشعر إذ إن القصيدة قطعــة مــن الحياة صيغت بلغة شفافة (2) فان الأمر يزداد دقة. فنحن كثيراً ما نقف مع قصيدة يقولها الشاعر قاصدا فكرة معينة ولكنها تنقلنا إلى موقف قد لا يكون ارتباطه بما فــي ذهــن الشاعر كبيراً. أو قد تكون الصلة بين تجربتنا والتجربة التي عاشها الشاعر ضــعيفة فتــتدفق صورة التجربة المثارة لتكوّن صورة كلية كبيرة، ويحاول صاحب هذه الصــورة أن يوجــه مضــمون النص الذي هو بصدد تحليله ليتضمن فكرته أو تجربته، وبمقــدار مــا يثير النص من الصور في ذهن المتلقي فانه يحس أنه قد شارك الشاعر تجربــته أو حــتى شاعريته أو قل حياته الخاصة، وليس من الغريب أن تتكوّن علاقة خاصة بين الشاعر المبدع و القارئ لأنه يجد أن بينهما عناصر تفكير مشترك أو فلسفة فكرية مشتركة هكذا:-

1- حافز ذهني لدى الشاعر .

2- صورة لغوية تعبيرية (بأربع مراحل نعرضها فيما بعد) .

3- عالم متخيل يثيره الشاعر

4- عالم متخيل يبنيه القارئ أو المتلقي

5- تفاعل فكري أو ذهني لدى القارئ

6- موقف يترتب عليه فهم

أن أبرز ما يمكن أن يقوم المرء بتحليله هو الصورة اللغوية التعبيرية في رقم (2) في محاولة إلى التفاعل الفكري رقم (5) وتحديد الموقف رقم (6) لذا فقد اهتمت الدراسات الأدبية والنقدية في العقود الأخيرة بمعطيات اللسانيات الحديثة وبخاصة ما

جـــاء فـــي عمل سوسير من العلاقات بين الدال sign والمدلولobject (3) أو ما يسمى بالمـــرجع reference والدلالـــة meaning (4) فـــأخذ المحللون يعتمدون في تحليل الـــنص الأدبـــي على المستويات اللغوية ويسمونها مستويات التحليل اللغوي levels of linguistic analysisو هذه أهمها :

1- المســـتوى اللفظـــي ويقومون فيه بدراسة للوحدات اللفظية وما يجب أن تكون عليه من حيث الكلمة وما يصحبها من كلمة أخرى linguistic collocations في مجموعات لفظية لغوية lexical sets .

2- المســـتوى النحوي syntax ويدرس فيه التراكيب النحوية التي تكثر في أسلوب الشاعر من تقديم وتأخير وحذف وزيادة كلمات إلى التراكيب الأصل أو استعمال الجمل الاسمية أو الفعلية وأنواع الفعل وأشباه الجمل ...الخ هذا بالإضافة إلى البحـــث فـــي صـــحة التراكيـــب طبقا لقواعد اللغة من حيث الحركة والمطابقة الجنسية والعددية .... وغير ذلك .

3- المســـتوى الصوتي phonetics ويتناول تحليل الأبعاد الفونيمية والفونولوجية كـــتكرار أصـــوات معيـــنة، ساكنة أو متحركة، مهموسة أو مجهورة، طويلة أو قصـــيرة vowels and diphthongs ، وتبادل هذه الأصوات في نطاق التبادل المعجمي والدلالي السياقي و فيه تتم ملاحظة النبر stress

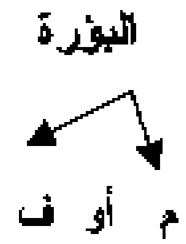
4- والتنغـــيم intonation وتوزيع ظواهر البديع كالجناس التام والناقص والسجع والقافـــية والإيقـــاع البطـــيء والســـريع والإيقاع المقطعي وغيرها من قضايا الأصوات .

5- المســـتوى الصرفي morphology وتدرس فيه البنية الصرفية لكلمات النص؛ الكلمـــات التـــي لهـــا دور بارز أو متكرر فيه كاسم الفاعل أو المفعول أو صيغ المبالغة....الخ .

ولكننا سنعتمد هنا منهجا في التحليل اللغوي نمزج فيه بين هذه النقاط وغيرها من نقاط التحليل البلاغي – أو ما يسمى هكذا – للوصول إلى المعنى الدلالي للنص كاملا semantic meaning أو لرسم صورة لما نرى أن الشاعر يريدها، أو أنها صورة في أنفسنا تريد أن نجد لها في قول الشاعر ما يمكن أن يتضمنها أو يحتويها. نقول : إذا افترضنا أن الجملة الأصل في اللغة العربية هي التي تخضع لأحد أطر الجملة الأصل و عددها ستة أطر (5) وان أي تغيير يجري في أي من هذه الجمل ستكون له أبعاده الدلالية التي تنتقل فيه الجملة الأصل من معناها الثابت، وهو الإخبار المحايد، إلى معنى دلالي آخر، قد تبقى له صلة بالأول وقد يتحول عنه تحولا تاما، وذلك باستخدام واحد أو اكثر من العناصر الدلالية التالية، وكل عنصر له قيمته الدلالية في الجملة الجديدة : الترتيب والزيادة والحذف والتغير في الحركة الإعرابية والتنغيم .

يتم تحليل جمل النص تحليلا صامتا ذهنيا لا يُصرّح بجزئياته عند إبراز التحليل الكلي للصورة الفنية في النص، بل ندعه يتفاعل في الذهن مع مجموعة من القوالب التي تساعد في ضبط المادة اللغوية، أو في ضبط ما وجب أن يضبط منها في قوالب، خلافا للجانب الآخر منها الذي يترك فيه العنان للتفاعل بين العقل والخيال والتجربة والتصور والواقع والاحتمال، ولا أقوال الحقيقة والواقع . فترى أن هناك منطقة يكون فيها البحث في ما نرى – بحثا لسانيا يعمل فيه الباحث على إيجاد التشابك بين عناصر خط سلامة المبنى في النص اللغوي، وغالبا ما يكون هذا لغرض تعليمي؛ لذا فإننا سنعرض عن تفصيل القول فيه ونكتفي منه بالإيجاز الذي يوضح القصد : فجمل النص تقوم في خط سلامتها على صحة ضبط الحركة الإعرابية كأبرز ما يجب أن يضبط ؛ لذا فقد قامت لهذا جهود كبيرة عميقة قام بها السلف الصالح من النحاة فوسموا كل باب نحوي الأصل فيه أن يكون ذهنيا عقلياً يرتبط بمصطلح نحوي، وسموه بعلامة إعرابية اقترن بها واقترنت به، رسم الخليل ابن احمد – رحمه الله – خط سيرها على ضوء نظرية العامل ويتم تسويغها أو تفسير وجودها أثراً لعمل عامل، ظاهر أو مقدر . و إن كان مقدرا فوجوبا ثم حذفه أو جوازا وان استعصى تفسير هذا الأثر بالعامل استعان أو استعين له بالتعليل ومن ثَمّ بالتأويل .

فـــان تم الاطمئنان إلى صحة جمل النص وسلامتها انصرف البحث إلى عناصر تحقـــيق المعـــنى ســـالفة الذكـــر وهـــي: الترتيب والزيادة والحذف والتغيير في الحركة الإعرابـــية والتنغـــيم، وفي هذا المستوى يتم البحث في التشابك أو العلاقات بين الأبواب النحوية ممثَّلة بممثِّلات صرفية تكوّن مباني الجمل فتكون الكلمة في موقعها مجسِّدًا لباب نحـــوي يُـــنظر إليها تحققه في الجملة من حيث المعنى وليس لخدمة الحركة الإعرابية فيرتـــبط كل باب بالآخر، مضيفا بعدا دلاليا جديدا للجملة ندركه بالكشف عن العلاقة بينه وبيـــن بؤرة الجملة (الفعل في الفعلية والمبتدأ في الاسمية) بمعرفة القيمة الدلالية التي إضـــافتها الكلمـــة بصـــفتها ممثّلا لباب نحوي إلى الجملة بأبوابها المتشابكة بعدد من الأسهم أو الدوائر الدلالية فيتم بذلك الترابط بين أبواب النحو في داخل الجملة، يمثّل كلّ باب – وهو ذهني دلالي وليس بمصطلح نحوي يرتبط بالحركة الإعرابية –مبنى صرفي يجسِّده هكذا:



الفاعل = الرفع علاقته بالبؤرة الفاعلية الدلالية

المفعول به = النصب . وعلاقته بالبؤرة المفعولية الدلالية

المفعول له مثلا = النصب . وعلاقته السببية .

المفعول فيه مثلا = النصب . وعلاقته الظرفية الزمانية أو المكانية

المضاف إليه = الجر – متلازم مع ما قبله مخصص له أو محدد .

المفعول المطلق مثلا = النصب . وعلاقته التوكيد ، أو بيان النوع أو ... الخ .

.... الخ

وبذلـــك يتم تجسيد العملية الذهنية بكلمات محسوسة نطقا أو كتابة، مترابطة تــرابط الأبواب النحوية التي تمثلها، وهي كلها مرتبطة بالبؤرة بسبب دلالي، وكلما زاد عدد الأبواب في الذهن زاد عدد الممثلات الصرفية التي تجسدها وزاد بذلك البعد الدلالي الكلــي للجملــة والــنصّ ((وكلّ زيادة في المبنى تقتضي زيادة في المعنى))، فتتم هذه العملــية الذهنــية فـــي عدد من المراحل : يتم في الذهن بناء الفكرة التي يعتزم المتكلم إنشاءها، وهي مرحلة ذهنية محضة تشهد الإرهاصة الأولى للبناء الذهني للفكرة ثم يتم تعلــق (التعلــيق) هذه الفكرة بمبنى صرفي يتم استحضاره من المعجم الذهني المختزن عــند الفـــرد و ((الألفاظ أوعية المعاني)) كما يقول عبد القاهر الجرجاني (6) ثم تأتي مـــرحلة ترتيب هذه الألفاظ في الذهن طبقا لتوالي أهمية أبوابها في الذهن أيضا . ولعل مـــا قالـــه الجرجانـــي فـــي هذا الصدد يعد من أجمل ما يصور هذا التلاحم بين المباني ومعانـــيها، ثـــم ترتيـــبها طـــبقا لأهمية ترتيب معانيها فنثبته هنا مع التنبيه إلى صرف مصـــطلحات الجرجاني أحيانا إلى معان غير المعنى الذي ذهب إليه الجرجاني يقول (7) أعلـــم أن ما ترى انه لا بد منه من ترتيب الألفاظ وتواليها على النظم الخاص ليس هو الـــذي طلبـــته بالفكر، ولكنه شئ يقع بسبب الأول ضرورة من حيث إن الألفاظ إذا كانت أوعـــية للمعاني فإنها لا محالة تتبع المعاني في مواقعها، فإذا وجب لمعنى أن يكون أولا فـــي النفس وجب للفظ الدال أن يكون مثله أولا في النطق فإما أن تتصور في الألفاظ أن تكـــون المقصود قبل المعاني بالنظم و الترتيب وان يكون الفكر في النظم الذي يتواصفه الـــبلغاء فكراً في نظم الألفاظ أو أن تحتاج بعد ترتيب المعاني إلى فكر تستأنفه لا تجيء بالألفاظ على نسقها فباطل من الظن ووهم يتخيل إلى من لا يوفي النظر حقه (7) .

و يقول الجرجاني في موضع آخر :((..... وذلك قولهم انه يرتب المعاني في نفســـه وينزلها ويبني بعضها على بعض كما يقولون، يرتب الفروع على الأصول ويتبع المعـــنى المعنى و يلحق النظير بالنظير و اذا كنت تعلم انهم استعاروا النسيج و الوشي والـــنقش و الصـــياغة لنفس ما استعاروا له النص و كان لا يشك في أن ذلك كله تشبيه وتمثـــيل يـــرجع إلى أمور و أوصاف تتعلق بالمعاني دون الألفاظ فمن حقك أن تعلم أن سبيل النص ذلك السبيل)) .

و أخيرا يقول الجرجاني : ((انه لا يتصور أن تعرف للفظ موضعا من غير أن تعـرف معـنـاه ولا أن تتوخى في الألفاظ من حيث هي ألفاظ ترتيبا و نظما وانك تتوخى الترتيـب فـي المعاني و تعمل الفكر هناك فإذا ما تم لك ذلك اتبعتها الألفاظ وقفوت بها آثارهـا وانـك إذا فرغت من ترتيب المعاني في نفسك لم تحتج إلى أن تستأنف فكرا في ترتيـب الألفـاظ بل تجدها تترتب لك بحكم أنها خدم للمعاني تابعة لها و لاحقة بها و أن العلم بمواقع المعاني في النفس علم بمواقع الألفاظ الدالة عليها في النظم))(9).

ونقول : وأخيرا تأتي مرحلة النظم الذي هو إظهار الفكرة في كلمات مرتبة بها وفيها يتم ارتباط الأبواب النحوية الذهنية وفيها يتم نقل الصور والتجارب والانفعالات ... الخ بالاتحاد بين مختلف ما يسمى بفنون البلاغة وأبواب النحو .

من المعلوم أنَ لأبي القاسم الشابي فلسفة خاصة به تبدو في حديثه عن الحياة و المـوت والفـنـاء والوجود والسعادة والتعاسة وقد أخذت هذه الفلسفة قسما كبيرا من ديوانـه ((أغانـي الحـياة)). وان نظرة سريعة في عناوين قصائد ديوانه تعكس هذه الفلسفة التي كانت تنبع أحيانا من بؤرة شعوره الواعي وغالبا تصدر من منطقة الشعور غير الواعي، فان كلمات الأمل غالبا ترد مقرونة بكلمات اليأس أو الألم ((رثاء فجر))، ((قـيود الأحـلام))، ((أنـا أبكـيك للحب))، ((الأشواك التائهة)) و ((فلسفة الثعبان المقدس)) ...الخ .

ولعل في هذه القصيدة التي اخترنا للوقوف معها ((صلوات في هيكل الحب)) ما يعكس هذه الفلسفة القلقة، فتارة تجده يئن وأخرى تراه و قلبه يخفق للحياة، وثالثة تراه طامحا متطلعا لتحقيق الوصول إلى معنى الجمال، ورابعة ترى خطواته تتعثر أمام نظرته في الأفق البعيد ... إلى غير هذه الصور التي تتزاحم في قصيدته بل تتصارع في قطبين متضـادين مـن المعانـي التي لا يملك القارئ إلا أن يعجب من قدرة الشاعر في جمعها وتنسيقها وتلاحمها حتى غدت منسجمة رغم ما فيها من تعارض أو تناقض في المعنى .

" فالصـــلوات " رمـــز للتعبد والابتهال وتسليم الأمر الذي لا طاقة لنا به إلى مَنْ نُقِرُّ انه علـــى تحقيقه لقادر، رمز للاعتراف بالضعف و الاستكانه أمام ما لا سبيل إلى تحقيقه إلا بقوة اكبر من قوانا فنقرّ له ونعترف . و ((هيكل الحب)) رمز للتطلع بأمل حذر اقتضى أن يعـــبر الشـــاعر بكلمـــات تـــناقض مـــا يسميه علماء اللغة ((المصاحبات اللغوية)) linguistic collocations التـــي تعنـــي ميل بعض الألفاظ إلى اصطحاب ألفاظ أخرى (10) فالصلوات تقتضي المحراب و المحراب يقتضي المسجد، هذا فضلا عما في العنوان من حذف يقتضيه كونه عنوانا. فهل هي صلواته وابتهالاته أم هي صلواتنا وابتهالاتنا أم هي صلوات البشرية عبر التاريخ يؤديها كلٌ بطريقته ووفقا لطقوسه؟ ، إنها صلوات في انحـــناء وسجود وجلال لإله عظيم لا يرد ولا يزجره العبد إذا كان في مكان السجود كما جاء في البيت الأخير من قصيدته ليتم الربط بين أول كلمة فيها مع أخر كلمة، أو قل ليتم العـــناق بيـــن أول صورة فيها وآخر صورة، عناق الانسجام بين العاشقين اللذين فصل بينهما البين ومرارته وألمه كما فصلت الصور المؤلمة بين صورتي المطلع والخاتمة.

والحـــب يقتضـــي الأنثى موطن الدفء والحنان ورمز أحبّ ما تتطلع إليه النفس وتتوق له، واجمل ما تكون عليه الأنثى. أو ذلك الرمز هو الطفولة العذبة، الطفولة التي يعيش معها حبيبها بعيدا عن إمكان النقد الجارح، منها أو من العذال من المجتمع، فتراه يبـــثها ما في نفسه أو في قلبه دون تردد أو وجل، و تراها تستمع إليه بلهفة وانصراف كلـــي له، إنهـــا الطفولـــة بكل معانيها ومعاني حرص الحبيب عليها . ولعل ابرز ما كان يحرص عليه الشاعر في طفولة من أحبّ ((العذوبة)) فافتتح بها قصيدته على غير ما عليه الجملة في نمطها الأصل فجاءت :

مسند إليه + مسند

فالأصـــل فـــي الجملة كما يقول النحاة أن يتقدم المبتدأ إن كان معرفة وان يتأخر الخبر إن كان نكرة و لكن العرب إن أرادت العناية بشيء قدمته (12)

فقال الشاعر : عذبة أنت . محوّلة عن : أنت عذبة

م + خ ý ——— ← ýخ + م

ثم تابع الشاعر استعمال التشبيه بما يعكس نفسية متطلعة تنتقل من أمل إلى أمل مـــن الطفولـــة إلـــى الأحلام إلى اللحن إلى الصباح الجديد، إلى السماء الضحوك، وكيف تكون السماء كثيرة الضّحك في استعمال صيغة((ضحوك)) ؟! إنه الأمل الذي يجعله يجمع كلمات الأمل في القمر وفي الورد وفي ابتسامة الوليد، وفي هذا درجة عالية من البلاغة فـــي التعبير، يقويها انه يربط بين المبتدأ ومجموعة الكلمات بعد كاف التشبيه، إذ لو لم يتقدم الخبر لما كان من الميسور أن يجعل الاتصال بين أنت والأحلام واللحن ... وابتسام الولـــيد، ولمـــا كان للجملة الاسمية ما لها من سحر التعبير المباشر الذي يوصل المعنى بأيســـر الطـــرق، فقد تكرر ورودها كثيرا في هذه القصيدة مساهمة منه في نقل ما في نفســـه نحـــو محبوبـــته الرمز التي يحرص عليها فيشدها بكلمات عذبة وتراكيب قريبة التـــناول تحمـــل معـــنى الإخبار المحايد، يدفعه إلى ذلك حرصه اللاشعوري على التعبير البسيط أمام محبوبته، البسيط حتى حدّ السذاجة، وتلك حال المحب الذي يحس بالاطمئنان إلى حبيبه أو يبحث عن هذا الاطمئنان، فلا تكلف و لا التواء،

يقول : أنت الحياة، أنت فوق الخيال، أنت قدسي.

ويـــبدو الـــنص وكأنما الخط البياني قد أخذت فيه مشاعر المحب تتوقف عند نقطة معينة نتيجة لاستعمال الجملة الاسمية، وهو حريص على أن يظهر ارتفاع الخط البياني لمشـــاعره نحوها واستمساكه بها فاستعمل الشاعر ثلاث طرق لغوية للتعبير عن ذلك : الحذف والزيادة والتكرار:

أنت ....، أنت الحياة في قدسيها السامي و في سحرها الشجي الفريد.

أنت ....، أنت الحياة في رقة الفجر في رونق الربيع الوليد.

أنت ....، أنت الحياة كل أوان في رواء من الشباب جديد.

أنت ....، أنت الحياة فيك وفي عينيك آيات سحرها الممدود.

أنت دنيا من الأناشيد والأحلام والسحر والخيال المديد.

هــذه حقــا بــراعة التصـــوير غــير الواعي : أنت + ∅ مع ما تحتمله الكلمة المحذوفـــة (morpheme zero) مـــن المعـــنى و ما تقتضيه من نغمة صوتية: أنت: أتعجب هي ؟! أنني لا اعرف الكلمة التي اعبر بها لك عن مشاعري : أنت مَنْ بها أحيا، أنـــت مَنْ استمسك بها ....أنت ...... ، أم تراه يريد :أنت ؟! أتسألينني من أنت ؟!! أنت الحياة، و لكن الحياة فيها ما ينغِّص على المرء و لا أرغب أن تكوني كذلك، فأنت الحياة السامية المقدسة، ثم يتابع :

أنـــت ..... أنـــت (ضـــمير المخاطب) و ما فيه من قرب بين المتكلم و المخاطب أنت .....ثــم تتابعــت الكلمات التي تمثِّل جمعا متكرراً ، من المعاني المتكررة أو من تكرار المعانـــي، يـــربط بينهما صوت الراء الذي يحدث نتيجة تكرار ضرب اللسان على سقف الحـــنك : سحر ، فريد، رقة الفجر، رونق الربيع، رواء الشباب، السحر والخيال المديد، وكأنـــي بـــه يضرب باللسان على مكان خروج الحرف متجاوزاً ما يراه علماء اللغة، أو علمـــاء الـــتجويد مـــن ضـــربتين إلى أربع إلى سبع . هذا بالإضافة إلى ما في التبادل الجميل، بل التبادل الساحر بين المد الطويل بين صوتي الواو والياء في كلمات القافية : فريد، وليد،جديد، ممدود، مديد، حدود، خلود ((ونحن نعلم اليوم أن القافية لم تعد مجرد تكـــرار منـــتظم للوحدات الصوتية (الفونيمات) ما دامت تقتضي بالضرورة علاقة دلالية بين الوحدات التي تربط بينها))(13) .

إن المقـــام هنا مقام انفعال وإبراز عواطف، والجملة الاسمية في حدِّها الأدنى من الكلمات ضعيفة القدرة في هذا المجال (14) فكان التكرار، و التكرار من أهم عناصر التوكـــيد فـــي الـــنحو العربي (15) وكانت الزيادة، والزيادة عنصر من أهم عناصر نقل الجملة من بُعدها الدلالي الأول إلى بعد دلالي آخر (16).

أنت الحياة = م + خ + في قدسها السامي + وفي سحرها الشجي الفريد .

=م+ خ +قيد + قيد

أنت الحياة : فيك و في عينك آيات سحرها الممدود

فالجملة الاسمية (أنت الحياة) مباشرة في الوصول إلى المعنى، قصيرة في نقل الانفعال فاحتاجت إلى مزيد من التفصيل فقال :

فيك آيات

خ شبه جملة + م

ولكـــن الانفعال الوجداني يدفعه إلى مزيد، فذكرها بأبرز ما فيها أمام حبيبها، ذكر عينها لما لعيني المحبوبة من اثر في نفس الحبيب، ففيها يرى حبها له، و فيهما انعكاس خجلها عن النطق بما في نفسها، فيهما حيرة دمعة الحب الساحرة . ذكرهما الشاعر في إطـــار مـــا يسميه البلاغيون بذكر الخاص بعد العام إذ إن عينيها جزء منها، وقد ذكرها كاملـــة : فـــيك ... ، وفي عينيك آيات سحرها الممدود . وكأنه يقول : فيك آيات، وفي عينيك آيات زيادة على ما فيك من آيات .

هـــذا المقطـــع الواضـــح من القصيدة الذي جاءت فيه الجمل التقريرية تتعاقب لتقرر شيئا كان فيه قلق خفي في المقطع السابق من القصيدة، يلفت الانتباه فيه صيغة الاستفهام مع (ما) التي يرى النحاة أنها تكون غالبا لغير العاقل :

أنت ...... ما أنت ؟!! رسم جميل عبقري من فن هذا الوجود، فهي رسم جميل عبقري ولكن فيها معنى من معاني الغموض في هذا الوجود و ما اكثر ما فيه من غموض .

فيك ما فيه من غموض وعمق   وجمال مقدس معبود

فيك غموض و لكنني أحبك، فيك عمق والعمق رمز المجهول، ولكنني أحبك . فيك جمال ســاكن انظــر إليه نظرة فتتجلى في قلبي كلّ معاني التطلع والأمل الربيع والورود، أنت الجمال الذي يجعل الزهرة تهتز سكرى ثملة فتبث عطرها دون وعي منها، فأنت روحها و روح الربيع الذي يهبها الجمال .

أنت روح الربيع تختال في الدنيا   فتهتز رائعات الورود

تســيرين في حقلك هذا، فإذا ما أبصرتك عيناي أخذ قلبي يخفق للحياة، تتمايل معه الزهور، و تعزف خطواتك له الأناشيد في حفل صاخب يدوي الوجود له ومعه بالتغريد .

فأي شيء ترك ؟!! هل أنت ((فينيس)) تهادت بين الورى من جديد .

وفينيس رمز إله الحبّ والحياة و الخصب .

والسـمة الثانـية المميزة قصيدة الشابي هذه، استعمال الجمل الفعلية في أنماط مخـتلفة، تارة في اطارها الأصل : ف + فا + مف، أو ف + مف ض +فا. وأخرى في أطر جرى عليها تحويل بالترتيب أو الزيادة أو الحذف . وتقود دراسة الجملة الفعلية في هذه القصيدة إلى الوقوف مع نمطين من أنماط الجملة الفعلية.

أحدهـا جـاء مرتـبطا بجملة اسمية سابقة عليه في محاولة لإعطاء درجة من الإطالة للجملة الاسمية والقدرة في التعبير عمّا فيها من انفعالات ومعان :

هـل أنـت فينـيس تهـادت .... لتعيد الشباب .... أم ملاك الفردوس جاء إلى الأرض ليحيـي . مـن السحر تجلى لقلبي، أنت روح الربيع تختال في الدنيا فتهتز ......وتهب ......الخ .

أما النمط الثاني من الجمل الفعلية فالجملة القائمة بنفسها للتعبير عن فكرة في ذهن صاحبها، وللشاعر في هذا منهج لغوي مميز، يقوم على التقديم و التأخير، تقديم اللفظة تارة وتقديم الجملة أخرى و تقديم البيت ثالثة :

كلما أبصرتك عيناي تمشين بخطى موقع كالنشيد

خفق القلب للحياة ....

فالأصـل فـي الجملـة العربية : خفق القلب = ف + فا، ثم جاء بعدها شبه الجملة (للحياة) ليقيد المعنى المطلق في الجملة و يحصره في ما أراده الشاعر له (17) ولكـن الشاعر هنا حريص على أن ينقل للسامع أن قلبه لا يخفق للحياة إلا عندما تبصر عيناه رمز حبه وباعث الحياة في قلبه. والتقديم هنا يحقق هدفا دلاليا جميلا يجعل المعنى في البيت المتقدم مركزا للمعنى كلّه وبؤرة له، فكأنما انتقلت الجملة إلى معنى الشرط :

كلمّا أبصرتك عيناي .... خفق القلب

فالســامع عــندما يسمع المقدّم الذي يحتاج إلى المتأخر لابد أن ينتظر النطق بهذا المــتأخر علـــى خـــلاف ما لو سمع: خفق القلب للحياة ....، وهذه سمة من سمات المعــنى في اللغة العربية تسعى فيه اللغة وتستخدمه في الجملة لتحقيق المعنى (وغالبا المعنى الانفعالي آو موضع العناية والاهتمام)

ويقول :

أنت تّحييـــــن فــــي فؤادي ما قد مات في أمسي السعيد الفقيد

وتشيدين في خرائب روحي ما تلاشى في عهـدي المجــدود

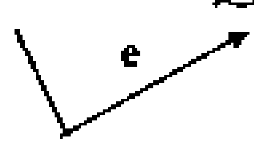
وتبثين رقة الشوق والأحلام والشدو والهـــوى في نشيـــدي

فالمخاطـــب هـــو (أنت) بضميره المتقدم على فعلة الذي ينتمي إلى مصطلح الأفعــال الخمسة، مما يجعل مَنْ ينظر في البيت يقف و قفتين : إحداهما نحوية تركيبية يقول فيها : أنت : مبتدأ خبره الجملة الفعلية التي تليه، ووقفة لغوية دلالية فيقول : أنت : فــاعل الفعــل تحيي تقدّم للعناية و التوكيد (18) . فالأمر هنا صراع بين الحياة التي ظهــرت بظهورك ليحيى بذلك فؤادي الذي قد مات . بُعد استشعار الحياة : أنت تشيدين الخرائــب، وبعــد الإشـــادة والبناء : أنت تضعين (تبثين) ... فالضمير (أنت) وان كان مذكــورا فـــي البيـــت الأول فقط إلا انه مقدم مقدرّ أمام الأفعال في صدر البيتين الثاني والثالث ....

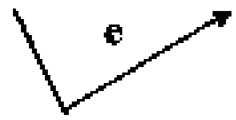
أنت تحيين = فا + ف + ض+ قيد مخصص آو محدد + ...



Ø تشيدين Ø + ف + ض +قيد مخصص آو محدد + ...



ومثلها : ∅ تبثين رقة الشوق = ∅ + ف + ض + مف + ...



وإن استعمال عدد من الألفاظ التي تقوم عليها عدد من الصور المتضادة المتناقضة لجدير بالتأمل العميق؛ لنرى الصراع النفسي داخل المرسل: تارة يتأمل ويرسم صورة لذلك فتنقض صورة أخرى عليها لتهدمها، وما أن يخرج من أنقاض هذه حتى تعود أخرى لتهدم، وهكذا دواليك :

(تحيين) تقابلها (ما قد مات) فكيف تحيي ما جاء موته مؤكدا بقد مع الماضي كما يقول أهل صنعة النحو؟!! و(تشيدين) يقابلها (خرائب الروح) فأيّة إشادة يمكن أن تكون إذا كانت الروح هي الخراب أو فيها الخرائب ؟!! . وما تلاشى في عهدي المجدود ؟!! و أية إشادة تكون بعد التلاشي، أية إشادة في (عهدي) (المضافة إلى ياء المتكلم) ؟!! أما أقر بأن عهده قد تلاشى ؟! فالإشادة يجب أن تكون في عهد غيره إلا أن يكون عهد غيره استمراراً لعهده .

و(تبثين) تتصل بها الرقة والشوق و الأحلام والشدو والهوى، كلها كلمات حالمة رقيقة تلائم الموقف وتنسجم معه، فكيف إذا أخذت هذه الكلمات تتلاحق لتبرز في نشيد بإيقاع الخفيف وخفته :

وتبثين رقة الشوق و الأحلام و الشدو والهوى في نشيدي . وهناك نمط آخر من أنماط الفعل يميز المقطع الثاني من مقاطع هذه القصيدة، هو فعل الأمر الذي خرج عن مقتضاه إلى معنى الرجاء و الطلب الرقيق وقد اختار الشاعر عددا من الأفعال التي تعبر في سياقها عن هذا المعنى تعبيرا واضحا عن الإحساس بلذة مرحلة وخشية انقطاعها وأمل البقاء فيها، ويدافع عن ذلك بكل سبيل ممكن فبعد أن خاطب محبوبته بأجمل الأسماء: يا ابنة النور، النور الذي يضئ القلب ويحيي الفؤاد، ويبث رقّة الشوق، ويجعل الورد يهتز، ويبني الخرائب، ويعيد للشباب وللعالم التعيس الفرح المعسول ... بعد هذا الخطاب الجميل : يا ابنة النور قال : إنني أنا وحدي من رأى فيك روعة المعبود. و هذا التركيب

يتسق تماماً مع المعاني التي سترد في هذا المقطع من القصيدة . فالجملة في وضعها المتوقع أصلا :

رأيت فيك روعة المعبود

ف + فا + قيد مخصص + مف

ولكن المعنى يحتاج إلى توكيد، وتوكيد بأنّه هو وليس غيره، بل هو وحده الذي يعرف لها قدرها، ويدرك قيمة حبها، وأنه هو وحده الذي يستحق أن يعيش لها ومعها، ثم جرى على الجملة تغيير دلالي بإدخال عدد من الزيادات : (إن) وهي عنصر توكيد، ثم الياء (ضمير المتكلم) وهو عائد على (أنا) و(أنا) بعدها توكيد لها، ثم كلمة الحال (وحدي) جاءت مؤكدة المعنى المتضمَّن في التركيب كلّه . فالتركيب مؤكد بأن وبالضمير المكرر مع ما في ضمير المتكلم من التصاق في المبنى وما يوحيه من التصاق في المعنى بما التصق به من القرب أو التقرب، وبالحال المبيّنة للهيئة (وحدي) ثم جاءت الأفعال: دعيني، امنحيني، ارحميني، أنقذيني، انفخي ، ابعثي، وقد تبع كلّ فعل مطلوب وتوضيح له :

دعيني أعيش في ظلك العذب	وفي قرب حسنك المشهود

وكأنما الفعل دعيني يشير إلى معنى، التوسل للبقاء معها وبالقرب من حسنها؛ ليعيش لجمالها و لما تلهمه من نسيج فني ، للطهر ، للسنى، لعيش راهب متبتل ناسك منقطع لها، ذاهل عن كل شئ سواها . فانظر إلى استعمال المصدر مكرراً في صدر البيتين التاليين مشتقا من الفعل (أعيش) :

عيشة للجمال والفن والإلهام	والطهر والسنى والسجود
عيشة الناسك البتول يناجي الر	ب في نشوة الذهول الشديد

والمقطع بكامله مرتبط ارتباطا مذهلا بما جاء في البيت الأول منه : يا ابنة النور، فأنت النور . وهذه ومضة لبداية الصراع مع الظلام واليأس في هذا المقطع، أخاطبك مناديا لأشعر بقربك مني أو لأحسّ بقربي منك (أنني أنا وحدي) فلا أريد لأحد أن

يكـون معـي وأنا انظر إليك إلى (روعة المعبود) فالمعبود واحد، والمحبوب واحد، فلا غـرابة، وإنّما الغريب أن يكون العابد المحبّ واحدا، ولكن العجب يزول عندما نرى هذا المحب المتلهف يسير تائها هائما مؤملا يائسا ، يصرعه اليأس :

فقـد تهدّمـتُ فـي كون من اليأس والظلام مشيد فلقد أمسيت لا أستطيع حمل وجودي ....أمسى تحت عبء الحياة جمّ القيود فهو مهدّم يائس، يعيش في ظلام فوقه ظلام، بل يحمـل الظلام فوق ظهره حتى هدّ قواه فلم يعد يستطيع حمله أو حمل عبء الحياة ولا قيودها .

قلنا : المقطع بكامله مرتبط ببؤرته في البيت الأول ارتباط توسل، وارتباط أمل خافـت باهـت، تصارعه نوبات اليأس القاتل يقتل كلّ ومضة أمل وتفاؤل، ففيه : عيشة للجمـال، وعيشـة الناسك، السلام والفرح، وفيه : ضوء الفجر المنشود المتطلّع إليه، فشـدي من عزمي . وفيه التغني مع المنّى من جديد . وفيه أنغام القلب البلبلي . وفيها صـباح الجمال. وفيه أيضا صور النقض والهدم، صور الصراع بين الأمل واليأس. ففيه الذهول الشديد، وفيه اليأس والظلام. وفيه الحديد وكثرة القيود. وفيه السكون الممدود. وفـيه الشوك والذبول. وفيه المحطم المكدود. وفيه الركود والملل من هذا الركود. ولو عددنـا الكلمـات التـي فيها اليأس وقلة الأمل لوجدنا انها تزيد على مثلي كلمات الأمل والـتطلع. استمع اليه يقول: امنحيني السلام، ولكنه لا يريد أي سلام، يريد سلام الروح الذي يضئ، الفجر المنشود. وأنظر الى تكرار النداء لترى إشارة واضحة للترابط بين ما جـاء بعـد الـنداء فـي هـذا البيـت والبيت البؤرة: ياضور فجري المنشود.......... يا ابنة النور ، أليس في ذلك من إلحاح الفكرة في النفس شئ كثير ؟ !!! ! يأس وظلام وتهـدم يحيط به ويسد عليه كل منفذ ، فليس له إلا طلب الرحمة مستعملا لذلك (قد) أو (لقد) مع الماضي :

ارحميني فقد تهدمّت في كون من اليأس والظلام مشيد أنقذيني من الأسى فلقد أمسيت لا أستطيع حمل وجودي .

حتى الورود التي كانت عنده في المقطع الأول رمزا للأمل والتفاؤل وكانت ترقص عـندما تخطو محبوبته لتحيي له حقل العمر، هي هنا ذابلة يستلها بين بيت الشوك، فلا يريد لها الموت، فبها يحيى و يندفع الدم حارا في قلبه المكبل بالحديد.

يـبدو الـنداء سمة بارزة في لغة هذه القصيدة بعامة، وفي هذا المقطع بخاصة، ويـزداد الـنداء عندما يزداد اليأس . ويحيط الظلام ويطبق عندما يحيط اليأس بالرجاء وتطبق القيود على الحرية، نداء يقوم على استعمال أداة النداء (يا) وعليها يعتمد يرددها محذوفـة المنادى متبوعة بالجار والمجرور صيغة تعجب وإعجاب . ولكنه إعجاب وسط ألـم، وتعجـب داخلـه حيرة ورغبة في الخروج من اليأس . إنها (يا) التي تستوعب إخراج أقصى حدّ من الهواء ليخرج معه شيء من الإحساس بالألم يا يا يا :

يا لها من وداعة .....

يا لها من طهارة .....

يا لها رقة ....

يـزيدها اتسـاقا مع المعنى المطلوب منها دخول (من) التي يسميها النحاة زائدة ونراها لتخصيص وتوكيد المعنى الذي يليها، وداعة ..... طهارة .....

وهـذا يتسـق تماما مع استعمال اسم الفعل (آه) في مطلع المقطع الأخير، ففيه ما يشـير إلى ما يليه من ألم عميق، ظاهره الفرح، يعبر عنه بمجموعة من الجمل القصيرة التـي يكثر فيها العطف بالواو منبثقة من التأوه الذي تتلوه (لو) التي هي للتمني . وقد قـال الـنحاة عنها حرف امتناع لامتناع . فانظر إلى النداء : بيا زهرتي، فالزهرة رمز الـتفاؤل والأمل الضعيف الذي يُخشى عليه. وفي إضافتها إلى ياء المتكلم هنا ما يكسبها (الزهـرة) موقعـا في النفس تحتاج فيه إلى درجة كبيرة من الحذر والحرص على هذا الأمل الضعيف تتوالى حروف العطف والمعطوفات في سياقٍ ظاهره الأمل وباطنه اليأس:

وشموس وضاءة و نجوم ....

وربيع كأنه حلم الشاعر في سكرة الشباب السعيد

ورياض لا تعرف الحلك الداجي ......

وطيور سحرية تتناغى ....

وقصور كأنها الشفق المخضوب ......

وغيوم رقيقة ....

وحياة شعرية ....

هذا كله يشيده سحر عينيك، أليس سحق هذا وسحق آمال من يرجو منك سعادة لا يجدهـا عـند غيرك؛ أليس سحقه حرام حرام ؟!! فعليَّ أن أنهض وعليَّ أن أنتفض لأبقـى مـع هـذه الصـور صـور الأمل تتوجها صورة سحر عينيك، أو صورة عينيك السـاحرتين . وهذه سمة المقطع الأخير من القصيدة، محاولة النهوض تحت ثقل رهيب مـن اليأس المدّمر المحطّم . وإنّ حبّ الحياة يدفع إلى هذا التململ، فمهما كانت الرغبة فـي سحق الآمال قوية إلا أن النفس تصبو لعيش رغيد . ومهما كان الأمل خيالا وليس واقعاً قائماً إلا أن شيئاً من حياة أهل الخلود تقرب صورة هذا الخيال . ولم لا يكون ذلك والـتطلع إلـى سحر عينيك وإلهام حسنك المعبود يبعث هذا بل أكثر منه . فمنك نرجو سـعادة لم نجدها في حياة الورى وسحر الوجود . هذه حقيقة جذورها عميقة في النفس عمـق الأيمان بحقيقة لا يزعزها شئ ولا يتطاول عليها أحد فلا تشوبها شائبة ، حقيقة مرتبطة بالإله ....الإله . وهي كلمة ذكرها يكفي لترسيخ هذا المعنى في النفس (فالحلك الداجـي)، و(الخريف العتيد) و(سكرة الشباب) و(هدم ما شاده الحسن في الفؤاد العمـيد) ذلك كلّه يقتضي الإله (بالتعريف بالعهدية و ليس إله) فهو الإله الذي لا إله غـيره، يقتضي الإله العظيم، والعظيم قوي جبار قادر على ردّ الرغبة في السحق، قادر علـى رفـع القـيود وفلّ الحديد، وبعث الحرارة في الدم من جديد، وإعادة الرقص إلى الورود بعد الذبول وإزالة الظالمة لتعود كالصباح الجديد، وإعطاء النشوة للروح الكئيبة بعـد إن عانقت كآبة الأيام الفؤاد فألجمته وحجبت قدرته على التغريد . انه الإله العظيم الذي لا يرجم العبد ولا يطرده، ولكن أيّ عبد هذا الذي لا يرجمه الإله العظيم ؟ إنّهُ العبد الـذي يديـم السجود والخشوع . فإن كان الإله عظيما مطلق العظمة فالعبد مقيد مقيد،

وكلمـــا ازداد القـــيد في حبّ الإله العظيم ازداد إطلاق الإله هذا العبد في تحقيق الوداعة وجمال الشباب المنعم الأملود .

فـــإذا نظرنا إلى البيت الأخير في هذا المقطع، بل في القصيدة كلها، فإننا نراه يعيد الصورة التي كانت في المطلع، بل في عنوان القصيدة، فكأنما القصيدة ترسم دائرة يرتـــبط آخـــرها بأولها، أو يذّكر آخرها بأولها، أو يبين آخرها ما يقتضيه أولها . وبين الصورتين صور تتصارع داخل هذه الدائرة أو بين هذين الحدّين صراعا تبرز فيه الظلمة الحالكة والخراب والتحطيم ....سمة بارزة في الظاهر، ولكن الأمل قوي إذا ارتبط بالإله العظيم .

فـــالمقطع الثانـــي يبدو كالمارد الجبار في القصيدة، ينقضّ على كلّ صورة جميلة تحـــاول أن تـــبرز، فيحيط به المقطعان الأول و الثالث، فعلى الرغم من أنين الطعنة في الفؤاد الوحيد للزهرة الجميلة في البيت الأول من المقطع الثالث، ألا إنّ هذا الفؤاد الواثق بنـــتائج عطاء الإله العظيم مكافأة لجلال السجود قد وثق واطمأن إلى : تخلّق أكوان من الســـحر ذات الحسن الفريد، وتخلق الشموس الوضاءة، والنجوم المتناثرة تنثر النور في الفضاء المديد :

كل هذا يشيده سحر عينيك

مف + ف + ض + فا

بعـــد هـــذا العـــرض الطويل لصور الصراع النفسي بين الأمل و اليأس، نرى أن نســـأل، مـــن هي (أنت) المحبوبة التي كان الشاعر يخاطبها تارة مأخوذاً بها، متطلعا إليها قريبا منها ، وأخرى صغيرا أمامها يائساً من إمكان الوصول إليها . وثالثة متشبثا فـــي الـــبقاء بجانبها، فهي أنشودة الأناشيد، وفيها شب الشباب وهي التي تضيئ الفجر المنشود وهي الحياة، بل هي دنيا من الأناشيد والأحلام، هي السحر والخيال وهي الحبّ الذي يبعث في النفس الكئيبة النشوة . أليست هي الحرية المطلوبة والخيال المطلوب في وطـــن ســـيطرت عليه التعاسة ومزقه الاستعمار سياسيا واجتماعيا واقتصاديا ونفسيا ؟ أليســـت هي الحرية التي تبقى في فؤاد جيل قادم بعد جيل فقيد؟ أليست هي الحرية التي

هـــي الحياة في قدسها السامي ؟ أليست هي الحرية التي تموت لها الأجيال فتأتي أجيال بعدهـــا لتضـــعها في فؤادها، محبوبةً واحدةً والعشاق كثر ؟ أليست هي الحرية التي لا يحققها العبد إلا إذا اعتمد على الإله العظيم واتخذ لذلك في جلال السجود سبيلا ؟

إنها فوق الخيال وأكبر من الشعر والفن، وفوق النهي واللّوم، وفوق الحدود . إنها عنده مقدّسة يرنو إليها صباح مساء، وبها ينتشي ويخلد. إنها الحرية التي مهما قُتل في ســبيلها أناس تخلّق في الكون أناس للدفاع عنها ومحاولة الظفر بها، إنها الحرية التي مـــنها وبهـــا تـــرجو سعادة لم نجدها في حياة الورى وسحر الوجود . إنها الحرية التي تجعـــل الطيور السحرية تتناغى بأناشيد حلوة التغريد في رياض لا تعرف الحلك الداجي، وتحيل ثورة الخريف العتيد إلى ربيع كأنه حلم الشاعر في سكرة الشباب السعيد .

فـــإذا مـــا نُظـــر إلـــى الرمز على انه خاصية من خصائص الغموض في الشعر، والغموض خاصية داخلية يحاول المبدع الأديب أن يستمسك بها وان يجعلها من الملامح اللازمة للشعر، فيجعل القارئ يسلك سبلا متعددة مختلفة ليقف على ما ذهب إليه الشاعر (19) باحثا عن ثوب عنده أو عن تجربته مختزنة في عمق ذاكرة تململها أو تحركها أو تدفعهـــا بســـرعة كلمـــاتُ الشـــاعر فـــيحدث امـــتزاجٌ بين الوظيفة الشعرية و الوظيفة المرجعية،تهيمن إحداهما على الأخرى عند كل من المرسل والمستقبل المبدع و المتلقي مـــن غـــير أن تطمس إحداهما معالم الأخرى طمسا تاما، فإذا كان ذلك كذلك فان كلمات النصّ عند الشابي يمكن أن توجه في معظمها كلمات رموز نابعة من فلسفته التي نراها بـــارزة في هذه القصيدة معبرة عن مكونات شخصيته : الموت ... الحياة، الوطن ...... الحـــرية ، وبذلك فإننا نرى أن الرمز في عمقه البعيد و مكانه المقدس هو الوطن الحرّ أو هـــو حرية الوطن، أو هو الحرية التي يبحث عنها الشاعر في كلّ مكان، ويرمز لها بعـــدد كبـــير مـــن الكلمات، وهي الحبيبة التي بها يعيش ولها يعيش وهي الحبيبة التي ملكـــت علـــيه كلّ حياته، فلم يعد يعرف طعم الحياة إلا بها، أو قل هي روح الحياة، فإذا ابتسمت دفعت دما حارا في قلبه، واذا مشت اهتزت لها الورود اهتزازاً يتمايل مع اهتزاز إيقـــاع خطواتها السكرانه (السكري)بأناشيد رقيقة التغريد، يصحبها صوت ناي قادم من بعـــيد لـــيكوّن خلفـــية موســـيقية هادئة عميقة ساكنة، تسهم مساهمة رئيسية في بناء

الصـــورة الرومانسية للحبيبة مع حبيبها، أو لتوق الحبيب إلى حبيبته تهتز في مشيتها موقعـــة في نغمات كنغمات البحر الخفيف، تتمايل فيميل منها الجيد وتهتز منها النهود، تمايلا واهتزازا أو اهتزازا وتمايلا خفيفا منظما يتناسب مع تمايل الورود عندما تداعبها نسمة خفيفة. فما أن تنحني حتى تعود لتقف في انتظام كانتظام الأجيال التي ما أن تُهزم وتســحق في طلب الحرية للأوطان حتى تقف بعدها أجيال تضعها منها في الفؤاد . قلت كتمايل الورود أمام نسمة خفيفة تنحني في انتظام يعبر عنه البحر الخفيف بإيقاعه وخفة موســيقاه وانـــتظام تفعيلاته . وقد انتهى بقافية تنتهي بصوت الدال التي توحي بالدوي الـــذي يوصـــل الحال بالماضي، أو الدوي المصحوب بالأنين يطلقه الجيل الحالي لتلتقي أناته بعمق أنين الأجيال في بطن التاريخ، أو في عمقه، صوت الدال التي أخذت صوت الكســرة لمـــا لها من بُعد نفسي يبرزه التبادل البارع بين موسيقى حرفي المد الطويل الواو والياء فتزيده عمقاً في ملامسة قلب الحبيب بحبيبته :

فجري المنشود،

الظلام مشيد،

حلوة التغريد،

أهل الخلود،

حسنك المعهود،

الفؤاد العميد،

لعيش رغيد،

وسحر في جلال السجود .

انـــه الحـــب الصـــادق الكبير بل انه صدق الحب يضحي فيه الحبيب بحياته وروحه، براحته وسعادته، يرى الزهر يرقص ويتمايل إن طرب على وقع خطوات محبوبه، ويرى الفجر يشق الظلام الذي أشادته السنون إن ابتسم محبوبه أو بان حسنه المعهود، يتألق ســـحر الوجـــود إن تحركت الذكريات في قلبه وفؤاده، ولكن الأنين عميق، والقلب كسير

كالكســرةِ في دال رويّ القصيدة، الأنين الذي يبحث منذ فجر التاريخ عن حرية الإنسان وحــرية الأرض وحــرية الوجود على هذه الأرض، فيلتقي بحثه عنها في صرخة هابيل يئــن تحت وطأة حجر قابيل ، يلتقي بأنين صدر الشابي وهو يقلب صوت المد تارة ياء وأخــرى و أو يلــيها دال مكســورة كانكســار أملــه في فجر منشود، أو بدفء لمسة المحبوبة، فلا يملك إلا التضرع إلى الإله العظيم الذي لا يضيع من سجد له، فإن لم يكن بيــنه وبين محبوبته عناق، فليكن بينه وبين رحمة ربّه في محراب هيكله عناق، فيلقى عــباءته أو رداءه وحــتى إزاره، وليترك الأمر لربّه و يكفيه أنه دخل المحراب وسجد، فالرّبّ عظيم، وهو غفور رحيم، فيكفيه أنه للقاء المحبوبة قد نوى، ولاضير بعد ذلك إن تقاعس عن طلبها أو عناقها أو غوى، فالسّجادة في المحراب قد مُدت، والنية قد عُقدت، والســجود كــان، فإن لم يكن أيٌّ من أنواع العناق قد تّم فإن العناق بين مطلع القصيدة ونهايتها قد تمّ .

الهوامـــــش

1- انظر J.R. Firth , Models of meanings , in Papers in linguistics 1934 - 1951 , Oxford University Press , London , 1969 , P.202 .

2- انظر : تزيفتان تودوروف ، مفهوم الأدب ، ترجمة ، منذر عياشي ، النادي الأدبي، جده ، 1990 ص65 .

3- وانظر. De sauser , course in general linguistic ,p.

4- انظر مفهوم الأدب ص18 والمعنى و المرجع، في المرجع والدلالة في الفكر اللساني الحديث ص85 .

5- وانظر تفصيل هذا في : خليل عمايره ، "في نحو اللغة و تراكيبها" ، الفصل الثالث .

6- عبد القاهر الجرجاني : دلائل الإعجاز ، دار المعرفة ص43 .

7- السابق ص43 .

8- السابق ص43 .

9- السابق ص44 .

10- وانظـر Halliday, M.A.K., Patterns of Language, Paper in general descriptive and applied linguistics, Longmans, London, 1966 , p. 198 pesch man , H. (ed) , The Voice of Poetry , an anthology frem 1930 to present day , Evans Brothers Ltd , London , 1969, P.74

11- انظر سيبويه، الكتاب ج ص

12- وانظر أبو حيان الأندلسي ، البحر المحيط 2/ 42-43 .

13- الطاهر لبيب ، سوسيولوجيا الغزل العربي ، الشعر العذري نموذجاً ، ترجمة مصطفى المسناوي ، الدار البيضاء 1987 ، بيروت 1988 ، دار الطليعة ، ص171

14- انظر خليل عمايره ، في نحو اللغة و تراكيبها ، الفصل الثالث و انظر خليل عمايره : رأي في بناء الجملة الاسمية في اللغة العربية ، المجلة الدولية للتواصل اللساني عدد

15- وانظر ابن يعيش ، شرح المفصل .

16- انظر ، خليل عمايره : في "نحو اللغة وتراكيبها" الفصل الثالث .

17- انظر السيوطي : همع الهوامع ، و المرادي : الجنى الداني في حروف المعاني

18- انظر خليل عمايره : في "اللغة وتراكيبها" الفصل الثالث .

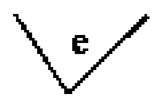
19- ويؤيد هذا منهج أهل الكوفة في النحو العربي ، وبخاصة الكسائي والفراء في تقدم الضمير على الفعل، وقد أفاد منه خليل عمايره في توسيع باب التوكيد ، وانظر : خليل عمايره : اسلوب التوكيد في اللغة العربية . دار الفكر الاسلامي – عمان 1987 .

20- انظر Empson , W, Seven Types of Ambiguity , New York , 3rd Ed ,

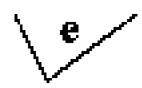
Wharf B.L., Language, Thought and Reality, P. 267.

21- هذه قائمة الرموز المستعملة في تحليل جمل النص .

ف = فعل ، فا = فاعل ، فا = فاعل مقدم للعناية و التوكيد ،

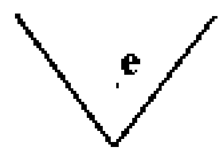


مف = مفعول به ، مف = مفعول به مقدم للعناية والتوكيد . ض =



الضمير .

ض = ضمير عائد على ما يشير إليه مقدّماً عليه لتوكيده . م = مبتدأ ،



التطور اللغوي المعاصر بين التقعيد والاستعمال

إذا كان العصر الحالي في رصد ظواهر التطور اللغوي هو الهدف الإجباري غير المرسوم وغير المحدد، فإن اللغة العربية قد مرت في مسيرتها إليه بثلاث مراحل كبرى تعتمد علـى مرحلة نسبة المجهول فيها أكبر بكثير مما هو معروف عنها تاريخاً، وأقل مما هو مستنبط منها في المراحل اللاحقة مضموناً، تلك هي المرحلة التي تمتد في عمق تاريخ العربية غير الحاصل على اتفاق بين الباحثين على لحظة البداية، وكل ما قيل فيه لا يعـدو محاولة استكناه الماضي على ضوء حركة الحاضر من جهة، وعلى النظرة إلى سـنة التطور في ظواهر الكون من جهة أخرى، وهي المرحلة التي تسبق القرن الثاني الهجـري، القـرن الذي استطاع الخليل بن أحمد الفراهيدي أن يضع فيه بداية المرحلة الثانية في التأريخ لمسيرة اللغة العربية.

ومـع أن تلـك المرحلة – الأولى – قد اتسمت بالغموض في حركة تطورها في تراكيبها، إلا أنها قد استطاعت، ولا ريب، أن تجعل العربية في وضعها المثالي الذي أخذ المـتحدثون بهـا فـي المراحل اللاحقة يتوقون لتقليدها، ويحسبون معيار بلاغة البليغ وفصاحته بمقدار ما في كلامه من مماثلة تلك المرحلة القاعدة. وكما يقرّ الباحثون جلهم بـأن أقوالهـم في رصد حركة تطور تلك المرحلة استنباطي، يقرّون أيضاً أنه قد حصل بيـنها وبين غيرها من لغات الشعوب المجاورة تماس أو تداخل أو تبادل، يعبرون عنه بالتأثر والتأثير بين العربية وغيرها. ولكنهم، على الرغم من التصريح الواضح في كثير مـن الأحيان بأنه قد دخل في العربية ما ليس منها، فهو عندهم من الفارسية تارة، ومن الحبشـية أخرى، ومن الرومية أو من غيرها تارة ثالثة، إلا أنهم يدافعون عن قدسية ما دخـل فـي عربية تلك المرحلة دفاعاً يأخذ مناهج متعددة مختلفة باختلاف وجهات نظر الباحثيـن وتعـدد مـناهج بحثهم، ولكنهم جميعاً، تقريباً، يتخذون سبيلاً إلى أكثر الآراء قـبولاً في هذا، وهو أن العربية قد أخضعت ما دخل فيها إلى موازينها الصرفية، لتتسق مـع مـنهجها في بناء تراكيبها والتعبير عما وفد إليها من المعارف التي لم تكن فيها،

وبخاصـــة أســـماء المســـميات التي لم تكن قد تضمنتها حضارة الناطقين بها في مراحل تـــاريخهم المبكر، ولكن الباحثين بعامة يرفضون أن تكون العربية قد تأثرت في تراكيبها وكيفـــية بـــناء التراكيـــب بأية لغة أخرى، بل ربما كان أثرها في غيرها في هذا الجانب أقوى بكثير من تأثرها بغيرها في المباني الصرفية أو المعاني المعجمية.

وما أن فكر الخليل بن أحمد بوضع منهجه لتقعيد اللغة بوضع القواعد والقوانين التـــي تســـاعد متعلمي اللغة في أن يحذوا حذو العرب في كلامهم، وتعمل على مساعدة العـــرب فـــي الإبقاء على لغتهم نقية في ألسنتهم، في وسط أخذ الاختلاط فيه يزداد يوماً بعـــد يـــوم، بازديـــاد أسباب هذا الاختلاط، بخروج العرب من حدود دائرتهم الجغرافية، ودخـــول غير العرب إلى دائرة العرب التي كان قسم منها مغلقاً تماماً أو شبه مغلق كما يـــنص العلماء القدماء، ما أن كان ذاك حتى بدأت المرحلة الثانية من مراحل حركة اللغة العربية في مسيرتها مع الزمن. وفي هذه المرحلة بدأ الصراع الخفي بين ما أخذ يسمى فـــيما بعـــد بالأصـــالة والمعاصرة، أو بالتجديد والتقليد. وفي هذه المرحلة أيضاً بدأ هذا الصـــراع، بصرف النظر عن مصطلحه، يكتسب التوجه الفكري بالربط بين اللغة والدين، وهو التوجه الذي ظل يلازم العربية إلى يـــوم الناس هذا، يحافظ عليها ويحفظها أحياناً، ويضر بها أصحابه في كثير من الأحيان.

ولعـــل خـــير ما يبين بذور هذا الخلاف المبكر بين العلماء في القرن الثاني من الهجـــرة، تعـــدد النصوص التي جاءت عنهم، كما سنبين بعد قليل، واختلافها في تحديد القـــبائل التـــي يمكـــن أن تعتمد في رصد الظواهر اللغوية لوضع القواعد النحوية على ضـــوئها، ووضع عدد من قوائم القبائل لتتحدد بذلك معايير الصحة والخطأ في الاستعمال اللغـــوي لتراكيـــب العربية، وفي وضعها موضع القياس عليها من الأجيال في العصور المتلاحقة، وهو أمر تعد دراسته أو الوقوف معه وقفة تسد بعض جوانب الخلل في نظرة المحدثيـــن إلـــى مـــنهج، أو مناهج القدماء، أمر يحتاجه الباحث والقارئ، في ما نرى، لـــتحديد معالم طريقه في وصف تطور تراكيب العربية وما يجوز منها أو لا يجوز. فمن أراد أن يعـــالج أمـــراً علاماته ظاهرة قوية حالياً، فإن عليه أن يسبر عمق القواعد التي

يتكـئ عليها كل طرف من أطراف الخلاف ليحدد الداء قبل وصف الدواء. ولعل في ذلك مسوغاً لما قد يراه القارئ الكريم إطالة في هذه النقطة.

أدرك الحـراص من العلماء قديماً أنّ عليهم أن يضعوا الدواء لعلاج اللحن الذي دخـل البيوت العربية، وأخذ يهاجم ملكة اللسان، فخشوا أن ينغلق القرآن والحديث على المفهـوم فـأخذوا يضعون ما أسماه ابن خلدون[1] "صناعة العربية" للحفاظ على ما كانت تؤدي دوره الملكة اللسانية القائمة على السمع وهو أبو الملكات، يقول ابن خلدون: "إن اللغـة هي ملكة في ألسنتهم يأخذها الآخر عن الأول كما تأخذ صبياننا لهذا العهد لغتنا، فلما جاء الإسلام وفارقوا الحجاز لطلب الملك الذي كان في أيدي الأمم والدول، وخالطوا العجم، تغيرت تلك الملكة بما ألقى إليها السمع من المخالفات التي للمستعربين، والسمع أبـو الملكـات، وخشـي أهل العلوم منهم أن تفسد تلك الملكة رأساً، ويطول العهد بها؛ فيـنغلق القـرآن والحديـث علـى المفهوم، فاستنبطوا من مجاري كلامهم قوانين لتلك الملكـة". فكانـت صناعة العربية على يد الخليل بن أحمد – رحمه الله – بوضع القواعد التـي تمكـن مـن "انتحاء سمت كلام العرب"[2]، فكانت المادة اللغوية موضع الدرس هي المـادة التـي أخـذت مـن القبائل العربية عن طريق السماع، ومن ثم القياس عليها؛ لاستنباط قواعد العربية.

ولسـت معنـيا هنا برصد القصص الكثيرة التي قيلت في النشأة الأولى للدرس الـنحوي؛ أهي ما وضعه علي بن أبي طالب رضي الله عنه وأرضاه، أم هي جهود أبي الأسـود الدؤلـي، أم ما كان من عيسى بن عمر، أم قبل ذلك أو بعده، ولكن الذي يهمنا هـنا أن نقـول: إن الجهـود التي قدمها الخليل ورصدها سيبويه في الكتاب تعد الحلقة الأولـى في سلسلة المعرفة للدرس النحوي المعروف، وقد قامت تلك الجهود على تفكير الخليل في وضع علل النحو وعامله، يقول[3]: "إن العرب قد نطقت على سجيتها وطباعها، وعرفت مواقع كلامها وقامت في عقولها علله، واعتللت أنا بما عندي . . . فإن سنحت لغـيري علـة لمـا عللته من النحو هي أليق مما ذكرته بالمعلول فليأت بها". فقد وضع الخلـيل مجموعة من القواعد والقوانين على ضوء نظرية العامل؛ وضعها للأجيال لتتعلم العربـية، ولكـنه لـم يغلـق الباب لتكون علله وحدها السبيل، أو السبيل الوحيد، لتعلّم

العربية وقوانين النطق بها، فترك لغيره أن يعلل بما يراه، وأن يستنبط قواعده وقوانينه التي يمكن أن يعلل بها الظواهر اللغوية في العربية، معبراً عن ذلك بتواضع العالم وثقته التــي لــيس من اليسير أن تجدها في غيره منذ يومه إلى يومنا هذا. فكان الخليل يضع، ويدرك أنه يصنع، منهجاً تعليمياً على أسس تعليمية أخطأ الباحثون – في ما يبدو – في تأصــيل هذه الأسس. وقد أسهم في ذلك عدد كبير من قوائم القبائل التي اعتمدها الخليل مما وضعه العلماء بعده، وأخذ كل منهم بالدفاع عمّا يقول كما يلي:

يســود بين الباحثين منذ زمن بعيد أن الخليل بن أحمد قد اعتمد لتقعيد العربية لهجــات عدد من القبائل العربية التي كان يرى أن لهجاتها كانت تخلو من اللحن؛ لبعدها عن الاحتكاك بغير العرب أو بالعرب الذين كانوا يجاورون من لسانهم غير عربي، سواء أكان ذلك في الحياة اليومية، أم في العبادة كما كان يفعل سكان نجران الذين هم نصارى يتعــبدون بالســريانية، فــترد عدّة قوائم عن تعدد القبائل التي تجتمع فيها الصفات التي يجــب أن تتوافر في مَنْ تؤخذ عنهم عربية التقعيد والقياس، أشهر هذه القوائم وأكثرها انتشــاراً، بل أكثرها وأقواها اعتماداً تحصرها عدّاً في القبائل: أسد وتميم وقيس وهذيل وبعــض كنانة وبعض الطائيين، مع الدفاع عن كلّ قبيلة وسبب اختيارها في هذه القائمة دفاعــاً يعــتمد على المكان الذي كانت تعيش فيه، وسنناقش هذا فيما بعد، ولكنّا لم نعثر علــى أي نــص قديــم يحقــق هذا الزعم. فمن المعلوم أن الخليل بن أحمد تكلم العربية ســليقة، ورحل في بوادي العرب مستزيداً متعلماً من العرب الاقحاح، وناقلاً بوعي العالم مــا ســمع مــنهم، ولكنه لم يقل مطلقا إنه قد وضع تحديداً مكانياً لأخذ اللغة في مرحلة التقعــيد، ولم يروَ عنه أنه قد وضع معايير مكانية تحدد القبائل التي يؤخذ بلسانها، فقد قامــت علل النحو في عقله، وصنفها بطريقته الخاصة بعد أن كان قد طاف في الجزيرة العربية ورحل إلى بوادي الحجاز ونجد، يستمع ويروي ويفكر ويصنّف.

لعــل أقــدم نصّ يتحدث فيه صاحبه عن التحديد المكاني، فينسب وضع القواعد إلــى لهجــات قبائل بعينها هو ذاك النصّ المنسوب إلى أبي نصر الفارابي، وهذا النصّ، في حقيقة الأمر نصان: أحدهما، وهو الشائع الذي يأخذ به الباحثون وهو الذي جاء في مــا أورده السيوطي في المزهر والاقتراح نقلاً عن الفارابي في كتابه المسمّى – بالألفاظ

والحــروف – كما يقول السيوطي. والآخر هو النصّ الوارد في كتاب الحروف للفارابي، وســنبدأ بالأصــل الذي يفترض أن السيوطي قد أخذ عنه، يقول الفارابي[4]: ". . . وأنت تتبيــن ذلــك مــتى تأملت أمر العرب في هذه الأشياء؛ فإن فيهم سكان البراري، وفيهم ســكان الأمصــار، وأكثر ما تشاغلوا بذلك من سنة تسعين إلى سنة مائتين، وكان الذي تولّــى ذلــك مــن بين أمصارهم أهل الكوفة والبصرة من أرض العراق، وتعلموا لغتهم والفصيح منها من سكان البراري منهم دون أهل الحضر، ثمّ من سكان البراري من كان فــي أوسط بلادهم ومن أشدّهم توحشاً وجفاءً، وأبعدهم اذعاناً وانقياداً. وهم قيس وتميم وأســد وطــيء ثم هذيل فإن هؤلاء هم معظم من نقل عنه لسان العرب، والباقون، فلم يؤخــذ عــنهم شيء لأنهم كانوا في أطراف بلادهم مخالطين لغيرهم من الأمم مطبوعين علــى سرعة انقياد ألسنتهم لألفاظ سائر الأمم المطيفة بهم من الحبشة والهند والفرس والسريانيين وأهل الشام وأهل مصر".

ولســنا هــنا بصــدد تحقــيق القول بأن هذا النص هو ذاته النص الذي أورده الســيوطي، أم أن السيوطي قد اعتمد كتابا آخر غير هذا الكتاب للفارابي، أم أن خلطا قد وقــع في تسمية الكتاب، فهذا كتاب الحروف وهناك كتاب آخر وسمه الفارابي "بالألفاظ"، وهو كتاب صغير نافع في المنطق، وقد حققه الدكتور محسن مهدي، أيضا، محقق كتاب الحروف[5].

وســنورد هنا نص السيوطي لنرى الفرق في هذا الموضوع، يقول السيوطي[6]: "وقال أبو نصر الفارابي في أول كتابه المسمى (بالألفاظ والحروف): "كانت قريش أجود العرب انتقاء للأفصح من الألفاظ، وأسهلها على اللسان عند النطق، وأحسنها مسموعا، وأبيــنها إبانة عما في النفس، والذين عنهم نقلت اللغة العربية وبهم أقتدي، وعنهم أخذ اللســان العربي من بين قبائل العرب هم: قيس وتميم وأسد، فإن هؤلاء هم الذين عنهم أكــثر مــا أخــذ ومعظمه، وعليهم اتكل في الغريب وفي الإعراب والتصريف، ثم هذيل وبعض كنانة، وبعض الطائيين، ولم يؤخذ عن غيرهم من سائر قبائلهم، وبالجملة، فإنه لم يؤخذ عن حضري قط، و عن سكان البراري ممن كان يسكن أطراف بلادهم المجاورة لسائر الأمم الذين حولهم، فإنه لم يؤخذ لا من لخم، ولا من جذام؛ لمجاورتهم أهل مصر

والقـبط، ولا من قضاعة وغسان وإياد؛ لمجاورتهم أهل الشام وأكثرهم نصارى يقرأون بالعبرانـية، ولا من تغلب واليمن؛ فإنهم كانوا بالجزيرة مجاورين لليونان، ولا من بكر؛ لمجـاورتهم للقـبط والفـرس ولا مـن عـبد القيس وأزد عمان؛ لأنهم كانوا بالبحرين مخالطيـن للهـند والفرس، ولا من أهل اليمن؛ لمخالطتهم للهند والحبشة، ولا من بني حنـيفة وسـكان اليمامة، ولا من ثقيف وأهل الطائف؛ لمخالطتهم تجار اليمن المقيمين عندهم، ولا من حاضرة الحجاز؛ لأن الذين نقلوا اللغة صادفوهم حين ابتدأوا ينقلون لغة العرب قد خالطوا غيرهم من الأمم وفسدت ألسنتهم.... والذي نقل اللغة واللسان العربي عـن هـؤلاء وأثبتها في كتاب وصيّرها علماً وصناعة هم أهل الكوفة والبصرة فقط من بين أمصار العرب".

فإذا أنعمنا النظر في هذين النصّين خرجنا بعدد من النقاط:

1- أن الـنصّ الـذي أورده السيوطي يشير في مجمله إلى ما أوجزه الفارابي في النص الوارد عنه، مما يرجح أن السيوطي كان يحيل إلى هذا النصّ بعينه، فإما أن تكـون الذاكـرة قد ندّت عن بنود في النصّ الأصل، أو أنه قد فصّل فزاد ما كانت قناعته قد وصلت إليه.

2- أن مـا أورده السـيوطي في مقدّمة نصه عن قريش لم يرد ما يقابله في نصّ الفارابي، هذا فضلاً عن أنّ الصفات الرفيعة التي ذكرها في قريش وفي لهجتها تحـتّم أن تكون هذه اللهجة من النقاء والسمو البياني في مقدمة اللهجات التي يُعـتمد عليها، فقد جاء وصفها بألفاظ (أفعل) للمفاضلة المطلقة[7]، (أجود العرب، وأسـهلها، وأحسـنها، وأبيـنها) وهذه صفات لغة عالية الجودة، يقف الباحث موقف الحائر في تفسير عدم اعتمادها في لهجات التقعيد!!!.

فهـل يكون السيوطي قد اطلع على نصّ آخر لعالم آخر يمجّد فيه لهجة قريش، فاخـتلط الأمـر علـيه، فأورد مضمون نصين في نصّ واحد منسوب إلى عالم واحد، أم أنّ قناعة السيوطي بلهجة قريش كانت رفيعة قوية، فأدرج لهجتها في

صـــدر النصّ الذي شاع عن الفارابي متحدثاً فيه عن قبائل الاعتماد اللغوي في الغريب وفي الإعراب والتصريف.

3- أن القــبائل المعــتمدة عند الفارابي هي: قيس وتميم وأسد وطيء ثم هذيل. أما المعــتمدة فـــي نـــص السيوطي فهي: قيس وتميم وأسد ثم هذيل وبعض كنانة وبعــض الطائييـــن، فزاد السيوطي بعض كنانة واعتمد بعض طيّ التي اعتمدها الفارابي كلها.

4- بيّــن النصّان أن الذين شُغلوا باللغة واللسان العربي وجعلوها علماً وصناعة هم أهل الكوفة والبصرة من أرض العراق فقط، من أمصار العرب.

5- فصّــل الســيوطي في النصّ الذي أورده ذاكراً مجموعة هائلة من القبائل التي كانــت علـــى أطراف الجزيرة العربية أو في داخلها مختلطين بغيرهم مجاورين لهـــم، في حين عبّر الفارابي عن ذلك بإيجاز وتعميم، فقال: ". . . والباقون فلم يؤخــذ عــنهم شيء؛ لأنهم كانوا في أطراف بلادهم مخالطين لغيرهم من الأمم، مطبوعين على سرعة انقياد ألسنتهم لألفاظ سائر الأمم المطيفة بهم من الحبشة والهند والفرس والسريانيين وأهل الشام وأهل مصر".

وهذا كله تعبير ضمني عن حركة التأثر والتأثير بين العربية وغيرها من جهة، وبيـــن قبائل العربية بعضها مع بعض بعد أن انصهرت في إطار فكري موحد، من جهة أخرى.

وهـــنا نـــص آخـــر فـــي هذا الإطار، لا يقل أهمية عن سابقيه في تحديد أبعاد المشـــكلة فـــي مرحلة تكوّن جذورها، يقول ابن خلدون: كانت لغة قريش أفصح اللغات العربـــية وأصـــرحها؛ لبعدها عن بلاد العجم من جميع جهاتهم، ثم من اكتنفهم من ثقيف وهذيـــل وخـــزاعة وبنـــي كنانة وغطفان وبني سعد وبني تميم، وأما من بعد عنهم من ربيعة ولخم وجذام وغسان وإياد وقضاعة وعرب اليمن المجاورين لأمم الفرس والروم والحبشـــة، فلـــم تكن لغتهم تامة الملكة بمخالطة الأعاجم، وعلى نسبة بعدهم من قريش كان الاحتجاج بلغاتهم في الصحة والفساد عند أهل الصناعة العربية"[8].

في نص ابن خلدون هذا ثلاث نقاط رئيسة:

2- أنه جعل قريشا أساس الفصاحة ورأس قبائلها، وهي صاحبة اللغة النقية، وعلل ذلــك بــبعدها عن بلاد العجم، أي أنها لم تكن لتحتك بلغات غير العرب مع أنها كانــت موطن صراع اللهجات العربية المختلفة، ومن قريش انطلق ابن خلدون ليقــيس فصــاحة القبائل من حولها؛ فمن كان قريبا منها كان يتمتع بالفصاحة؛ لقربه منها، ومن بعدت مضاربه عنها قلت فصاحته. لهذا أصبحت قريش مقياسا لسلامة اللغة ونقائها، والفصاحة فيها لبعدها عن الاختلاط.

2- اخــتار ابــن خلدون مجموعة من القبائل يشهد لها بدرجة من الفصاحة بحسب قــربها مــن قــريش تالــية لها في ترتيب الفصاحة، وفيها مما جاء في نصّي الفارابــي والســيوطي سالفي الذكر، وفيه نقص أو زيادة عليهما، فالقبائل هي: ثقــيف وهذيــل وخزاعة وكنانة وغطفان وبنو سعد، فضلاً عن قريش. وحذف قيساً وطيء.

3- أن مقــياس الفصاحة عنده هو القرب أو البعد من قريش وليس العزلة المكانية والعــيش فــي الوبــر كما ذهب الفارابي والسيوطي، فقريش كانت تسكن مكة، وكانت مكة المعلم الحضاري البارز في شبه جزيرة العرب. وربما كان ما ذهب إلــيه ابن خلدون هنا أقرب إلى ما يمكن أن يؤخذ به، إذ ليس العزلة عنده هي العــزلة المكانــية، بل هي العزلة عن الاختلاط بالأعاجم وليس العرب، فإن هذا (أي الاختلاط بالعرب) يولد قوة لغوية ولا يسفر عن ضعف في الملكة اللسانية، وتكاد تكون هذه النقطة العنصر المشترك بين معظم النصوص، فهي تكاد تجمع علــى عــدم الأخذ عن القبائل التي كانت تجاور العجم من فرس وروم وأحباش وأقباط.. . الخ.

وهــناك قائمــة أخرى بأفصح العرب، جاء عن أبي عبيد عن طريق الكلبي عن أبــي صــالح عن ابن عباس قوله[9]: "نزل القرآن على سبع لغات منها خمس بلغة العجز مــن هــوازن، وهم الذين لهم عليا هوازن وهن خمس قبائل أو أربع، منها سعد بن بكر

وجشم بن بكر ونصر بن معاوية وثقيف، قال أبو عبيد: وأحسب أفصح هؤلاء بني سعد بن بكر وذلك بقول رسول الله صلى الله عليه وسلم "أنا أفصح العرب بيد أني من قريش وأني نشأت في بني سعد بن بكر"، وكان مسترضعاً فيهم وهم الذين قال أبو عمرو بن العلاء أفصح العرب عليا هوزان وسفلى تميم".

ولعل نظرة فاحصة إلى خريطة توزيع هذه القبائل تؤكد أنهم لم يكونوا في عزلة مكانية، يرشد إلى ذلك نسبهم، فبنو سعد بن بكر هم سعد بن بكر بن هوزان بن منصور بن عكرمة بن خصفة من قيس عيلان[10] فهم من هوازن، وهوازن لا تعد في أية قائمة من قبائل الاحتجاج والعزلة، وأما ثقيف، وهي إحدى قبائل عليا هوزان فكانت تسكن الطائف، وكان لهم فيها صنم يسمى اللات مبنياً على صخرة، كانوا يحرمون من واديه، ويكسونه، هدمه خالد بن الوليد والمغيرة بن شعبة[11]، أما نسبهم فهم: بنو منبه بن بكر من هوزان بن منصور بن عكرمة بن خصفة بن قيس بن عيلان بن مضر بن نزار بن معد بن عدنان، وهم ثقيف[12]، وكانت سوق عكاظ في أرضهم تفد إليها وفود العرب وشعراؤها يتفاخرون ويتبارزون أمام لجان التحكيم من مختلف القبائل حيث لا مجال للعزلة المكانية.

وتلتقي تميم في النسب مع هاتين القبيلتين، فهم تميم بن عامر بن أد بن طابخة ابن الياس بن مضر بن نزار بن معد بن عدنان[13]؛ أبناء عمومة يلتقون مع بني سعد بن بكر ومع ثقيف، فلابد أن صفةً ما كانت قائمة بينهم بحكم القربى وبحكم سوق عكاظ التي كانت تجمع قبائل العرب.

وتبرز هنا قضية بحث أخرى لابد من الإشارة إليها، وهي أن القرآن الكريم نزل بلغة قريش في ما اطرد عند كثير من الباحثين: القدماء والمحدثين، وهو أمر يؤخذ من غير مناقشة، ولكنا نرى أن إطالة القول فيه مما يحتاجه هذا البحث، ويكفي أن ننظر في اللغات واللهجات الواردة في القرآن الكريم لنعرف أن نسبة نزوله بلهجة قريش كانت على الأغلب كما جاء في ما يروي السيوطي من رد ابن عبد البر[14] في التمهيد على قول من قال نزل القرآن بلغة قريش، فيقول: "معناه عندي على الأغلب لأن غير لغة قريش موجودة في جميع القراءات".

فبعد أن تبين أن العزلة المكانية لم تكن حقا هي مقياس للفصاحة في القبائل العربية، وبعد أن أوضحنا أن الفصاحة قد وضعت لقبائلها عدد من القوائم، بدافع صاحب كل قائمة عن أسباب الفصاحة في قبائل قائمته، وبعد أن ناقشنا بالتفصيل الخلط أو الاضطراب القائم في نصي الفارابي والسيوطي بقي أن نشير ثانية إلى أننا لم نعثر على أي نص عن الخليل بن أحمد يشير إلى أنه اعتمد لهجات بعينها لتقعيد القواعد النحوية. ولعل ما أصبح يتوارثه الباحثون والطلاب من أن النحو قام على لهجات القبائل الست: أسد وتميم وقيس وهذيل وبعض كنانة وبعض الطائيين، هو ضرب من الوهم العلمي، مرده إلى نصي الفارابي والسيوطي المتقدمين، فكيف إن علمنا أن الفارابي متوفى سنة 329 من الهجرة تقريبا والسيوطي متوفى سنة 911 من الهجرة وأما الخليل بن أحمد، واضع علم النحو، فقد توفي سنة 170 من الهجرة تقريبا.

ولنقطع الشك باليقين في أن هذه القبائل التي قد افترى عليها الباحثون، وأن منهج الخليل أيضا كان موضع افتراء، فإن علينا أن نقف مع كتاب سيبويه نهتدي منه إلى منهج الخليل، ونرد به التهم أو الافتراء الذي أسند إلى الخليل، وستكون وقفتنا مع الكتاب لرد هذا الادعاء باستقراء منهج الخليل في شواهد الكتب من الجوانب التالية:

أولا: الشواهد التي لم تنسب إلى قائل، ولسنا هنا بالمعنيين بتحقيق القول في عدد هذه الشواهد، أهي خمسون أم تزيد أو تنقص، فقد كان هذا موضوع بحث أشار إليه عدد من الباحثين. ولكنا نود القول إن من هذه الشواهد ما استعمل لبناء قاعدة نحوية وهو غير منسوب إلى قائل، فمن ثم يمكن القول بأنه ليس لأحد من قبائل قائمتي الفارابي والسيوطي، إذ إن ما جاز أن يحمل على وجه شائع فقد سقط الاحتجاج به، كما يقول الأصوليون[15] وفي قولهم: "الشيء إذا جاز أن يكون حجة في النظير جاز أن يكون حجة في النقيض"[16]، ويقولون أيضا: "يحملون الشيء على ضده كما يحملونه على نظيره"[17] والقواعد الأصولية في هذا كثيرة.

ورد في كتاب سيبويه[18]؛ قال الشاعر:

أستغفر الله ذنبا لست محصيه ... رب العباد إليه الوجه والعمل

أي مـــن ذنب، وهذا من باب الفاعل الذي يتعداه فعله إلى مفعولين، وإن عنيت الدعاء إلى أمر لم يجاوز مفعولا واحدا، فعلى هذا البيت قامت قاعدة باب المنصوب على نــزع الخــافض، وهــو مجهــول القائل فمن باب أولى أن لا يكون لأحد شعراء القبائل الخمس أو الست.

ومــثل ذلك ما جاء في كتاب سيبويه في إقامة قاعدة نحوية تتعلق بالحال مقدما على صاحبه النكرة بعد أن كان صفة متأخرة[19]، قال الشاعر:

وبالجسم مني بينا لو علمته شحوب وإن تستشهدي العين تشهد

أي: شحوب بين.

وقال الشاعر[20]:

علم القبائل من معد وغيرها أن الجواد محمـــــد بن عطـــارد

فمـــنع صـــرف (معـــد) حمـــلا على القبيلة، والأكثر صرفه حملا له على الحي المعروف.

وقال الشاعر[21]:

لا أب وابنا مثل مروان وابنه إذا هو بالمجــد ارتـــدى وتأزرا

فعطـــف (ابـــن) مع تنوينه على اسم لا، لأن المعطوف لا يجعل وما بعده بمنزلة اسم واحد، لأنهما مع حرف العطف ثلاثة أشياء، والثلاثة لا تجعل اسما واحدا.

وقال الشاعر[22]:

يالعنـــة الله والأقـــوام كلهـــم والصالحين على سمعان من جار

فحـــذف المدعو لدلالة حرف النداء عليه، والمعنى يا قوم أو يا هؤلاء، لعنة الله على سمعان. . . لذا رفع (لعنة) بالابتداء، ولو أوقع النداء عليها لنصبها.

ومـــن الشواهد الخمسين ما أورد سيبويه شطره الثاني فقط غير منسوب وعليه وحده أقام سيبويه قاعدة نحوية، أكمله النحاة بعده كما جاء عند ابن يعيش بأنه منسوب إلى الأشجعي، قال سيبويه: قال الشاعر

مواعيد عرقوب أخاه بيثرب

وتمام البيت:

وعدت وكان الخلف منك سجية   مواعيد عرقوب أخاه بيثرب[23]

وجاء عن سيبويه أيضا ما أقام به قاعدة نحوية على حد قول بعض العرب غفلا مـــن غير نسبة، يقول[24] في باب ما يتقدم فيه المستثنى: "وحدثنا يونس أن بعض العرب الموثوق بهم يقولون: مالي إلا أبوك أحد، فيجعلون أحدا بدلا. كما قالوا: ما مررت بمثله أحـــد، فجعلـــوه بدلا"، وفي هذا بناء قاعدة على قول إحدى القبائل العربية لعلها من غير القـــبائل الســـتة. ويستطيع البحث بيسر أن يجمع القواعد كلها التي أقيمت على شواهد غير منسوبة إلى شاعر، وهي ليست قليلة.

ثانـــيا: شـــواهد لشعراء معروفين يقيم عليها سيبويه قاعدة نحوية، سواء أكان الشـــاعر المعـــروف مـــن القبائل الست أم من غيرها، ثم يعضد هذه القاعدة أو الشاهد بشاهد لشاعر مجهول والعكس صحيح؛ ومن ذلك مثلا، أنه أقام قاعدة نحوية جاءت في شـــعر شـــاعر مجهول أعمل فيها صيغة المبالغة (ضروب) في معمولها المتقدم عليها، مؤيدا ما جاء في قول العرب: أما العسل فأنا شراب، وقال الشاعر[25]:

بكيت أخا لأواء يحمد يومه   كريم رؤوس الدارعيـــن ضروب

فأقام قاعدة إعمال صيغة المبالغة في متقدم. ومنه قول ذي الرمة[26]:

هجوم عليها نفسه غير أنه   متى يروم في عينيه الشيح ينهض

ومن ذلك أيضا قول أبي ذويب الهذلي[27]:

قلى دينه واهتاج للشوق إنها   على الشوق إخوان العزاء هيوج

وكذلك قول القلاخ[28]:

أخا الحرب لباسا إليها جلالها		وليس بولاج الخوالف أعقلا

فـــنجد أن القـــاعدة قد بنيت على بيت ذي الرمة، ثم عضدها ببيتين لكل من أبي ذؤيـــب والقـــلاخ، ومن ثم أردف ببيت غير منسوب وقول جرت عليه العرب، وهو قول أيضـــا غير منسوب، يقول "سمعنا من يقول" وهذه صيغة لا تشير من قريب أو بعيد إلى أي من القبائل التي أشار إليها الفارابي أو السيوطي.

ومـــن ذلـــك أيضا أن سيبويه قد أقام قاعدة نحوية على قول شاعر مجهول، ثم أتـــبعه بقـــول شـــعراء معروفيـــن ولكـــنهم ليسو من القبائل الستة، فقد استشهد بقول الشاعر[29]:

"يا سارق الليلة أهل الدار".

فقـــد جعل (الليلة) أي المفعول الأول مجرورة بالإضافة، ونصب المفعول الثاني، وأقـــام عليه قاعدة، وهي أنه يجوز في الاسم الذي يتعدى فعله إلى مفعولين ولم ينون، أن يجـــر الأول وينصب الثاني وليس العكس، كما جاء في القرآن الكريم "فلا تحسبن الله مخلف وعده رسله"*، ثم أورد سيبويه قول الشماخ[30]:

رب ابن عم لسليمى مشمعل		طباخ ساعات الكرى زاد الكسل

وقول الأخطل[31]:

وكرار خلف المحجرين جواده		إذا لم يحام دون أنثى حليلهـــا

والشماخ هو الشماخ بن ضرار بن حرملة بن سنان المازني الذبياني الغطفاني، وأما الأخطل فهو غيات بن غوث بن الصلت بن طارقة بن عمرو من بني تغلب، فهما لا ينتميان إلى القبائل الستة.

ومـــنه أيضـــا مـــا أقيمت فيه قاعدة على شعر أحد شعراء القبائل الست ثم أتى بشواهد من شعر شعراء آخرين ليسو من شعراء هذه القبائل.

قال قيس بن الخطيم، وهو ثابت بن عدي بن سواد بن ظفر وهو كعب من مازن بن الأزد وهو من غير القبائل، يقول:

نحن بما عندنا وأنت بمـــا عندك راض والرأي مختلف[32]

استشـــهد به سيبويه لما جاز من حذف المفعول الذي هو فضله؛ لأن حذف خبر المبـــتدأ، وهـــو عمـــدة، أشد من حذف الفضلة. وللقاعدة ذاتها استشهد بشعر الفرزدق التميمي وهو من شعراء القبائل، يقول:

إني ضمنت لمن أتاني ما جنى وأبي فكان وكنت غير غدور[33]

ومـــنه الاستشـــهاد بقول كل من جرير التميمي، وزهير بن أبي سلمى وهذا من غير القبائل الستة، يقول جرير[34]:

ألا أضحت حبالكم رماما وأوضحت منك شاسعة أماما

بترخيم (اماما) في غير النداء، وترك الميم على لفظها مفتوحة وهي في موضع رفع.

ويقول زهير:

خذوا حظكم يا آل عكرم واذكروا أواصرنا والرحم بالغيب تذكر

بترخـــيم (عكـــرمة) وتـــركه على لفظه، ويحتمل أن تقدر إعرابه على أنه علم لمؤنث ممنوع من الصرف، باعتبار القبيلة.

ومـــنه قول عقيبة الأسدي[35] وهو من قبائل الاحتجاج، وقول لبيد بن أبي ربيعة وهو ليس كذلك، يقول لبيد:

فإن لم تجد من دون عدنان والدا ودون معد فلتزعك العوادل

ويقول عقيبة:

معاوي اننا بشـــر فاسجـــح فلسنا بالجبال ولا الحديـــد

فـــي باب ما يجري على الموضع لا على الاسم الذي قبله، ومثل ذلك في الكتاب كثير.

ثالـــثا: شواهد الشعراء من غير القبائل الستة أقام عليها سيبويه قاعدة نحوية، ثم أتبع هذه الشواهد بشعر شعراء مجهولين، ومن ذلك مثلا:

يقول امرؤ القيس[36]:

أحار أريك برقا هب وهنـــــا   كنار مجوس تستعر استعارا

فمـــنع (مجـــوس) من الصرف على معنى القبيلة، ثم عضد هذه القاعدة بشاهد لرجل من الأنصار:

أولئك أولى من يهود بمدحة   إذا أنت قلتهـــــا ولم تؤنب

فمـــا كـــان اســـما لقبيلة أو حي لا يصرف على الأصل، فالبيت الثاني لرجل من الأنصار، والأنصار ليس قبيلة، وربما كان الأنصاري من قريش أو من غير قريش، وقال الأصوليون[37]: "ما تسرب إليه الاحتمال خرج من دائرة الاستدلال".

ومـــن هذا ما أقيم عليه قواعد نحوية وهو لشعراء من غير القبائل الستة سواء أتبعه سيبويه بشعر لشاعر آخر أم لا، ومنه:

قـــال عمرو بن قنعاس، ونسبه كما يقول المرزباني[38]: هو عمرو بن قنعاس بن عبد يغوث بن محرش بن مالك بن عوف المرادي شاعر جاهلي، يقول:

ألا يا بيت بالعليــــاء بيت   ولولا حب أهلك ما أتيت

يرفع (بيت)؛ لأنه نكره مقصودة لم توصف بما بعدها.

ومنه قول الحطيئة وهو من الشعراء الذين عاشوا في بني عبس، يقول:[39]

ألم أك جاركم ويكون بيني وبينكم المودة والإخاء

بإضمار (أن) لنصب (يكون) والتقدير: ألم يقع أن أكون جاركم وتكون...

ومنه كثير عزة، وينتهي نسبه إلى يعرب بن قحطان[40] يقول:

لمية موحشا طلل

بنصب (موحشا) على الحال وقد كان صفة لطلل فتقدمت على الموصوف فصارت حالا. ومثل هذه الشواهد كثيرة كثيرة في كتاب سيبويه[41].

رابعاً: شواهد شعر تنسب إلى بعض القبائل الستة وإلى قريش، ولكن حكم عليها بالشذوذ، أي أن القاعدة النحوية لا تستوعبها، قال الفضل بن عبد الرحمن القرشي:

[42] إياك إياك المراء فإنه إلى الشر دعاء وللشر جالب

كأنه قال: إياك، ثم أضمر بعد إياك فعلا آخر، فقال: اتق المراء، فنصب (المراء) بعد إياك مع حذف العطف، وهو غير ما عليه العربية مع أن المازني قد قال فيها: "لما كرر إياك مرتين كان أحدهما عوضا من الواو"[43].

ومنه (في الضرورة) قول عامر بن جوين الطائي:[44]

فلم أر مثلها حباسة واحد ونهنهت نفسي بعدما كدت أفعله

فحملوه على (أن) لأن الشعراء قد يستعملون (أن) مضمرين كثيرا فنصب الشاعر (أفعله) بتقدير أن قبله.

ومنه قول أبي زبيد الطائي:[45]

أقام وأقوى ذات يوم وخيبة لأول من يلقى وشر ميسر

فرفع بعض الشعراء المنصوب على المصدرية فجعلوه مبتدأ وجعلوا ما بعده مبنيا عليه، وفي هذا البيت رفع (خيبة) بالابتداء لما فيها من معنى النصب على المصدر المستعمل في الدعاء.

خامسا: شواهد تنسب إلى قبائل نص السيوطي على أنها لم يؤخذ منها؛ لأن ألسنتها قد فسدت لمجاورتها من ليسو بعرب، ومن ذلك ما استشهد به سيبويه من شعر

غياث بن غوث بن الصلت بن طارقة بن عمرو من تغلب[46]، وتغلب قال فيها السيوطي". . . ولا مـــن تغلـــب واليمـــن فـــإنهم كانوا بالجزيرة مجاورين اليونان"[47] ومنه أيضا ما استشـــهد به سيبويه من شعر طرفة بن العبد بن سفيان بن سعد البكري الوائلي[48] وبكر من القبائل التي رفض السيوطي الأخذ عنها "... ولا من بكر لمجاورتهم للقبط والفرس".

وإن مـــن يدرس كتاب سيبويه يجد أنه قد بني بمنهجية لم تكن في نية بانيه أن يعـــتمد فـــي التقعيد لهجة معينة، أو أن يفضل لهجة على لهجة، فضلا عن أن يكون قد اعـــتمد عـــددا محددا ومعينا من اللهجات كما جاء في ما نص الفارابي وتأثر به كل من جاء بعده، فإن علمنا أن الفرق الزمني بين الخليل ابن أحمد صاحب الفكرة الرئيسية في التقعيد النحوي، وصاحب الأفكار والآراء التي اعتمد عليها سيبويه في كتابه الكتاب، هو الفـــرق بيـــن سنة 170 من الهجرة تقريبا حيث توفي الخليل بن أحمد، وسنة 329 من الهجـــرة حيـــث توفـــي الفارابي صاحب النص الذي تأثر به الدارسون من القرن الرابع الهجـــري إلـــى يومنا هذا مع أن مضمونه بلا وجود حقيقي لا في كتاب سيبويه ولا في مـــنهج الخليل في التقعيد النحوي. فمما هو واضح أن الخليل قد أخذ النص الفصيح عن العـــرب الأقحـــاح بصرف النظر عن القبيلة التي كانوا ينتمون إليها، فالغاية عنده كانت الفصـــاحة والاتساق مع ما كانت عليه العربية آنذاك، والخليل في ذلك طب خبير، فضلا عـــن أنه كان من أصحاب السليقة اللغوية، ويحفظ الشعر، ويقرضه، وكان خبيراً بكتاب الله ولغته، حريصاً عليه وعليها، وعلى استقامة ألسنة الناس عند النطق بها أو القراءة به.

أخـــذ الخلـــيل النص الفصيح وإن كان قائله ليس بالمعروف، وبنى قواعد النحو التـــي تمكن المتكلم أو المتعلم من انتحاء سمت العرب في كلامهم، ومكن القارئ لكتاب الله من القراءة السليمة، وما ورد من كلام العرب مخالفا لهذا القواعد فإنه قد حكم عليه بالشـــذوذ، والشاذ صحيح ولكنه لا يتفق مع القاعدة التي قعدت، لذا فإنه يحفظ ولا يقاس علـــيه، فـــإن المقعد مهما اتسعت قاعدة الاستقرار عنده فلن يتمكن من جمع اللغة كلها حـــتى لـــو كانـــت صـــغيرة، فكيف إن كانت اللغة التي كان الخليل يقعد القواعد لها هي العربية المعروفة باتساعها وتعدد لهجات المتحدثين بها.

وتأتي المرحلة الثالثة في مسيرة العربية، وهي مرحلة لا تبدو معالم بداية حدودها الزمنية واضحة، وإن كنا ما نزال نعيش فيما يبدو أنه، على الرغم مما فيه من متغيرات لغوية عميقة، بمثابة ارهاصة أو مقدمة لما يمكن أن يكون مرحلة ما يسمى بالعولمة (الثقافية والاقتصادية و ... الخ).

اختلطت العربية في هذه المرحلة بغيرها اختلاطاً صاحب التفاعلَ في الاختلاط الفكري والحضاري، القائم على ظهور عدد من رواد المناداة بضرورة إجراء التغيير في العربية لتلائم ما آلت إليه الحضارة العالمية في معطياتها، أو حتى لتغيير جذري أو جوهري فيها، مما أدى إلى تسارع في ظهور نتائج التأثر والتأثير الذي اتسمت فيه العربية بالضعف الشديد، نتيجة للسيطرة السياسية والاقتصادية متعددة اللغات والاتجاهات على أرضها: تركية وإنجليزية وإيطالية وفرنسية وغيرها، مما جعلها تقف موقف المتهم بالعجز عن الوفاء بما يُطلب منها في مرحلة أخذ أصحاب العربية يحسون بضعف الإبداع عندهم في مختلف مجالات المعرفة أمام التقدم الغربي الكبير، مما دفع نفراً منهم إلى المناداة بتغيير حروف العربية، أو بتيسير نحوها، أو بتغيير نمط كتابتها مع الإبقاء على حروفها العربية، أو إلى اعتماد العاميات بدلاً منها، فهي في رأي جل هؤلاء مسؤولة عن تخلف الناطقين بها، أو هي قاصرة عن متابعتهم في سعيهم للحاق بركب التقدم العلمي الحضاري. ولا أظن أن كثيرين من قراء العربية بحاجة إلى تفصيل القول في هذا الموضوع، ولا في ردود المدافعين وإلقاء التهم بغير منهجية ثابتة واضحة، وكأنما كانوا – وللأسف ما يزالون – يرون أن ردّ الجائر يكون بالجور عليه، حتى إن كانت الضحية بأسهم الطرفين هي غاية الإصلاح والحماية في ادعائهما، وهي اللغة.

لا ريب أن تغيراً قد حصل في اللغة العربية في مرحلتها الأخيرة – الثالثة – في ألسنة الناطقين بها نتيجة لمزاحمة شديدة من العاميات أولاً، ومن اللغات الأخرى ثانياً، وذلك في:

- الأصوات، من حيث المخارج والصفات.
- المباني الصرفية وموازينها.
- التراكيب النحوية.
- الدلالة (التركيبية والمعجمية)

ولكننا سنتوقف مع التراكيب النحوية وارتباطها بالتغير الدلالي، فالحديث عنها كلها يحتاج إلى مساحة ليست ميسورة لمكان نشر هذا البحث.

من الواضح أن التغير في أصوات العربية يجري ببطء شديد، وأن مزاحمة العاميات أو اللغات الأخرى تقابلها مقاومة عنيدة في أقلام الذين يكتبون بالعربية الفصحى، أو يتكلمون بها. وما ينطق به المتكلم بالعامية يعرض عنه تلقائياً عندما يمسك بالقلم ليكتب، ولا يبقى في خط قلمه إلا ما لا يدرك أن الفصحى على غيره، كالأخطاء التي يقع فيها الطلاب: "فعل مظارع مرفوع بالظمة" وما ماثلها. لذا فإننا سننصرف عن الأصوات لنأخذ باباً من أبواب الصرف مثلاً من أمثلة تطور المباني الصرفية، وهو باب الممنوع من الصرف، لما يكثر الوقوع الخطأ فيه، فنتخذ منه مثلاً لتطبيق منهج معالجة مثل هذه الأبواب، في البنية الصرفية، وفي التراكيب الجملية على حدٍّ سواء.

ونذكّر هنا ثانية بما بيّنا قبل قليل، بأن القواعد النحوية التي اعتمدها الخليل ابن أحمد لم تكن تعتمد لهجات القبائل الست التي دار حولها جدل طويل بين العلماء. ولتوسيع المجال أمام مستعملي العربية نرى أنّ ما انطبق عليه قياس لغوي في ما كانت العرب قد استعملت يمكن أن يُعتمد في عربية اليوم في الحكم بصحتها وجواز استعمالها، ولكن لا يكون في ما يسمى باللغة العالية التي تقف في ذروة الفصاحة أو البلاغة.

كثر الجدل والخلاف بين النحاة في "الممنوع من الصرف" حتى إنّ السهيلي، وهو من أبرز علماء العربية في عصره، قد وصف اضطراب العلماء وكثرة أقوالهم فيه بأنها كانت مدعاة لتضاحك العلماء.[49] وإن بؤرة هذه المسألة التي يرتكز عليها الباب كله

هـي مسألة علة المنع من الصرف، وقد اختلف العلماء في المقصود بالصرف هنا، فهو التنويـن كمـا جاء في تعليق ابن برهان[50] على قول سيبويه[51] "التنوين علامة للأمكن"، وتظهر عليه علامة الجر مع الألف واللام، أو الإضافة مع وجود علة المنع[52]، خلافا لما ذهـب إلـيه بعـض العلمـاء وهـم الزجاجـي[53]، والفارسـي[54]، والجرجاني[55] وابن عصـفور[56] مـن أن الصرف هو الجر والتنوين معاً[57]، فمنع الاسم منهما لشبهه بالفعل. ويرى جُلّ النحاة أن ما يمنع من الصرف هو اجتماع علتين من تسع، أو علة واحدة تقو مقـام اثنتيـن، والعلـل التسـع هـي: العدل، والعلمية، والصفة، والعجمة، والتركيب، والتأنيـث، والألف والنون، ووزن الفعل، وصيغة منتهى الجمع. والتي تقوم مقام اثنتين هي التأنيث اللازم، وصيغة منتهى الجموع.

وهـناك خلافات طويلة جداً، وآراء متعددة في فلسفة المنع من الصرف، منها: الـثقل وشـبه الفعل، يقول سيبويه[58]: "فالتنوين علامة للأمكن عندهم، والأخف عليهم، وتـركه علامـة لما يستثقلون"، وبينهم خلاف كبير في معنى الخفة والثقل وأسباب كل مـنهما، على مذاهب فلسفية لا تتفق مع أي منهج علمي نراه[59]، وأما شبه الفعل فالقول فـيه عـندهم غـامض غموضاً لا يقل عن سابقه. ومنها: أنّ التنوين فاصل بين المفرد والمضـاف، وهـو رأي الكوفيين، وقد أخذ به السهيلي[60]، فقد قال متهكما في رده على القائليـن بالـثقل[61]: "... فيقال لهم: أثقل حسي هو أم ثقل عقلي؟ فإن أردتم ثقلاً يدرك بـالحس؛ إما بحاسة اللسان وإما بحاسة السمع، فلا شك أن فرزدقاً وشمردلاً ومسحنككاً وحلكوكـاً وأشيباباً أثقل على الحاستين من زينب وسعاد وحسناء. وإن عنيتم ثقلاً عقلياً يدرك بالقلب ويوجد في النفس، فلا شك أن قولك: همٌ وغمٌ وسخطٌ وبلاءٌ وجذامٌ وبرصٌ أثقـل علـى النفس أن تسمعه من حسناء وكحلاء... فهذا الثقل منصرف، وهذا الخفيف غير منصرف، ولا يتصور في العقل ولا في الوجود ثقل خارج عن هذين النوعين العقلي والحسي". فيرى[62] أن "المانع من صرف الأسماء استغناؤها عن التنوين الذي هو علامة للانفصـال، واشـعار بـأن الاسم غير مضاف إلى ما بعده ولا متصل به، وليس دخول التنويـن في الأسماء علامة للتمكن كما ظنه قوم، فإن العرب لا تريد أن تشعر المخاطب بتمكـن الاسـم. ولا أيضاً التمكن معنى يُحتاج إلى بيانه وإعلام المخاطب به، ولا أيضاً

قرطعبة، وهدبد، ودرداقس، وهي كلها منصرفة، بأكثر تمكناً في الكلام من أحمر وأشقر وبيضاء وحسناء، بل هو أكثر تمكنا في الكلام وهم له أكثر استعمالاً".

ومــنها، الحكايــة والتركيب، وهو مذهب الخوارزمي صاحب التخمير في شرح المفصل[63]، ويقصد بالحكاية ما جاء على وزن الفعل مع الوصف: أعلم وأجهل، وما جاء علــى وزن الفعــل مع العلمية: يزيد ويشكر. ويقصد بالتركيب مثل: بيت بيت، وخمسة عشــر، ومــثل: بعلبك. وفيه سبعة أنواع: تركيب العلمية مع العجمة، أو مع التأنيث، أو مــع العلمــية، أو مــع العدل، أو مع الجمع مثل قناديل أو مع المشابهة لألفي التأنيث: سكران.

وهذا رأي لا جديد فيه، بل هو تكرار لأقوال العلماء السابقين، ولا نراه يستحق المناقشــة. ومــثله القول بأن التنوين فارق بين المنصرف وغير المنصرف، وهو قول الفراء، وهو راجع إلى ما كان سيبويه قد قال كما ذكرنا سابقاً.

هــذه مجمل الآراء التي قيلت في هذا الباب، وإن من ينعم النظر فيها، يجد أنها شــكلية تعمــد إلــى تســويغ مبني قد ورد نطقه عن العرب بكيفية معينة عند بعضهم، وبكيفــية أخــرى عــند آخرين، فأمسك النحاة بوجه واحد وأهملوا الآخر، بل منعوا أو حــرموا استخدام الآخر، مع أنه قد ورد في الاستعمال اللغوي، ومن ذلك قول جرير، أو عبد الله بن قيس الرقيات:

لم تتلفّع بفضل مئزرهــــا ... دَعْدٌ ولم تُغْذَ دَعْدُ في العلــب

وقول الحطيئة:

ألا حبذا هندٌ وأرض بها هندُ ... وهندٌ أتى من دونها النأي والبعد

فصــرف (دعــد) ومــنعها من الصرف في بيت واحد. ومثلها: لوط ونوح أي الثلاثــي ســاكن الوســط، يقول سيبويه[64]: "فإن سميته بثلاثة أحرف فكان الأوسط منها ســاكنا، وكانت شيئاً مؤنثاً، أو اسماً في الغالب عليه المؤنث، ... فأنت بالخيار إن شئت صرفته وإن شئت لم تصرفه، وترك الصرف أجود".

وأمـــا القول بالخفة والثقل من أسباب المنع من الصرف، فقول لا يستقيم، وهو مـــردود بـــأن الكلمة ذاتها إن أطلقت على مذكر فهي مصروفة، وأن أطلقت على مؤنث فهـــي ممنوعة من الصرف، مثل: نهاد وسعاد وصباح وغيرها. ويرى ابن جني التخيير بين اللغتين من غير ترجيح[65].

إن مَـــنْ يدرس الخلاف بين النحاة في هذا المبنى الصرفي، يجد أنّ آراء النحاة كلهـــا تعتمد على تسويغ شكلي لما كان قد جاء في كتب النحاة المتقدمين، وبذا، فإن ذلك يبيـــن أن الصـــراع كان في قسم كبير منه في مثل هذا الباب من التصريف العربي، وفي قســـم كبـــير مـــن أبـــواب التراكيب النحوية أيضاً، كما سنبين، كان صراعاً بين القاعدة والاســـتعمال اللغـــوي. فمن قال بالمنع في الأمثلة السابقة فقد اعتمد على القاعدة التي تنص على ضرورة المنع إذا اجتمعت علتان، وأخذ يدافع عن قوله بفكرة الثقل أو بفكرة الفرع والأصل، وكلها ذهنية عقلية لا تقوم على حجة علمية. فالصرف عند البصريين[66] هـــو الأصـــل والمـــنع هو الفرع، فإذا اجتمع سببان لإخراج الأصل إلى الفرع فلابد أن يخـــرج. وأنّ سبباً واحداً فقط لا يقوى على إخراجه من خط الأصل إلى خط الفرع. وإن ورد شـــيء مـــن هـــذا فـــي كلام العرب – وقد ورد كثيراً – فشاذ لا يقاس عليه، أو أنه مخالف للهجات القبائل المعتمدة في التقعيد، أو... الخ.

وبمحاولـــة ســـريعة لجمـــع عـــدد من الشواهد التي جاء بها السماع من قبائل مخـــتلفة مـــتعددة صرف فيها ما ليس بمنصرف على ضوء القواعد أو العكس، فإننا قد وجدنا ما يزيد على عشرين شاهداً منع فيها صرف ما كان حقه الصرف، وما يزيد على ثلاثين شاهداً صرف فيها ما حقه المنع على ضوء القواعد. ونحن على درجة عالية من القـــناعة العلمية القائمة على نوع من الاستقراء أن ما من نمط بنائي صرفي مُنع صرفه إلا له مخالفـــة في لسان قبيلة من قبائل العرب. فإذا اعتمدنا قول ابن جني: لغات العرب كلهـــا حجة، وإذا نظرنا إلى الحاجة إلى تيسير استعمال اللغة في هذا العصر على ضوء اســـتعمال اللغـــة عـــند قبائلها القدماء، أي اعتماد الاستعمال اللغوي وعدم الوقوف عند قســـرية القاعدة، فإننا لا نرى ضيراً في تيسير استعمال اللغة بما هو في استعمال اللغة

عـــند أربابها المتكلمين بها سليقة وهي مستعملة يجري بها الاستعمال اللغوي، والقدرة على صده ليست ممكنة.

ولا يخـــتلف القـــول فـــي التراكيـــب اللغوية في جوهره عن القول في المباني الصـــرفية، إلا أنّ مـــزيداً مـــن العناصر وقرائن التحليل يجب أن تؤخذ في الحسبان عند معالجـــة قضايا التراكيب، أهمها الامتزاج أو التلاحم العضوي بين التراكيب والدلالة. فإن دراســـة أيّ مـــنهما فـــي معـــزل عـــن الآخر سيؤدي إلى ما وصل إليه متكلمو العربية المعاصـــرون أو مـــتعلموها، الذين يجيدون حفظ قواعد ابن مالك، أو متن ابن عقيل، أو تذكـــر كـــل مـــا قالـــه سيبويه أو ابن يعيش أو ابن الحاجب... الخ دون أن تكون عنده القدرة، أو الإحساس بالراحة أو الألفة إذا ما أقبل على استعمال اللغة في موقف يقتضي اســـتعمال الفصحى. فيعتريه ما يعتري متعلمي اللغة الإنجليزية مثلاً في الأقطار العربية، فيظـــنون أنهـــم قد أتقنوا قواعدها في الحصص التي يطلق عليها GRAMMER، ولكنهم يجـــدون عـــند ذهابهم إلى موطن اللغة أن ذاكرتهم موزعة بين ما كانوا قد تعلموا، وما وجدوا عليه اللغة في حقيقة استعمالها على السنة المتكلمين بها سليقة.

إن دراســـة التراكيب تحتاج كما ذكرنا إلى المزج التام بين المعنى والمبنى. وقد اقترحنا في سلسلة من البحوث والدراسات والكتب التي تمّ نشرها في حلقات متوالية منذ ســـنة 1982م، مـــنهجاً للتحلـــيل اللغوي، قوامه الاعتماد على ما جاء في كتب التراث، وتوجـــيهه توجـــيهاً دلالـــياً ربمـــا لم يكن قد رمى إليه صاحبه في كثير من الأحيان[67]، وأســـه البـــنود الخمســـة التالـــية: الترتيـــب، والزيادة، والحذف، والتغير في الحركة الإعرابـــية، والتنغيم. وسنختار هنا ثلاثة أبواب نحوية، نطبق عليها وجهة نظر تحليلية تربط بين المبنى والمعنى، يكثر فيها الخطأ في الاستعمال المعاصر إذا ما احتكمنا إلى ما يقولـــه الـــنحاة القدمـــاء، على الرغم من أن الاستعمال المعاصر يتوافق مع الاستعمال التركيبـــي الدلالي عند القدماء، ولا يمنع من قبوله حالياً إلا قسرية القاعدة النحوية ليس غـــير. وتقـــع الظاهـــر اللغويـــة التي اخترنا في الأبواب الثلاثة التالية: المبتدأ والخبر، والـــبدل، والعطـــف. فـــنأخذ من الأول العلاقة التركيبية الدلالية بين المبتدأ والخبر، ومن

الثانـــي ظاهرة إبدال الظاهر من المضمر وعود الضمير على لاحق، ومن الثالث العطف على المجرور من غير تكرار الجار.

ظاهرة جواز تقديم الخبر على المبتدأ وعود الضمير:

اخـــتلف النحاة في جواز تقديم الخبر إذا كان صفة نحو: (زيد قائم)[68]، ولهم في هذه المسألة رأيان:

الأول: ذهـــب نحاة الكوفة إلى أنه لا يجوز تقديم خبر المبتدأ مفرداً نحو: (قائم زيـــد)، واحـــتجوا بأن تقديم الخبر يؤدي إلى الإضمار قبل الذكر، ففي الخبر ضمير يعود على المبتدأ، فلو جوّزوا التقديم لأدى إلى تقدّم ضمير الاسم على ظاهره[69].

واحـــتجوا أيضـــاً بأنّ المبتدأ ذات والخبر صفة، والذات قبل الصفة بالاستحقاق، فوجب أن تكون قبله في الذكر قياساً على التوابع.[70]

وردّ الإمـــام يحـــيى بن حمزة على الاحتجاج الأول بأنه ليس هناك إضمار قبل الذكر، لأنّ الخبر في النية مؤخر، قال[71] "وهذا فاسد؛ فإن الخبر وإن جاز تقديمه لكنه في النية مؤخر، لأن رتبة الخبر لاشك في كونها متأخرة عن المبتدأ، لأنه حديث عنه، فلهذا لم يكن إضمار قبل الذكر لما كان في النية مؤخراً".

وأجاب ابن فلاح على احتجاجهم الثاني، بأن ذلك يقتضي أن يكون تقديم المبتدأ أولـــى لا واجـــباً، وأما القياس على التوابع فالفارق موجود، وذلك من حيث إن التوابع تشـــارك المتبوع في الجهة، فكأنها هو، والشيء لا يتقدّم على نفسه، وأما الخبر فإنه لا يشاركه في الجهة فجاز أن يتقدّم عليه[72].

الثانـــي: مذهـــب جمهـــور البصريين[73]، وهو جواز التقديم مفرداً كان الخبر أو جملـــة: وهـــذا هو رأي سيبويه[74]، والمبرد[75] والفارسي[76] والجرجاني[77] والزمخشري[78] وابن الحاجب[79] واستدلوا على ذلك بالسماع.

فمما استُدل به قوله تعالى: "سواء محياهم ومماتهم" وقوله تعالى: "سواء عليهم أأنذرتهم أم لم تنذرهم" و(سواء) في الآيتين هي الخبر.

كمـا اسـتدلوا بما رواه سيبويه عن العرب، وهو قولهم: (تميميٌّ أنا) وقولهم: (مشنوءٌ من يشنؤك).

ومما استدل به الفارسي قول الشاعر:[80]

كلا يومَيْ طوالةَ وصلُ أروى ظنونٌ، آنَ مطَّرحُ الظنونِ

فقدم الخبر (وصل أروى) على المبتدأ (ظنون).

وهـذا الـرأي هو ما اختاره الحسن بن أبي عباد وأبو السعود والحيدرة اليمني وابـن يعـيش الصـنعاني وابـن فلاح اليمني، والهرمي، والإمام يحيى بن حمزة، قال الحـيدرة[81]: "ومبـتدأ يجـوز تقديمه وتأخيره وهو كل مبتدأ أخبرت عنه بمفرد نكرة أو بحرف أو ظرف أو جملة ابتدائية أو فعلية مثل: زيد قائم، وزيد أمامك".

أمـا في إعراب هذه الجملة (قائم زيدٌ) عند التطابق بين المبتدأ والخبر، فقد ذكر ابن أبي الربيع فيها وجهين:[82]

الأول: أن يكـون (قـائم) خـبراً مقدماً، و(زيد) مبتدأ مؤخراً، وعزاه لسيبويه وجمهور النحويين.

الثانـي: أجـاز الأخفـش الوجه الأول، وأجاز وجهاً آخر وهو أن يكون (قائم) وصفاً مبتدأ و(زيد) فاعل سدّ مسد الخبر.

ممـا سبق يتبين أن هذه الظاهرة بشقيها، وهي محل استعمال كثير في عصرنا الحالـي، لهـا جـذور فـي الاستعمال اللغوي القديم، ولا يحجبها عن جواز الاستعمال المعاصر إلا قسرية القاعدة وتقديس استعمالها، وتفضيلها على الاستعمال اللغوي القديم والمعاصـر. نقـول: قائم علي، حاضر المعلم، موجود الطالب، وهذا خطأ عند البصريين لعـدم اعتماده على نفي أو استفهام، فإن اعتمد، فله تسمية مركبة؛ فهو مبتدأ وما بعده فـاعل له، وخبر أيضاً، أي هو فاعل سدّ مسدّ الخبر. وهو عند أهل الكوفة جائز ولكنهم مضطربون في إلحاقه بالاسمية، أو بالفعلية في ما يسمى عندهم بالفعل الدائم.

هــذا فــي الشق الأول من الظاهرة، ولما عود الضمير على لاحق، فرفضه من جانبين: الأول، أنه لا ضمير في كلمة قائم في قولنا: قائم زيد، لأنه اسم، وهو خبر تقدم للعــناية والتوكيد خلافاً لما عليه أهل البصرة والكوفة، والعرب إن أرادت العناية بشيء قدمته، وما كان جثة فهو المبتدأ، أو المسند إليه، أو الموضوع، تقدم أم تأخر.

والثانــي: أنه قد ورد عن العرب ما يجيز ذلك في قولهم: في أكفانه لُفّ الميت، وفي بيته يؤتى الحكم، وفي قوله تعالى: "فأوجس في نفسه خيفة موسى"، ولا سبيل لرد ذلــك كله إلا بلي عنق النصوص لتطيع القاعدة بالتأويل. ويكفي في توضيح الشق الأول مــن هــذه الظاهرة أن نورد نص ابن فلاح[83] في تفسير تقديم الخبر على المبتدأ: "وإنما جــاز تقديــم الخبر... ... اهتماماً به؛ ليستفيد السامع الحكم من أول وهلة، لأنه لو قدم المبــتدأ لبقي ذهن السامع متردداً بين الأحكام الكثيرة قبل ذكر الحكم المقصود. فكما أنه لا مسوّغ لمنع تقديم الخبر على المبتدأ، وفقاً للاستعمال القديم والمعاصر، فإنه لا مسوّغ أيضــاً لأن يقــال: إذا اجــتمع معرفتان فالمتقدم هو المبتدأ، مثل: زيد المنطلق، المنطلق زيــد، وإنما الذي يصلح مسنداً إليه هو المبتدأ (زيد) تقدم أم تأخر. وبين الجملتين فرق فــي المعنى، فهو الإخبار المجرد في: زيد المنطلق، وأما في: المنطلق زيد فجملة خبرية الخبر فيها (المسند، أو المحمول) مؤكد بالتقديم.

والظاهــرة التركيبية الثانية التي سنتوقف معها، وهي من باب البدل، فهي إبدال الظاهر من المضمر، لما ترتب عليها من توجيه الدرس النحوي منذ زمن بعيد إلى يومنا هذا نحو الأخذ بقسرية القاعدة على حساب المعنى الذي يؤيده الاستعمال الفصيح، ولأن منعها قد أدى إلى ابتكار باب ضعيف في النحو، قوي لو كان تحليله على ضوء المعنى، وهو باب الاشتغال.

لا خــلاف بين النحاة في جواز إبدال الظاهر من ضمير الغائب: مررت به زيد، وشــاهدهم لذلــك مــن القرآن: "عموا وصموا كثيرٌ منهم"، "وما أنسانيه إلا الشيطان أن أذكــره"، وقد وردت شواهده في الشعر كثيراً. لختلف النحاة في إبدال الظاهر من ضمير المتكلم، وضمير المخاطب، وهذا هو مذهب البصريين. وأجازه بعضهم في غير بدل الكل مــن الكــل، ومنعوه في هذا. وحجة البصريين. "أنّ المقصود من البدل بيان المبدل منه،

وضمير المتكلم في نهاية الإيضاح والبيان، فلا يحتاج إلى بيان، بخلاف الغائب، فإنه محتاج إلى البيان، ولذلك يحتاج إلى عودة على ظاهر ليوضحه"[84].وقد خالف الأخفشْ سيبويه، فأجاز إبدال الظاهر من ضمير المتكلم أو المخاطب بدل شيء من شيء، وجعل من ذلك قوله تعالى: "كتب على نفسه الرحمة ليجمعنّكم إلى يوم القيامة لا ريب فيه، الذين خسروا أنفسهم" وهذا هو مذهب الكوفيين.[85] وذهب قطرب، في رأي ثالث، إلى أن الجواز لا يكون إلا في استثناء: ما ضربتكم إلا زيداً، وجعل منه قوله تعالى: "لئلا يكون للناس عليكم حجة إلا الذين ظلموا" أي على الذين ظلموا.

ومن المفيد الهام أن نذكر هنا أن هذه القاعدة: لا يجوز إبدال الظاهر من المضمر المتكلم، والقاعدة الأخرى المرتبطة بها بقوة: لا يجوز أن يجتمع فاعلان لفعل واحد، ولا يكون معمول واحد لعاملين، قد أوجدتا خللاً كبيراً في منهج البحث النحوي المرتبط بالدلالة. وسنبين ذلك في المثالين التاليين:

فأسروا النجوى الذين ظلموا

والأنعامَ خلقها الله.

يذهب النحاة إلى تأويل (الذين) في الأول بعدد من الوجوه ليس من بينها البدل. ولا التوكيد، حتى إن منهم من قال بأن من يذهب إلى هذا فإنه جاهل. ونقول ربما كان هذا يقصد – وهو حقاً لا يقصد – أنه جاهل بصنعة النحو وتسويغ إعمال قواعدها. ويذهبون إلى أن كلمة (الأنعام) تكون مفعولاً به لفعل يفسره المذكور بعده، وهي القراءة القرآنية برواية حفص عن عاصم. وبالرفع تكون مبتدأ خبره ما بعده. وفي كلتا الحالتين يكون الضمير في (خلقها) مفعولاً للفعل خلق.

وإذا عُدِّل توجيه القاعدة الثانية، وإجازة القاعدة الأولى، فإن هذين البابين سيكونان من معنى التوكيد. فالقائل مثلاً: المعلمُ أكرمته، فإن المعلم بالرفع أو النصب – وهما جائزان – هي المفعول به، ولا سبيل لجعلها مبتدأ دلالةً، وأن الأصل في الجملة: أكرمت المعلم

تحولت إلى ← أكرمت المعلم المعلم

← المعلم أكرمت المعلم

← المعلم أكرمته

فإذا كانت المعلم الثانية في الصيغة الأولى توكيداً بالإجماع للمعلم الأولى التي هي مفعول به، فإن الأولى وقد تقدمت في الصيغتين الثانية والثالثة، فيكون الضمير الهاء في الصيغة الثالثة هي ذاتها التوكيد (المعلم) في الصيغتين السابقتين.

أما المثال الأول، فإن (الذين) مع إمكان حملها على البدل من الضمير في (فأسروا)، وفيه وجه مقبول، إلا أن حملها على التوكيد أقوى. أي أن الأصل في تركيب الجملة فأسر الذين ظلموا الذين ظلموا النجوا

تحولت إلى ← فأسر الذين ظلموا النجوى

← فأسروا النجوى الذين ظلموا

لأن بدل الكل من الكل هو في حقيقة أمره توكيد. نص على ذلك غير واحد من النحاة القدماء والمحدثين.

وأما الظاهرة الأخيرة التي نود أن نشير إليها في هذه الدراسة مما يرفضه النحاة في الاستعمال المعاصر، فهو العطف على الضمير المجرور من غير إعادة الجار.

يذهب البصريون[86] إلى منع العطف على الضمير المجرور إلا بإعادة حرف الجر، وشواهدهم من القرآن الكريم: "فقال لها وللأرض ائتيا طوعاً أو كرها" أو "وعليها وعلى الفلك يحملون"، و "ينجّيكم منها ومن كل كرب" فأعاد الجار فيها كلها. واحتج النحاة لذلك بعدد من الحجج الفلسفية التي لا تتصل في الواقع بالاستعمال اللغوي، منها: أن ضمير الجر شبيه عندهم بالتنوين فلا يعطف عليه كما لا يعطف على التنوين. ومنها، أن الجار والمجرور بمنزلة شيء واحد، فإذا عطفت على الضمير فكأنك عطفت الاسم على الحرف. ومنها، أن الضمير المجرور قد يكون عوضا عن التنوين في نحو:

غلامـــي، وغلامـــك، فكمـــا أنه لا يعطف على التنوين فإنه لا يعطف على ما حلّ محلّه. ومـــنها، أن المعطـــوف شـــريك المعطوف عليه يحل محله، ولذا فإنك تقول: مررت بك وبزيد، ولا تقول: مررت بك وزيد، لئلا تؤدي إلى مررت بزيد وكَ، وهو ممتنع.

ومـــن يـــدرس هـــذه الأسباب يجد أنها فلسفية واهية لا تصلح في التعامل مع الاســـتعمال اللغـــوي والتقعـــيد لـــه ويجد أن التعبير بمثل هذه التراكيب جارٍ في السنة المتحدثيـــن المعاصرين امتداداً لشواهد السماع عن العرب القدماء، مع أن ذلك عدّ شاذاً لمخالفة القواعد.

وقد أجاز الكوفيون العطف دون إعادة الجار[87]، وإليه ذهب من البصريين يونس والأخفـــش وقطرب واختاره الشلوبين وابن مالك وأبو حيان. وحجتهم في ذلك السماع، فقـــد ورد فـــي القرآن الكريم: "الذي تساءلون به والأرحامِ" في قراءة حمزة، و "قل الله يفتـــيكم فيهـــن وما يتلى عليكم"، و "لكن الراسخون في العلم منهم والمؤمنون بما أنزل إلـــيك ومـــا أنزل من قبلك والمقيمين الصلاة"، و "صد عن سبيل الله وكفر به والمسجد الحـــرام" وغـــيرها. وقـــد ورد له نظـــير فـــي الحديـــث الشريف: "إنما مثلكم واليهود والنصارى...". وأما في الشعر فنظير ذلك كثير جداً:

الآن قربت تهجونا وتشتمنا   فاذهب فما بك والأيام من عجب

وقـــد أول البصـــريون ذلـــك كله بتكلف واضح، لئلا يخالفوا ما قعدوا قواعدهم علـــيه. وأن مـــن الواضح أن تلك الاستعمالات كلها من العادات اللهجية التي كانت بين قـــبائل العرب، فبعضها تقول بهذه، وبعضها تأخذ بتلك، وما الاستعمال اللغوي المعاصر إلا امـــتداد لمـــا كان عند القدماء، وإن الأخذ به يعد من تيسير استعمال العربية بما كان فيها فصيحاً مستعملاً.

وإن مـــن يتتـــبع أوجـــه الاستعمال اللغوي المعاصر في كثير من التراكيب التي تندرج في أبواب النحو المختلفة، فإنه سيجد أنّ له أصلاً في الاستعمال اللغوي في زمن الســـليقة اللغويـــة. ولمّـــا كانت فكرة القبائل الست التي قام عليها التقعيد النحوي ليست حقـــيقة، فإنـــه لا مجـــال للأخذ بقسرية القاعدة النحوية وتضييق قانون اللغة، في وقت

أصبح فيه مستعملو العربية بحاجة إلى هذا التيسير غير المخل، أمام الاتجاهات المتعددة التـي تضـيق علـيها فـي السنة الناطقين بها، كالازدواجية العلمية والتعددية اللغوية، وضـعف الابـتكارات والاختراعات في أرض العربية بالعقول العربية. وأنا واثق حقاً أن معظـم أبواب النحو العربي فيها مجال لتسويغ استعمال جارٍ على السنة الناطقين العرب المعاصـرين. فمـا أحوجنا إلى تتبع أبواب التراكيب النحوية المعاصرة وتوسيع نظائرها فـي العربية الفصحى، ليتم بذلك التغلب على أكثر أبواب التطور اللغوي المعاصر عسراً، وهـو التطور في التراكيب، فضلاً عن أنه لم يحظ كثيراً بعناية الباحثين كما عني التطور في المباني الصرفية، والتطور المعجمي والدلالي.[88]

الهوامــــش

1 المقدمة ص 546.

2 ابن جني، الخصائص 35/1.

3 الزجاجي، الإيضاح في علل النحو ص66.

4 الفارابي – كتاب الحروف، تحقيق محسن مهدي، دار المشرق ط2 ص147.

5 انظر مناقشة هذا في مقدمة محسن مهدي لتحقيق كتاب الحروف.

6 الاقتراح ص44، المزهر 211/1.

7 وســـنتحدث عن عدد آخر من قوائم اللهجات المعتمدة في التقعيد تتصل بهذه النقطة في نص السيوطي هذا.

8 مقدمة ابن خلدون: المكتبة التجارية، مكة المكرمة، 258/2 – 259.

9 السيوطي، المزهر 210/1، 211.

10 أبـــو محمد علي بن أحمد بن حزم الأندلسي، جمهورة أنساب العرب، دار الكتب العلمية، بيروت، 1982 م ص265.

11 السابق 182.

12 السابق 491.

13 السابق ص207.

14 الســـيوطي، الإتقـــان في علوم القرآن، المكتبة التجارية الكبرى، دار الفكر، بيروت 1/ 136.

15 وانظر الإنصاف في مسائل الخلاف مسألة 8.

16 وانظر السابق مسألة 1.

17 السابق مسألة 23.

18 الكتاب 37/1.

19 الكتاب 123/2.

20 الكتاب 250/3.

21 الكتاب 285/3.

22 الكتاب 219/2.

23 الكتاب 272/1.

24 الكتاب 337/2.

25 الكتاب 111/1.

26 الكتاب 110/1 وديوان ذي الرمة 324.

27 الكتاب 111/1.

28 الكتاب 175/1.

29 الكتاب 175/1.

* إبراهيم 47.

30 الكتاب 177/1.

31 الكتاب 177/1.

32 الكتاب 75/1.

33 الكتاب 2/270-271، 76/1.

34 الكتاب 2/270-271.

35 الكتاب 1/67-68.

36 الكتاب 254/3.

37 الإنصاف مسألة 104، 726/2.

38 المرزباني، معجم الشعراء ص55.

39 الكتاب 43/3.

40 المرزباني، معجم الشعراء ص204، وانظر الكتاب 46/3.

41 انظر مثلا الكتاب 386/1 فيه شاهد لعبد الرحمن بن حسان الخزرجي
والكتاب 68/1 فيه شاهد لكعب بن جعيل التغلبي.
والكتاب 1/ 280 فيه شاهد لذي الرمة وهو مضري.
والكتاب 118/3 وفيه شاهد ليزيد بن عمرو من صعصعة.
والكتاب 78/3 فيه شاهد لطرفة بن العبد وهو من بكر بن وائل
والكتاب 70/2 فيه شاهد لعروة بن الورد وهو من غطفان
والكتاب 20/2 فيه شاهد لابن ميادة المرى وهو منسوب إلى غطفان
والكتاب 424/1 فيه لامرئ القيس وهو من كنده

والكتاب 72/3 فيه شاهد للأعشى وهو من بكر بن وائل
والكتاب 246/2 وفيه شاهد لعنترة بن شداد وهو من عبس
والكتاب 256/1 وفيه شاهد لإبراهيم بن هرمة وهو من الشعراء المولدين.

42 الكتاب 279/1.

43 الكتاب 279/1.

44 الكتاب 307/1.

45 الكتاب 313/1.

46 الكتاب 177/1.

47 الاقتراح ص44.

48 جمهرة أنساب العرب ص320.

49 أنظر أمالي السهيلي 19.

50 ابن برهان، شرح اللمع 305/2.

51 الكتاب 22/1، وانظر اللباب 72/1-73، وشرح المفصل 57/1 وألفية ابن مالك 55.

52 اللباب 72/1.

53 الجمل للزجاجي 218.

54 الإيضاح العضدي 13.

55 المقتصد 114/1.

56 شرح الجمل 205/2.

57 انظر اللباب 72/1، شرح الأشموني 109/3، الهمع 76/1.

58 الكتاب 22/1، وانظر معاني القرآن للفراء 42/1، ومعاني القرآن للأخفش 329/2.

59 انظر: الإيضاح في علل النحو 100-101.

60 وانظر أمالي السهيلي 19-39.

61 السابق 19.

62 أمالي السهيلي 24-25.

63 وانظر: المنهاج للإمام يحيى بن حمزة ص65.

64 الكتاب 240/3.

65 اللمع.

66 الإنصاف في مسائل الخلاف 493/2.

67 انظر: خليل عمايره، في نحو اللغة وتراكيبها،

أسلوب التوكيد في اللغة العربية،

الضمير العائد ولغة أكلوني البراغيث،

المعنى في ظاهرة تعدد وجوه الإعراب،

أسلوبا النفي والاستفهام في اللغة العربية.

وانظر له أيضاً مما له صلة بالموضوع المقالات:

رأي في بناء الجملة الفعلية في اللغة العربية،

رأي في بناء الجملة الاسمية في اللغة العربية.

68 انظر الخلاف في البسيط 583 والارتشاف 45/2، والهمع 37/2، والإنصاف 65/1، وابن يعيش 92/1، والمغني لابن فلاح 676، وشرح الكافية لابن فلاح 608، والمحصل 86/1.

69 انظر الإنصاف 65/1 والمحصل 86/1.

70 انظر المغني 676، وشرح الكافية لابن فلاح 609.

71 المحصل 86/1.

72 انظر المغني 677 وشرح الكافية لابن فلاح 609.

73 انظر الإنصاف 65/1، والارتشاف 45/2.

74 انظر الكتاب 127/2.

75 انظر المقتضب 127/4.

76 انظر الإيضاح العضدي 52.

77 انظر المقتصد 303/1.

78 انظر المفصل 25.

79 وانظر ابن الحاجب.

80 البيت للشماخ بن ضرار في ديوانه 319.

81 كشف المشكل 316/1.

82 البسيط في شرح الجمل 583/1.

83 شرح الكافية لابن فلاح 608.

84 شرح الكافية لابن فلاح 143 (م).

85 معاني القرآن للأخفش 269/2. وانظر ائتلاف النصرة 56، البحر المحيط لأبي حيان 4/ 83، والأشموني 129/3.

86 انظر الإنصاف 463/1، ائتلاف النصرة 63، ارتشاف الضرب 658/2.

87 السابق.

88 وانظـر: سـتتكفتش، العربية الفصحى الحديثة، ترجمة محمد حسن عبد العزيز، ونهاد الموسى، قضية التحول إلى الفصحى في العالم العربي الحديث، دار الفكر، عمان، 1987، محمـد حسـن عبد العزيز، الوضع اللغوي في الفصحى المعاصرة، دار الفكر العربي، القاهرة 1992.

ثبت المراجع والمصادر

1- الأخفش، أبو الحسن، معاني الأخفش، ت: الدكتور فائز فارس، دار البشير، دار الأمل، الطبعة الثالثة 1401هـ.

2- الاستراباذي، رضي الدين، شرح الرضي على كافية ابن الحاجب، ت: يوسف حسن عمر، منشورات جامعة بنغازي، بدون.

3- الأشموني، شرح الأشموني، دار الفكر، بدون.

4- الأنباري، الإنصاف في مسائل الخلاف بين النحويين البصريين والكوفيين، ت: محمد محيي الدين عبد الحميد، المكتبة التجارية الكبرى، القاهرة، الطبعة الرابعة 1961م.

5- ابن برهان، شرح اللمع، عن شريف النجار، رسالة دكتوراه جامعة صنعاء 1999م.

6- ثعلب، أبو العباس، مجالس ثعلب، ت: عبد السلام هارون، دار المعارف، مصر، الطبعة الثالثة.

7- الجاحظ، البيان والتبيين، ت: عبد السلام هارون، مؤسسة الخانجي.

8- الجرجاني، عبد القاهر، المقتصد في شرح الإيضاح، ت: الدكتور كاظم بحر المرجان، الجمهورية العراقية، وزارة الثقافة والإعلام، دار الرشيد 1982م.

9- ابن جني، الخصائص، ت: محمد علي النجار، دار الكتاب العربي، بيروت.

10- ابن جني، اللمع في العربية، ت: حامد المؤمن، عالم الكتب، الطبعة الثانية 1405هـ.

11- ابن حزم، أبو محمد علي بن أحمد الأندلسي، جمهرة أنساب العرب، دار الكتب العلمية، بيروت 1982م.

12- حمزة، يحيى بن حمزة، المنهاج، عن شريف النجار، رسالة دكتوراه، جامعة صنعاء 1999م.

13- أبو حيان، البحر المحيط، ت: الشيخ عادل عبد الموجود والشيخ علي محمد عوض، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى 1413هـ.

14- الحيدرة، كشف المشكل، عن شريف النجار، رسالة دكتوراه، جامعة صنعاء 1999م.

15- ابن خلدون، المقدمة، المكتبة التجارية، مكة المكرمة 1994م.

16- ذو الرمة، ديوان ذي الرمة، ت: الدكتور عبد القدوس أبو صالح، مؤسسة الإيمان، بيروت 1982م.

17- ابن أبي الربيع، البسيط في شرح جمل الزجاجي، ت: الدكتور عياد الثبيتي، دار الغرب الإسلامي، الطبعة الأولى 1407هـ.
18- الزبيدي، عبد اللطيف، ائتلاف النصرة، ت: د. طارق الجنابي، عالم الكتب، الطبعة الأولى 1407هـ.
19- الزجاجي، الإيضاح في علل النحو، ت: مازن المبارك، دار النفائس، بيروت 1979م.
20- الزجاجي، الجمل في النحو، ت: الدكتور علي توفيق الحمد، مؤسسة الرسالة، بيروت، الطبعة الثانية 1405هـ.
21- الزمخشري، المفصل في علم العربية، دار الجيل، الطبعة الثانية.
22- ستتكيفتش، العربية الفصحى الحديثة، ترجمة: محمد حسن عبد العزيز.
23- السهيلي، أمالي السهيلي:
24- سيبويه: الكتاب، ت: عبد السلام هارون، دار الكتب العلمية، الطبعة الثالثة 1408هـ.
25- السيوطي، جلال الدين، الاقتراح، ت: أحمد محمد قاسم، جروس برس، 1988م.
26- السيوطي، جلال الدين، المزهر في علوم اللغات وأنواعها، ت: محمدأبو الفضل إبراهيم وآخرين، عيسى البابي الحلبي، ودار الجيل ودار الفكر، المكتبة العصرية.
27- السيوطي، جلال الدين، الإتقان في علوم القرآن، المكتبة التجارية الكبرى، دار الفكر، بيروت.
28- السيوطي، جلال الدين همع الهوامع في شرح جمع الجوامع، ت: عبد السلام هارون وعبد العال سالم مكرم، مؤسسة الرسالة، الطبعة الثانية 1407هـ.
29- عبد العزيز، محمد حسن، الوضع اللغوي في الفصحى المعاصرة، دار الفكر العربي، القاهرة 1992م.
30- ابن عصفور، شرح الجمل للزجاجي، ت: الدكتور صاحب أبو جناح، بدون.
31- العكبري، اللباب في علل البناء والإعراب، ت: غازي طليمات وعبد الإله نبهان، دار الفكر المعاصر، بيروت، الطبعة الأولى 1416هـ.
32- عمايره، خليل، في نحو اللغة وتراكيبها، عالم المعرفة، جدة، الطبعة الأولى 1404هـ والطبعة الثانية، مؤسسة علوم القرآن – الإمارات العربية المتحدة 1990م.
33- عمايره، خليل، أسلوب التوكيد في اللغة العربية على ضوء الدراسات اللغوية المعاصرة، دار الفكر الإسلامي، عمان 1986م.

34- عمايره، خليل، أسلوبا النفي والاستفهام في العربية، دار الفكر الإسلامي، 1986م.
35- عمايــره، خليل، رأي في بناء الجملة الاسمية (مقالة)، مجلة التواصل اللساني، المجلد الثاني العدد الأول، مارس 1990م.
36- عمايره، خليل، رأي في بناء الجملة الفعلية، المجلة العربية للعلوم الإنسانية 1981 عدد
37- عمايره، خليل، آراء في الضمير العائد ولغة أكلوني البراغي، دار البشير، الأردن، عمّان الطبعة الأولى 1409هـ.
38- عمايــره، خلــيل، المعــنى في ظاهرة تعدد وجوه الإعراب، دار الكتب الإسلامية، عمّان 1991م.
39- الفارابي، الألفاظ والحروف، ت: محسن مهدي، بيروت 1969م.
40- ابن فارس، أحمد، الصاحبي في فقه اللغة، ت: مصطفى الشويحي، بيروت 1964م.
41- الفارســي، أبــو علــي، الإيضاح العضدي، ت: الدكتور كاظم بحر المرجان، عالم الكتب الطبعة الثانية 1416هـ.
42- الفراء، معاني القرآن، ت: محمد علي النجار وأحمد يوسف نجاتي، عالم الكتب، الطبعة الثالثة 1403هـ.
43- فــروخ، د. عمــر، تــاريخ صــدر الإسلام والدولة الأموية، دار العلم للملايين، بيروت 1970م.
44- ابن فلاح، المغني، عن شريف النجار، رسالة دكتوراه، جامعة صنعاء 1999م.
45- ابــن مــالك: الألفــية، إعــداد وإخراج دار ابن خزيمة للنشر والتوزيع، الطبعة الأولى 1414هـ.
46- المبرد، أبو العباس، المقتضب، ت: محمد عبد الخالق عضيمه، جمهورية مصر العربية، وزارة الأوقــاف، المجلــس الأعلــى للشئون الإسلامية، لجنة أحياء التراث الإسلامي، القاهرة 1399هـ.
47- الموســى، نهاد، قضية التحول إلى الفصحى في العالم العربي الحديث، دار الفكر، عمّان 1987م.
48- ابن يعيش، شرح المفصل، عالم الكتب، بيروت، بدون.